تنوير العقول والأفهام في تفسير آيات الأحكام

تفسير آيات الأحكام

في سورة الأنعام والأعراف والأنفال والتوبة والنحل والإسراء والأنبياء والحج

إعداد

أ.د سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ بقسم القرآن وعلومه
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

دار العاصمة
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

تَنْوِيرُ العُقُولِ وَالأَفْهَامِ

في تفسير آيات الأحكام

ح سليمان بن إبراهيم اللاحم ، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان ابراهيم
تنوير العقول والأفهام في تفسير آيات الأحكام في سورة الأنعام والأعراف والأنفال والتوبة والنحل والإسراء والأنبياء والحج. / سليمان ابراهيم اللاحم .-الرياض ، ١٤٣١هـ
٦٨٠ ص ، ١٧ x ٢٤ سم
ردمك ١-٢-٥٥٨٢-٠٠-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن – التفسير ٢- الحديث أ- العنوان
ديوي ٢٢٧،٦ ١٤٣١/٦٦٤٥

رقم الإيداع: ١٤٣١/٦٦٤٥
ردمك: ١-٢-٥٥٨٢-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار العاصمة
المملكة العربية السعودية
الرياض - ص.ب: ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي: ١١٥٥١
المركز الرئيسي: شارع السويدي العام
هاتف: ٤٤٩٧٢٢٤/ فاكس: ٤٤٩٧٢٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة

الحمد لله الذي بمنِّه وفضله تتم الصالحات، والصلاة والسلام على مَن بلَّغ البلاغ المبين، وبه قامت الحجة على الناس أجمعين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن خدمة كتاب الله ـ عز وجل، والقيام على تعلُّمه وتعليمه وتفسيره، وبيان ما فيه من الحِكَم والأحكام والأخلاق والآداب والعِبَر والعِظَات والدُّروس التربوية وغير ذلك كل ذلك من أجلِّ وأعظم ما يُتقرب به إلى الله ـ عز وجل، ومن أشرف ما اشتغل به العلماء منذ عهد الرسالة إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

ولقد كان من فضل الله ـ عز وجل ـ عليَّ ومنِّه وكرمه أن وفَّقني لعقد العزم على أن أُقدم ولو أقل القليل في خدمة هذا الكتاب الجليل؛ رجاء أن ينضمني الله ـ عزوجل ـ في سلك خَدَمة كتابه العزيز، ومع أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، ولو بالتشبُّه بهم كما قيل:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرام فلاح

وقد بدأت هذه الرحلة مع كتاب الله ـ عز وجل ـ وتفسيره قبل أكثر من عقدين من الزمن بدأتها بتفسير الاستعاذة والبسملة والفاتحة في مجلد أسميته «اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب»، ثم «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» في مجلدين، ثم «تفسير آيات الأحكام في سورة المائدة» في مجلد، ثم تفسير سورة النور في مجلد أسميته «انشراح الصدور في تدبر سورة النور»، ثم تفسير آيات الأحكام في سورة الأحزاب في مجلد أسميته «منحة الكريم الوهاب في تفسير آيات الأحكام في سورة الأحزاب»، ثم تفسير المفصل من سورة الحجرات إلى سورة الناس في ثلاثة مجلدات وقد أسميته «تنوير العقول والأذهان في تفسير

مفصل القرآن» وكان نواة ذلك دروس كنت ألقيها في بعض المساجد منذ ثلاثة عقود، ثم «تفسير آيات الأحكام في سورة البقرة وآل عمران»، ثم هذا المجلد الذي هو تمام عقد نظام تفسير آيات الأحكام، وهو «تفسير آيات الأحكام في سورة الأنعام، والأعراف والأنفال والتوبة والنحل والإسراء والأنبياء والحج».

فأحمد الله ـ عز وجل ـ على التيسير والتمام، وما كان ذلك ليتم لولا عون الله ـ عز وجل ـ وتوفيقه فلك الحمد رب أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

وقد عزمت بإذن الله ـ عز وجل ـ وتوفيقه على طباعة ما قمت به من تفسير آيات الأحكام تحت مسمى واحد تحقيقاً للمصلحة، وقد أسميته «تنوير العقول والأفهام في تفسير آيات الأحكام» وهو ما عنونت به لهذا المجلد وللمجلد قبله وهو «تفسير آيات الأحكام في سورة البقرة وآل عمران». وسأجعل ذلك عنواناً للجميع مرتِّباً للسور وفق ترتيب المصحف الشريف ـ أسأل الله العون والتوفيق.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به، وأن يجعله في ميزان حسناتي ووالديَّ وكل من استفدت منهم من علمائنا، وكل من كان عوناً لي ـ ولو بالتشجيع على هذا العمل ـ إنه جواد كريم ملك بر رؤوف رحيم. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكان الفراغ منه يوم الاثنين ١٦/ ٧/ ١٤٣١هـ

المؤلف

* * *

تفسير آيات الأحكام في سورة الأنعام

قال الله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: ١٠٨].

سبب النزول:

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في هذه الآية: «قالوا: يا محمد، لتنتهين عن سب آلهتنا، أو لنهجون ربك؛ فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾».

وعن قتادة قال: «كان المسلمون يسبون أوثان الكفار، فيردون ذلك عليهم، فنهاهم الله أن يستسبوا لربهم»(١).

قوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، و«لا» ناهية. والخطاب للمؤمنين.

والسب: الشتم والذم والتعيير، والتحقير والتنقص للمسبوب، بحق أو بباطل.

﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: الآلهة التي يدعوها المشركون من دون الله، دعاء عبادة، أو دعاء مسألة.

وفي قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ وفي ضمير الواو في ﴿يَدْعُونَ﴾ تغليب لجانب العالم، إما نظراً لاعتقادهم في هذه المعبودات النفع والضر، فأجريت مجرى العالم، أو لأن مِن بينها مَن يوصف بالعلم كالملائكة والمسيح وعزير.

﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ جواب النهي. قرأ ابن كثير في رواية: ﴿عَدُوًّا﴾ بضم الدال وتشديد الواو، وقرأ يعقوب ﴿عُدُوًّا﴾ بضم العين والدال وتشديد الواو، وقرأ الباقون بفتح العين وإسكان الدال وتخفيف الواو.

---

(١) أخرجهما الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٤٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٦٦).

و﴿عَدْوًا﴾ حال مؤكدة، أو مفعول مطلق نائب عن المصدر، أو مفعول لأجله، أي: فيسبوا الله عدواناً وظلماً. وفي هذا تعريض أن سب المؤمنين لآلهة المشركين ليس من الاعتداء.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بغير علم منهم بما ينبغي له ـ عز وجل ـ من التعظيم والإجلال، وعن جهل منهم بعظم جرم سبه ـ عز وجل.

فنهى الله ـ عز وجل ـ المؤمنين عن سب آلهة المشركين حتى لا يؤدي ذلك إلى سب المشركين الله ـ عدواً بغير علم. وهذا من باب سد الذرائع.

قال ابن القيم ـ رحمه الله: «فحرَّم الله ـ تعالى ـ سب آلهة المشركين، مع كون السب غيظاً وحمية لله، وإهانة لآلهتهم؛ لكونه ذريعة إلى سبهم لله ـ تعالى. وكانت مصلحة ترك مسبته ـ تعالى ـ أرجح من مصلحة سبنا لآلهتهم، وهذا كالتنبيه، بل كالتصريح على المنع من الجائز لئلا يكون سبباً في فعل ما لا يجوز»[١].

وقال السعدي ـ رحمه الله[٢]: «وفي هذه الآية دليل للقاعدة الشرعية، وهو أن الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم، ولو كانت جائزة تكون محرمة، إذا كانت تفضي إلى الشر».

ولهذا قال ﷺ كما في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما: «**من الكبائر شتم الرجل والديه**»، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه**»[٣].

وفي رواية: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**» قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه**»[٤].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٧٠).

(٢) في «تيسر الكريم الرحمن» (٢/ ٤٥٤-٤٥٥).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٩٠)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٢).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧٣)، وأبوداود في الأدب (٥١٤١).

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ الكاف: للتشبيه، بمعنى «مثل».

والإشارة إلى ما سبق من دعائهم غير الله، وسبهم لله عدواً بغير علم، أي: مثل تزييننا لهؤلاء دعاءهم من دون الله، وسبهم لله عدواً بغير علم، زينا لكل أمة عملهم، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ [الأنعام: ٦].

والتزيين: التحسين، فمعنى زيّنا لكل أمة عملهم، أي: حسَّنا لكل أمة من الأمم، وكل جماعة من الناس عملهم، طاعة كان أو معصية، كما قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٩].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «زينا لأهل الطاعة الطاعة، ولأهل الكفر الكفر»(١).

فالتزيين منه ما هو كوني، ومنه ما هو شرعي، فمن آمن وأطاع الله ـ عز وجل ـ فهو ممن زُين له الإيمان والطاعة شرعاً كما قال ـ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

ومن كفر وعصى الله ـ عز وجل ـ فهو ممن زُين له الكفر والمعصية كوناً، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ [النمل: ٤].

ويدل على هذا قوله ـ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥-١٠].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم﴾ خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم.

﴿مَّرْجِعُهُمْ﴾ أي: مردهم ومعادهم ومصيرهم بالبعث بعد الموت.

وقدّم الخبر وهو قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِم﴾ لإفادة الحصر، أي: إلى ربهم وحده مرجعهم ومصيرهم، لا إلى سواه.

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الفاء: عاطفة.

أي: فيخبرهم، والنبأ: الخبر الهام العظيم.

---

(١) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٦١).

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: فيخبرهم بالذي كانوا يعملون أو بعملهم في الدنيا، ويحاسبهم ويجازيهم عليه، إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر.

الفوائد والأحكام:

١- النهي عن سب آلهة المشركين التي يدعونها من دون الله؛ لما يتسبب عن ذلك من مسبة المشركين لله، عدواناً بغير علم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾.

٢- سد الذرائع المؤدية إلى الشر، وأن درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح، فإذا ترتب على فعل ما فيه مصلحة أو ما هو جائز مفسدة أكبر أو فعل ما لا يجوز؛ وجب ترك ذلك الفعل.

٣- التعريض بذم آلهة المشركين، وأن سبها في الأصل جائز؛ لأنها لا حرمة لها، ولا تنفع ولا تضر، بل ضرها أقرب من نفعها، لكن نُهي عن سبها لئلا يؤدي إلى سب المشركين لله ـ عز وجل.

٤- تحريم سب الله ـ عز وجل ـ وأنه كفر، لا يجترئ عليه إلا أهل الكفر والشرك والعدوان والظلم، والجهل بما ينبغي لله ـ عز وجل ـ من التذلل والخضوع والتعظيم والإجلال.

٥- إثبات العظمة لله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿زَيَّنَّا﴾ بضمير العظمة وهو العظيم ـ سبحانه وتعالى.

٦- كما زين ـ عز وجل ـ كوناً وقدراً لهؤلاء المشركين دعاء غير الله، وسب الله، زين لكل أمة من الأمم وكل جماعة من الناس عملهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ أي: زينا شرعاً الإيمان والطاعة للمؤمنين، وزينا كوناً الكفر والمعصية للكافرين والعاصين.

٧- إثبات تقدير الله ـ عز وجل ـ للأعمال كلها، خيرها وشرها، وفي هذا رد على القدرية الذين ينفون تقدير الله ـ عز وجل ـ لأعمال العباد.

٨- إثبات وتأكيد مرجع جميع الخلائق ومصيرهم إلى ربهم وحده؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾.

٩- إخبار الله ـ عز وجل ـ للخلائق بجميع أعمالهم خيرها وشرها، ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وفي هذا وعد لمن آمن وأطاع الله، ووعيد لمن كفر وخالف أمر الله ـ عز وجل.

١٠- علم الله ـ عز وجل ـ المحيط ـ بالخلق وأعمالهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٨-١٢٢].

سبب النزول:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «أتى ناس النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أنأكل ما نقتل، ولا نأكل ما قتل الله؟ فأنزل الله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾»(١).

قوله ـ تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الفاء عاطفة، والخطاب للمؤمنين، والأمر للإباحة، و«ما» موصولة، أي: فكلوا من الذي ذكر اسم الله عليه؛ بأن يكون المذكي له مسلماً أو كتابيًّا، ويذكر اسم الله عليه عند تذكيته بقوله: «بسم الله» فبهذا تحل الذبيحة.

ويفهم من الأمر في قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾: النهي عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كالميتة، وما ذكر اسم غير الله عليه، مما يذبح للأصنام ونحوها، ومتروك التسمية، كما جاء مصرحاً بالنهي عنه في قوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ «إن» شرطية، و«كنتم» فعل الشرط، وجوابه دل عليه ما سبق، أي: إن كنتم بآياته مؤمنين فكلوا مما ذكر اسم الله عليه دون ما لم يذكر اسم الله عليه.

---

(١) أخرجه أبوداود في الأضاحي ـ ذبائح أهل الكتاب (٢٨١٩)، والترمذي في تفسير سورة الأنعام (٣٠٦٩)، والطبري في «جامع البيان» وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

فمن شرط الإيمان بآيات الله إحلال ما أحله الله، وتحريم ما حرمه الله؛ ومن ذلك الأكل مما ذكر اسم الله عليه، وعدم الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه.

والآيات: جمع آية، وهي العلامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. أي: علامة ملكه.

وآيات الله ـ عز وجل ـ تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية.

فالآيات الكونية كل ما خلقه الله ـ عز وجل ـ وبثه في هذا الكون من المخلوقات؛ الليل والنهار، والشمس والقمر، والسموات والأرض، والجبال والشجر والدواب، والبراري والبحار، وغير ذلك.

وسميت المخلوقات آيات الله، لدلالتها ـ على وجوده عز وجل ـ وأنه الخالق المالك المدبر، ذو الكمال المطلق في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، المستحق للعبادة وحده دون سواه، كما قال ـ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

وقال ـ تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

فكل ما في الكون من المخلوقات هو من آيات الله الكونية الدالة على وجوده وكماله في ذاته وصفاته واستحقاقه للعبادة وحده دون من سواه. وقد أحسن القائل:

فواعجباً كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

والقسم الثاني: الآيات الشرعية التي أنزلها الله ـ عز وجل ـ على أنبيائه، وأعظمها القرآن الكريم الذي أنزله على أفضل أنبيائه نبينا محمد ﷺ ـ كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وسمي القرآن الكريم «آيات الله» لما فيه من الدلالة على أنه من عند الله - عز وجل - في ألفاظه ومعانيه وأخباره وأحكامه، وصلاحيته لكل زمان، ولكل مكان، ولكل أمة، كما قال - تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، ولما فيه أيضاً من الدلالة على صدق من جاء به من عند الله - عز وجل - نبينا محمد ﷺ.

ومعنى: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم بآياته الكونية والشرعية والتي من جملتها الآيات الواردة في هذا الشأن فكلوا مما ذكر اسم الله عليه، وأحلوا ما أحله الله وحرِّموا ما حرَّمه.

قوله - تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الواو: عاطفة.

و«ما» للاستفهام الإنكاري.

و«ما» في قوله: ﴿مِمَّا﴾ اسم موصول.

أي: وأي شيء يمنعكم أن تأكلوا من الذي ذكر اسم الله عليه، وفيه تأكيد للأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه دون ما لم يذكر اسم الله عليه.

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو وابن عامر ﴿وقد فُصِّل﴾ بالبناء للمجهول، وقرأ الباقون: ﴿وقد فَصَّل﴾ بالبناء للفاعل.

كما قرأ نافع وحفص عن عاصم وأبوجعفر ﴿ما حَرَّم﴾ بالبناء للفاعل، وقرأ الباقون ﴿ما حُرِّم﴾ بالبناء للمجهول. والمعنى في القراءات واحد.

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ الواو حالية، و«قد» للتحقيق. والجملة في محل نصب على الحال، أي: وما لكم ألا تأكلوا مما أحل الله لكم، وهو ما ذُكر اسم الله عليه، والحال أنه قد فصّل وبيّن لكم ما حرم عليكم، ومنه ما لم يُذكر اسم الله عليه، كما قال - تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

لكن يشكل على هذا أن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة في قول أكثر أهل العلم، وهذه الآية متأخرة في الترتيب عن الآية: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «**يحرم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير**»(١).

أما قوله ـ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣]. فإن سورة المائدة كلها نزلت بالمدينة وسورة الأنعام نزلت بمكة.

﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ «إلا» أداة استثناء، و«ما» موصولة، والاستثناء من عائد الاسم الموصول، المنصوب بـ«حرم» في قوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ويجوز كونه منقطعاً أو متصلاً، أي: لكن الذي ألجأتكم الضرورة إلى أكله، أو إلا الذي ألجأتكم الضرورة إلى أكله ـ مما حرم عليكم فحلال لكم أكله حال الضرورة، أو لأجل الضرورة، كما قال تعالى في سورة المائدة بعدما ذكر تحريم الميتة ونحوها ـ قال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

وهذا من رحمة الله ـ عز وجل ـ بعباده والتوسعة عليهم، ورفع الحرج عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال ـ تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، وقال ـ تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ [النساء: ١٢]، وفي حديث عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه: «**أن رسول الله ﷺ قضى أن لا ضر ولا ضرار**»(٢).

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾.

أمر الله ـ عز وجل ـ المؤمنين بالأكل مما ذُكر اسم الله عليه من الذبائح، ممتنًّا عليهم بأنه قد فصل وبيّن لهم ما حرمه عليهم، ثم أتبع ذلك بالتحذير ممن يضلون

---

(١) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان (٤٣٤٨)، وأبوداود في الأطعمة (٣٨٠٣)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٣٤) ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٣٤٠)، وأخرجه ابن ماجه أيضاً (٢٣٤١)، وأحمد (١/ ٣١٣) ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

الناس بأهوائهم، بالتحريم والتحليل اعتداءً منهم بغير علم متوعداً لهم.

قوله ـ تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي: «ليُضلون». بضم الياء. أي: يُضلون غيرهم من الناس، وقرأ الباقون: «ليَضِلون» بفتح الياء، أي: يَضلون بأنفسهم عن الحق.

والمعنى: وإن كثيراً من الناس ليَضلون ويتيهون بأنفسهم عن الحق، ويُضلون غيرهم عنه، بالتحليل والتحريم وغير ذلك، كما قال ـ تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أهوائهم، أي: ما تهواه أنفسهم وتشتهيه، كما قال ـ تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

والهوى يعمي ويصم، وهو مردٍ ومهلك، قال ـ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد قيل:

وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقله فقد نجا

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الباء للملابسة، أي: ملابسين لعدم العلم، أي: بغير علم يهديهم، من كتاب أو سُنَّة، كما قال ـ تعالى ـ في المجادلين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

ومَن عدم العلم تخبط بالجهل، وحكم بالظن والحدس، كما قال ـ تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦، يونس: ٦٦]. كما في تسمية المشركين البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحريمها، وفي تحليلهم الميتة، وقولهم للمؤمنين: «تأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله».

والجهل داء عضال، ومرض قاتل، وموت قبل الموت، وكما قيل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأً لم يحيَ بالعلم ميت ... فليس له قبل النشور نشور

وقال الآخر:

فعش بعلم ولا تطلب به بدلا   فالناس موتى وأهل العلم أحياء

وكثير من الخلق، أو أكثرهم أتباع هوى ودعاة ضلال، كما قال ـ تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وضمير الفصل «هو» للتوكيد و«أعلم» اسم تفضيل، أي: إن ربك يا محمد أعلم من كل أحد ﴿بِالْمُعْتَدِينَ﴾.

والاعتداء: الظلم وتجاوز الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام، أي: المعتدين بتحريم الحلال وتحليل الحرام، وغير ذلك.

وفي إخباره ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ ـ بعلمه ـ سبحانه ـ بالمعتدين تسلية له ﷺ وتقوية لقلبه، ووعيد وتهديد لهم، وأنه سبحانه أعلم بهم وسيحاسبهم ويجازيهم على اعتدائهم في الدنيا والآخرة، وإلا فعلمه ـ عز وجل ـ محيط بهم وبغيرهم، وبكل شيء، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال ـ تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

قوله ـ تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ هذه الجملة مستأنفة اعتراضية بين ما قبلها وبين قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فيها توكيد للأمر قبلها وللنهي بعدها.

قوله: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ﴾ «وذروا» أي: واتركوا، و«الإثم» الذنب، الذي يُؤثم ويوقع في الحرج، ويُعرِّض للعقوبة. قال ﷺ: «**الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطَّلع عليه الناس**»(١)، وهو ضد البر، قال ـ تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ـ تفسير البر والإثم (٢٥٥٣)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٩)، وأحمد (٤/ ١٨٢) ـ من حديث النواس بن سمعان ـ رضي الله عنه.

﴿وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

و«ظاهر الإثم» ما ظهر من سيئات الأعمال والأقوال الظاهرة على الجوارح، «وباطنه» أي: باطن الإثم، وهو ما أُسر وأُضمر في القلوب من العقائد الفاسدة أو النوايا السيئة، وأيضاً ظاهر الإثم ما يُعلن من الذنوب، وباطنه ما يُسر ويُستر منها.

و«ال» في «الإثم» للاستغراق، أي: اتركوا جميع الذنوب والمعاصي، ظاهرها وباطنها، علانيتها وسرّها، كتحريم الحلال، وتحليل الحرام، والزنا سرًّا وعلناً، وغير ذلك، كما قال الله ـ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

والإثم الظاهر أعظم، ولهذا قُدِّم، وفي الحديث: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين**»[(١)].

ولا يتم للعبد ترك المعاصي ظاهرها وباطنها إلا بعد معرفتها، وذلك واجب عليه لكي يتجنبها، قال حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني» الحديث[(٢)].

وقد قيل:

عرفت الشر لا للشـ ـــرّ لكنْ لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الخير يقعْ فيه

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ «إن» مؤكدة تفيد هنا معنى التعليل للأمر قبلها، أي: اتركوا ظاهر الإثم وباطنه؛ لأن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ﴾ أي: إن الذين يعملون الذنب ظاهراً كان أو باطناً.

وأظهر «الإثم» في مقام الإضمار، فلم يقل: «إن الذين يكسبونه» لزيادة التحذير من الإثم.

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٩)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٠) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٠٦)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٧)، وأبوداود في الملاحم (٤٢٤٤).

﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ السين في قوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ لتأكيد تحقق مجازاتهم في المستقبل، والجزاء والمجازاة تكون بالخير والشر، والثواب والعقاب، والمراد بها هنا المجازاة بالعقاب، كما في قوله ـ تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

و«ما» في قوله: ﴿بِمَا﴾ موصولة و﴿يَقْتَرِفُونَ﴾ يكتسبون الإثم، قال تعالى: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣].

والمعنى: سيجزون بالذي يكتسبونه من الإثم في الدنيا والآخرة.

و«الاقتراف» أكثر ما يكون في الشر والذنب، ولذا قالوا: «الاعتراف يزيل الاقتراف»، وقد يرد في الخير، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣].

قوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

سبب النزول:

عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «أن المشركين قالوا للمسلمين: ما قتل ربكم، فلا تأكلون، وما قتلتم أنتم تأكلونه، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾»(١).

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأنعام: ١١٨]. قال: قالوا: يا محمد، أما ما قتلتم وذبحتم فتأكلونه، وأما ما قتل ربكم فتحرمونه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ

---

(١) أخرجه النسائي (٤٤٤٩)، وابن ماجه (٣١٧٣)، والطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٢٢-٥٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٧٩-١٣٨٠)، والحاكم (٤/ ١١٣، ٢٣١). وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٢١): «وهذا إسناد صحيح».

لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١]»(١).

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «خاصمت اليهود، أو جاءت اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: نأكل ما قتلنا، ولا نأكل ما قتل الله، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾»(٢).

قوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ و«لا» ناهية، والنهي للتحريم، و«ما» في قوله: «مما» موصولة، أي: ولا تأكلوا من الذي لم يذكر اسم الله عليه، وهو تصريح بما فهم من قوله ـ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ففيه بيان وتأكيد لحرمة ما لم يذكر اسم الله عليه.

أي: ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه، بأن ذكر اسم غير الله عليه، أي: ذبح لغير الله؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ والفسق: ما أُهِلَّ لغير الله به كما في الآية الأخرى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

ويشمل النهي في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند بعض أهل العلم الميتة التي ماتت بغير ذكاة، كما جاء في سبب نزول الآية.

وكذا متروك التسمية عمداً على الصحيح، وقول جمهور أهل العلم، وكذا متروك التسمية نسياناً على الراجح من قولي أهل العلم.

﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾.

الجملة حال من مصدر الفعل ﴿تَأْكُلُوا﴾ في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: وإن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه لفسق، ويحتمل كون الجملة ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ معطوفة على قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾ من عطف الخبر على الإنشاء.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٨٠).

(٢) أخرجه أبوداود (٢٨١٩)، والطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٢٦)، والطبراني (١٢٢٩٥)، والبيهقي في «سننه» (٩/ ٢٤٠).

والضمير في «إنه» يعود إلى المصدر المأخوذ من قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾ أي: إلى الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، أو إلى نفس ما لم يذكر اسم الله عليه.

واللام في قوله: ﴿لَفِسْقٌ﴾ للتوكيد.

والفسق: الخروج عن الإيمان، أو عن طاعة الله ـ تعالى، فيطلق على الكفر، كما في قوله ـ تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠].

ويطلق الفسق ـ غالباً ـ على ما دون الكفر، كما في قوله ـ تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]. فالفسوق هنا غير الكفر، وهو دونه.

وقوله ـ تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال ﷺ: **«سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»**(١).

والمراد بالفسق في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ الكفر والشرك؛ لأن ذكر اسم غير الله على الذبيحة كفر وشرك، وكذا استحلال أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، مما ذبح على اسم غير الله، أو كان ميتة أو تركت التسمية عليه عمداً.

ويقوي هذا قوله في آخر الآية: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي: وإن أطعتموهم في تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه الله، والأكل مما لم يذكر اسم الله عليه.

وقد يحمل الفسق في الآية على ما دون الكفر إذ كان المراد بذلك مجرد الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه دون اعتقاد حله، ودون الذبح لغير الله.

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية.

و﴿الشَّيَاطِينَ﴾ جمع شيطان. مشتق من «شطن» بمعنى بعد عن رحمة الله ـ عز وجل ـ وعن كل خير. وهو كل متمرد عاتٍ خارج عن طاعة الله ـ تعالى، والمراد

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٨)، ومسلم في الإيمان (٦٤)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٠٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٩) ـ من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه.

إبليس وجنوده.

﴿لَيُوحُونَ﴾ اللام للتوكيد، أي: ليوسوسون ويزينون.

﴿إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ أي: إلى أعوانهم وأنصارهم من اليهود والمشركين، كما قال ـ تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال ـ تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٥].

﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يجادلوكم، أي: ينازعوكم ويخاصموكم لإبطال الحق، وإظهار الباطل، وتشكيك المسلمين في دينهم، وما أحله الله لهم، وما حرمه عليهم، كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ يقولون: «ما قتل ربكم فلا تأكلونه، وما قتلتم أنتم تأكلونه. فأنزل الله هذه الآية. ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾»[(١)].

قال السعدي[(٢)] ـ رحمه الله: «ودلَّت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم لا تدل بمجردها على أنها حق، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله، فإن شهدا لها بالقبول قبلت، وإن ناقضتها ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك توقف فيها، ولم تصدق ولم تكذب؛ لأن الوحي والإلهام يكون من الشيطان، فلابد من التمييز بينهما والفرقان، وبعدم التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال ما لا يحصيه إلا الله».

﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ الجملة معطوفة على جملة: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾.

والطاعة: الامتثال بفعل الأمر وترك النهي، أي: وإن أطعتموهم في تحريم ما

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ٤٦٧).

أحل الله، وتحليل ما حرمه الله، والأكل مما لم يذكر اسم الله عليه.

﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ جملة جواب الشرط في قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾.

واللام للتوكيد.

أي: إنكم لمشركون لهم مع الله، فيما يختص به من التحليل والتحريم، ومشركون مثلهم لطاعتكم لهم في تحريم ما أحل الله، مما ذكر اسم الله عليه، وتحليل ما حرم الله مما لم يذكر اسم الله عليه، كما قال ـ تعالى ـ في أهل الكتاب: ﴿ اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١].

وفي حديث عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ قال: «يا رسول الله، لسنا نعبدهم، قال: **أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟** قلت: بلى. قال: **فتلك عبادتهم**»[١].

قال القرطبي[٢]: «قوله ـ تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ أي: في تحليل الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ فدلت الآية على أن من استحل شيئاً مما حرَّم الله ـ تعالى ـ صار به مشركاً، وقد حرَّم الله ـ سبحانه ـ الميتة نصًّا، فإذا قبل تحليلها من غيره فقد أشرك».

قوله ـ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

بيَّن الله ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة ضلال كثيرين. وإضلالهم لغيرهم بغير علم، وإيحاء الشياطين لأوليائهم المشركين ليجادلوا المؤمنين، لإبطال ما هم عليه من الحق، وإظهار الباطل، وحذر المؤمنين من طاعتهم، ثم أتبع ذلك بضرب مثلين

---

(١) أخرجه الترمذي في «التفسير» (٣٠٩٥)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٧/ ١٠٦)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٤) ـ وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٧٧).

لبيان فضل حال المؤمن على المشرك.

قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه الإنكار والنفي، أي: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ موتاً معنويًّا بسبب الجهل والكفر ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ حياة معنوية بالعلم والإيمان ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: وجعلنا له شرعاً نوراً وهو نور الإيمان والقرآن، كما قال ـ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال ـ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال ـ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال ـ تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ﴾ [التغابن: ٨]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥].

﴿يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ الباء للسببية، أي: يمشي بسببه على الطريق المستقيم، وعلى بصيرة من أمر دينه ودنياه بين الناس في هذه الحياة، ويهتدي به إلى طريق الجنة بعد الممات، كما قال ـ تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥]، وقال ـ تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ولهذا كان ﷺ يدعو ويقول: «**اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، وفوقي نوراً، وتحتي نوراً، وأمامي نوراً، وخلفي نوراً، واجعل لي نوراً**»(١).

قوله: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ الكاف للتشبيه، و«من» موصولة،

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٦)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٣)، وأبوداود في الصلاة (١٣٥٣)، والنسائي في التطبيق (١١٢١)، والترمذي في الصلاة (٢٣٢) ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

أي: كالذي «مثله»، أي: شبهه ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: في الظلمات المعنوية، ظلمات الجهل والضلال والكفر.

﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ الجملة حالية، أي: حال كونه ليس بخارج منها، أي: لا مخرج ولا مخلص له من هذه الظلمات.

كما قال ـ تعالى ـ في وصف أعمال الكفار: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠].

فهذا مَثَل ضربه الله ـ عز وجل ـ لبيان الفرق الشاسع والبون الواسع بين حال المؤمن وحال الكافر.

فشبّه ـ عز وجل ـ في هذه الآية حال المؤمن قبل إيمانه وبعدها بحال من كان ميتاً موتاً حسيًّا لا حراك به ولا حياة، فأحياه الله بأن نفخ فيه الروح وأوجد فيه الحياة، وجعل له كوناً أي: صير له نوراً حسيًّا يستضيء بسببه في مشيه بين الناس فيبصر به الطريق ليصل إلى بلده ومقصده ونحو ذلك.

والموت المعنوي بالجهل والكفر والشرك أشد وأعظم من الموت الحسي بخروج الروح من البدن؛ لأن الموت الحسي غايته فقدان الحياة، أما الموت المعنوي بالكفر فنهايته إذا مات الإنسان عليه الخلود في النار.

وشبّه ـ عز وجل ـ حال الكافر بمن هو باق في ظلمات القبور والموت لم تدب فيه الحياة بعد، أو بمن هو في ظلمات الليل وظلم البحار والغيوم ونحو ذلك، لا مخرج ولا مخلص له منها، فهو حائر لا يدري أين يقع، ولا أين يتوجه، وأي طريق يسلك.

والمقصود إنكار ونفي المشابهة والمساواة بين حال من آمن، وحال من بقي على الشرك، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا

ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢]، وقال - تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

فالمؤمن مَن جمع الله له بين الحياة والنور، يمشي بين الناس في هذه الحياة على نور من الله، على بصيرة من أمره؛ يعرف الخير من الشر، والحق من الباطل، والهدى من الضلال، والنافع من الضار، معظماً لربه، متبعاً لشرعه؛ فعلاً للواجبات وبُعداً عن المنهيات، أداءً لحقوق الله، وحقوق الخلق، لسان حاله، كما قال الشاعر:

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء
النور في جنبي وبين جوانحي فعلام أخشى السير في الظلماء

والكافر مَن جُمع له بين الموت والظلمات يتخبط في ظلمات الجهل والضلال والكفر، وشتان بين هذا وهذا، شتان بين الثرى والثريا.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان يجتمعان

قال السعدي(١): «فنبّه تعالى العقول بما تدركه وتعرفه أنه لا يستوي هذا ولا هذا، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات».

وصدق الله العظيم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وصدق رسوله المصطفى ﷺ إذ يقول: «**كل الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها**»(٢).

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الجملة مستأنفة، والكاف للتشبيه بمعنى مثل، والإشارة للتزيين المأخوذ من قوله: ﴿زُيِّنَ﴾ أي: مثل ذلك التزيين لهؤلاء ما هم عليه من تحريم الحلال، وتحليل الحرام والجهل والضلال والكفر، زين لغيرهم من الكافرين ما كانوا يعملون. وأشار إلى ما هم عليه بإشارة البعيد تحقيراً له.

وفي قوله: ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ تسجيل على المذكورين بالكفر لأنه وُصِف به

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٦٨).

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة - فضل الوضوء (٢٢٣) - من حديث أبي مالك الأشعري - رضي الله عنه.

المشبهين بهم في التزيين.

و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: زين للكافرين الذي كانوا يعملون، أو زين لهم عملهم. أي: زَين وحسن لهم الشيطان أعمالهم، قال ـ تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وقال ـ تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

قال السعدي[1]: «فكأنه قيل: فكيف يؤثر من له أدنى مسكة من عقل أن يكون بهذه الحالة وأن يبقى في الظلمات متحيراً، فأجاب بأنه ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم ويزينها في قلوبهم، حتى استحسنوها ورأوها حقًّا وصار ذلك عقيدة في قلوبهم، وصفة راسخة ملازمة لهم، فلذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقبائح».

ويحتمل أن المعنى كذلك زين لهم قدراً ما كانوا يعملون.

الفوائد والأحكام:

١- إباحة الأكل مما ذكر اسم الله عليه عند تذكيته مما أحل الله من بهيمة الأنعام؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

٢- أن من شرط الإيمان اعتقاد حل ما ذكر اسم الله عليه من الذبائح والأكل منه، وتحليل ما أحل الله، وتحريم ما حرم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ فالأمر بالنسبة للأكل للإباحة، وبالنسبة لاعتقاد حله واجب.

٣- وجوب الإيمان بآيات الله الكونية والشرعية؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.

٤- أن من شرط الإيمان بآيات الله تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم.

٥- الندب والحض على الأكل مما ذكر اسم الله عليه، لأنه مما أحله الله، ولمخالفة

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٦٨).

المشركين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

٦- امتنان الله ـ عز وجل ـ على العباد بتفصيل وبيان ما حرمه عليهم، وإقامة الحجة عليهم بذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.

٧- أن الأصل في الأطعمة والمأكولات الإباحة، فما لم يرد الدليل على تحريمه منها فهو حلال.

٨- أن الضرورة ترفع التحريم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ ومن قواعد الشريعة: «أن المشقة تجلب التيسير، وأن الضرورات تبيح المحظورات».

٩- رحمة الله ـ عز وجل ـ بهذه الأمة المحمدية، ورفع الحرج عنها والتيسير عليها.

١٠- كما لا يجوز تحليل ما حرم الله، كذلك لا يجوز تحريم ما أحل الله؛ مأكولاً أو غيره، بل إن تحريم ما أحل الله أشد؛ لما فيه من التضييق على الناس، ومخالفة مقاصد الشريعة من التيسير ورفع الحرج، ووصمها بالشدة والحرج الذي نفاه الله عنها.

١١- أن كثيراً من الخلق دعاة ضلال، وأتباع هوى بلا علم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

١٢- عدم الاغترار بما عليه كثير من الخلق، بل بما عليه أكثرهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم﴾ وكما قال ـ تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

١٣- الحذر من اتباع الهوى لأنه يعمي ويصم، ويضل ويهلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم﴾.

١٤- أن الجهل داء قاتل يحمل صاحبه على اتباع الهوى والتخبط والوقوع في الهلاك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

١٥- تحريم الفتوى تبعاً للهوى، والقول على الله بغير علم، ووجوب الحذر من ذلك، وأن ذلك من الاعتداء ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾.

١٦- فضل العلم وشدة حاجة الناس إليه، وبخاصة علم الشريعة، ليهتدوا به إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم.

١٧- تشريف الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ وتكريمه بخطابه له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ، وإثبات ربوبيته الخاصة له ﷺ، تقوية لقلبه ﷺ وتسلية له؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾.

١٨- تأكيد علم الله ـ عز وجل ـ بالمعتدين والوعيد والتهديد لهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾.

١٩- إثبات علم الله ـ عز وجل ـ الواسع المحيط بكل شيء؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ وهو سبحانه أعلم بهم وبغيرهم وبكل شيء.

٢٠- وجوب ترك الإثم والذنب ظاهراً وباطناً، سراً وعلناً، والتحذير من إضمار الشر ونيته؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾.

٢١- أن الذنب الظاهر المعلن جهراً أعظم من الذنب سرا، ولهذا قدم قوله: ﴿ظَاهِرَ الْإِثْمِ﴾ على قوله ﴿وَبَاطِنَهُ﴾.

٢٢- التهديد الأكيد والوعيد الشديد لمن يكسبون الإثم بمجازاتهم بما كانوا يقترفون؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾.

٢٣- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾.

٢٤- تحريم الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، مما ذكر اسم غير الله عليه وأهل لغير الله به، أو مات حتف أنفه، أو ما تركت التسمية عليه عمداً على الصحيح، أو سهواً على الراجح من أقوال أهل العلم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ وعليه يدل مفهوم قوله ـ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ فمفهومها عدم جواز الأكل مما لم يذكر اسم الله

عليه، وأن ذلك ينافي الإيمان بآيات الله[١].

٢٥- أن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه فسق وخروج عن طاعة الله ـ تعالى، وهو فسق دون الكفر، فإن صحبه استحلال لذلك فهو كفر؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾.

٢٦- أن عدم ذكر اسم الله عند التذكية فسق، فإن ذكر اسم غير الله عندها فهو كفر، وإن تعمد ترك التسمية عندها فهو فسق دون الكفر.

٢٧- إيحاء الشياطين إلى أوليائهم من اليهود والمشركين وغيرهم بالمجادلة للمؤمنين بالباطل؛ لتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم، وغير ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾.

٢٨- التحذير من طاعة الشياطين وأوليائهم فيما يأمرون به وينهون عنه، وفيما يحرمون ويحللون ويجادلون به، وأن ذلك شرك بالله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ وذلك شرك في الطاعة وشرك في العبادة كما قال ﷺ لعدي بن حاتم: «**أليس يحلون ما حرم الله فتحلونه، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه**»؟ قال عدي: فقلت: بلى. قال: «**فتلك عبادتهم**»[٢].

٢٩- ذم المجادلة بالباطل، لأنها من إيحاء الشياطين لأوليائهم، ومن صفات أولياء الشياطين من اليهود والمشركين وغيرهم.

٣٠- شتان بين من كان ميتاً فأحياه الله بالإيمان والقرآن، وجعل له نوراً يمشي به في الناس على بصيرة من أمر دينه ودنياه وأخراه، وهو المؤمن، وبين من بقي في ظلمات الجهل والضلال والكفر، وهو الكافر؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

٣١- ضرب الأمثلة في القرآن الكريم لتقريب المعاني، فقد شبه الله ـ عز وجل ـ

(١) سيأتي تفصيل الكلام في حكم التسمية عند الذبح وعلى الصيد في سورة المائدة.

(٢) سبق تخريجه.

حال المؤمن بمن كان ميتاً حسيًّا، فأحياه الله ونفخ فيه الروح فدبت الحياة في جسده، وجعل الله له نوراً حسيًّا يمشي به في الناس ويبصر به الطريق في حياته، كما شبه حال الكافر بالميت في ظلمات القبور، أو بمن هو في الظلمات الشديدة التي لا مخرج له منها كظلم الليل والبحار والغيوم ونحو ذلك.

٣٢- أن الإنسان بلا إيمان كالميت جسد بلا روح؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾.

٣٣- أن الإيمان والقرآن كالروح للجسد، والنور في الظلمات، وأن الجهل والضلال والكفر كالموت، والظلمات المستحكمة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

٣٤- الإغراء والحث على الإيمان واتباع القرآن لبيان أن في ذلك الحياة والنور، والتحذير من الكفر وذمه لأن فيه الموت والظلمات.

٣٥- أن انطماس البصيرة واستبدال نور الإيمان والقرآن بظلمات الجهل والضلال والكفر كل ذلك من تزيين الشيطان وتحسينه للكافرين، مما يوجب الحذر منه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٣٦- إثبات تقدير الله للأعمال، خيرها وشرها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وفي هذا الرد على القدرية.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام: ١٤٥-١٤٧].

ذم الله ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة المشركين في تشريعاتهم الباطلة، والتحريم والتحليل بلا علم ونسبتهم ذلك إلى الله ـ تعالى ـ وبيَّن بطلان ذلك، ثم أمر رسوله ﷺ أن يبيِّن للناس ما حرَّمه الله عليهم، وفي ذلك تأكيد لبطلان تحريم ما زعم المشركون تحريمه.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ أي: قل يا محمد للمشركين الذين اجترؤوا على تحريم ما أحل الله، وقل للناس عامة ـ وفي هذا دلالة على أنه ﷺ ـ مبلغ عن الله ـ عز وجل، لا كما يزعمون: أنه اختلق القرآن وافتراه من عند نفسه، كما قال ـ تعالى ـ عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [يونس: ٣٨، ١٣، ٣٥، السجدة: ٣، الأحقاف: ٨].

وعن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: «سألت رسول الله ﷺ عن المعوذتين فقال: «قيل لي، فقلت»، فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ»(١).

﴿لَّآ أَجِدُ﴾ «لا» نافية، و«أجد» بمعنى أظفر، ينصب مفعولاً واحداً وهو هنا قوله: «محرماً».

﴿فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ «ما» موصولة، أي: في الذي أوحاه الله إلي.

وبني الفعل لما لم يسم فاعله؛ لأن الموحي معلوم، وهو الله ـ عز وجل، أي: ليس في الذي أوحاه الله إليَّ في القرآن والسُّنَّة، اللذين هما مصدر التشريع،

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الناس (٤٩٧٦، ٤٩٧٧).

والتحليل والتحريم ﴿ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ ﴾ وفي هذا تأكيد لبطلان تحريم ما زعموا تحريمه.

والوحي لغة: الإعلام بسرعة وخفاء.

وفي الشرع: كلام الله ـ عز وجل ـ المنزل على نبي من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

ويدخل في الوحي أيضاً السنة فإنها مما أوحاه الله ـ عز وجل ـ إلى نبيه ﷺ، كما قال ـ تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤].

وفي قوله: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا ﴾ إيذان بأن طريق التحريم والتحليل هو الوحي فقط، وأن الأصل في الأطعمة الحل.

قوله: ﴿مُحَرَّمًا﴾ أي: طعاماً محرماً من المطاعم التي حرمتموها وغيرها.

و﴿مُحَرَّمًا﴾ نكرة في سياق النفي فتعم أي طعام.

﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾ أيَّ طاعم كان من ذكر أو أنثى، وفي هذا رد على قولهم: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩].

﴿يَطْعَمُهُۥٓ﴾ صفة لـ«طاعم»، لزيادة التقرير؛ كما في قوله ـ تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقد استدل ﷺ بقوله ـ تعالى: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ على أن المحرم من الميتة أكلها[(١)].

﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبوجعفر وابن عامر وحمزة بالتاء على التأنيث: (إلا أن تكون)، وقرأ الباقون بالياء على التذكير: (إلا أن يكون).

وقرأ أبوجعفر وابن عامر: (ميتةٌ) بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب.

---

(١) سيأتي قريباً من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء، والاستثناء متصل مستثنى من عموم الأكوان، أي: إلا أن يكون الطعام ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير.

والميتة هي التي تموت من غير ذكاة شرعية كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة؛ كما قال ـ تعالى ـ في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣].

﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ الدم المسفوح هو المصبوب المهراق، الذي يسيل ويخرج عند التذكية من المذبح والمنحر، أو من فصد بعض العروق.

ويفهم من قوله: ﴿مَّسْفُوحًا﴾ أن الدم الذي يبقى في العروق واللحم بعد التذكية حلال طاهر، وكذا ما في الكبد والطحال، كما قال ﷺ: «**أحلت لنا ميتتان: السمك والجراد والكبد والطحال**»(١).

﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ وهو الحيوان المعروف، والمراد بلحمه ما يشمل لحمه وشحمه. أو أطلق اللحم من باب تغليب اللحم على الشحم.

﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ هذه الجملة معترضة بين المعطوفات لتقرير وتأكيد الحرمة.

والضمير في قوله: «فإنه» يحتمل عوده إلى المحرمات المذكورة وهي الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير، أي: فإن المذكور رجس.

ويحتمل عودة الضمير إلى أقرب مذكور وهو لحم الخنزير.

واختار هذا ابن القيم حيث قال: «فالضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ وإن كان عوده إلى الثلاثة المذكورة باعتبار لفظ المحرم، فإنه يترجح اختصاص لحم الخنزير به لثلاثة أوجه: أحدها: قربه منه، والثاني: تذكيره دون قوله: «فإنها رجس»، والثالث: أنه أتى بالفاء، و«إن» تنبيهاً على علة التحريم، لتزجر النفوس عنه، ويقابل هذه العلة

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً.

ما في طباع بعض الناس من استلذاذه واستطابته، فنفى عنه ذلك، وأخبر أنه رجس، وهذا لا يحتاج إليه في الميتة والدم؛ لأن كونهما رجساً أمر مستقر معلوم عندهم»[١].

وقوله: ﴿رِجْسٌ﴾ أي: قذر وخبث ونجس، حسًّا ومعنًى، مضرٌ بآكله. وذلك لما في الميتة من احتقان الدم الفاسد الضار وهو الدم الذي يسفح وينصبُّ عند التذكية، فحرمت الميتة لاحتباس هذا الدم الفاسد الضار فيها، وحرم هو بفساده وضرره، كما حرم الخنزير لأكله القاذورات، ولما فيه من الطباع السيئة التي تؤثر على آكله.

﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ معطوف على: ﴿مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ وما بينهما اعتراض، أي: إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير أو فسقاً أهل لغير الله به.

والفسق: الخروج عن الإيمان أو عن طاعة الله ـ تعالى.

والمعنى: إلا أن يكون المحرم فسقاً ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ ووصف المحرم بكونه فسقاً لأنه سبب لفسق فاعله وخروجه عن طاعة الله ـ تعالى.

﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ صفة، أو عطف بيان لـ﴿فِسْقًا﴾.

أي: ذبح على غير اسم الله، ولغير الله، من الأصنام والأوثان ونحوها.

والإهلال: رفع الصوت. والمراد به هنا رفع الصوت بذكر غير اسم الله عند الذبح، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

قال السعدي: «أو إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله من الأوثان والآلهة التي يعبدها المشركون فإن هذا من الفسق الذي هو الخروج عن طاعة الله ـ تعالى ـ إلى معصيته».

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ الفاء استئنافية، و«من» شرطية ﴿ٱضْطُرَّ﴾ فعل الشرط، وجوابه دل عليه قوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فلا مؤاخذة عليه.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٨٥).

ومعنى ﴿ٱضۡطُرَّ﴾ أي: أصابته ضرورة ألجأته إلى أكل شيء من هذه المحرمات، بأن لم يجد غيرها، وخاف على نفسه التلف.

﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ حال، أي: حال كونه ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ أي: غير مريد الأكل من غير اضطرار، ﴿وَلَا عَادٖ﴾ أي: ولا متجاوز للحد بأن يأكل زيادة عن حاجته.

﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: فإن ربك يا محمد غفور رحيم لا يؤاخذه.

و﴿غَفُورٞ﴾ ذو مغفرة واسعة، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢].

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه، كما في حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله يُدْنِي المؤمن فيضع عليه كَنَفَهُ ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم رب، حتى إذا قَرَّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعْطَى كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد:** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]»(١).

ومنه سمي المغفر وهو البيضة التي توضع على الرأس في القتال تستره، وتقيه السهام.

﴿رَّحِيمٞ﴾ ذو رحمة واسعة، وسعت كل شيء وعمَّت كل حي، كما قال ـ تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

فهو ـ عز وجل ـ ذو الرحمة الواسعة التي هي صفة من صفاته الذاتية الثابتة له ـ عز وجل ـ كما قال ـ تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

وذو الرحمة الواسعة التي هي صفة من صفاته الفعلية التي يوصلها من شاء من خلقه، كما قال ـ عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ [العنكبوت: ٢١].

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣).

رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥].

ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال ـ تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وفي ختم الآية: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ بقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

دلالة على رفع الحرج عنه، كما قال ـ تعالى ـ في سورة النحل: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية: ١١٥]. أي: فلا إثم عليه، فإن الله غفور له، رحيم به، كما جاء مصرحاً به في قوله ـ تعالى ـ في سورة البقرة: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية: ١٧٣].

قوله ـ تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

بيَّن ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة ما حرَّمه على هذه الأمة المحمدية، ثم أتبع ذلك ببيان ما حرمه على اليهود قبلهم، وما فيه من التشديد عليهم، بسبب تشديدهم على أنفسهم، ليُظهر لهذه الأمة عظم منة الله ـ تعالى ـ عليهم في التخفيف فيما حرَّمه عليهم، وليُظهر بطلان ما حرمه المشركون، وأنه ليس مما حرمه الله على هذه الأمة ولا على من قبلها.

قوله ـ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿حَرَّمْنَا﴾ قدِّم عليه لإفادة الاختصاص، أي: حرمنا عليهم خاصة.

و﴿ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ هم اليهود، سموا بذلك لأنهم اتبعوا دين «يهودا» أحد أنبياء بني إسرائيل، وأحد أولاد يعقوب ـ عليه السلام.

﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ الظفر: العظم الذي تحت الجلد في منتهى أصابع الإنسان والحيوان والمخالب، وهو يقابل الحافر والظلف، أي: حرمنا عليهم كل ما

كان من البهائم والطير غير منفرج الأصابع ولا مشقوقها كالإبل والأرنب والأوز والبط، ونحو ذلك[١].

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ﴾ متعلق بـ﴿حَرَّمْنَا﴾ وقدّم عليه للتنبيه والاهتمام.

﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ الشحوم هي ما يكون في جسم الحيوان من الدهون.

أي: حرمنا عليهم جميع شحومهما كالشحم الذي يحيط بالكليتين والشحم الرقيق الذي يحيط بالكرش، ويسمى «الثَّرب» ونحو ذلك.

﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، والاستثناء: متصل من قوله: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾، و«ما» موصولة، أي: إلا الذي حملته ظهورهما من الشحوم.

﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ ﴿أَوِ﴾ عاطفة، و﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ معطوفة على ﴿ظُهُورُهُمَآ﴾ و﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ جمع حوية، أو حاوياء، أو حاوية، وهي الأمعاء والمصارين والمباعر، والمعنى: وما حوته الأمعاء من الشحوم.

﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ ﴿أَوْ﴾ عاطفة، و﴿مَا﴾ موصولة، أي: أو الذي اختلط من الشحوم بعظم، وهو الشحم الذي يلتف على العظام من السمن.

فأباح الله ـ عز وجل ـ لليهود لحوم البقر والغنم، وحرم عليهم جميع شحومهما، إلا ما حملته ظهورهما، أو الحوايا من الشحوم، أو ما اختلط من شحومهما بعظم فهو حلال.

وفي الحديث قال ﷺ: **«لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم، فجملوها ثم باعوها وأكلوا ثمنها»**[٢].

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح: «**إن الله**

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٦٣٨-٦٤١)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦)، ومسلم في المساقاة (١٥٨٢)، والنسائي في الفرع والعتيرة (٤٢٥٧)، وابن ماجه في الأشربة (٣٣٨٣) ـ من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه.

ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام» فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة فإنه يدهن بها الجلود، ويطلى بها السفن، ويستصبح بها الناس؟ فقال: «لا هو حرام». ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه، وأكلوا ثمنه»(١).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسول الله ﷺ قاعداً في المسجد مستقبلاً الحجر، فنظر إلى السماء، فضحك، ثم قال: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا ثمنها، وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه»(٢).

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ الإشارة لما سبق من التحريم على اليهود، والتشديد عليهم فيه، واسم الإشارة في محل نصب مفعول ثان «لجزينا» قدم عليه وعلى المفعول الأول، والمفعول الأول الضمير في ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾.

أي: عاقبناهم، فشددنا عليهم في التحريم.

﴿بِبَغْيِهِمْ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب ظلمهم واعتدائهم ومخالفتهم أمر الله عز وجل، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وأكلهم الربا وأموال الناس بالباطل، كما قال ـ تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ اللام ـ للتوكيد، أي: وإنا لصادقون فيما أخبرنا به من تحريمنا ذلك عليهم، وفي جميع أخبارنا، عادلون فيما جازيناهم به، وفي جميع أحكامنا، كما قال ـ تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٩٥]، وقال ـ تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الأخبار وعدلاً في

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٣٦)، ومسلم في المساقاة (١٥٨١)، وأبو داود في البيوع ـ ثمن الخمر والميتة (٣٤٨٦)، والنسائي في الفرع والعتيرة (٤٢٥٦)، والترمذي في البيوع ـ بيع جلود الميتة والأصنام (١٢٩٧)، وابن ماجه في التجارات ـ ما لا يحل بيعه (٢١٦٧)، وأحمد (٣/ ٣٢٤، ٣٢٦).

(٢) أخرجه أبو داود في البيوع (٣٤٨٨)، وأحمد (١/ ٢٤٧، ٢٩٣، ٣٢٢).

الأحكام، وقال ـ تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال ـ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

قوله ـ تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ الفاء للتفريع، والخطاب للنبي ﷺ، أي: فإن كذبك يا محمد واستمر على تكذيبك هؤلاء المشركون فيما جئت به من الشرع مما فيه بيان وحصر ما حرمه الله، وإبطال ما حرموه، وكذبك اليهود فيما أخبرت به مما حرمه الله عليهم.

﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ أي: فقل لهم: ربكم خالقكم ومالككم ومدبركم، وفي هذا تذكير لهم بعظمته ـ عز وجل، وبنعمة ربوبيته لهم.

﴿ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ أي: صاحب رحمة واسعة، وفي هذا إشارة إلى أن من رحمته ـ عز وجل ـ إمهاله لهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة فلا يغتروا بذلك.

وبدأ بتذكيرهم بسعة ـ رحمته ـ عز وجل ـ ترغيباً لهم في ابتغاء رحمته ـ واتباع رسوله ﷺ، وترك ما هم عليه من التكذيب.

وفيه دلالة ـ على أن رحمته ـ عز وجل ـ سبقت غضبه، كما قال ـ عز وجل ـ في الحديث القدسي: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»(١).

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ هذا ترهيب لهم وتحذير من الاستمرار على تكذيبه ـ ﷺ.

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ أي: ولا يرد ويمنع ﴿بَأْسُهُۥ﴾ أي: عذابه وعقابه الدنيوي والأخروي إذا أراده.

﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ لم يقل: (عنهم)، بل قال: ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ لتسجيل ذلك عليهم ووصفهم بالإجرام، وليعمهم وغيرهم ممن كذب مثلهم بهذا الوصف والوعيد.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٢)، ومسلم في التوبة (٢٧٥١)، والترمذي في الدعوات (٣٥٤٣)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٩) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

و﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ مرتكبي الجرائم من الشرك بالله والكفر والتكذيب والآثام.

وفي الآية جمع بين الترغيب والترهيب، كما هي طريقة القرآن الكريم، ليجمع الإنسان في سيره إلى الله ـ تعالى ـ بين الخوف والرجاء، فلا يقنط من رحمة الله، ولا يأمن مكر الله، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال ـ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وقال ـ تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال ـ تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وقال ـ تعالى: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ (١٤)﴾ [البروج: ١٢-١٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله ـ عز وجل ـ يأتيه الوحي من الله ـ فيبلغه للناس؛ لقوله ـ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ الآية. وفي هذا رد على المشركين في زعمهم الباطل أنه تقوّل القرآن وافتراه من عند نفسه.

٢- أن مصدر التشريع ، والتحليل والتحريم هو الوحي من عند الله ـ عز وجل ـ إلى رسوله ﷺ بالقرآن الكريم، والسنة النبوية؛ لقوله ـ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾.

٣- أن الأصل في الأطعمة الحل حتى يرد دليل التحريم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً﴾ الآية.

٤- الرد على المشركين فيما زعموا تحريمه مما لم يحرمه الله ـ عز وجل.

٥- فضل الله ـ عز وجل ـ ومنته على هذه الأمة ـ ونعمته العظيمة عليها في حصر المحرم عليها وتقليله، وفي توسيع دائرة الحلال لها.

٦- ظاهر الحصر في الآية أنه لا محرم وقت نزول الآية سوى الميتة والدم المسفوح، ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به؛ لقوله ـ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ

رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾.

وقد جاء هذا في معرض الرد على المشركين فيما حرموه من دون الله وفي نقض ذلك. وسورة الأنعام مكية وقد أنزل الله ـ عز وجل ـ تأكيد تحريم هذه الأربع في سورة البقرة في قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [الآية: ١٧٣]، وأكد ذلك وفصله وزاد عليه في سورة المائدة ـ وهي من آخر ما نزل ـ في قوله ـ تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ [الآية: ٣]،

وعن أبي ثعلبة ـ رضي الله عنه ـ قال: «**نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير**»(١).

وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: «**نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية**»(٢).

وعن المقدام بن معديكرب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السبع، ولا لُقَطَةُ معاهد، إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْرُوهُ، فإن لم يَقْرُوهُ فله أن يُعْقِبَهُمْ بمِثْلِ قِرَاهُ**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الطب (٢٢٠٨)، ومسلم في الصيد والذبائح (١٩٣٤)، وأبوداود في الأطعمة (٣٨٠٣)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٣٤٨)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٣٤) ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد (٥٥٢٣)، ومسلم في النكاح (١٤٠٧).

(٣) أخرجه أبوداود في السنة ـ لزوم السنة (٤٦٠٤).

٧- أن المحرم من هذه الأشياء هو أكلها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾.

ولهذا يجوز الانتفاع بشعر الميتة وصوفها ووبرها وجلدها، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ مر بشاة ميتة، فقال: «**هلا استمتعتم بإهابها؟**» قالوا: يا رسول الله، إنها ميتة. قال: «**إنما حرم من الميتة أكلها**» وفي رواية: «**ألا أخذوا إِهَابَهَا فدبغوه**»(١).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت: يا رسول الله، ماتت فلانة ـ تعني الشاة ـ قال: «**فلم، لا أخذتم مسكها؟**» قالت: نأخذ مسك شاة قد ماتت؟! فقال لها رسول الله ﷺ: «**إنما قال الله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ وإنكم لا تطعمونه، أن تدبغوه فتنتفعوا به**» فأرسلت، فسلخت مسكها، فدبغته، فاتخذت منه قربة، حتى تخرقت عندها»(٢).

ويستثنى من الميتة ميتة السمك والجراد فهي حلال؛ لقوله ﷺ في البحر: «**هو الطهور ماؤه، الحل ميتته**»(٣). وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «**أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالسمك والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال**»(٤).

٨- تحريم لحم الخنزير وشحمه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ والمراد بذلك

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩٢)، ومسلم في الحيض (٣٦٣)، وأبوداود في اللباس (٤١٢٠)، والنسائي في الفرع والعتيرة (٤٢٣٤)، وابن ماجه في اللباس (٣٦١٠)، وأحمد (١/ ٣٦٥) ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٧-٣٢٨).

(٣) أخرجه أبوداود في الطهارة (٨٣)، والنسائي في المياه (٣٣٢)، والترمذي في الطهارة (٦٩)، وابن ماجه في الطهارة (٣٨٦)، وأحمد (٢/ ٢٣٧، ٢٦٧) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه، وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه الشافعي في «الأم» (٦/ ٢٥٧)، وأحمد (٢/ ٩٧) ـ وله حكم المرفوع.

ما يشمل لحمه وشحمه.

٩- أن العلة في تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، أنها رجس، أي: قذر ونجس وخبث، حسًّا ومعنىً، مضر أكلها.

١٠- صيانة الإسلام وحفظه لأهله عما يضرهم في دينهم ودنياهم وأبدانهم، لهذا حرم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله.

١١- حل الدم غير المسفوح وهو ما يبقى في العروق واللحم؛ لمفهوم قوله ـ تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾.

١٢- تحريم ذكر اسم غير الله على الذبيحة، والذبح لغير الله، وأن ذلك فسق وخروج عن طاعة الله ـ تعالى ـ وشرك بالله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

١٣- إباحة الأكل من هذه المحرمات عند الضرورة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال ـ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقال ـ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

١٤- أن إباحة الأكل من هذه المحرمات عند الضرورة مشروط بعدم البغي لأكل الحرام من غير اضطرار، ولا تعد لقدر الحاجة عند الأكل منها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾[1].

١٥- إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه وتكريمه بخطابه وإضافة اسم الرب ـ عز وجل ـ إلى ضميره ﷺ؛ لقوله ـ تعالى: ﴿رَبَّكَ﴾.

١٦- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله ـ عز وجل ـ وأنه ـ عز وجل ـ يستر الذنوب،

(١) انظر تفصيل الكلام على هذه المحرمات وغيرها وقدر المباح منها عند الضرورة في تفسير قوله ـ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣].

ويتجاوز عن العقوبة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ﴾.

١٧- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله ـ عز وجل ـ رحمة ذاتية ثابتة له ـ عز وجل ـ ورحمة فعلية يوصلها من شاء من عباده، رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾.

١٨- أن من مغفرة الله ـ عز وجل ـ ورحمته إباحة الأكل من هذه المحرمات لمن اضطر إلى ذلك.

١٩- في اجتماع صفتي المغفرة والرحمة لله ـ عز وجل ـ زيادة كمال إلى كمال، وزيادة إفضال إلى إفضال؛ لأن بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

٢٠- تحريم الله ـ عز وجل ـ على اليهود كل ذي ظفر، من البهائم والطير، كالإبل والنعام والإوَزّ والبط ونحو ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾.

٢١- تحريم شحوم البقر والغنم على اليهود كشحم الكليتين، و«الثَّرب» شحم البطن ونحو ذلك إلا ما حملته ظهورهما من الشحم أو الحوايا، أو ما اختلط بعظم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

٢٢- أن سبب التشديد على اليهود في التحريم هو بغيهم وظلمهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾.

٢٣- أن ما أخبر الله عما حرمه على اليهود هو عين الصدق، وما جازاهم به هو العدل من التشديد عليهم في ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥].

٢٤- تكذيب المشركين واليهود للنبي ﷺ فيما جاء به من الشرع وبيان ما أحله الله لهذه الأمة وما حرمه على اليهود قبلهم ـ واستمرارهم على ذلك؛ لقوله ـ

تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وفي هذا إشارة إلى استمرارهم على التكذيب.

٢٥- تشريف الله - عز وجل - لنبيه ﷺ وتكريمه له بخطابه، وتهيئته لما سيلقى من المكذبين، وتأييده له، ودفاعه عنه.

٢٦- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله - عز وجل؛ لقوله - تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ الآية.

٢٧- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله - عز وجل - وأن رحمته سبقت غضبه، ولهذا أمهل هؤلاء المكذبين ولم يعاجلهم بالعقوبة، بل ودعاهم إلى الدخول في رحمته الواسعة باتباع الرسول ﷺ، وترك ما هم عليه من التكذيب؛ لقوله - تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾.

٢٨- إثبات ربوبية الله - عز وجل - العامة لجميع الخلق؛ لقوله - تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ﴾.

٢٩- الوعيد والتهديد للمكذبين إن استمروا على ما هم عليه من التكذيب ببأسه الشديد وعقابه الأليم الذي لا يستطيع أحد دفعه أو منعه عن القوم المجرمين أمثالهم؛ لقوله - تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

٣٠- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب؛ لقوله - تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

* * *

تفسير آيات الأحكام في سورة الأعراف

قال الله ـ تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ ﴾ [الأعراف: ٢٦، ٢٧].

قوله ـ تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ «يا» حرف نداء، و«بني» منادى، وبني مضاف و«آدم» مضاف إليه.

و«آدم» هو أبو البشر، وبنوه هم البشر، وبنوّتهم لآدم تعتبر أعم رابطة تربطهم على اختلاف أشكالهم وألوانهم، ودياناتهم، ومللهم ونِحَلهم، فكلهم لآدم وآدم من تراب، لا يجوز لأحد أن يفخر على أحد، ولا جنس على جنس، ولا أبيض على أسود، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد أحسن القائل:

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء

فإن يكن لهم من أصلهم نسب ... يفاخرون به فالطين والماء

وأفضلهم وأكرمهم عند الله أتقاهم له، كما قال ـ عز وجل: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ٣١].

وقال ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى**»(١).

﴿ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ ﴾ «قد» حرف تحقيق، أي: قد خلقنا وأوجدنا لكم ورزقناكم لباساً، والرزق كله منزل من عند الله ـ عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١١) ـ من حديث طويل عن أبي نضرة حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ.

واللباس: ما يلبس من الثياب بأنواعها كالقميص والإزار، والرداء والعباءة وغير ذلك.

﴿يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾ صفة لـ﴿لِبَاسًا﴾ ومعنى ﴿يُوَٰرِي﴾ يستر. والسوءات: جمع سوأة، وهي العورة. والمعنى: قد أنزلنا عليكم لباساً يستر عوراتكم. وسميت العورات سوءات؛ لأنه يسوء كشفها في الفطر السليمة والعقول المستقيمة، كما يحرم شرعاً كشفها والنظر إليها.

واللباس يستر العورات وسائر الأبدان، وإنما وصف بأنه يواري السوءات، دون غيرها؛ لأن من أعظم فوائده ستر العورات التي يجب سترها.

﴿وَرِيشًا﴾ معطوف على: ﴿لِبَاسًا﴾، فيكون من عطف الذوات، أي: أنزلنا عليكم لباساً، وأنزلنا عليكم ريشاً، وقد يكون ﴿وَرِيشًا﴾ معطوفاً على قوله: ﴿يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾ فيكون من عطف الصفات، أي: فيكون صفة ثانية لـ ﴿لِبَاسًا﴾.

والريش والرياش: المال والزينة والجمال في الأثاث والمتاع والثياب والفرش والمراكب وغير ذلك.

عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة: «**الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأواري به عورتي**»[(١)].

ولا يعرف قدر نعمة اللباس إلا من فقده، فلم يجد ما يستر به عورته، وما يقيه البرد والحر، ولك أخي أن تتصور حال الإنسان عرياناً، رجلاً كان أو امرأة، لتحمد الله ـ عز وجل ـ وتشكره على نعمة اللباس ـ فإن الله ـ عز وجل ـ جعل جمال الإنسان بعد تقوى الله باللباس وستر عورته.

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر وابن عامر والكسائي: (ولباسَ) بالنصب معطوف على (لباسا). فيكون لباس التقوى مما أُنزل عليهم، وتكون جملة ﴿ذَٰلِكَ

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٥٧، ١٥٨).

﴿خَيْرٌ﴾ مستأنفة. وقرأ الباقون (ولباسُ) بالرفع، مبتدأ وخبره ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

و(لباس التقوى) هو اللباس المعنوي، بالإيمان بالله وخشيته، وتقواه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ظاهراً وباطناً.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ الإشارة إلى قوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ على قراءة الرفع، أي: ولباس التقوى المعنوي خير من اللباس الحسي بالثياب والرياش والجمال الظاهر، وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك» تعظيماً له أي: للباس التقوى، فهو خير لباس.

وعلى قراءة النصب تكون الإشارة إلى قوله: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: إلى اللباس، والريش ولباس التقوى أي: إلى الثلاثة، وأشار إليها بإشارة المفرد «ذلك» بتأويل «المذكور» وبإشارة البعيد تعظيماً لهذه النعم. والمعنى على هذا: ذلك خير أعطاه الله بني آدم، وفيه امتنان على بني آدم بالجمع لهم بين السِّترين والزينتين، ستر وزينة البدن الظاهر باللباس والرياش، وستر وزينة القلب والباطن بتقوى الله، وبذلك كمال الظاهر والباطن.

قال السعدي[1]: «﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ من اللباس الحسي، فإن لباس التقوى يستمر مع العبد، ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح، وأما اللباس الظاهري فغايته أن يستر العورة الظاهرة في وقت من الأوقات، أو أن يكون جمالاً للإنسان، وليس وراء ذلك نفع، وأيضاً فبتقدير عدم هذا اللباس تنكشف عورته الظاهرة التي لا يضره كشفها مع الضرورة، وأما بتقدير عدم لباس التقوى، فإنها تكشف عورته الباطنة، وينال الخزي والفضيحة».

وقد أحسن القائل:

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى تقلب عرياناً وإن كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الجملة مستأنفة، والإشارة فيها إلى ما أنزله الله من

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٥).

اللباس الذي يواري السوءات والريش ولباس التقوى، أي: ذلك المذكور من آيات الله العظيمة ونعمه الجسيمة، الدالة على كمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وتمام قدرته، وكمال فضله، واستحقاقه للعبادة وحده دون سواه، وأشار إليها بإشارة البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ تعظيماً لها.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة للتنبيه والحض على التذكُّر والتعريض بمن لم يتذكر.

والجملة تعليلية، أي: لأجل أن يذَّكَّروا. والتذكر هو الاعتبار والاتعاظ، أي: لعلهم يعتبرون ويتعظون، ويذكرون عظيم قدرة الله ـ عز وجل ـ وجزيل فضله ونعمه، فيشكروه ويعبدوه وحده دون سواه.

قوله ـ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

بعدما امتنَّ الله ـ عز وجل ـ على بني آدم بما أنزل عليهم من اللباس الذي يواري سوءاتهم والريش ولباس التقوى، ورغبهم بالتقوى التي هي خير لباس نهاهم وحذرهم من أن يفتنهم الشيطان بنزع هذا اللباس الظاهر والباطن، كما فعل مع الأبوين عليهما السلام، حيث أوقعهما في المعصية فبدت لهما سوءاتهما.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ «لا» ناهية، و﴿يَفْتِنَنَّكُمُ﴾ مجزوم بها، وحرك بالفتح لاتصاله بنون التوكيد.

والفتنة: الابتلاء والامتحان.

والمعنى: لا يخدعنكم الشيطان بوسوسته وتزيينه المعصية لكم، والمراد النهي والتحذير من طاعته، والتخلي عما امتنَّ الله به عليهم من اللباس، ولباس التقوى.

والشيطان: إبليس وجنوده وقبيله، وأعوانه من شياطين الإنس والجن. مأخوذ من «شطن» بمعنى بَعُد عن رحمة الله ـ تعالى ـ وعن كل خير.

﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ الكاف للتشبيه، بمعنى «مثل»، أي: لا يفتننّكم فتنة

مثل إخراج أبويكم آدم وحواء من الجنة.

وغلب الأب على الأم، وأطلق عليهما أبوين من إطلاق الأب على الجد الأعلى.

وفي هذا تأكيد للنهي والتحذير من فتنة الشيطان بتذكيرهم بعظيم فتنته، وشدة عداوته لهم ولأبويهم، وأنه عدو مضل مبين، وأن عداوته لهم قديمة متأصلة، كما قال ـ تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة: ١٦٨، ٢٠٨. الأنعام: ١٤٢]، وقال ـ تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: ٦٠].

﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: من الدار التي أعدها الله لأوليائه المتقين، وحزبه المفلحين، فيها ما لا يعلمه إلا الله من أنواع النعيم كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال ﷺ: «**قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»(١).

﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: في حال كونه ينزع عنهما لباسهما، حيث تسبب في معصيتهما وأكلهما من الشجرة، ومن ثم نزع لباسهما الظاهر، وظهور سوءاتهما، كما قال ـ تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢].

أي: انكشفت لهما عوراتهما بعد أن كانت مستورة، والتعبير بالمضارع ﴿يَنزِعُ﴾ لاستحضار الصورة.

﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يريهما عوراتهما.

﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ هذه الجملة فيها معنى التعليل والتأكيد للنهي والتحذير عن فتنة الشيطان.

قوله: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الشيطان.

﴿يَرَاكُمْ﴾ أي: يشاهدكم، والخطاب لبني آدم.

﴿هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ ﴿هُوَ﴾ ضمير منفصل للتوكيد، أي: هو وذريته وجنوده من الشياطين.

﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ أي: من حيث لا تشاهدونهم، فيأتي الإنسان من حيث لا يدري كما قال ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»(١).

ولهذا أمر ـ الله ـ عز وجل بالاستعاذة بالله منه، وسمَّاه الوسواس الخناس، فقال ـ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس].

وهذا لا ينفي أن يُمكِّن الله البشر من رؤية بعض الشياطين أو الجن في بعض الحالات على صورة البشر أو غير ذلك، معجزة لنبي، أو كرامة لولي ونحو ذلك.

ففي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن عفريتاً من الجن تفلت عليَّ البارحة** ـ أو كلمة نحوها ـ **ليقطع عليَّ الصلاة فأمكنني الله منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد، حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم،**

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٩)، ومسلم في السلام (٢١٧٥)، وأبوداود في الصوم (٢٤٧٠)، وابن ماجه في الصيام (١٧٧٩) ـ من حديث صفية ـ رضي الله عنها.

فذكرت قول أخي سليمان ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥]»[١].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، قلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. قال: إني محتاج، وعليَّ عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه فأصبحت، فقال النبي ﷺ: «**يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة**»؟ قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمته فخليت سبيله. قال: «**أما إنه كذبك وسيعود**» ـ وفي آخره قال ﷺ: «**تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة؟ قال: لا. قال: ذاك شيطان**»[٢].

كما روي تمثل الشيطان للمشركين في دار الندوة برجل من أهل نجد[٣].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الجملة مستأنفة فيها تأكيد للنهي والتحذير السابق من فتنة الشيطان، بتوكيد جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون يتبعونهم ويطيعونهم، وفي هذا ذم لهم وتحذير للمؤمنين من مسلكهم.

وفيه طمأنة للمؤمنين بحفظهم من الشيطان، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال ـ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

و﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى: صيرنا، تنصب مفعولين، الأول قوله: ﴿ٱلشَّيَـٰطِينَ﴾، والثاني: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾.

و«الجعل» ينقسم إلى قسمين: كوني، وشرعي. والمراد به هنا الجعل الكوني. أي: جعلنا كوناً وقدراً الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون يتولونهم ويضلونهم، كما قال ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٦١)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٤١).
(٢) أخرجه البخاري في الوكالة (٢٣١١).
(٣) سيأتي تخريجه في الكلام على قوله ـ تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الآية ٣٠ من سورة الأنفال].

الفوائد والأحكام:

١- أن البشر كلهم بنو آدم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ وآدم من تراب، فأكرمهم عند الله أتقاهم له، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣].

٢- تكريم الله ـ عز وجل ـ لبني آدم بخطابه لهم.

٣- امتنان الله عز وجل ـ على بني آدم بما أنزل عليهم وأوجد لهم من الخير؛ من اللباس الذي يستر عوراتهم والريش الذي ينتفعون به ويتجملون، ولباس التقوى؛ لقوله ـ تعالى: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾.

٤- وجوب ستر العورات؛ لأنه يسوء ويحرم كشفها والنظر إليها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾.

٥- جواز التجمل والتمتع والانتفاع بما أباح الله من المال والأثاث، والمتاع وغير ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَرِيشٗاۖ﴾.

٦- الترغيب بلباس التقوى، وأنه خير لباس؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾.

٧- أن اللباس منه ما هو حسي يستر العورات والأبدان ويتجمل به في الظاهر، ومنه ما هو معنوي وهو أعظم وأجل، وهو لباس التقوى، به ستر العيوب، ومغفرة الذنوب، وتيسير الأمور والمخرج من جميع الكروب.

٨- أن ما أنزل الله ـ تعالى ـ من اللباس والريش، ولباس التقوى كل ذلك من آيات الله ـ عز وجل ـ الدالة على كمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وتمام قدرته، وعظيم نعمه على عباده مما يستوجب عليهم تعظيمه وشكره؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

٩- أن الحكمة فيما أنزل الله ـ تعالى ـ على بني آدم من اللباس والرياش، ولباس التقوى، لأجل أن يتذكروا ويتعظوا ويذكروه ويشكروه ويعبدوه وحده دون من سواه؛ لقوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾.

١٠- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله ـ عز وجل.

١١- تحذير بني آدم من فتنة الشيطان ووسوسته وتزيينه وطاعته، والتخلي عما امتن الله به عليهم من اللباس ولباس التقوى؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾.

١٢- شدة عداوة الشيطان لآدم وذريته، وتأصلها منذ القدم، بفتنته لآدم وزوجته بتزيينه المعصية لهما بالأكل من الشجرة، وإخراجهما من الجنة، ونزع لباسهما ليريهما سوءاتهما؛ لقوله ـ تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ ﴾.

١٣- إطلاق الأب على الجد الأعلى، وإطلاق الأب على الأم تغليباً؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أَبَوَيۡكُم ﴾.

١٤- حرص الشيطان على إهلاك بني آدم وإبعادهم من الخير وإذلالهم وكشف عوراتهم.

١٥- رؤية الشيطان وقبيله لبني آدم من حيث لا يراهم بنو آدم حكمة لله ـ عز وجل ـ وابتلاءً وامتحاناً لبني آدم مما يوجب الحذر منهم ومن كيدهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ ﴾.

١٦- تولي الشيطان للذين لا يؤمنون؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ يزينون لهم الباطل؛ كما قال ـ تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴾ [مريم: ٨٣]، أي: تدفعهم إلى الباطل والشر دفعاً.

١٧- لا ولاية للشيطان على الذين آمنوا، لمفهوم قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾، ولهذا قال ـ تعالى ـ في الآيات بعد هذه الآية: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٠].

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٨-٣٠].

بيَّن عز وجل في الآية السابقة أنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون، ثم أتبع ذلك ببيان ما ترتب على ذلك وهو إصرارهم على فعل الفواحش، ومن ثم زعمهم أنهم وجدوا عليها آباءهم وأن الله أمرهم بها، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾.

قوله ـ تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ ﴾ الواو استئنافية و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، و﴿فَعَلُوا۟﴾ فعل الشرط، وجوابه: ﴿قَالُوا۟﴾.

والفاحشة: كل ما يستفحش ويستقبح في الشرع وعرف المسلمين وعند أهل الفطر المستقيمة والعقول السليمة كالشرك بالله، وكشف العورات في الطواف، والزنا والسرقة ونحو ذلك.

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾ أي: قالوا: تعليلاً وتبريراً لفعلهم الفاحشة: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ أي: أدركنا آباءنا ورأيناهم يفعلونها فنحن نفعل مثلهم.

كما قال ـ تعالى ـ عنهم: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣].

وكونهم وجدوا عليها آباءهم لا يبرر لهم فعلها وتقليد آبائهم على جهل، قال ـ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ

أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠].

﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ أي: والله أمرنا بفعلها.

والمعنى: أن ديدنهم وعادتهم فعل الفواحش والتبرير لذلك بأنهم وجدوا آباءهم يفعلونها، والله أمرهم بها، وهذا كذب وافتراء على الله، كما كانوا يحرمون أشياء ويزعمون أن الله حرمها، كما قال الله ـ تعالى ـ عنهم: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٠]، وسواء كانوا يزعمون أن الله أمرهم بها أو أمر بها آباءهم فهم يفعلون ما أُمر به آباؤهم فهم بهذا كله كذبة مبطلون، ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فنفى أن يأمر الله بالفحشاء، وأنكر عليهم القول على الله بلا علم.

والأمر في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ للنبي ﷺ، أي: قل لهم يا محمد ردًّا عليهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ أي: لا يليق بكماله وحكمته أن يأمر بفعل الفحشاء مما تفعلون ولا غيره.

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، و«ما» موصولة، بمعنى الذي، أي: أتقولون على الله القول الذي لا تعلمون أن الله أمر به، ولا تعلمون أن الله لا يليق بجلاله وكماله الأمر به أو بمثله. ومن ذلك قولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ يعنون ما يفعلونه من الفواحش.

وفي الآية إنكار شديد، وتهديد أكيد لمن يقول على الله بلا علم، كما قال ـ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾.

رد الله ـ عز وجل ـ على المشركين في زعمهم أن الله أمرهم بما يفعلونه من

الفواحش، وأبطله إبطالاً عامًّا بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ووبخهم على ذلك بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ثم أكد بطلان زعمهم ببيان حقيقة ما أمر الله ـ تعالى ـ به فقال: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ الآية.

قوله ـ تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: قل لهم يا محمد ولغيرهم ﴿أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل في كل شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام.

أي: قل أمر ربي بالعدل في كل شيء، وهو الوسط في الأمور كلها؛ في العبادات والمعاملات وغير ذلك، وأساس ذلك كله وقوامه التوحيد؛ ولهذا قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «القسط: لا إله إلا الله».

ومنه العدل في الأقوال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والعدل في الإنفاق، كما قال ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩﴾ [الإسراء: ٢٩].

﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: أقسطوا وأقيموا، أو بأن أقسطوا وأقيموا.

كما قيل:

ولبس عباءة وتقر عيني ... أحب إليَّ من لبس الشفوف

وهو أشبه بعطف الخاص على العام، فإن من أعظم القسط والعدل إقامة الوجوه عند المساجد ودعاء الله ـ عز وجل ـ وإخلاص الدين له.

أي: وأقيموا وجوهكم بالاستقامة على دين الله ـ عز وجل، والإخلاص له، والتوجه إلى القبلة في الصلاة في أوقاتها، في المساجد، كما قال ـ تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [يونس: ١٠٥]، وقال ـ تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا

تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الروم: ٣١]، وقال ـ تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ [النور: ٣٦]، وقال ـ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: ٣١]، أي: عند كل صلاة وموضع سجود.

﴿ وَٱدْعُوهُ ﴾ أي: واعبدوه. والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وهما متلازمان وكلاهما عبادة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وفي الحديث: «**الدعاء هو العبادة**»(١).

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي: مخلصين له العبادة والطاعة وحده لا شريك له، كما قال ـ تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥].

وفي الحديث: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(٢).

فهذا الذي أمر الله ـ عز وجل ـ به: القسط، والتوجه إليه، وتعظيمه بإقامة الصلاة في المساجد وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له. وليس من ذلك ما يفعلونه من الفواحش ويزعمون أن الله أمرهم به من الشرك بالله، والطواف وهم عُراة، ونحو ذلك.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ الكاف للتشبيه، و«ما» مصدرية، فشبه عود خلقهم ببدئه تقريراً وتوكيداً لكمال قدرته على ذلك.

أي: كما بدأ خلقكم أول مرة ترجعون إليه خلقاً آخر بعد موتكم، كما قال ـ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال ـ تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال ـ تعالى:

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٢٩٦٩)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٢٨) ـ من حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في «الزهد والرقائق» (٢٩٨٥)، وابن ماجه في «الزهد» (٤٢٠٢) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، وقال ـ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠]، وقال ـ تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق: ٥-٩].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة، فقال: «**يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً، ثم قرأ:** ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾»[(١)].

وقيل: معنى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي: كما كتب وقدّر عليكم تكونون، فمن كتب له السعادة فنهايته إلى السعادة، ومن كتب عليه الشقاء فنهايته إلى الشقاء، كما جاء في حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»[(٢)].

قال ابن القيم بعدما ذكر هذا القول: «وهذا المعنى صحيح في نفسه، دل عليه القرآن والسُّنَّة والآثار السلفية، وإجماع أهل السنة، وأما كونه هو المراد بالآية ففيه ما

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٧)، ومسلم في الجنة ـ فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٦٠)، والنسائي في الجنائز (٢٠٨٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٣)، وأحمد (١/ ٢٣٥، ٢٥٣).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣)، وأبوداود في السنة (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر (٢١٣٧)، وابن ماجه في المقدمة (٧٦).

فيه، والذي يظهر من الآية أن معناها معنى نظائرها وأمثالها من الآيات التي يحتج الله ـ سبحانه ـ فيها على النشأة الثانية بالأولى، وعلى المعاد بالمبدأ، فجاء باحتجاج في غاية الاختصار والبيان ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾»[١].

قوله ـ تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ حال من الضمير في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي: كما بدأكم ترجعون إليه حال كونكم فريقين، فريقاً هدى، وفريقاً حق عليهم الضلالة، والفريق: الطائفة والجماعة من الناس.

أي: فريقاً وفقهم الله إلى الإيمان به وتوحيده وإخلاص الدين له.

﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي: ثبتت ووجبت عليهم الضلالة قدراً وكوناً، فلازموا الضلال والشرك واستمروا على ذلك، كما قال ـ تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال ـ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقال ـ تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال ـ تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣].

وقدم في الذكر فريق الهداية تشريفاً وتعظيماً لهم.

ونسب الهداية إليه، فقال: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾، بينما قال: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، ولم يقل: «وفريقاً أضل» تعليماً لحسن الأدب معه ـ عز وجل، كما قال ﷺ: «**والشر ليس إليك**»[٢].

﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي: لأنهم ﴿اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: جعلوا الشياطين أولياء لهم وأنصاراً يوالونهم ويتبعونهم ويحبونهم من دون الله. فحقت عليهم الضلالة

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٧٧١)، وأبوداود في الصلاة (٧٦٠)، والنسائي في الافتتاح (٨٩٧)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢) ـ من حديث علي ـ رضي الله عنه.

بسبب ذلك؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء: ١١٩].

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ معطوف على ﴿ٱتَّخَذُوا﴾ أي: ويظنون أنهم بهذا الضلال على هدى لانطماس بصائرهم، فضلالهم ضلال مركب، ضالون، ولا يدرون أنهم ضالون، بل يظنون أنهم مهتدون، وهذه مصيبة لا تقل عن مصيبة ضلالهم إن لم تكن أشد؛ لأنها تمنعهم من التفكر والنظر في آيات الله وفي الأدلة والبراهين، وهذا كما قال ـ تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [فاطر: ٨]، وقال ـ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقد قيل:

يقضى على المرء في أيام محنته … حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

الفوائد والأحكام:

١- أن ديدن المشركين فعل الفواحش والاحتجاج والتعليل لذلك بأنهم وجدوا عليها آباءهم وأن الله أمرهم بها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾.

٢- أن من أسباب ضلال كثير من الناس التقليد الأعمى لآبائهم أو غيرهم، واتباعهم لهم على جهل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ مما يوجب الحذر من ذلك.

٣- جرأة المشركين على الكذب على الله بأنه أمرهم بفعل الفواحش أو أمر آباءهم بفعلها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾ فجمعوا بين فعل الفاحشة، والكذب على الله بأنه أمرهم بها.

٤- إبطال قول المشركين أن الله أمرهم بفعل الفواحش، وبيان أنه ـ عز وجل ـ يتقدس ويتعالى عن ذلك، ولا يليق ذلك بجلاله وكماله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿قُلْ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: لا يأمر بها شرعاً، وإن كان قدرها وأمر بها كوناً.

٥- الإنكار والتوبيخ للمشركين والتهديد لهم في قولهم على الله بلا علم، بل بمحض الجهل والتحذير من ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٦- أن الله ـ عز وجل ـ إنما أمر بالقسط، وإقامة الوجوه عند كل مسجد ودعائه والإخلاص له؛ لقوله ـ تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

٧- إثبات أنه ﷺ رسول مبلغ عن الله وحيه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى﴾.

٨- وجوب القسط والعدل في كل شيء في العبادات والمعاملات وغير ذلك، في أداء حقوق الخالق وحقوق الخلق؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾.

٩- وجوب الاستقامة على دين الله ـ عز وجل ـ وعبادته، والإخلاص له، والتوجه إلى القبلة في الصلاة في أوقاتها، وإقامتها في المساجد؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

١٠- عظم منزلة الصلاة في الإسلام فهي عموده، وعظم مكانة المساجد ووجوب تعظيمها وإعلاء شأنها حسيًّا ببنائها للمصلين، ومعنويًّا بالعبادة والصلاة فيها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾(١).

١١- أن من شرط صلاح العمل وقبوله كونه خالصاً لله ـ عز وجل، موافقاً للشرع؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، كما قال ـ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: أخلص العمل لله وهو متبع للرسول ﷺ.

١٢- إثبات المعاد والبعث، وقدرة الله ـ عز وجل ـ التامة على ذلك، وأنه ـ عز وجل ـ كما بدأ الخلق أول مرة يعيدهم مرة أخرى؛ لقوله ـ تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (٣/ ١٥٠).

١٣- إثبات قدر الله السابق، وهدايته كل مخلوق لما قدر له؛ لقوله ـ تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾.

١٤- الإشارة للفرق الشاسع، والبون الواسع بين من هداهم الله، ووفقهم بفضله؛ لهذا قدمهم في الذكر بالآية تشريفاً وتعظيماً لهم. وبين من حقت عليهم الضلالة ـ بعدله ـ فضلوا وكفروا؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾.

١٥- من كتبت له الهداية فلا مضل له، ومن كتبت عليه الضلالة فلا هادي له؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾؛ كما قال ـ تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقال ﷺ: «**من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**»[(١)].

فهو ـ عز وجل ـ يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

١٦- في نسبة الهداية إليه ـ عز وجل ـ في قوله: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ ﴾ دون الضلالة تعليم لحسن الأدب مع الله ـ عز وجل، كما قال ﷺ: «**والشر ليس إليك**».

١٧- أن العلة في ضلال المشركين وغيرهم من أهل الضلال اتخاذهم الشياطين أولياء واتباعهم لهم من دون الله، مما يوجب الحذر من ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

١٨- وجوب موالاة الله ـ عز وجل ـ وحده؛ لقوله ـ تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

١٩- إثبات الاختيار للإنسان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: هم اختاروا هذا الطريق بأنفسهم وفي هذا رد على الجبرية.

---

(١) أخرجه مسلم في «الجمعة» (٨٦٨)، والنسائي في «النكاح» (٣٢٧٨)، وابن ماجه في «النكاح» (١٨٩٣) ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما

٢٠- انطماس بصائر المشركين ومن كتب عليهم الضلال، حتى إنهم ليظنون أنهم مهتدون، وهم في دركات الجهل والكفر والضلال؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وهذه مصيبة أعظم من ضلالهم؛ لأنها تحول بينهم وبين النظر والتفكر في آيات الله وفي الأدلة والبراهين.

٢١- أن الهداية مطلب لكل إنسان، لكن لا يوفق لها إلا من هداه الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣١-٣٣].

سبب النزول:

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كانوا يطوفون بالبيت عراة ـ الرجال والنساء ـ الرجال بالنهار، والنساء بالليل، وكانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، فتقول: من يعيرني تِطوافاً تجعله على فرجها، وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾»(١).

قوله ـ تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

قال ابن القيم: «جمعت هذه الآية أصول أحكام الشريعة كلها؛ الأمر والنهي والإباحة والخبر»(٢).

قوله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ﴿مَسْجِدٍ﴾ اسم مكان، وهو البيت الذي بني لعبادة الله ـ عز وجل، أو هو مصدر بمعنى السجود والصلاة، أي: عند كل صلاة.

أي: تزينوا عند جميع المساجد، وجميع الصلوات فرضها ونفلها. والأمر في

---

(١) أخرجه مسلم في التفسير ـ قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (٣٠٢٨)، والنسائي في الحج ـ باب قول الله ـ عز وجل: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (٢٩٥٦)، والطبري في «جامع البيان» (١٠/ ١٤٩-١٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٦٤)، والبيهقي في «سننه» (٢/ ٢٢٣).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٢٠٧).

الأصل للوجوب، وهو محمول على الوجوب في حدود ستر العورة بالإجماع، وهو للاستحباب فيما زاد على ذلك من الزينة، باللباس والطيب والسواك، ويتأكد هذا في صلاة الجمعة، وصلاة العيدين، كما دلت السنة على ذلك.

وفي الآية إبطال لما كان يفعله المشركون من الطواف بالبيت وهم عراة.

وقد أمر ﷺ أبا بكر في حجته بالناس سنة تسع من الهجرة أن ينادي: «أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»(١).

وأفضل لباس الزينة للرجال البياض، كما في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم، وإن من خير أكحالكم الإثمد، يجلو البصر، وينبت الشعر**»(٢).

وقد رُوي أن تميماً الداري ـ رضي الله عنه ـ اشترى رداءً بألف فكان يصلي فيه(٣).

وأين هذا ممن يصلون بقميص النوم، وبخاصة في الحرم، بينما إذا ذهب أحدهم لأقل مناسبة أو لمقابلة أي شخص، أو خرج إلى السوق لبس أجمل ثيابه.

﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ ﴾ أي: كلوا واشربوا مما رزقكم الله من الطيبات. والأمر للإباحة، وفيه امتنان عليهم، وإبطال للتحريم الذي ابتدعه المشركون.

وقد يجب الأكل والشرب ـ فيما إذا خاف الإنسان على نفسه من الهلاك جوعاً أو عطشاً.

﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ الإسراف: تجاوز الحد، إما بتعدي الحلال إلى الحرام، وإما

---

(١) سيأتي تخريجه في تفسير سورة التوبة.

(٢) أخرجه أبوداود في الطب (٣٨٧٨)، وفي اللباس (٤٠٦١)، وأحمد (١/ ٢٤٧).
وقال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٠٢) ـ بعد أن ساقه بإسناده عن أحمد: «وهذا حديث جيد الإسناد على شرط مسلم». وأخرجه أحمد أيضاً (٥/ ٧، ١٢) ـ مختصراً دون ذكر الإثمد ـ من حديث سمرة ـ رضي الله عنه.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٠٢) من رواية الطبراني بسند صحيح عن قتادة عن محمد بن سيرين.

بالزيادة على القدر الكافي، مما قد يضر بالصحة من المآكل والمشارب، أو مما قد يضر بالمال من الملابس والمراكب والمساكن والأثاث وغير ذلك، وكل ذلك لا يجوز، والواجب الاعتدال والتوسط في ذلك كله.

قال ـ تعالى ـ في وصف عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال ﷺ: «**كل ما شئت والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان سرف و مخيلة**»[(١)].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «**كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، في غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»[(٢)].

وفي رواية: «**كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة**»[(٣)].

وعن المقدام بن معد يكرب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان فاعلاً لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»[(٤)].

قال الشاعر[(٥)]:

وإنك مهما تعط بطنك سُؤله ... وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ تعليل للنهي عن الإسراف، أي: إنه ـ عز وجل ـ لا يحب المسرفين في الأكل والشرب، وغير ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس ـ قول الله ـ تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما. وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ١٥٥) بنحوه.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٨١، ١٨٢).

(٣) أخرجه النسائي في الزكاة (٢٥٥٩)، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٥).

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد ـ كراهية كثرة الأكل (٢٣٨٠)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٤٩)، وأحمد (٤/ ١٣٢)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٥) البيت لحاتم الطائي.

قال الطبري[١]: «يقول: إن الله لا يحب المعتدين حده، في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل الله أو حرم، بإحلال الحرام وتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يُحلل ما أحل، ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به».

وإذا كان ـ عز وجل ـ لا يحب المسرفين فإنه يحب المقتصدين المعتدلين، وفي هذا إثبات المحبة لله ـ عز وجل ـ على ما يليق بجلاله وعظمته.

قوله ـ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾.

أمر ـ عز وجل ـ بأخذ الزينة عند كل مسجد، وأمر بالأكل والشرب ونهى عن الإسراف، ثم أتبع ذلك بالرد على من حرم شيئاً من زينة الله التي أخرجها من الملابس والطيبات من الرزق من المآكل والمشارب وغير ذلك بلا دليل.

﴿قُلْ﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين حرّموا أشياء بمجرد آرائهم الفاسدة وأهوائهم.

﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾.

﴿مَنْ﴾ اسم استفهام، وهو هنا للإنكار، أي: من الذي حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق.

وفيه تهكم بالمشركين الذين حرموا ما أحله الله بلا علم، كما قال ـ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال ـ تعالى: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

وقوله: ﴿زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ أي: ما يُتزين ويُتجمل به من أنواع الملابس وغير ذلك التي أخرجها الله من الأرض وأوجدها لعباده.

والمراد بالعبودية هنا العبودية العامة لجميع الخلق، وهي عبودية الانقياد لأمره ـ عز وجل ـ الكوني القدري، كما قال ـ تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ

---

(١) في «جامع البيان» (١٠/ ١٥٦).

ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم: ٩٣].

فهذه الزينة والطيبات يتمتع بها المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وهناك العبودية الخاصة: عبودية أوليائه المؤمنين، كما قال ـ تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ ﴾ معطوف على ﴿ زِينَةَ ٱللَّهِ ﴾ أي: ومن حرم الطيبات من الرزق من المآكل والمشارب وغير ذلك التي أخرجها الله وأوجدها لعباده، قال ـ تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يونس: ٥٩].

كما في تحريمهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، كما قال ـ تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٣].

والطيبات: اسم عام لما طاب كسباً وطعماً.

فأنكر ـ عز وجل ـ في هذه الآية على من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق تأكيداً لحلها، ولهذا قال بعده:

﴿ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ الضمير ﴿ هِيَ ﴾ يعود إلى الزينة والطيبات من الرزق. واللام في قوله: ﴿ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ تدل على الاختصاص وعلى الإباحة.

قرأ نافع (خالصةٌ) بالرفع على أنها خبر ثان لـ﴿ هِيَ ﴾ أي: هي لهم حلال في الدنيا، وهي لهم خالصة يوم القيامة، وقرأ الباقون (خالصةً) بالنصب على الحال من المبتدأ، أي: هي لهم حلال في الدنيا حال كونها خالصة لهم يوم القيامة.

والمعنى: أن هذه الزينة والطيبات مباحة للذين آمنوا في الحياة الدنيا؛ لأنهم يستعينون بها على طاعة الله ـ تعالى ـ وشكره، بخلاف الكفار فإنهم يعاقبون عليها؛ لأنهم كفروها واستعانوا بها على معصية الله ـ عز وجل. ولهذا فإنهم في الآخرة

يُحرمون منها، وتكون خالصة للذين آمنوا لا يشاركهم فيها سواهم في ذلك اليوم بخلاف الحال في الدنيا فإن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

وفرق بين العطاءين، فعطاء الله ـ عز وجل، للمؤمنين ترغيب لهم وحض وتكريم وإنعام، وعطاؤه للكافرين إملاء لهم وإمهال واستدراج وانتقام.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الكاف: للتشبيه بمعنى: «مثل» أي: مثل هذا التفصيل في هذه الآيات ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نوضحها ونبينها.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لقوم ذوي علم بالله وما يجب له ـ عز وجل، ينتفعون بعلمهم، وهم المؤمنون، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال ـ تعالى ـ في ذكر الساعة: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ﴾ [الشورى: ١٨].

قوله ـ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ذكر ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة أن المشركين إذا فعلوا فاحشة ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ ورد عليهم بقوله ـ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وبين ما أمر سبحانه به، وهو القسط وإقامة الوجوه عند كل مسجد ودعاؤه مخلصين له الدين، ثم أنكر عليهم تحريم الزينة والطيبات مما لم يحرمه الله، ثم أمر نبيه ﷺ في هذه الآيات أن يبين لهم ما حرمه ربه عليهم ـ فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الآية.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الأمر للنبي ﷺ و﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، أي: إنما حرم ربي الفواحش وما ذكر معها في هذه الآية، لا ما حرمتموه من الزينة والطيبات.

وفي إسناد التحريم إلى الرب ـ عز وجل ـ في قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ﴾ تنبيه وإرشاد إلى أن التحريم والتحليل والتشريع إلى الرب ـ عز وجل ـ الخالق المالك المدبر، لا إلى غيره.

والتحريم: هو الحظر والمنع.

والفواحش، جمع فاحشة، وهي كل ما يستفحش ويستقبح لشناعته وقبحه، كالزنا واللواط، والطواف بالبيت عراة ونحو ذلك.

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة في الموضعين، أي: الذي ظهر منها وأُعلن وجُهر به، كالزنا علانية والطواف بالبيت عراة، ونحو ذلك، والذي بطن وأُخفي وأُسر كاتخاذ الأخدان وأمراض القلوب، ونحو ذلك، قال ـ تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أحد أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»(١).

وعن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**أتعجبون من غيرة سعد، والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، لهذا حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»(٢).

﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ «الإثم» الذنب، وهو كما قال ﷺ: «**الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطَّلع عليه الناس**»(٣).

وسمي الذنب إثماً؛ لأنه يؤثم صاحبه ويوجب له العقوبة.

و«الإثم» اسم جنس يعم جميع الآثام والذنوب، وهو أعم من الفواحش،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٣٤)، ومسلم في التوبة ـ باب غيرة الله وتحريم الفواحش (٢٧٦٠)، والترمذي في الدعوات (٣٥٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٦)، ومسلم في اللعان (١٤٩٩).

(٣) سبق تخريجه.

وعطفه عليها من عطف العام على الخاص، وخصت الفواحش وقدمت لقبحها وشناعتها.

﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ أي: الاستطالة على الناس وظلمهم والاعتداء على دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

وهو من «الإثم» وعطفه عليه من عطف الخاص على العام؛ لعظمه وتعدي ضرره إلى الغير، فكل بغي إثم، وليس كل إثم بغياً.

وقد يحمل الإثم على الذنب الذي ضرره المباشر على فاعله، ويحمل البغي على الذي يتعدى ضرره المباشر إلى الآخرين، وهو في ثاني الحال ضرر على صاحبه.

أما الضرر غير المباشر فإن للذنوب كلها ضررها وأثرها العام على البلاد والعباد، كما قال ـ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ صفة لـ«البغي»، وهي صفة كاشفة؛ لأن البغي لا يكون إلا بغير حق.

وفي الحديث: **«لا يحل دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة»**(١).

﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ الواو: عاطفة، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب معطوف على «الفواحش» أي: وحرم عليكم الإشراك بالله، أو الشرك بالله.

والشرك دعوة غير الله وعبادته مع الله، وتسويته بالله، كما ذكر ـ تعالى ـ عن المشركين

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧٨)، ومسلم في القسامة (١٦٧٦)، وأبوداود في الحدود (٤٣٥٢)، والنسائي في الدم (٤٠١٦)، والترمذي في الديات (١٤٠٢)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٤) ـ من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه.

قولهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

قال ابن القيم: «كل شرك بالله، وإن دق، في قول أو عمل أو إرادة، بأن يجعل لله عدلاً بغيره في اللفظ، أو القصد، أو الاعتقاد»(١).

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ «ما» موصولة تفيد العموم، أي: الذي لم ينزل الله به سلطاناً، والباء في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ للمصاحبة، أو بمعنى «على»، ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجة وبرهاناً على مشاركته لله، بل أنزل الله السلطان والحجة والبرهان على نفيه، كما قال ـ تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب معطوفة كسابقتها على ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾. أي: وحرم عليكم القول على الله ما لا تعلمون.

و«ما» موصولة، أي: الذي لا تعلمون.

والمعنى: وحرم عليكم القول والافتراء والكذب على الله، بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، والزعم بأن له شريكاً وولداً، وأنه أمركم بفعل الفواحش وحرم الزينة والطيبات ونحو ذلك. وهذا أعظم وأعم من الشرك، والشرك أعظم من البغي بغير حق، والبغي أعظم من الإثم، والإثم أعظم وأعم من الفواحش. فترتيبها بدءاً من الأدنى إلى الأعلى والأشد في الحرمة.

الفوائد والأحكام:

١- تكريم الله ـ عز وجل ـ وتشريفه لبني آدم وعنايته بهم، لخطابه وندائه لهم وتوجيههم بقوله ـ تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾.

٢- وجوب ستر العورة في الصلاة والطواف، واستحباب التزين للصلاة والطواف وعند المساجد؛ لقوله ـ تعالى: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٢٠٧).

٣- إباحة الأكل والشرب، والامتنان على بني آدم بذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ وقد يجب الأكل والشرب، كما إذا خاف على نفسه الهلاك.

٤- تحريم الإسراف في الزينة والأكل والشرب، ونحو ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾.

٥- نفي محبة الله ـ عز وجل ـ للمسرفين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

٦- إثبات العلة والحكمة في أحكام الله وأفعاله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

٧- إثبات محبة الله ـ عز وجل ـ لغير المسرفين؛ لمفهوم قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ فمفهوم هذا أنه يحب من لم يكن مسرفاً.

٨- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿قُلْ﴾ وفي هذا رد على الذين يزعمون أنه افترى القرآن واختلقه.

٩- الإنكار والتوبيخ للذين حرموا زينة الله التي أخرجها لعباده والطيبات من الرزق؛ لقوله ـ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ وفي هذا رد على الذين يرون الزهد في ترك الطيبات، وإيثار الخشن من الطعام واللباس.

١٠- إثبات عبودية جميع الخلق لله ـ عز وجل ـ عبودية عامة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾.

١١- إباحة الزينة والطيبات من الرزق، وامتنان الله ـ عز وجل ـ على العباد بإخراجها وإباحتها لهم.

١٢- أن ما أخرجه الله من الزينة والطيبات هي للذين آمنوا حلال في الحياة الدنيا، الذين يشكرون الله عليها ويستعينون بها على طاعته، بخلاف الكفار فإنهم يحاسبون ويعاقبون عليها؛ لأنهم كفروها واستعانوا بها على معصية الله ـ تعالى، ولهذا فإنها تكون في الآخرة خالصة للمؤمنين خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

١٣- الترغيب في الإيمان ببيان إباحة الزينة والطيبات من الرزق للمؤمنين في الحياة الدنيا وتخصيصهم بها في الآخرة دون غيرهم.

١٤- أن الإيمان إنما يقبل ويثمر في الحياة الدنيا، بل وقبل غلق باب التوبة ببلوغ الغرغرة أو طلوع الشمس من مغربها، أما الآخرة فليس فيها إلا الجزاء، كما قال ـ تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]، وقال ـ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

١٥- إثبات القيامة والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله ـ تعالى: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

١٦- تفصيل الله ـ عز وجل ـ وبيانه للآيات الشرعية والكونية، كما فصل هذه الآيات؛ لقوله ـ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾.

١٧- أن الذين ينتفعون بتفصيل الآيات وبيانها هم أهل العلم بالله وشرعه دون من عداهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

١٨- مدح أهل العلم الذين ينتفعون بعلمهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، والتعريض بذم أهل الجهل الذين لا ينتفعون بتفصيل الآيات وبيانها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

١٩- أن التحليل والتحريم والتشريع للرب ـ عز وجل ـ الذي له الخلق والملك والتدبير والأمر كله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ﴾ الآية.

٢٠- إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة له ﷺ، وتشريفه وتكريمه بذلك، وبإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله ـ تعالى: ﴿رَبِّىَ﴾.

٢١- أن الله إنما حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، والشرك بالله، والقول على الله بلا علم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا

ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

٢٢- حرمة الفواحش مطلقاً ما ظهر منها وما بطن، وجميع الآثام والذنوب؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ ﴾.

٢٣- أن ما ظهر من الفواحش أشد؛ لأن له أثره المتعدي على الناس؛ لهذا قدم في الآية.

٢٤- أن الفواحش من أعظم الإثم، لهذا خصت بالذكر وعطف عليها الإثم من عطف العام على الخاص؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ ﴾.

٢٥- أن البغي والتعدي على الناس وظلمهم من أعظم الإثم؛ لهذا عطف على الإثم من عطف الخاص على العام؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾.

٢٦- تحريم الشرك بالله؛ صغيره وكبيره، خفيه وجليه، قليله وكثيره، مما لا حجة عليه ولا برهان، ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾.

٢٧- تحريم القول على الله بلا علم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

٢٨- أن المقبول من الاعتقاد والقول والعمل ما أنزل الله به حجة، ودل على صحته العلم الشرعي.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤-٢٠٦].

قوله ـ تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾.

ذكر الله ـ عز وجل ـ قبل هذه الآية أن القرآن بصائر وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، ثم أتبع ذلك بالأمر في هذه الآية بالاستماع له والإنصات عند قراءته تعظيماً واحتراماً له وتأدباً معه، ورتب على ذلك الرحمة.

قوله: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ الواو استئنافية، و«إذا» ظرفية شرطية، و﴿قُرِئَ ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ ﴾، وأظهر هنا في مقام الإضمار، فقال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ ﴾، ولم يقل: «وإذا قرأتموه» مع تقدم الإشارة إليه في قوله ـ تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ والغرض من هذا تعظيم القرآن والتنويه بشأنه.

و«القرآن» هو كلام الله ـ عز وجل ـ المنزل على محمد ﷺ، المتعبد بتلاوته، والعمل به، المعجز بأقصر سورة منه.

وسمي القرآن بهذا الاسم لأنه مقروء متلو أخذاً من «قرأ» إذا «تلا»، ومن «القرء» وهو الجمع؛ لأنه يجمع آيات وسوراً كثيرة.

ومنه سميت «القرية» لأنها تجمع أناساً كثيرين، وسمي مجمع الماء «قَرْوَاً» لاجتماع الماء فيه.

ومعنى ﴿قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي: تلي، قال ـ تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال ـ تعالى: ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد: ٣٠].

يقال: قرئ القرآن، ويقال: تلي القرآن، قال ـ تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقال ـ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ [القيامة: ١٨].

﴿ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾ الاستماع: الإصغاء، فأصغوا له بأسماعكم لتفهموا معانيه وتتدبروا مواعظه، واستمعوا أبلغ من (واسمعوا)؛ لأن زيادة المبنى تدل على

زيادة المعنى ـ غالباً.

﴿وَأَنصِتُوا﴾ الإنصات: الاستماع مع السكوت وترك الكلام.

والمراد الاستماع والإنصات مع التدبر والتفكر والانتفاع، ومن ثم العمل، لا مجرد السماع والإنصات مع غفلة القلب والتولي والإعراض، كما قال ـ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، ولهذا أتبعه بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وقد كان المشركون يرفعون أصواتهم باللغو إذا قرئ القرآن، ويقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦]، ولهذا قال ـ تعالى ـ عنهم: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

والمكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق.

وكان اليهود يقولون: سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع، كما قال الله ـ تعالى ـ عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦].

والأمر في قوله ـ تعالى: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ للوجوب كما هو الأصل في الأمر، وبخاصة في الصلاة وحال الخطبة، كما قال ﷺ في حديث أبي موسى ـ رضي الله عنه: «**أقيموا صفوفكم، ثم ليؤمكم أحدكم، فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا**»(١).

وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «كنا يسلم بعضنا على بعض في

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ـ التشهد في الصلاة (٤٠٤)، وأبوداود في الصلاة ـ التشهد (٩٧٢، ٩٧٣)، والنسائي في الإمامة ـ مبادرة الإمام (٨٠٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ إذا قرأ الإمام فأنصتوا (٨٤٧)، وأخرجه من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أبوداود في الصلاة ـ الإمام يصلي من قعود (٦٠٣، ٦٠٤)، والنسائي في الافتتاح ـ تأويل قول الله ـ تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ (٨٨٢، ٨٨٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ إذا قرأ الإمام فأنصتوا (٨٤٦)، وأحمد (٢/ ٢٧٦، ٤٢٠) بلفظ: «**إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا**» ـ وصححه مسلم عند سياقه حديث أبي موسى ـ رضي الله عنه.

الصلاة، سلام على فلان، وسلام على فلان، قال: فجاء القرآن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾»[1].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «كانوا يتكلمون في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ والآية الأخرى[2] أمروا بالإنصات»[3].

وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: «نزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ وهم خلف رسول الله ﷺ ـ في الصلاة»[4].

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن ترحموا، أي: لأجل أن يرحمكم الله برحمته الواسعة.

وقيل: رجاء أن ترحموا. والرجاء إنما هو بالنسبة للمخاطبين.

قوله ـ تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾.

الخطاب للنبي ﷺ، وفي إضافة اسم الرب ـ إلى ضميره ﷺ تشريف وتكريم له ﷺ، وإثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة له.

ويجوز كون الخطاب له ﷺ، ولكل من يصلح خطابه.

والذكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، كما في قوله ـ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥، الجمعة: ١٠].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٦٥٨)، وأخرجه أيضاً بمعناه (٦٥٩)، وكذا أخرجه بمعناه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٤٦)، وابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٢٩)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام» ص(٢٥٨).

(٢) يعني قوله ـ تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٦٥٩)، وابن المنذر في «الأوسط» (٣/ ١٠٥)، والبيهقي في «سننه» (٢/ ١٥٥).

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٦٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٤٥)، والدارقطني في «سننه» (١/ ٣٢٦).

﴿فِي نَفْسِكَ﴾ أي: خفية بقلبك، ولسانك، كما قال ـ تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال ـ تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: ٣].

والمعنى: واذكر ربك بقلبك ولسانك خفية ومناجاة بين الإسرار والجهر بصوت يسمعه القريب، ولهذا قال: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: تذللاً له واستكانة، ورغبة وطمعاً في ثوابه.

﴿وَخِيفَةً﴾ أي: وخوفاً منه ـ عز وجل ـ ورهبة من عقابه.

وهكذا ينبغي للمسلم في هذه الحياة أن يكون بين الخوف والرجاء، فلا يغلب جانب الخوف، فيقنط من رحمة الله، وييأس من روح الله، ولا يغلب جانب الرجاء، فيأمن من مكر الله.

﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: وسطاً بين الجهر والإسرار، كما قال ـ تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١١٠﴾ [الإسراء: ١١٠][(١)].

وعن الصلب بن الحكيم عن أبيه عن جده، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله ﷺ، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه، فسكت رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى﴾ [البقرة: ١٨٦][(٢)].

ولما رفع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أصواتهم بالدعاء في بعض أسفاره ـ قال ﷺ: «**يا أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي**

---

(١) رُوِيَ في سبب نزول هذه الآية أن المشركين إذا سمعوا القرآن سبوه، وسبوا من أنزله، ومن جاء به، فأمره الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ أن لا يجهر به؛ لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم، وليتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار. أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٥/ ١٢٩-١٣١) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣١٤).

تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[١].

﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ الغدو أول النهار، ما قبل الزوال، وهو البكور، يقال: غدو، وغداة، وغدوة، كما يقال بكور وبكرة وإبكار.

والآصال: جمع أصيل، وهو آخر النهار، ما بعد الزوال، وهو العشي، والعشية والرواح والإشراق، قال ـ تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ [غافر: ٤٦]، وقال ـ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال ـ تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وقال ـ تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقال ـ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال ـ تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ [ص: ١٨].

وقال ﷺ: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها»[٢].

وخُص هذان الوقتان بالذكر لفضلهما على غيرهما، والمراد ـ والله أعلم ـ بقوله: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ الإكثار من ذكر الله ـ عز وجل في جميع الأوقات ويؤكد هذا قوله بعده ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَۤ ۩ ٢٠٦﴾ ففيه حث ـ على التشبه بهم، كما قال الله ـ تعالى ـ عنهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وكما قال ـ تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾ [آل عمران: ٤١]، وقال ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٢)، ومسلم في الذكر (٢٧٠٤)، وأبوداود في الوتر (١٥٢٦)، والترمذي في الدعوات (٣٣٧٤)، من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٢)، ومسلم في الإمارة (١٨٨٠)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥١)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٥٧)، وأحمد (٣/ ١٤١) ـ من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أي: ولا تكن من الغافلين عن ذكر الله ـ عز وجل ـ الساهين اللاهين؛ لأن بالذكر حياة القلوب، وبالغفلة عنه موتها.

قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦)﴾.

أمر الله ـ عز وجل ـ نبيه ﷺ بذكره، ونهاه أن يكون من الغافلين، وهو أمر ونهي له ولأمته، ثم ذكر حال الملائكة عنده، وما هم عليه من العبادة والخضوع له والتعظيم، ترغيباً في ذكره وإغراءً به، وحضًّا على المنافسة للملائكة في ذلك.

قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: إن الذين عند ربك يا محمد من الملائكة في الملأ الأعلى، وأبهَم اسمهم، ولم يصرح به تعظيماً لشأنهم، ويكفي أنهم عنده ـ عز وجل، ففي ذلك تشريف وتكريم لهم.

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ أي: لا يستكبرون عن التعبد والتذلل له، بل ينقادون لأمره ويخضعون له.

﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ التسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب وعن مشابهة المخلوقين، وعبادته، كما قال ـ تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾ [الأنبياء: ٢٠]. والأولى أن يحمل التسبيح على معنى التنزيه لله ـ عز وجل؛ لذكر التعظيم له ـ عز وجل ـ بالعبادة قبله وبعده.

﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«له» جار ومجرور متعلق بـ﴿يَسْجُدُونَ﴾، وقدم عليه لإفادة الحصر والاختصاص، أي: وله وحده يسجدون، لا لغيره.

أي: وله وحده لا شريكك له ﴿يَسْجُدُونَ﴾ أي: يصلون فيسجدون له سجود صلاة وعبادة وسجود تلاوة.

وفي الآية حض وترغيب في عبادة الله ـ عز وجل ـ وتسبيحه والسجود والصلاة له والتشبه بالملائكة في ذلك، كما قال ﷺ: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند**

ربها، يُتمون الصفوف الأوَل، ويتراصون في الصف»[١].

كما أن في الآية تنويهاً بشأن التسبيح والسجود والصلاة، لذكرها من بين أنواع العبادة.

كما أن فيها إعلاماً للعباد بأن الله لا يريد أن يتكثر بعبادتهم من قلة، ولا أن يتعزز بهم من ذلة.

ويشرع السجود بالإجماع عند هذه الآية لتاليها ومستمعها، وهي أول سجدة في القرآن الكريم في ترتيب المصحف.

وقد رُويَ من حديث أبي الدرداء ـ رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ عدها في سجدات القرآن»[٢].

الفوائد والأحكام:

١- وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن وبخاصة في الصلاة وحال الخطبة، واستحباب الاستماع له فيما عدا ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾.

٢- عظمة القرآن الكريم، ووجوب تعظيمه وتدبره، والتأدُّب معه واحترامه.

٣- الوعد بالرحمة للمستمعين المنصتين للقرآن المتدبرين له؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

٤- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله ـ عز وجل ـ وأحكامه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لأجل أن يرحمكم الله، وفي هذا رد على نفاة الحكمة في أفعاله ـ عز وجل ـ وأحكامه من أهل البدع والضلال.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ـ الأمر بالسكون في الصلاة (٤٣٠)، وأبوداود في الصلاة ـ تسوية الصفوف (٦٦١)، والنسائي في الإمامة ـ حث الإمام على رص الصفوف (٨١٦)، وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ إقامة الصفوف (٩٩٢)، وأحمد (٥/ ١٠١) ـ من حديث جابر بن سمرة ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة ـ عد سجود القرآن (١٠٥٦)، وأخرجه الترمذي مختصراً في «الجمعة» (٥٦٨).

٥- إثبات صفة الرحمة لله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ لأن المعنى: ليرحمكم الله.

٦- إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ، ولكل من تبعه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ﴾.

٧- تشريف الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ، وتكريمه له بإضافة اسمه «الرب» إلى ضميره ﷺ، وربوبيته الخاصة له.

٨- الحث على ذكر الله ـ عز وجل ـ في النفس، بالقلب واللسان خفية تذللاً واستكانةً ورغبةً وطمعاً في ثوابه، وخوفاً ورهبة من عقابه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾.

٩- ينبغي أن يكون المسلم في هذه الحياة بين رجاء الله وخوفه، يرجو رحمة الله، ويخاف عقابه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾.

١٠- ينبغي أن يكون الذكر باللسان، وسطاً بين الإسرار والجهر؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾.

١١- أن الذكر يكون بالقلب واللسان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾، وقوله: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، كما يكون بالجوارح.

١٢- ينبغي ذكر الله ـ عز وجل ـ بالغدو والآصال، بل وفي جميع الأوقات بالليل والنهار؛ لقوله ـ تعالى: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾.

١٣- فضل الغدو والآصال، وهما أول النهار وآخره من بين الأوقات؛ لأن الله خصهما بالذكر، فقال: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾.

١٤- أن من آداب الدعاء أن يكون بالنفس، وأن يكون بتضرع وخضوع وتذلل للرب ـ عز وجل ـ وخيفة وخشية منه، وأن يكون دون الجهر من القول، وأن يكون على الدوام في جميع الأوقات وبخاصة أول النهار وآخره.

١٥- النهي عن الغفلة عن ذكر الله ـ عز وجل، والتحذير من ذلك، وذم الغافلين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾.

١٦- إثبات وجود الملائكة، وشرفهم بكونهم عند الله، والتنويه بشأنهم وما هم عليه من الخضوع لله وعبادته وتسبيحه، والسجود له وحده؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾.

١٧- أن الله أمر العباد بعبادته لا ليتكثر بعبادتهم من قلة، ولا ليتعزز بهم من ذلة، فمن عنده من الملائكة يعبدونه ويسبحونه وله يسجدون ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٠٠]، وقال ـ تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾ [فصلت: ٣٨].

١٨- الترغيب بالتشبه بالملائكة في كثرة عبادتهم لله ـ عز وجل، وتسبيحهم له، وعبادته والخضوع والسجود له وحده لا شريك له.

١٩- التعريض بالمشركين الذين يستكبرون عن عبادة الله ـ عز وجل، ولا يسبحونه، ولا يسجدون له.

٢٠- مشروعية سجود التلاوة عند هذه الآية، وهذا بالإجماع.

* * *

تفسير آيات الأحكام في سورة الأنفال

سورة الأنفال كلها مدنية نزلت في غزوة بدر، فيها، وقبلها وبعدها، في رمضان في السنة الثانية من الهجرة.

فعن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: «نزلت في بدر»(١).

ولهذا تسمى أيضاً سورة «بدر» كما قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس، سورة الأنفال؟ قال: «تلك سورة بدر»(٢).

قال الله ـ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾ [الأنفال: ١].

سبب النزول:

عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: «نزلت فيَّ أربع آيات: أصبت سيفاً فأتى به النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، نفلنيه، فقال: «ضعه» ثم قام. فقال له النبي ﷺ: «ضعه من حيث أخذته» ثم قام، فقال: نفلنيه يا رسول الله. فقال: «ضعه» فقام، فقال: يا رسول الله، نفلنيه، أأجعل كمن لا غناء له؟ فقال له النبي ﷺ: «ضعه من حيث أخذته» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾»(٣).

وفي رواية عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: «لما كان يوم بدر، وقتل أخي عمير، وقتلت سعيد بن العاص، وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكتيفة(٤)،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنفال (٤٦٤٥)، ومسلم في التفسير (٣٠٣١).

(٢) ذكره السيوطي في «الإتقان» (١/ ١٧٢)، ونسبه لأبي الشيخ، وذكره أيضاً في «الدر المنثور» (٣/ ١٥٨).

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٤٨)، وأبوداود في الجهاد ـ باب في النفل (٢٧٤٠)، والترمذي في تفسير سورة الأنفال (٣٠٧٩)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٨).

(٤) ذا الكتيفة: السيف العريض.

فأتيت به النبي ﷺ. فقال: «اذهب فاطرحه في القَبَض»(١)، قال: فرجعت، وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي، وأخذ سلبي. قال: فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: «اذهب فخذ سيفك»(٢).

وفي رواية عن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: يا رسول الله، قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيف. فقال: «إن هذا السيف ليس لك ولا لي، ضعه»، فوضعته ثم رجعت، قلت: عسى أن يعطي هذا السيف من لم يبل بلائي، قال: إذا رجل يدعوني من ورائي، قال: قلت: قد أنزل الله فيَّ شيئاً؟ قال: «كنت سألتني السيف، وليس هو لي، وإنه قد وهب لي فهو لك» قال: وأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾»(٣).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «**من فعل كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا**». قال: فتقدم الفتيان، ولزم المشيخة الرايات، فلم يبرحوها، فلما فتح الله عليهم، قال المشيخة: كنا ردءاً لكم(٤) لو انهزمتم لفئتم إلينا، فلا تذهبوا بالمغنم ونبقى، فأبى الفتيان، وقالوا: جعله رسول الله ﷺ لنا، فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾ إلى قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ يقول: فكان ذلك خيراً لهم، فكذلك أيضاً فأطيعوني فإني أعلم بعاقبة هذا منكم»(٥).

---

(١) القَبَض: بفتح القاف والباء، بمعنى المقبوض، وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٨٠)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٦-١٧)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(١٥٥).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٧٨)، وأبوداود في الجهاد ـ باب في النفل (٢٧٤٠)، والترمذي في تفسير سورة الأنفال (٣٠٧٤)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٥-١٦) وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٤) أي: نصراً وعوناً لكم.

(٥) أخرجه أبوداود في الجهاد ـ باب في النفل (٢٧٣٧)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٢-١٣)، والحاكم (٢/ ١٣١-١٣٢) وصححه، والبيهقي في «سننه» (٦/ ٢٩١، ٢٩٢).

قوله ـ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ بصيغة المضارع دال على تكرار السؤال وكثرة السائلين.

والسؤال معناه الطلب، فإن عُديَ بنفسه فمعناه طلب إعطاء الشيء كما يقال: أسألك درهماً، أي: أعطني درهماً.

وإن عُديَ بـ«عن» كما في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ فمعناه طلب معرفة الشيء وحكمه ونحو ذلك.

فقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ معناه: يسألونك عن حكم الأنفال من يستحقها؟ وكيف تقسم؟ وعلى مَن تقسم؟ ونحو ذلك.

و«الأنفال» جمع «نَفَل» والنَّفَل والنافلة: الزيادة، كما قال ـ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، أي: زيادة وخصوصية لك.

قال لبيد:

إن تقوى الله خير نَفَل ... وبإذن الله ريثي والعجل

فالأنفال الزيادات في العطاء.

وتطلق أيضاً عند العرب على الغنائم في الحرب، كأنهم يرون أنها زيادة على المقصود من الحرب، وهو هزيمة الأعداء والقضاء عليهم وإضعافهم، كما قال أوس بن حجر الأسدي:

نكصتم على أعقابكم ثم جئتمو ... تُرَجُّون أنفال الخميس العرمرم

وقال عنترة بن شداد:

إنا إذا احمر الوغى نرْوي القنا ... ونَعِفُّ عند مقاسم الأنفال

وهو يريد بالأنفال المغانم؛ ولهذا قال في معلقته:

يُخبركِ من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأَعف عند المغنم

ولهذا فسر بعض السلف الأنفال بالزيادات التي يُنفل بها بعض المجاهدين زيادة على نصيبه من الغنيمة قبل المعركة أو بعدها كالسلب والفرس وغير ذلك لبلاء أبلاه.

وفسرها بعض السلف وأكثر أهل العلم بعدهم بالغنائم[١]. وهذا أقرب وأعم؛ لأن ما يُنفل به بعض المجاهدين هو أيضاً من الغنائم، ولأن الغنائم زيادة في أموال المسلمين، نفلها الله ـ عز وجل ـ لهذه الأمة، أي: أباحها لهم دون غيرهم كما في حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**وأعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي** ـ وذكر منهن: **وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي**»[٢].

قال أبوعبيد[٣]: «أما الأنفال فهي المغانم وكل نَيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب».

وقال السعدي[٤]: «الأنفال هي الغنائم التي ينفلها الله لهذه الأمة من أموال الكفار، وكانت هذه الآيات قد نزلت في قصة بدر، أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ كيف تقسم؟ وعلى مَن تقسم؟».

﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾

أي: قل: الأنفال ملك لله والرسول، والحكم فيها لله ورسوله، يضعانها حيث شاءا، فعليكم الرضا والتسليم لما حكم الله ورسوله فيها، ولهذا قال بعده: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ﴾ ولم يقل: «قل هي» لمزيد العناية والاهتمام، كما أظهر اسم الرسول ﷺ فقال: ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ ولم يقل: «ولي» تعظيماً له ﷺ.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الفاء للتفريع، أي: فاتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك الرضا والتسليم لحكم الله ورسوله في الأنفال وغير ذلك.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٥-١٩)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٥٣-١٥٦١)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢) ـ من حديث جابر ـ رضي الله عنه.

(٣) في «الأموال» ص(٤٢٦).

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٤١).

﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ معطوف على ما قبله.

وإصلاح الشيء جعله صالحاً، أي: وأصلحوا حالكم وما بينكم من الاختلاف والتنازع في الأنفال وغير ذلك. وفي الآية ما يشعر بالعتاب لهم على ما وقع منهم من الخلاف والنزاع في الأنفال ـ كما جاء في بعض روايات سبب النزول.

وإصلاح ذات البين من أوجب الأعمال وأفضلها؛ لأن فساد ذات البين، كما قال ﷺ: «**هي الحالقة**»(١) وفي رواية قال: «**هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**»(٢).

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ معطوف على ما قبله.

والطاعة الامتثال بفعل المأمور وترك المحظور، أي: افعلوا ما أمركم الله به ورسوله، واتركوا ما نهاكم الله عنه ورسوله.

وهي بمعنى التقوى، وحيث اجتمع في هذه الآية الأمر بتقوى الله والأمر بطاعة الله ورسوله، فالأولى حمل الأمر بالتقوى هنا على اجتناب النواهي، وحمل الأمر بالطاعة على فعل الأوامر، أي: وأطيعوا الله ورسوله في قسمة الغنائم وفي غير ذلك.

وعطف قوله: ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾ على اسم «الله» بالواو التي تقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله ـ تعالى، كما قال ـ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِن﴾ شرطية، و﴿كُنتُم﴾ فعل الشرط، وجوابه دل عليه ما سبق، أي: إن كنتم مؤمنين ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

فمن شرط الإيمان تقوى الله وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله.

---

(١) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٩١٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٩)، وأحمد (٦/ ٤٤٤، ٤٤٥) ـ من حديث أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ وقال الترمذي: «هذا حديث صحيح».

(٢) ذكرها الترمذي في الموضع السابق بقوله: «ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**».

الفوائد والأحكام:

١- تشريف الله ـ عز وجل ـ وتكريمه لنبيه ﷺ بخطابه له بقوله ـ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾.

٢- تولي الله ـ عز وجل ـ الإجابة عما يوجه إلى النبي ﷺ من أسئلة، وفي هذا إثبات لرسالته ﷺ ودفاع عنه، وبيان أنه ﷺ إنما هو مبلغ عن الله ـ عز وجل، وفيه رد على من زعموا أنه تقوّل القرآن وافتراه من عند نفسه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾.

٣- حرص الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على تعلّم أمر دينهم.

٤- ينبغي أن يتوجه بالسؤال في أمر الدين إلى الأنبياء، وهكذا فعل الصحابة رضي الله عنهم، ويتوجه به بعدهم إلى العلماء فهم ورثة الأنبياء.

٥- أن الأنفال ملك لله والرسول، والحكم فيها لله والرسول؛ لقوله ـ تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾ وقد بيّن عز وجل حكمها في قوله ـ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١].

٦- وجوب تقوى الله بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٧- وجوب إصلاح ذات البين بين المسلمين والقضاء على أسباب النزاع والاختلاف؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ﴾.

٨- حرص التشريع الإسلامي على أن يعيش أتباعه في وئام وانسجام، وأخوة وأُلفة ومحبة، بعيدين عن أسباب النزاع والاختلاف والافتراق.

٩- في الأمر بإصلاح ذات البين على وجه الخصوص دلالة على أهمية ذلك وخطر فساد ذات البين، فهي كما قال ﷺ: «**لا تحلق الشعر ولكن تحلق الدين**».

١٠- وجوب طاعة الله ورسوله بفعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ والأولى حمل الطاعة هنا على فعل المأمورات، وحمل التقوى على ترك المحظورات حيث اجتمعا في آية واحدة، تفادياً للقول بالتكرار.

١١- إثبات رسالته ﷺ؛ لقوله - تعالى: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾.

١٢- جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله بالواو التي تقتضي التشريك في باب الطاعة؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله - تعالى.

١٣- أن من شرط الإيمان تقوى الله، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله؛ لقوله - تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

ذكر ـ عز وجل ـ أن من شرط الإيمان تقوى الله وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله، ثم أتبع ذلك ببيان صفات المؤمنين حقًّا في هاتين الآيتين.

قوله ـ تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ﴿ إِنَّمَا ﴾ أداة حصر، والحصر هو «إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه»، وهي كافة ومكفوفة، أي: أن «ما» دخلت على «إن» فكفتها عن العمل.

والمعنى: إنما المؤمنون كاملو الإيمان، الذين عندهم الإيمان المطلق، لا مطلق الإيمان هم المتصفون بالصفات المذكورة في الآيتين.

والإيمان لغة: التصديق، كما قال إخوة يوسف فيما ذكر الله عنهم: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف: ١٧]، أي: وما أنت بمصدق لنا، وكقوله ـ تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٦١] أي: ويصدق للمؤمنين.

وشرعاً: هو قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ هذه هي الصفة الأولى من صفات المؤمنين، أي: الذين إذا ذكر الله عندهم، بذكر ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وآياته الشرعية والكونية، وذُكِّروا به ووعظوا بذكر عظمته ووعده ووعيده.

﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

الوجل: الخوف والفزع، كما قال ـ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الحجر: ٥٢، ٥٣].

ومعنى ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: فرقت وخافت وفزعت قلوبهم تعظيماً لله ـ عز وجل، وخوفاً منه، فأقبلوا على طاعته وابتعدوا عن معاصيه.

كما قال ـ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥]،

وقال ـ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، وقال ـ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

ولهذا قال ـ تعالى ـ في الآية الأخرى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ هذه هي الصفة الثانية من صفات المؤمنين، أي: وإذا قرئت عليهم آيات الله الشرعية؛ آيات القرآن الكريم ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي: كانت سبباً في زيادة إيمانهم وقوة يقينهم، تصديقاً ويقيناً في قلوبهم، وإقراراً واعترافاً بألسنتهم، وعملاً بجوارحهم.

وذلك لشهودهم لتلاوة القرآن وتدبرهم له بأسماعهم وقلوبهم، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

وقال ـ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤].

وهذا بخلاف حال كثير من الناس اليوم يقرأ الواحد منهم القرآن كله، أو يسمعه من فاتحته إلى خاتمته لا يحرك منه ساكناً، بينما يبكي بعضهم أو يتباكى عند سماع دعاء ختم القرآن ولو كان بأدعية لم تؤثر، بل لا تخلو من الاعتداء. فلينتبه لهذا.

وفي الآية دلالة على زيادة الإيمان ونقصانه وتفاضله في القلوب كما هو مذهب أهل السُّنَّة وعليه عامة الأمة، قال ابن كثير(١): «بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد».

قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ هذه هي الصفة الثالثة من صفات المؤمنين، أي: وعلى ربهم، خالقهم ومالكهم ومدبرهم ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾. وقدم المتعلق ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ٥٥٢). وقد استدل بهذه الآية البخاري على ما ذكر في أول كتاب الإيمان.

لإفادة القصر، أي: وعلى ربهم وحده يتوكلون لا على غيره.

ومعنى ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يفوضون أمورهم إليه ويعتمدون عليه في جلب النفع ودفع الضر، مع تمام الثقة به ـ سبحانه، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون غيره، ولا يلوذون إلا به، ولا يطلبون حوائجهم إلا منه، موقنين أن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، متجاوزين الأسباب إلى مسببها من غير إهمال لها، بخلاف حال كثير من الخلق، فإنهم يفزعون في حوائجهم إلى الأسباب الظاهرة، وينسون مسبب الأسباب.

وجاء التعبير بالمضارع في قوله: ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ للدلالة على استمرارهم على ذلك في الحال والاستقبال.

قوله ـ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ ذكر الله ـ عز وجل ـ صفات المؤمنين في اعتقادهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ ثم أتبع ذلك بذكر صفاتهم في أعمالهم، فقال ـ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ وقدم أعمال القلوب لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها، وهي سبب لصلاح أعمال الجوارح.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذه هي الصفة الرابعة من صفات المؤمنين.

وقوله: ﴿يُقِيمُونَ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على استمرارهم على إقامة الصلاة والمحافظة عليها.

والمعنى: الذين يحافظون على الصلاة ويقيمونها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها ـ بمواقيتها، وجماعتها، وركوعها وسجودها، والخشوع فيها، وغير ذلك؛ لتحصل فوائدها، وتجنىٰ ثمارها ومنافعها؛ ولهذا جاء التعبير بقوله: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يقل: «يصلون»، وهذا كما هو الغالب في القرآن التعبير بإقام الصلاة؛ لأن المقصود إقامة الصلاة إقامة تامة كما شرعها الله ـ عز وجل.

وقدَّم ـ عز وجل ـ وصفهم بإقام الصلاة، وخصَّها من بين سائر الأعمال والعبادات البدنية؛ لأنها أعظم العبادات بعد الشهادتين، وهي عمود الإسلام، وقاعدته العظيمة التي يدور عليها رحاه، وهي سر اجتماع الأمة وقوَّتها وفلاحها وصلاحها ونجاحها، وهي جماع الخير كله.

وإقامتها كما شرع الله ـ عز وجل ـ في المساجد مع جماعة المسلمين سبب التوفيق والفلاح والعز والنصر والنجاح، والرزق والراحة والطمأنينة، و العون على أمور الدين والدنيا، والقيام بما عداها من الأعمال الصالحة، وقبولها والسلامة من الشرور.

والصلاة في اللغة: الدعاء، كما قال ـ تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وهي في الشرع: التعبد لله ـ عز وجل ـ بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم.

والصلاة: تشمل الفرائض وغيرها من النوافل.

قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذه هي الصفة الخامسة من صفات المؤمنين، أي: ومن الذي أعطيناهم من الأموال ينفقون.

وفي قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ تنبيه وتذكير بأن المال مال الله، وأنه عارية مردودة، كما قال الشاعر:

وما المال والأهلون إلا ودائع ولابد يوماً أن ترد الودائع

وقوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾ أي: يخرجون المال في وجوهه المشروعة، الواجب منها كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد ومن تجب النفقة عليه من الأقارب ونحو ذلك وفي وجوهه المستحبة كالصدقة والهدية، وغير ذلك من وجوه البر.

فجمعوا بين الإحسانين؛ الإحسان في عبادة الله ـ تعالى ـ بإقام الصلاة؛ إخلاصاً لله ـ تعالى ـ ومتابعة للرسول ﷺ، وبين الإحسان إلى عباد الله، بالإنفاق عليهم من

رزق الله. وهذا غاية ما يطلب من المؤمن، أن يكون محسناً في عبادة الله ـ تعالى، وإلى عباد الله.

قوله ـ تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ ﴾ الجملة مؤكدة لمضمون الآية قبلها، فالإشارة فيها للمؤمنين الذين حُصر الإيمان فيهم ووصفوا بالصفات المذكورة في الآية السابقة. وأشار إليهم بإشارة البعيد تعظيماً لشأنهم، وتنويهاً بهم، وفيها حصر الإيمان فيهم مرة أخرى وتأكيده بثلاث مؤكدات، وهي: كون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وضمير الفصل «هم».

و﴿ حَقّٗاۚ ﴾ مفعول مطلق مؤكد لمضمون جملة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾، أو لمصدر محذوف، أي: إيماناً حقًا، أي: أولئك المؤمنون الموصوفون بتلك الصفات هم المؤمنون حق الإيمان، الذين ثبت لهم وصف الإيمان المطلق الكامل، وكانوا أحق به؛ حيث جمعوا بين العلم والعمل، والإيمان والإسلام، وصلاح الباطن والظاهر، والإحسان في عبادة الله ـ عز وجل ـ والإحسان إلى عباده.

ومفهوم الحصر في الآيتين أن من لم يتصف بالصفات المذكورة فليس بمؤمن الإيمان الكامل، بل هو ناقص الإيمان، عنده مطلق الإيمان، وليس عنده الإيمان المطلق.

﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾.

بعدما ذكر الله ـ عز وجل ـ صفات المؤمنين حقًا، بيَّن ما أعدَّ لهم من الأجر والمثوبة.

قوله: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ الجملة خبر ثان؛ لقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾.

واللام للاستحقاق، أي: درجات مستحقة لهم، ونكِّرت ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ للتعظيم، أي: لهم منازل عالية، ومراتب رفيعة في الجنة حسب إيمانهم وأعمالهم. ونُكِّرت للتعظيم.

﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: منه ـ عز وجل ـ وعنده ـ وفي هذا تعظيم لها، فهي منازل عالية ومراتب رفيعة ويزيدها علوًّا ورفعة وعظمة كونها من ربهم الجواد الكريم ذي

الفضل العظيم، ويزيدها عظمة ورفعة كونها عند ربهم؛ حيث يأمنون ويطمئنون بقربه، وينعمون بجواره، نسأل الله الكريم من فضله، كما قال ـ تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم**» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين**»(١).

فلهم درجات ومراتب ومنازل ومقامات عند ربهم في الجنة حسب منازلهم في الإيمان، واتصافهم بتلك الصفات.

لكن من نِعم الله ـ عز وجل ـ وفضله على أهل الجنة أن من كان منهم أعلى منزلة يرى ما فَضَّله الله به على من دونه، بينما المفضَّل عليه لا يرى أن هناك أحداً أفضل منه؛ لأن الله ـ عز وجل ـ أذهب عن أهل الجنة الغم والحزن ـ كما قال ـ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ معطوفة على درجات، ونكِّرت للتعظيم، أي: ولهم مغفرة عظيمة واسعة لذنوبهم، والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته، كما في حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ في المناجاة، وتقرير العبد بذنوبه، وفيه «**فيقول الله ـ عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»(٢).

ومنه سمي «المغفر» وهو البيضة التي توضع على الرأس حال القتال؛ تستره وتقيه السهام.

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ـ صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٥٦)، ومسلم في الجنة ـ ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء (٢٨٣١).

(٢) أخرجه البخاري في المظالم و الغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣).

﴿وَرِزْقٌ﴾ نكَّر للتعظيم، والرزق العطاء، ﴿كَرِيمٌ﴾ واسع كثير. أي: ولهم عطاء من ربهم عظيم واسع، كثير، لا يقدر قدره إلا من أعطاهم إياه، وهو الرب العظيم الواسع الكريم ـ سبحانه وتعالى، كما قال ـ عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ عن الجنة: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[(١)].

وعن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ ذات يوم لأصحابه: «**ألا مشمر للجنة، فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وفاكهة كثيرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحُلَل كثيرة، في مقامٍ أبداً في حَبْرَةٍ ونَضْرَةٍ في دُورٍ عالية سليمة بهية**» قالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله، قال: «**قولوا: إن شاء الله**» ثم ذكر الجهاد وحضَّ عليه[(٢)].

وقدَّم قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ لبيان منازلهم وعلوّها ورفعتها في الجنة.

ثم أتبعه بقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لبيان ما لهم من النعيم في هذه المنازل فبيَّن أولاً المنزل، ثم بين ما للنازل فيه من الضيافة.

وقدَّم المغفرة؛ لأن فيها التخلية وزوال المرهوب، ثم أتبعها بالرزق الكريم الذي به التحلية وحصول المطلوب ـ نسأل الله الكريم من فضله.

قال السعدي[(٣)]: «ودل هذا على أن من لم يصل إلى درجتهم في الإيمان ـ وإن دخل الجنة فلن ينال ما نالوا من كرامة الله التامة».

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٥) ـ من حديث سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤٣٢٢).

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٤٤).

الفوائد والأحكام:

١- حصر الإيمان المطلق الكامل بمن اتصفوا بالصفات المذكورة في الآيتين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

٢- فضل أعمال القلوب؛ لهذا قدَّمها على أعمال الجوارح من الصلاة والنفقات؛ لأنها أصل لأعمال الجوارح، وسبب لصلاحها.

٣- أن الأعمال من الإيمان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ وفي هذا رد على المرجئة.

٤- الترغيب بذكر الله ـ عز وجل ـ والتذكير به، وخوفه ورجائه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

٥- الترغيب بتلاوة القرآن والاستماع له وتدبره؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾.

٦- إثبات زيادة الإيمان ونقصانه، وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً للمعتزلة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾.

٧- وجوب التوكل على الله ـ عز وجل ـ والاعتماد عليه، وتفويض الأمور إليه في جلب النفع، ودفع الضر ـ مع تمام الثقة به؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

٨- وجوب إقامة الصلاة المفروضة، والترغيب في صلاة النوافل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

٩- وجوب إخراج النفقات الواجبة في المال كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد ونحو ذلك، والترغيب في الصدقة في وجوه البر كلها وفي الهدية؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

١٠- في قوله ـ تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ بيان أن الرزق من الله ـ عز وجل. وأنه عارية مردودة، وفي ذلك حض على الإنفاق منه وعدم البخل فيه.

١١- عظم مكانة الصلاة والإنفاق من رزق الله، لهذا خصهما بالذكر، فالصلاة أعظم العبادات البدنية، والإنفاق بإخراج الزكاة والنفقات أعظم العبادات المالية، وفي الصلاة الإحسان في عبادة الله ـ عز وجل، وفي الإنفاق بإخراج الزكاة وغيرها الإحسان إلى عباد الله.

١٢- أن الصلاة أعظم من الزكاة وغيرها من النفقات، بل هي أعظم العبادات بعد الشهادتين، لهذا قدم إقام الصلاة على الإنفاق.

١٣- تأكيد كمال إيمان من اتصفوا بالصفات المذكورة وبلوغهم درجة الإيمان المطلق؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾. ويفهم من هذا أن من لم يتصف بهذه الصفات ليس بكامل الإيمان، وإنما عنده مطلق الإيمان.

١٤- رفعة درجات المؤمنين ومنازلهم عند ربهم في الجنة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وأمنهم فيها وعليها بقربهم من ربهم وجوارهم له.

١٥- تفاوت درجات أهل الجنة ومنازلهم حسب تفاوت إيمانهم وأعمالهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

١٦- إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة للمؤمنين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾.

١٧- مغفرة الله ـ عز وجل ـ العظيمة الواسعة للمؤمنين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾.

١٨- عظم ما أعده الله للمؤمنين من العطاء وكثرته وسعته في الجنة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

١٩- عظم فضل الله ـ عز وجل ـ وعفوه وجوده وكرمه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

٢٠- أن معرفة المنزل ومكانته تسبق معرفة ما للنازل فيه من النعيم، لهذا قدَّم في الآية قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ على قوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

٢١- أن التخلية قبل التحلية؛ لهذا قدَّم المغفرة على الرزق الكريم.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨﴾ [الأنفال: ٥-٨].

قوله ـ تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

روى ابن إسحاق عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم، فأخرجوا إليها، لعل الله أن ينفلكموها، فانتدب الناس، فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً. وكان أبوسفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان،تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك، واستأجر ضمضم بن عمرو الغِفَارِي، فبعثه إلى أهل مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ وادياً يقال له: «ذَفِران» فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل، وأتاهم الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار النبي ﷺ الناس، وأخبرهم عن قريش. فقام أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ فقال، فأحسن، ثم قام عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال، فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: امض لما أمرك الله، فنحن معك، فوالله ما نقول لك كما قالت بنو إسرائيل: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى «بَرْك الغِماد»[١] ـ يعني مدينة الحبشة ـ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال

---

(١) «بَرْك الغِماد» بكسر الغين وضمها، والكسر أشهر موضع إلى الجنوب من مكة، على نحو مائتي كيلومتر مما يلي البحر، وقيل: موضع بأقصى أرض هجر.

له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير.

ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليَّ أيها الناس ـ وإنما يريد الأنصار ـ وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج بلادهم. فلما قال رسول الله ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: فقال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُر عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسِر بنا على بركة الله. فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك، ثم قال: سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم غداً»[1].

قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾ الكاف للتشبيه بمعنى «مثل» و«ما» مصدرية، أي: مثل إخراج ربك لك من بيتك بالحق، أي: كما أمرك ربك بالخروج قدراً وشرعاً ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾ أي: من منزلك في المدينة ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ الباء للملابسة والمصاحبة، أي: إخراجاً ملابساً ومصاحباً للحق، موافقاً للمصلحة، وعين الحكمة والصواب.

فشبه ـ والله أعلم ـ اختلاف المؤمنين في قسمة الغنائم، وما حصل بين بعضهم من التنازع فيها حتى جعل الله الأمر فيها له ولرسوله ﷺ، فقسمها على العدل والسوية، فكان في ذلك المصلحة التامة لهم ـ شبه هذا بخروجه ﷺ إلى بدر وكراهية بعض المؤمنين للقتال، ومجادلتهم بالحق بعد ما تبين، فكان عاقبة كراهتهم

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤١-٤٣)، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٠٦-٦٠٧).

للقتال أن قدره الله لهم، وجمع بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد فكان النصر والفتح للمسلمين. فلله الحكمة في هذا وفي هذا.

وقد قيل العكس، أي: أن الله شبه إخراجه ﷺ يوم بدر بما حصل بين المؤمنين من اختلاف في أمر الغنائم.

﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ الواو للحال، أي: والحال إن جماعة من المؤمنين ﴿لَكَٰرِهُونَ ﴾ أي: لكارهون للقتال، واللام للتوكيد.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ ﴾ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ ﴾: حال من ﴿فَرِيقًا﴾ أو من الضمير في «كارهون»، بصيغة المضارع لحكاية حالة المجادلة زيادة في التعجب منها.

أي: يخاصمونك وينازعونك في الحق، وهو ما أمرك الله به من القتال بقولهم: لم نعلم أننا نلقى العدو فنستعد لقتالهم، وإنما خرجنا للعير، ونحو ذلك[١].

﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ ﴾ أي: بعد ما تبين لهم أن الله هو الذي أخرجك، وهو الذي أمرك بالقتال لحكمة يعلمها. أو بعد ما تبين لهم الحق وظهر أن الله قدر لهم النصر حيث وعدهم إحدى الطائفتين العير أو النفير، ثم أخبرهم أن العير قد أخطأتهم فبقي النفير، وقد وعدوا بالنصر عليه.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ الجملة حال من الضمير في «كارهون» أو من فاعل ﴿يُجَٰدِلُونَكَ ﴾ أي: حال كونهم في كراهتهم القتال ومجادلتهم في الحق بعدما تبين كحال من يساقون إلى الموت وهم ينظرون.

والمعنى: كأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون، أي: كمن يساق إلى الموت وهو ينظر أسبابه، وذلك لقلة عددهم، وعدم تأهبهم مقارنة بالمشركين، وفي الآية تعريض بأنهم إنما يساقون ويسار بهم إلى النصر والغنيمة والوعد الحق.

قوله ـ تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ الواو عاطفة، والجملة

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٣٨).

معطوفة على قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾ أو استئنافية، و«إذ» ظرف بمعنى «حين» متعلق بفعل محذوف تقديره: «اذكروا».

﴿يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ بوحيه إلى نبيه ﷺ. ووعد الله ـ عز وجل ـ لا يتخلف، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

والوعد يكون بالخير ـ غالباً، وقد يكون بالشر، كما في قوله ـ تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧] بخلاف الوعيد فإنه يكون بالشر.

﴿إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾ الطائفة الجماعة من الناس، أي: إحدى الجماعتين من عدوكم، إما العير التي مع أبي سفيان فيها تجارة قريش، وإما النفير من المشركين الذين خرجوا لحمايتها وعلى رأسهم أبوجهل.

﴿أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ أي: أنها معطاة لكم، فإما أن تظفروا بالعير وما تحمله من التجارة، وإما أن تظفروا بالنفير الذين خرجوا لحمايتها وتنتصرون عليهم. وهذا مقتضى وعد الله لهم، فهم رابحون في الحالين.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ أي: وتحبون وترغبون أن الطائفة ﴿غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾ أي: غير صاحبة الشوكة. والشوكة في الأصل واحدة الشوك، وهو ما يؤذي من النبات بإبره الحادة.

والمعنى: وتحبون أن الطائفة غير ذات البأس والقوة والعدد والسلاح ﴿تَكُونُ لَكُمۡ﴾ أي: تكون من نصيبكم، وهي العير التي ليس معها سوى نحو أربعين رجلاً غير مقاتلين، فتحصل لكم غنيمة باردة بلا حرب، وكسب بلا قتال. وهذا من طبيعة النفس البشرية الرغبة بما هو أيسر وأقل كلفة.

ومفهوم هذا أنهم يكرهون أن تكون لهم الطائفة ذات الشوكة والبأس والقوة والعدة والعدد، والتي قوامها نحو ألف مقاتل، وهي النفير.

ولكن الله ـ عز وجل ـ بعلمه وحكمته أراد أمراً هو خير وأعظم وأعلى مما أحبوا، ولهذا قال ـ تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧﴾.

أي: ويريد الله إرادة شرعية كونية ﴿أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «يريد» أي: أن يظهر الدين الحق وهو الإيمان بالله وتوحيده وما جاء به رسوله ﷺ.

﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ كلمات الله تنقسم إلى قسمين كلمات كونية، وهي أوامره الكونية القدرية، وكلمات شرعية وهي وحيه إلى أنبيائه ورسله، والمراد هنا ما يشمل كلماته الكونية والشرعية، من آيات القرآن المنزلة في قتال الكفار، وإمداد المؤمنين بالملائكة، وأمرهم بتثبيت المؤمنين ونصرهم، وغير ذلك من أسباب النصر.

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قطع دابر الشيء: إزالته إزالة تامة حتى لا يبقى منه شيء.

فقوله: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يستأصلهم بالهلاك عن آخرهم فلا يبقي منهم أحداً، كما قال ـ تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ۚ﴾ [الأنعام: ٤٥].

ولهذا قدَّر لكم لقاء الطائفة ذات الشوكة وجمع بينكم وبينهم على غير ميعاد، كما قال ـ تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

قوله ـ تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يثبت الدين الحق ويظهره، وفيه تأكيد لما وعدهم به من النصر والظفر في بدر، ووعدهم بإحقاق الحق وتثبيته وتأييده وإبطال الباطل.

﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: ويزيل الباطل وهو الكفر والشرك، ويمحوه ويزهقه، بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه، وبخذلان أهله وقطع دابرهم.

وهذا توكيد لقوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ لأن الباطل ضد الحق، فإذا جاء الحق وظهر؛ زهق الباطل واضمحل، كما قال ـ تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال ـ تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وفي كل من قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ جناس اشتقاق، وبينهما مقابلة بين «يحق» و«يبطل» و«الحق» و«الباطل».

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: ولو كره ذوو الإجرام من المشركين والكفار إحقاق الحق وإبطال الباطل، وعاندوا وخالفوا فلا يبالي الله بهم.

الفوائد والأحكام:

١- الإشارة إلى أن لله الحكمة فيما قدر من اختلاف بعض المؤمنين حول قسمة الغنائم وتنازعهم في ذلك حتى جعل الله الأمر فيها له ولرسوله ﷺ، كما أن له ـ عز وجل ـ الحكمة في إخراجه ﷺ ومن معه من المدينة وكراهية بعض المؤمنين للقتال فكان عاقبة ذلك أن قدره لهم وجمع بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد فكان النصر للمسلمين، لقوله ـ تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾﴾.

٢- تشبيه ما حصل من تساؤل عن الأنفال، وما حصل من تنازع حول قسمتها حتى جعل الله الأمر فيها له ولرسوله ﷺ بخروجه ﷺ لبدر ومن معه من المؤمنين وكراهية فريق منهم القتال، ومجادلتهم في أنهم لم يخرجوا لقتال، وجمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، وما أعقب ذلك من النصر؛ لقوله ـ تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية ـ ولله الحكمة في ذلك كله.

٣- أن خروجه ﷺ يوم بدر هو بأمر الله ـ عز وجل ـ قدراً وشرعاً؛ لقوله ـ تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه وتكريمه بخطابه ـ عز وجل ـ له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ في قوله: ﴿رَبُّكَ﴾.

٥- أن خروجه ﷺ من بيته لبدر خروج بالحق ولإحقاق الحق؛ لقوله ـ تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

٦- كراهية فريق من المؤمنين في بادئ الأمر للقتال ومجادلتهم للنبي ﷺ بقولهم:

لم نعلم أنا نلقى العدو فنستعد لقتالهم، وإنما خرجنا لطلب العير، ونحو ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ ولكنهم ـ رضي الله عنهم ـ سرعان ما انشرحت صدورهم، واطمأنت قلوبهم لذلك.

٧- أن ما أمر الله ـ عز وجل ـ به رسوله ﷺ من القتال يوم بدر هو الحق الذي بيَّنه الله؛ ولهذا عاتب الله ـ عز وجل ـ من جادل فيه من المؤمنين بعد بيانه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾.

٨- التحذير من المجادلة بالحق بعد تبينه وظهوره.

٩- في قوله ـ تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ بعد قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ إشارة إلى أن كراهتهم للقتال ومجادلتهم ليس لأجل مخالفته ﷺ، ولا جبناً منهم أو نكوصاً عن الجهاد، وإنما لكونهم لم يستعدوا للقتال.

١٠- وعد الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين بإحدى الطائفتين؛ إما العير، وإما النفير، بما أوحاه الله ـ عز وجل ـ إلى رسوله ﷺ وتذكيرهم بذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾.

١١- مودة المؤمنين ومحبتهم أن تكون لهم الطائفة غير ذات الشوكة والقوة والبأس، وهي العير، ليحصلوا على الغنيمة بلا قتال؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ ومفهوم هذا كراهتهم أن تكون لهم الطائفة ذات الشوكة والقوة والبأس.

١٢- إرادة الله ـ عز وجل ـ كوناً وشرعاً إحقاق الحق وتثبيته، وإظهار دينه بكلماته الشرعية بأمره بالجهاد وكلماته الكونية بتقديره وكتابته النصر للمؤمنين وقطع دابر الكافرين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

١٣- إثبات الإرادة لله ـ عز وجل ـ بقسميها الكونية، والشرعية، وتقدير الله ـ عز وجل ـ للمقادير؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

١٤- أن ما أراده الله ـ عز وجل ـ كوناً كائن لا محالة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

١٥- أن ما جاء به ﷺ من الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده ونبذ الشرك هو الحق.

١٦- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله ـ عز وجل ـ وأحكامه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾.

١٧- تقرير وتوكيد قوة الحق وثباته، وضعف الباطل أمام قوة الحق وبطلانه واضمحلاله.

١٨- إرغام أنوف المجرمين بإحقاق الحق وإظهاره، وإبطال الباطل، ولو كرهوا ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: ٩-١٠].

سبب النـزول:

عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»، قال: فمازال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبوبكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله ـ عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ فأمدَّه الله بالملائكة. قال أبوزُمَيْلٍ: فحدثني ابن عباس، قال: بينما رجل من المسلمين يومئذٍ يشتد في أَثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حَيزُوم، فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، فنظر إليه، فإذا هو قد خُطِمَ أنفه، وشُقَّ وجهه، كضربة السوط، فاخْضَرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدَّث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة**» فقَتَلُوا يومئذٍ سبعين، وأسروا سبعين»(١).

قوله ـ تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين» متعلق بـ«تودون»

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد ـ الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (١٧٦٣)، وأبوداود في الجهاد ـ فداء الأسير بالمال (٢٦٩٠)، والترمذي في تفسير سورة الأنفال (٣٠٨١)، وأحمد (١/ ٣٠-٣١)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٥١). وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب»، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٥٩): «وصححه علي بن المديني والترمذي، وقالا: لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليماني».

أو بـ«يريد» أو بمحذوف تقديره: اذكروا.

ومعنى ﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ أي: تطلبون الغوث من ربكم، وهو التخلص من الشدة والنصر على أعدائكم بدعائكم إياه، كما في قوله ﷺ: **«اللهم أنجز لي ما وعدتني»**[1].

وقوله ﷺ: **«اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعْبَد بعد اليوم»**، فأخذ أبوبكر بيده، فقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألحَحْتَ على ربك، وهو في الدِّرْعِ، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾»[2].

وجاءت الاستغاثة باسم «الرب» لأنه الخالق المالك المتصرف الذي بيده النصر، والأمر كله.

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾.

والسين والتاء فيه للمبالغة، فاستجاب أبلغ من أجاب؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ـ غالباً ـ أي: فاستجاب لاستغاثتكم وأجاب دعاءكم ووعدكم بالإغاثة.

﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ وهذا وعد من الله ـ عز وجل ـ بإمدادهم بألف من الملائكة، وهو وعد مطلق لم يعلق بشرط، كما علق الإمداد في قصة أحد بقوله ـ تعالى ـ في سورة آل عمران: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الآيتان: ١٢٤، ١٢٥]. فلما فات شرطه وهو الصبر والتقوى فات الإمداد[3].

﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ أي: بأني ممدكم.

---

(١) سبق تخريجه قريباً ـ من حديث ابن عباس عن عمر ـ رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩١٥) ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «زاد المعاد» غزوة بدر (٣/ ١٧٧-١٧٨).

ومعنى ﴿مُمِدُّكُم﴾ معطيكم ومزودكم، فالإمداد: العطاء والزيادة من الخير، كما قال ـ تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠].

و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جمع ملَك بفتح اللام، وهم خلق من خلق الله، خلقهم الله من نور، كما قال ﷺ: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»(١).

﴿مُرْدِفِينَ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر ويعقوب بفتح الدال «مردَفين»، أي: يردفهم غيرهم من الملائكة بعدهم.

وقرأ الباقون بكسر الدال: «مردِفين» أي يكون هؤلاء الألف رِدْفاً لغيرهم قبلهم.

والإرداف: الاتباع والإلحاق، أي: متتابعين بعضهم إثر بعض. فالمعنى على قراءة فتح الدال أن هؤلاء الألف من الملائكة يأتي بعدهم من يردفهم، أي: يتبعهم.

والمعنى على قراءة كسر الدال أن هؤلاء الألف يأتون ردفاً، أي: تبعاً لمن قبلهم.

ويؤخذ من معنى القراءتين: أن الإمداد ليس محصوراً في هذا العدد من الملائكة وهم الألف بل هناك زيادة وإمداد بأكثر منهم ممن يأتون بعدهم، أو ممن جاؤوا قبلهم.

فهذا المدد من الملائكة يُردف ويتبع ويلحق بعضهم بعضاً أَرسالاً، لم يأتوا دفعة واحدة، وذلك أرهب وأهيب للعدو.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «**وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مجُنِّبة، وميكائيل في خمسمائة مجُنِّبة**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٦) ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

(٢) سيأتي تخريجه كاملاً.

ومجنبة الجيش هي التي تكون في الميمنة والميسرة.

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ، وفيها أبوبكر ـ رضي الله عنه، ونزل ميكائيل ـ عليه السلام ـ في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ، وأنا فيها»[١].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «بينا رجل من المسلمين يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم[٢]، إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، قال: فنظر إليه، فإذا هو قد خطم أنفه[٣]، وشق وجهه، كضربة السوط، فاخْضَرَّ ذلك أجمع[٤]، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة، فقتلوا يومئذٍ سبعين، وأسروا سبعين»[٥].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «**هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب**»[٦].

وعن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه، وكان أبوه من أهل بدر، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ، فقال: «**ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين، أو كلمة نحوها ـ قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة**»[٧].

قوله ـ تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ ﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة على ما تقدم، و«ما» نافية، والمراد بالجعل هنا الجعل الكوني، والضمير في «جعله» يعود إلى الوعد بالإمداد بالملائكة، وهو مفعول أول لـ«جعل».

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٥٨).

(٢) يقال: حيزوم اسم فرس الملك.

(٣) أي: قطع أنفه.

(٤) أي: فصار ذلك كله أخضر.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه البخاري في المغازي ـ شهود الملائكة بدراً (٣٩٩٥).

(٧) أخرجه البخاري في المغازي ـ شهود الملائكة بدراً (٣٩٩٢).

أي: وما جعل الله وعدكم بالإمداد بالملائكة إلا بشرى، و«إلا» أداة حصر، أي: ما هو إلا بشرى.

و﴿بُشْرَىٰ﴾ مفعول ثانٍ لـ«جعل» أو مفعول لأجله، أي: لأجل البشرى.

ولم يقل هنا «لكم» كما قال في سورة آل عمران: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ لأنه سبق في قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فأغنى عن إعادته مرة ثانية.

وقال بعض أهل العلم: لم يُقيد البشرى هنا بقوله: «لكم» لأن هذه الآية عامة وباقية في الأمة، فأخبر عز وجل أنه جعل الإمداد بُشرى ولم يقيده، وأما قوله في قصة أحد في آل عمران ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ فإنه يقتضي خصوصية البشرى بهم؛ لقوله: ﴿لَكُمْ﴾ ولهذا قدم قوله: ﴿قُلُوبُكُم﴾ على ﴿بِهِۦ﴾ في قوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٢٦][(١)].

والبشرى والبشارة: الخبر السار، مأخوذة من البَشَرة؛ لأن الإنسان إذا سُر اتسعت بشرته، واستنار وجهه كما قال كعب بن مالك ـ رضي الله عنه: «فلما سلمت على رسول الله ﷺ، وهو يبرق وجهه من السرور، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»[(٢)].

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ الواو عاطفة، واللام للتعليل، أي: ولأجل أن تطمئن به قلوبكم، واطمئنان القلوب أن تسكن ويزول عنها الخوف وتوقن بنصر الله.

وقدم المتعلِّق ﴿بِهِۦ﴾ للاهتمام بذلك الوعد، وإفادة الاختصاص، أي: أن قلوبهم لا تطمئن إلا به، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود أيضاً إلى الوعد بالإمداد بالملائكة.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ الواو عاطفة و﴿مَا﴾ نافية، و﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، أي: وما النصر إلا من عند الله، فهو الذي ينصر من يشاء، وليس ذلك لكثرة العدد ولا العدة

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (٣/ ١٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٢٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، والترمذي في تفسير سورة التوبة (٣١٠٢).

ولا بحولكم وقوتكم، كما قال ـ تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقال ـ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال ـ تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الجملة مستأنفة، أي: إن الله ذو العزة التامة المطلقة؛ عزة القوة، وعزة الغلبة والقهر، وعزة الامتناع، يعز وينصر من يشاء بفضله، ويخذل ويذل من يشاء بعدله، كما قال ـ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

﴿حَكِيمٌ﴾ أي: ذو الحكم التام، بأقسامه الثلاثة؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة، بقسميها؛ الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

فهو ـ عز وجل ـ ذو الحكم التام والحكمة البالغة، فيما خلق وقدر وحكم، وفيما شرع وأمر ونهى.

فبعزته ـ عز وجل ـ ينصر أولياءه المؤمنين، ومن حكمه وحكمته أن شرع الجهاد في سبيل الله لقتال الكفار ابتلاءً وامتحاناً للمؤمنين ـ مع قدرته ـ عز وجل ـ على إهلاك الكفار واستئصالهم بدون ذلك، كما قال ـ تعالى: ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ [محمد: ٤]. وقال ـ تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١]، وقال ـ تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير المؤمنين باستغاثتهم به ـ عز وجل ـ وإجابته لهم وإمدادهم بالملائكة امتناناً منه ـ عز وجل ـ عليهم ـ وتذكيراً لهم بفضله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ والمنة منه ـ عز وجل ـ على أول هذه الأمة منّة منه على من جاء بعدهم.

٢- أن الاستغاثة إنما تكون بمن بيده الغوث والإمداد والنصر وهو الرب الخالق المالك المتصرف ـ سبحانه وتعالى، ولا تجوز بغيره.

٣- الترغيب بالاستغاثة به ـ عز وجل ـ وطلب المدد والعون منه والنصر على الأعداء والالتجاء إليه.

٤- قرب إجابته ـ عز وجل ـ لمن استغاثه ودعاه؛ لأن الله رتب الإجابة في الآية ترتيب الجواب على الشرط.

٥- أن وعد الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين بإمدادهم بالملائكة إنما هو بشارة لهم ولتطمئن به قلوبهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾.

٦- شهود الملائكة مع المؤمنين في بدر وتتابعهم أرسالاً ألفاً أو أكثر لنجدة المسلمين، والقتال معهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾.

٧- أن النصر حقًا ما هو إلا من عند الله ـ عز وجل ـ وبيده، لا بكثرة العدد والعدة ونحو ذلك ـ وإن كانت هذه الأسباب لا ينبغي إغفالها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٨- الجمع بين التوكل على الله، وفعل الأسباب، فالنصر من عند الله ـ عز وجل ـ وبيده سبحانه ـ لكن الإمداد بالملائكة من أسباب النصر معنويًا؛ لتقوية عزائم المؤمنين، وحسيًّا لشهودهم المعركة ومقاتلتهم مع المؤمنين.

٩- إثبات صفة العزة التامة لله ـ عز وجل ـ بأقسامها الثلاثة؛ عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾.

١٠- إثبات صفة الحكم التام لله ـ عز وجل ـ بأقسامه الثلاثة؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات صفة الحكمة البالغة لله ـ عز وجل ـ بقسميها؛ الحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ حَكِيمٌ ﴾.

١١- في اجتماع صفة العزة والحكم والحكمة ـ في حقه ـ عز وجل ـ زيادة كماله إلى كمال، فعزته مقرونة بالحكمة، وحكمه مقرون بالعزة.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأنفال: ١١ ـ ١٤].

ذكَّر الله ـ عز وجل ـ بالآيات السابقة المؤمنين باستغاثتهم به ممتناً عليهم باستجابته لهم وإمدادهم بالملائكة، ثم ذكَّرهم في هذه الآيات ممتناً عليهم ـ أيضاً ـ بإلقائه النعاس عليهم أمنة لهم، وإنزال الماء عليهم تطهيراً لهم وإزالة لرجس الشيطان عنهم، وربطاً على قلوبهم، وتثبيتاً لأقدامهم، كما ذكرهم بوحيه ـ عز وجل ـ إلى الملائكة أني معكم، وأمرهم بتثبيت المؤمنين، ووعده بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين.

قوله ـ تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو بفتح الياء والشين وألف بعدها: ﴿يَغشَاكُمُ﴾ و﴿النُّعَاسُ﴾ بالرفع.

وقرأ نافع وأبوجعفر بضم الياء، وإسكان الغين، وكسر الشين ﴿يُغْشِيكم﴾ و﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ بالنصب.

وقرأ الباقون بضم الياء ، وفتح الغين، وكسر الشين مشدّدة ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾.

و﴿ إِذْ ﴾ ظرف بمعنى «حين» متعلق بمحذوف تقديره «اذكر»، أي: اذكر حين يغشيكم النعاس. وقوله: ﴿يُغَشِّيكُمُ ﴾ بالمضارع لاستحضار الحالة. والنعاس هو النوم غير الثقيل، مثل السِّنَة. والتغشية: التغطية.

فالمعنى على قراءة الرفع «إذ يغشاكم النعاس» أي: إذ يغطيكم النعاس، أي: يغطي عقولكم.

وعلى قراءة النصب: أي: إذ يغشيكم الله النعاس، أي: إذ يلقي الله النعاس عليكم، ويجعله يغطي عقولكم.

﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أي: أماناً، والضمير في قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ يعود إلى الله، أي: أماناً من الله ـ عز وجل ـ لكم.

و﴿أَمَنَةً﴾ منصوب على المفعول لأجله على قراءة نصب ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ أي: لأجل تأمينكم وإذهاب الخوف من قلوبكم وطمأنتها بنصر الله، وعلى الحال على قراءة رفع النعاس، أي: حال كونه أمنة من الله ـ عز وجل ـ لكم. وهذه الآية كقوله ـ تعالى ـ في قصة أحد في سورة آل عمران: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [الآية: ١٥٤].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ وهما يدعوان، أخذت النبي ﷺ سِنة من النوم، ثم استيقظ متبسماً فقال: «**أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل، على ثناياه النَّقْع**»، ثم خرج من باب العريش، وهو يتلو قوله ـ تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥]»[١].

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح»[٢].

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

هذه هي المنة والنعمة الثالثة التي امتنَّ الله بها عليهم من أسباب النصر، وهي إنزال المطر عليهم، مع إمدادهم بالملائكة، وإلقاء النعاس عليهم أمنة منه لهم.

قوله: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يطهركم به طهارة ظاهرة من الحدث الأصغر والأكبر والنجاسات الحسية.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٦٣).

وقد سبق تخريجه بأخصر من هذا عند تفسير قوله ـ تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٢٥).

﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أي: ويزيل عنكم بهذا المطر رجز الشيطان ووساوسه وخواطره السيئة، من تخذيلكم، وقوله: ليس لكم بهؤلاء طاقة ونحو ذلك. وهي طهارة باطنة معنوية.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ أي: ولأجل أن يربط على قلوبكم، أي: يثبتها ويقويها، فإن ثبات القلب أصل ثبات البدن وقوته.

﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ أي: ويثبت بهذا المطر أقدام الناس ودوابهم عند السير حيث لبد المطر الأرض، واشتدت فسهل السير عليها ـ بعد أن كانت رخوة ووحلاً.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «نزل النبي ﷺ ـ يعني حين سار إلى بدر، والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعْصة، فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، فوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنبين، فأمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب، فساروا إلى القوم، وأمد الله نبيه بألف من الملائكة، فكان جبريل ـ عليه السلام ـ في خمسمائة من الملائكة مجنِّبة، وميكائيل في خمسمائة مجنِّبة»(١).

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: «أصابنا من الليل طش من مطر ـ يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر، فانطلقنا تحت الشجر والحَجَف، نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه ـ عز وجل ـ ويقول: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد**» قال: فلما أن طلع الفجر نادى: «الصلاة عباد الله» فجاء الناس من تحت الشجر والحجَف، فصلى بنا رسول الله ﷺ وحرض على القتال»(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٦٤)، وأخرجه بأخصر من هذا (١١/ ٦٥-٦٦) من طريق ابن جريج عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبوداود في الجهاد (٢٦٦٥)، وأحمد (١/ ١١٧)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٦٢-٦٣).

قوله ـ تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

هذا مما امتنَّ الله به وأنعم على رسوله ﷺ والمؤمنين حيث أمدهم بالملائكة وأوحى إليهم بأنه معهم وأمرهم بتثبيت الذين آمنوا وضرب أعناق الذين كفروا وكل بنان منهم.

قوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ﴾ ﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى «حين» متعلق بمحذوف تقديره: اذكر، أو متعلق بقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، وقيل: متعلق بقوله: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

والوحي: الإعلام بسرعة وخفاء.

والخطاب في قوله: ﴿رَبُّكَ﴾ للنبي ﷺ، وفيه وفي إضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ تشريف وتكريم له، وإثبات ربوبيته ـ عز وجل ـ الخاصة له.

﴿إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: إلى الملائكة الذين أمد الله بهم المؤمنين. ووحي الله لهم إما بإلقاء هذا الأمر في نفوسهم، أو إبلاغهم ذلك بواسطة.

﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ أي: بأني معكم، والخطاب للملائكة، وفيه إثبات معية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لملائكته وأوليائه؛ معية النصر والتأييد والتوفيق والتسديد. أي: أني معكم بالنصر والتسديد والتأييد.

﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الأمر للملائكة ـ أي: قووا قلوب الذين آمنوا على الصبر والجلاد والجهاد، وبشروهم بالنصر، وآزروهم وقاتلوا معهم.

﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ الجملة مستأنفة فيها وعد وبشارة من الله ـ عز وجل ـ بهزيمة الكفار من داخلهم، أي: سألقي وأدخل في قلوب الذين كفروا الخوف والفزع، وتلك والله أعظم هزيمة لهم، وحافز معنوي للمؤمنين، كما قال ـ تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

وقال ﷺ: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»[١].

﴿ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾ الخطاب للملائكة، أو للمؤمنين، أو لهم جميعاً، و﴿ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾: الرقاب. أي: فاضربوا أعالي رقاب الكفار، أو فاضربوا رقابهم، كما قال ـ تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ [محمد: ٤].

وقال بعضهم: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أي: فوق الرؤوس. والمعنى الأول أظهر.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين: ضرب الرقاب وقطعها، وضرب الرؤوس وفلق الهام، لأنها كلها مذابح.

وقد روي أن رسول الله ﷺ كان يمر بين القتلى يوم بدر، فيقول:

نُفَلِّق هاماً...

فيقول أبو بكر الصديق:

.... من رجالٍ أعزةٍ علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

فيبتدئ ﷺ بأول البيت، ويستحسن من أبي بكر – رضي الله عنه ـ إنشاد آخره؛ لأنه ﷺ لم يُعلَّم الشعر، ولا يليق به، كما قال ـ تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩][١].

﴿ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴾ معطوف على ما قبله، والبنان: جمع بنانة، قال الشاعر:

ألا ليتني قطَّعْتُ منِّي بنانــةً ولاقيْتُهُ في البيت يَقْظانَ حاذِرا[٢]

والبنان: الأصابع أو أطراف الأصابع من اليدين والرجلين، أي: اضربوهم كيفما اتفق من المقاتل وغيرها. فضرب الأعناق فيه القضاء على الكفار، وضرب كل بنان منهم فيه القضاء على مقاومتهم؛ لأن ضرب البنان فيه تعطيل لعمل اليد وقدرتها على

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٦٥-٥٦٦).
والبيت المذكور للحصين بن الحمام المري، وهو شاعر جاهلي. انظر: «الشعر والشعراء» (٢/ ٦٤٨).
(٢) البيت بلا نسبة في «مجاز القرآن» (١/ ٢٤٢)، و«جامع البيان» (١١/ ٧٢)، وفي «اللسان» مادة «بنن».

حمل السلاح.

قوله ـ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ الإشارة لما سبق من الأمر بضرب أعناق الكفار وضرب كل بنان منهم.

والباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ للسببية، أي: بسبب أنهم، فالجملة تعليلية، أي: إنما أمرنا بضربهم فوق الأعناق، وضرب كل بنان منهم، عقوبة لهم، بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله، وفي هذا تحذير من مسلكهم، وترغيب في لزوم طاعة الله ـ تعالى.

ومعنى ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: خالفوا وعصوا الله ورسوله.

والمشاقة مأخوذة من الشِّق، وهو الجانب، لأن المخالف يأخذ شقًّا غير شق صاحبه، وجانباً غير جانبه، ومنه شق العصا، أي: جعلها فرقتين.

وعطف هنا اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله ـ عز وجل ـ بالواو التي تقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه، لأن مشاقة الرسول ﷺ مشاقة لله ـ تعالى ـ كما أن طاعته طاعة لله ـ تعالى.

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية، أي: ومن يعص ويخالف الله ورسوله.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ جواب الشرط، وقرن بالفاء لأنه جملة اسمية، أي: فإن الله شديد العقاب لمن شاق الله ورسوله، وعصى وخالف أمر الله ورسوله، بتسليط أوليائه عليهم وقتلهم وإنزال أنواع العقوبات فيهم في الدنيا، وتخليدهم في النار في الآخرة.

وفي هذا تحذير وتهديد لكل من شاق الله ورسوله.

قوله ـ تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾

الإشارة والضمير في قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾ إلى العقاب المذكور، والمأخوذ من قوله: ﴿ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ والخطاب للذين كفروا وشاقوا الله ورسوله ـ على طريق الالتفات ـ وفيه تبكيت وإهانة لهم حيث يقال لهم

هذا حال قتلهم وضربهم.

﴿فَذُوقُوهُ﴾ أي: تجرعوا مرارته، وأحسوا بشدته وألمه في الدنيا.

﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ الجملة معطوفة على المشار إليه في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ أي: ذلكم العقاب الدنيوي، وأن للكافرين في الآخرة عذاب النار.

وأظهر في مقام الإضمار فقال: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: «وأن لكم» لتأكيد كفرهم، وبيان شمول هذا الوعيد بالنار لهم ولغيرهم من الكفار.

فعذبهم الله ـ عز وجل ـ بهذا العذاب الدنيوي في بدر، وتوعدهم هم وغيرهم من الكفار بعذاب النار في الآخرة.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير الله ـ عز وجل ـ المؤمنين بما منَّ به عليهم في بدر من أسباب النصر، ومن ذلك تغشيتهم النعاس، أماناً لهم، وطمأنة لقلوبهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ الآية.

٢- امتنان الله ـ عز وجل ـ على المؤمنين وعنايته بهم بإنزال المطر عليهم في بدر، تطهيراً لهم من الأحداث والنجاسات الحسية والمعنوية، وإذهاب رجز الشيطان ووساوسه عنهم، والربط على قلوبهم وتقويتها، وتثبيت أقدامهم أثناء السير وأقدام دوابهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

٣- وحي الله ـ عز وجل ـ إلى الملائكة الذين أمدَّ الله بهم المؤمنين بأنه ـ عز وجل ـ معهم بنصره وتأييده لهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾.

٤- أمر الله ـ عز وجل ـ الملائكة بتثبيت وتقوية قلوب المؤمنين في بدر ومؤازرتهم والقتال معهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهكذا حصل ولله الحمد.

٥- تحفيز الملائكة والمؤمنين بوعدهم وبشارتهم بإلقاء الرعب في قلوب الذين

كفروا، والذي يعد من أعظم أسباب هزيمتهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾.

٦- أمر الله الملائكة والمؤمنين وحضهم على ضرب أعناق الكفار، وكل بنان منهم، وتقطيع أطرافهم نكاية بهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

٧- أن ما أمر الله به من ضرب أعناق الكفار وضرب كل بنان منهم والنكاية بهم بسبب كفرهم ومشاقتهم لله ورسوله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿(١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

٨- التحذير من مشاقة الله ورسوله، والتهديد الأكيد بالعقاب الشديد لمن شاق الله ورسوله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

٩- جواز عطف اسم الرسول ﷺ، أو وصفه على اسم الله في باب المشاقة والمعصية بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن مشاقة الرسول ﷺ ومعصيته مشاقة ومعصية لله ـ عز وجل.

١٠- شدة عقاب الله ـ عز وجل ـ لمن عصاه وخالف أمره وأمر رسوله، وأنه لا طاقة لأحد بعقاب الله.

١١- تبكيت الكافرين وإهانتهم معنوياً مع ما لقوا من العقاب والنكال الحسي في بدر من ضرب أعناقهم، وضرب كل بنان منهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾.

١٢- الجمع للكافرين يوم بدر بين العذاب الدنيوي بضرب أعناقهم وكل بنان منهم وبين عذاب النار في الآخرة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾.

١٣- الوعيد لجميع الكافرين من قريش وغيرهم بعذاب النار؛ للإظهار مقام الإضمار في قوله ـ تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنفال: ١٥-١٩].

ذكَّر الله ـ عز وجل ـ المؤمنين في الآيات السابقة ممتنًّا عليهم بما منحهم في بدر من أسباب النصر، من الإمداد بالملائكة، وتغشيتهم النعاس أماناً لهم، وإنزال المطر عليهم، وإعلام الملائكة أنه معهم، وأمرهم بتثبيت المؤمنين، وإلقائه الرعب في قلوب الذين كفروا، ثم أتبع ذلك بنهي المؤمنين عن تولية الكفار الأدبار والوعيد لمن فعل ذلك.

قوله ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، و«الذين» صفة لـ«أي» أو بدل منها.

والإيمان لغة: التصديق، كما قال إخوة يوسف ـ فيما حكى الله عنهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف: ١٧]، أي: وما أنت بمصدق لنا، وقال ـ تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٦١]، أي: يصدق لهم.

وهو في الشرع: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان.

﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا ﴾ «إذا» ظرفية شرطية، أي: إذا لقيتم الذين كفروا للقتال والنزال.

﴿زَحْفًا ﴾ حال من الضمير في قوله: ﴿لَقِيتُمُ ﴾ أو من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أو منهما معاً.

الزحف: الدنو والتقارب قليلاً قليلاً، وهو في الأصل الزحف على البطن، وعلى الإلية، ولهذا يطلق الزحف على الجيش الكثير، لثقل تنقله.

والمعنى: إذا لقيتم الذين كفروا متزاحفاً ومتقارباً بعضكم إلى بعض.

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ﴾ أي: فلا تفروا وتولوهم ظهوركم، بل اثبتوا لقتالهم، كما قال ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقال ﷺ: **«لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا»**[١].

والأدبار: جمع دبر وهي الظهور، قال تعالى: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥]، أي: من خلف ظهره. والتعبير بـ«الأدبار» دون «الظهور» لتقبيح الفرار والانهزام.

قال الشاعر:

تأخرتُ استبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياةً مثلَ أن أتقدما

قوله ـ تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ الواو عاطفة، و«من» شرطية. أي: ومن يول الكفار ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم الزحف واللقاء.

﴿دُبُرَهُۥٓ﴾ قفاه وظهره بأن يفر من المعركة وينهزم.

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، و﴿مُتَحَرِّفًا﴾ منصوب على الاستثناء المتصل من قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ﴾ أو على الحال: أي: إلا حال كونه متحرفاً لقتال، أي: متحيلاً لأجل القتال، والتحرف: الحيلة الحربية، والفر لأجل الكر؛ لأن الحرب خدعة.

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ معطوف على ﴿مُتَحَرِّفًا﴾، أي: أو إلا متحيزاً إلى فئة، أي: منحازاً ومنضماً إلى جماعة أخرى من المسلمين ليستعين بهم أو ليعينهم.

عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كنت في سرية من سرايا رسول الله

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٦٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٣١) ـ من حديث عبدالله بن أبي أوفى ـ رضي الله عنه.

ﷺ فحاص الناس حيصة[1] وكنت فيمن حاص، فقلنا: كيف نصنع، وقد فررنا من الزحف، وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فبتنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كان لنا توبة، وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج، فقال من القوم؟ فقلنا: نحن الفرارون. فقال: لا، بل أنتم العكَّارون[2]، أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين. قال: فأتيناه، حتى قبَّلنا يده»[3].

وفي رواية زيادة: «وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾»[4].

ولهذا لما قتل أبوعبيد ـ رضي الله عنه ـ على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من ناحية المجوس قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه: «لو انحاز إليَّ كنت فئته» وفي رواية أنه قال: «أنا فئة كل مسلم»[5].

﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ﴾ والفاء رابطة لجواب الشرط، لاقترانه بـ«قد». والباء في قوله: ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للملابسة، أي: فقد رجع ملابساً لغضب الله ـ تعالى ـ عليه، واستحق عقاب الله، كما قال ـ تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ أي: ومصيره الذي يأوي إليه ومرجعه ﴿جَهَنَّمُ﴾. أي: النار، وسميت بذلك لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: وقبح وساء المصير والمأوى والمرجع جهنم.

وفي هذا الوعيد بغضب الله والنار ما يدل على شدة تحريم التولي يوم الزحف

---

(١) الحيص: الحيد عن الشيء والرجوع عنه، وحاصوا عن العدو: انهزموا.

(٢) العكارون: العطّافون، وهو جمع عكّار، وهو الذي يفر لأجل أن يرجع ويكر.

(٣) أخرجه أبوداود في الجهاد ـ التولي يوم الزحف (٢٦٤٧)، والترمذي في الجهاد (١٧١٦)، وأحمد (٢/ ٧٠، ٨٦).

(٤) أخرجها ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧١).

(٥) أخرجهما عبدالرزاق في «المصنف» (٩٥٢٢، ٩٥٢٤، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢/ ٥٣٦)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٨٠، ٨١).

وأنه من كبائر الذنوب، كما قال ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**، وذكر منهن: **التولي يوم الزحف**»[١].

ولهذا عاتب المؤمنين على ما حصل منهم يوم أحد فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

قوله ـ تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾

ذَكَر الله ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة ما أمدَّ به المؤمنين من الملائكة وغير ذلك من أسباب النصر على الكفار، ثم أتبع ذلك بما يؤكد ذلك كله، وهو بيان أن ما حصل لهم من قتل الكفار يوم بدر والانتصار عليهم إنما هو من الله ـ عز وجل.

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بسكون النون في الموضعين من قوله: «ولكن»، وقرأ الباقون بتشديدها «ولكنَّ».

قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي: فلم تقتلوا المشركين بحولكم وقوتكم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي: أظفركم بهم، وسدد رميكم وسهامكم، وصوب سلاحكم نحوهم، ونصركم عليهم، كما قال ـ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال ـ تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ الآية [التوبة: ٢٥]، وقال ـ تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقدَّم لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ دون أن يقول: ولكن قتلهم الله، للاهتمام ببيان معرفة فاعل القتل بعد أن نفى أنهم قتلوهم، وتعظيماً لنفسه ـ عز وجل.

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٧)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، وأبوداود في الوصايا (٢٨٧٤)، والنسائي في الوصايا (٣٦٧١) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

فهو ـ عز وجل ـ موجد الأسباب ومسبباتها، وهو خالق أفعال العباد وفي هذا الرد على القدرية الذين ينفون أن الله خالق أفعال العباد، ويزعمون أنهم هم الذين يخلقون أفعالهم.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «رفع رسول الله ﷺ يديه ـ يعني يوم بدر ـ فقال: «**يا رب، إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً**» فقال له جبريل عليه السلام: خذ قبضة من التراب، فارم بها في وجوههم، فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين»[1].

فالخطاب في الآية للرسول ﷺ. والمنفي في قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ هو التسديد وإصابة الهدف، ولهذا قال بعده: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فأثبت أنه رمى وفعل السبب، ولكن إصابة هذا السبب هدفه هو فعل مسبب الأسباب، وهو الله ـ عز وجل ـ ولهذا قال:

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ أي: سدد رميك وصوبه نحو وجوه المشركين وعيونهم وأنوفهم وأفواههم. فهو ـ عز وجل ـ هو الذي جعل هذه القبضة من التراب تصيب وجوه القوم وتعمهم، وتكون من أسباب هزيمتهم ـ وهذا آية من آيات الله ـ عز وجل ـ ومعجزة له ﷺ.

﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ معطوف على محذوف يدل عليه ما سبق، أي: فَقَتْلُ المشركين وإصابة أعينهم كان الغرض منه هزيمتهم، وله علة أخرى وهي أن يُبليَ المؤمنين، فاللام في قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ﴾ للتعليل، أي: ولأجل أن

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٨٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٣)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٢٨٥) ـ وقال في «مجمع الزوائد» (٦/ ٤٨): «ورجاله رجال الصحيح». وروي بنحوه من حديث حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ أخرجه ابن إسحاق، كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٧٠)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٠٣)، وقال الهيثمي (٦/ ٨٤): «إسناده حسن».

يبلي المؤمنين، والضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ يعود إلى الله ـ عز وجل، ويجوز عوده على القتل والرمي فتكون «من» للسببية، أي: وليبلي المؤمنين بسببه بلاءً حسناً.

والمعنى: ولينعم على المؤمنين بالظفر والنصر والغنيمة والأجر المضاعف ليشكروه.

قال الشاعر:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

قال ابن القيم: «فالبلاء الحسن هنا هو النعمة، بالظفر والغنيمة والنصر على الأعداء، وليس من الابتلاء الذي هو الامتحان بالمكروه، بل مِن أبلاه بلاءً حسناً، إذا أنعم عليه، يقال: أبلاك الله، ولا ابتلاك. فأبلاه بالخير، وابتلاه بالمكاره ـ غالباً، كما في الحديث: «**إني مبتليك، ومبتلٍ بك**[(١)]»[(٢)].

وقال السعدي[(٣)]: «إن الله قادر على انتصار المسلمين من الكافرين من دون مباشرة قتال، ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجراً حسناً، وثواباً جزيلاً».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الجملة مستأنفة فيها معنى التعليل لما قبلها.

أي: إن الله ذو سمع واسع، يسع جميع الأصوات، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت خولة إلى رسول الله ﷺ تشكو زوجها، فكان يخفى عليَّ كلامها، فأنزل الله ـ عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ١]»[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها والصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة (٢٨٦٥)، وأحمد (٤/ ١٦٢، ٢٦٦) ـ من حديث عياض بن حمار ـ رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٢٩).

(٣) في «تيسر الكريم الرحمن» (٣/ ١٥٢).

(٤) أخرجه النسائي ـ في الطلاق (٣٤٦٠)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٨).

﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم واسع وسع كل شيء، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

أحاط ـ عز وجل ـ علماً بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة؛ قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ ولهذا لما سئل موسى ـ عليه السلام ـ عن القرون الأولى قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥٢].

وقدَّم ـ عز وجل ـ السمع على العلم؛ لأن السمع من أدوات العلم وطرقه وأسبابه.

وفي اقتران كمال السمع مع كمال العلم زيادة كماله ـ عز وجل ـ إلى كمال.

ومن سمعه ـ عز وجل ـ وعلمه أن سمع استغاثة المؤمنين ودعاءهم، وعلم حالهم، وحاجتهم لنصره فنصرهم، وعلم من يستحق الخذلان فخذلهم.

قوله ـ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ قرأ نافع وأبوجعفر وابن كثير وأبوعمرو «موهِّنٌ» بتشديد الهاء وبالتنوين، ونصب «كيدَ».

وقرأ حفص عن عاصم بالتخفيف من غير تنوين، وخفض «كيدِ» على الإضافة.

وقرأ الباقون بالتخفيف وبالتنوين، ونصب «كيدَ».

قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره: ذلكم الإبلاء حق.

والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إلى ما أمد الله به المؤمنين وما أنعم به عليهم وأبلاهم به من النصر وأسبابه وقتل المشركين ونحو ذلك. وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك» تعظيماً له.

وافتتح الكلام باسم الإشارة للتنبيه على أهمية ما بعده، كما في قوله ـ تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ [ص: ٥٥] ونحو ذلك. والخطاب للمؤمنين.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الواو عاطفة، و«أن» وما بعدها في تأويلِ مصدر

في محل جر بلام التعليل المحذوفة، والتقدير: ولتوهين كيد الكافرين، أي: وليبلي المؤمنين.. وليوهن كيد الكافرين. ويجوز كون «أن» وما بعدها في محل رفع عطفاً على ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾.

ومعنى ﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: مضعف مكرهم، ومصغر أمرهم، والكيد في الأصل المكر الخفي، والمراد به هنا ما يشمل المكر الخفي والجلي، وهذا وعد وبشارة من الله ـ تعالى ـ للمؤمنين بعد نصرهم في بدر بإضعاف كيد الكافرين ومكرهم في المستقبل، وفيه ما لا يخفى من تحفيز المؤمنين وتشجيعهم ورفع معنوياتهم.

وقد قال الله ـ تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال ـ تعالى ـ عن الكافرين: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

قوله ـ تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

عن عبدالله بن ثعلبة بن صُعَير ـ رضي الله عنه ـ قال: «لما التقى الناس، ودنا بعضهم من بعض قال أبوجهل: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف فأَحِنْه الغداة. فكان هو المستفتح»(١).

قوله ـ تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ الآية.

الخطاب للمشركين، أي: إن تطلبوا الفتح والفصل والحكم بينكم بإهلاك وعقاب من كان أقطع للرحم وأظلم من الطائفتين.

﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ هذا على سبيل التهكم بهم، أي: فقد بان لكم الفتح

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٥/ ٣٤٧) (٢٣٦٦١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٥) (٣٦٦٨١)، وأحمد (٥/ ٤٣١)، والنسائي في «الكبرى» في كتاب التفسير ـ قوله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ (١١٢٠١)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٩٣، ٩٤)، والحاكم (٢/ ٣٢٨) وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص(١٥٧).

وظهر، وهو الفتح للمؤمنين ونصرهم عليكم والفصل بينكم وبينهم.

﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: وإن تنتهوا عن الاستفتاح، وعما أنتم عليه من الكفر والتكذيب والمحادة لله ورسوله، كما قال ـ تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: فانتهاؤكم خير لكم خيرية مطلقة من جميع الوجوه في دينكم ودنياكم وأخراكم، وهذا من استعمال التفضيل بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل؛ لأن استمرارهم على ما هم عليه من الاستفتاح والكفر والتكذيب والمحادة لله ورسوله شر محض ليس فيه شيء من الخير لهم. وهذا كقوله ـ تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝٢٤﴾ [الفرقان: ٢٤]. فليس في النار شيء من الخير، بل هي شر محض.

وقوله: ﴿لَّكُمْ﴾؛ لأن منفعة ذلك تعود في المقام الأول إليهم، وإن كان في انتهائهم عما هم عليه من الكفر خير للمؤمنين حيث يسلمون من شرهم وأذاهم.

﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ﴾ كقوله ـ تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، أي: وإن ترجعوا إلى الاستفتاح والعناد والقتال ﴿نَعُدْ﴾ أي: نعد لكم بمثل هذه الواقعة التي وقعت بكم يوم بدر، وإلى هزيمتكم ونصر المؤمنين عليكم.

﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ الواو عاطفة، و﴿تُغْنِىَ﴾ تنفع وتدفع، ﴿فِئَتُكُمْ﴾ جماعتكم وأنصاركم، ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي فتعم، نفي أي شيء مهما كان صغيراً أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً.

أي: ولن تغني عنكم جماعتكم أي شيء مهما كان بجلب النفع لكم، أو دفع الضر عنكم ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: ولو كثر عددها، كما لم تغن عنكم كثرتكم يوم بدر.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر وحفص عن عاصم بفتح الهمزة: «وأن الله»، وقرأ الباقون بكسرها: «وإن الله» على الاستئناف.

أي: وأن الله مع المؤمنين معية خاصة، بتوفيقه وتأييده لهم، وإمدادهم

ونصرهم، وإن قل عددهم وعدتهم، كما أيَّد ـ عز وجل ـ حواريِّي عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ وأنصاره مع قلتهم، قال ـ تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾ [الصف: ١٤].

كما وفَّق وأيَّد بهذه المعية الخاصة أولياءه المتقين الصابرين، وعباده المحسنين، وإن كانوا هم الأقلين، كما قال ـ تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقال ـ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)﴾ [النحل: ١٢٨].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تكريماً وتشريفاً لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٣- أن الثبات عند ملاقاة الكفار زحفاً من مقتضيات الإيمان، وأن الفرار من الزحف يُعد نقصاً في الإيمان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥)﴾ الآية.

٤- تحريم الفرار من الزحف عند ملاقاة الكفار، وأنه من كبائر الذنوب؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)﴾.

٥- الوعيد الشديد لمن فر من الزحف وولى الكفار دبره لما رتب على ذلك من غضب الله والمصير إلى جهنم ـ وهو في هذا تحت مشيئة الله إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه، ولا يخلد في النار؛ لأنه لا يخلد فيها إلا المشرك، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

٦- في النهي عن تولية الكفار الأدبار عند الزحف والوعيد الشديد عليه إشارة وتنبيه

إلى عظم أثر ذلك؛ لما فيه من تعريض المسلمين للهزيمة والفت في عضد المجاهدين وتحطيم معنوياتهم، وإضعاف عزائمهم.

٧- تأكيد وجوب الثبات عند لقاء العدو، وأنه سبب لمرضاة الله ـ عز وجل ـ والوقاية من نار جهنم؛ لمفهوم قوله ـ تعالى ـ فيمن ولى الكفار دبره: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

٨- إثبات صفة الغضب لله ـ عز وجل ـ على ما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٩- إثبات جهنم وأنها معدة لتعذيب الكافرين والعصاة، وشدة ظلمتها وحرها وبعد قعرها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ﴾.

١٠- ذم جهنم وأنها بئس المصير والمرجع؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلا يعلم مدى بؤسها وقبحها إلا من وصفها بذلك، وهو العليم الخبير.

١١- ليس من الفرار من الزحف تولية الكفار الدبر تحرفاً واحتيالاً لقتال، أو تحيزاً إلى فئة ليناصرهم ويناصروه ونحو ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾.

١٢- أن الحرب حيلة وخدعة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾.

١٣- أن ما حصل للمسلمين من نصر على المشركين في بدر، وقتل لهم إنما هو من الله ـ عز وجل ـ لا بحولهم ولا قوتهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ﴾.

١٤- أن ما حصل من رميه ﷺ بالقبضة من التراب وجوه المشركين وإصابتهم جميعاً بذلك هو من الله ـ عز وجل ـ وتسديده؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾.

١٥- إثبات أن الله ـ عز وجل ـ خالق أفعال العباد؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون إن العباد يخلقون أفعالهم.

١٦- إثبات الأسباب ومسبباتها، وأن على العبد فعل السبب والله - عز وجل - هو مسبب الأسباب، والأمر كله بيده.

١٧- نعمة الله - عز وجل - العظيمة على المؤمنين، وإبلاؤه لهم البلاء الحسن في نصرهم على عدوهم مع كثرته، وقلة عددهم، ليعرفوا قدر نعمة الله - عز وجل - عليهم، ويشكروه؛ لقوله - تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾.

١٨- قدرة الله - عز وجل - التامة على الانتقام من الكافرين بقوله للشيء: «كن» لكنه - عز وجل - أمر المؤمنين بقتالهم ليجزل لهم الأجور، ويعظم لهم المثوبة.

١٩- إثبات صفة السمع الواسع لله - عز وجل - فهو - عز وجل - يسمع الدعاء وجميع الأصوات؛ لقوله - تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾.

٢٠- إثبات صفة العلم الواسع لله - عز وجل - فهو - عز وجل - ذو العلم الذي وسع كل شيء؛ لقوله - تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ ومن ذلك علمه - عز وجل - بمن يستحق النصر، ممن يستحق الخذلان.

٢١- في اجتماع صفة السمع الواسع لله - عز وجل - مع العلم الواسع زيادة كماله - عز وجل - إلى كمال، وفي تقديم وصفه با لسميع على وصفه بالعليم إشارة إلى أن السمع من وسائل وطرق العلم وأدواته.

٢٢- وعد الله - عز وجل - وبشارته للمؤمنين بإضعاف كيد الكافرين ومكرهم، وفي هذا تحفيز معنوي للمؤمنين وتشجيع لهم؛ لقوله - تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

٢٣- الإشارة إلى عظمة ما منَّ الله به على المؤمنين في بدر من النصر وأسبابه؛ لقوله - تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ بإشارة البعيد. وأعظم بذلك من منة ونعمة فقد كانت بدر الفاصلة الكبرى بين الحق والباطل والإيمان والشرك، ويومها يوم الفرقان.

٢٤- استفتاح الكفار بطلب الفتح والفصل بينهم وبين المؤمنين بإهلاك من كان أقطع للرحم وأظلم من الطائفتين، ومجيء الفتح من الله بنصر المؤمنين عليهم؛ لقوله - تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾.

٢٥- جواز التهكم بأهل الكفر والباطل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ فهذا على سبيل التهكم والسخرية بهم، فالفتح جاء ولكن ليس لهم، ولكن للمؤمنين عليهم.

٢٦- ترغيب الكفار بالرجوع عن الاستفتاح، وعما هم عليه من الكفر والتكذيب والمحادة لله ورسوله إلى الإيمان والطاعة، وبيان أن ذلك خير لهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٢٧- إطلاق التفضيل بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل مطلقاً؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فليس في عدم انتهائهم عما هم عليه من الكفر خير البتة، بل هو شر محض.

٢٨- تحذير الكفار وتهديدهم من العود إلى ما هم عليه من المحاربة لله ورسوله، والاستمرار على ذلك، بالإيقاع بهم وهزيمتهم ـ كما حصل لهم في بدر؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ﴾.

٢٩- هزيمة الكفار أمام قوة الحق والإيمان، مهما كثرت جموعهم وأنصارهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾.

٣٠- إثبات معية الله ـ عز وجل ـ الخاصة بالمؤمنين، بتأييده وتوفيقه ونصره لهم، لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٠-٢٣].

أمر الله ـ عز وجل ـ المؤمنين في مطلع السورة بطاعة الله ورسوله بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ وذكر ما كان منهم من كراهية الخروج إلى بدر، ومودتهم لقاء العير لا النفير، وما تلا ذلك من تأييد الله ـ عز وجل ـ لهم بأسباب النصر، بسبب طاعتهم لله ورسوله، وهزيمة المشركين بسبب مشاقتهم لله ورسوله، ثم أكد في هذه الآية الأمر بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وحذر من التولي والمخالفة، وفي هذا تحقيق معية الله الخاصة للمؤمنين التي ذكرها الله في الآية السابقة.

قوله ـ تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ الطاعة: الامتثال، بفعل الأمر، وترك النهي، أي: أطيعوا الله ورسوله بفعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله، والأمر في الآية للوجوب.

وقد عطف اسم الرسول ﷺ، أو وصفه على اسم «الله» بالواو، وهي تقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه؛ لأن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله ـ تعالى، بل هي طاعة لله ـ تعالى، كما قال ـ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾ [النساء: ٨٠]، ولتأكيد هذا المعنى لم يكرر الفعل «أطيعوا».

وهذا بخلاف باب المشيئة، فلا يجوز أن يقال: ما شاء الله وشاء محمد، ونحو ذلك؛ لأن مشيئة الرسول ﷺ وجميع الخلق إنما هي تابعة لمشيئة الله ـ وليست منها. ولهذا لما قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. قال ﷺ: «**أجعلتني والله عدلاً، ما شاء الله وحده**»[(١)].

وفي حديث قتيلة أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تنددون، وإنكم تشركون،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤)، وابن ماجه في الكفارات (٢١١٧) ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، «**فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، ويقولون: ما شاء الله ثم شئت**»[1].

﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ الواو عاطفة و«لا» ناهية، وهذه الجملة توكيد للأمر بطاعة الله ورسوله.

و﴿تَوَلَّوْا﴾ أصلها «تتولوا» فحذفت إحدى التائين تخفيفاً. والتولي: الانصراف بالبدن، والإعراض بالقلب.

والضمير في قوله: ﴿عَنْهُ﴾ يعود إلى الله، أو إلى رسوله، ويجوز عوده إلى الأمر بطاعة الله ورسوله.

والمراد النهي عن المخالفة وعصيان الله ورسوله، فهو توكيد للأمر بطاعتهما.

﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ الواو حالية، أي: والحال أنكم تسمعون ما يتلى عليكم من كتاب الله، وأوامره ونواهيه، ومواعظه وحججه وبراهينه، مما تقوم به عليكم الحجة.

فالمراد هنا السماع الذي تقوم به الحجة، والذي هو مناط التكليف.

وفي هذا النهي ـ مع اكتنافه بالكلام عن الكافرين ـ زجر للمؤمنين عن مخالفة أمر الله ـ تعالى ـ ورسوله، والتشبه بالكافرين المعاندين.

قوله ـ تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾ فالنهي فيها للمؤمنين، أي: ولا تكونوا أيها المؤمنون كالذين قالوا من المشركين والمنافقين ونحوهم ﴿سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ والمقصود التعريض بذم من هذه صفتهم، والتحذير من مسلكهم.

وقولهم: ﴿سَمِعْنَا﴾ أي: سمعنا سماعاً مطلقاً بالآذان والقلوب.

ـ هكذا يزعمون ـ وهم في الحقيقة إنما سمعوا بآذانهم ما تقوم به الحجة عليهم، لكنهم لم يسمعوا بقلوبهم ولم ينتفعوا، ولهذا رد عليهم بقوله: ﴿وَهُمْ لَا

(١) أخرجه النسائي في الأيمان والنذور (٣٧٧٣)، وأحمد (٦/ ٣٧١-٣٧٢).

﴿يَسۡمَعُونَ﴾ أي: لم ينتفعوا بما سمعوه بقلوبهم وجوارحهم، فصاروا كمن لا يسمع، كما قال ـ تعالى: ﴿وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. أي: لا يسمعون بها سماع انتفاع، وقال ـ تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: ٢٦].

قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

نهى الله ـ عز وجل ـ المؤمنين عن التشبه بالذين قالوا: سمعنا وهم لا يسمعون، وهم الكفار، ثم بيَّن أن هؤلاء هم شر الدواب وشر الخلق، تأكيداً لوجوب البُعد عن التشبه بهم.

قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ الدواب: جمع دابة، وهي كل ما دب ويدب على الأرض، ويمشي عليها من الحيوانات الناطق منها والبهم. قال ـ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦]، وقال ـ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: ٣٨].

أي: إن شر ما يدب على الأرض من المخلوقات والحيوانات. و﴿شَرَّ﴾ اسم تفضيل، كما هو في قوله ـ تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [المائدة: ٦٠]. وأصله «أشر» فحذفت همزته تخفيفاً، كما حذفت همزة «خير».

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في علم الله ـ عز وجل ـ وحكمه.

﴿ٱلصُّمُّ﴾ جمع أصم، والأصم الذي لا يسمع، والمراد: الصم عن سماع الحق، أي: عن الإصغاء إليه والانتفاع به.

﴿ٱلۡبُكۡمُ﴾ أي: البكم عن فهم الحق والنطق به. فهم عمي القلوب، كما قال ـ تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أي: الذين لا يعقلون عقلاً ينفعهم، فعندهم عقل الإدراك

الذي هو مناط التكليف، وليس عندهم عقل الانتفاع الذي هو مناط المدح، ولهذا شبهوا بالصم لعدم انتفاعهم بما يسمعون، وبالبكم، لعدم فهمهم الحق والنطق به، كما قال ـ تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال ـ تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وفي الآية إشارة أيضاً لانقطاع حجتهم عن رد الحق، كما صمت آذانهم عن سماعه، وخرست ألسنتهم عن النطق به، وعميت قلوبهم عن فهمه والانتفاع به، فهؤلاء هم شر الدواب وهم شر البرية، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ٦].

وإنما كان الكفار والمنافقون ونحوهم شر الدواب وشر البرية، لأنهم خلقوا لعبادة الله ـ عز وجل ـ وحده، فكفروا به، بينما كل من سواهم من المخلوقات أطاعت وانقادت لما خُلِقَت له، كما قال ـ عز وجل: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقال ـ تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٣]، أي: هدى كل مخلوق لما خُلِق له، ولهذا قال ـ تعالى ـ في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ ثم استثنى فقال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الآية: ١٨].

فسبحان الله ـ العظيم ـ إنها لحكمة بالغة أن تطيع وتنقاد جميع المخلوقات وتخضع لربها سوى كثير من الناس ـ مع ما ميَّز الله به الإنسان وكرَّمه على سائر المخلوقات من العقل وغير ذلك، كما قال ـ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

قوله ـ تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ الواو استئنافية، و«لو» حرف امتناع لامتناع متضمن معنى الشرط. و﴿خَيْرًا﴾ نكرة تعم أيَّ خير، أي: ولو علم الله فيهم أيَّ خير، من صدق ورغبة في الإيمان وغير ذلك. ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ اللام واقعة في

جواب «لو» أي: لأسمعهم سماع تدبر وفهم بقلوبهم، واستجابة وانقياد بجوارحهم. ومفهوم هذا أنه ـ عز وجل ـ لم يعلم فيهم أيَّ خير مهما قل.

وإذا لم يعلم الله فيهم أيَّ خير، فهم لا شك لا خير فيهم البتة، ولهذا لم يسمعهم بالمعنى المذكور، أما إسماعهم بالآذان الذي تقوم به الحجة عليهم فهو حاصل لهم، كما قال ـ تعالى ـ عنهم: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا ﴾ [الأنفال: ٢١].

قال ابن القيم في كلامه على الآية ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ قال: «فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء، وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها لعدم قبول المحل، فإنه لا خير فيه، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطلب له، ومحبته، والحرص عليه، والفرح بالظفر به، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك، فوصل الهدى إليها، ووقع عليها، كما يصل الغيث النازل من السماء، ويقع على الأرض الغليظة العالية، التي لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فلا هي قابلة للماء، ولا للنبات، فالماء في نفسه رحمة وحياة، ولكن ليس فيها قبول له»(١).

﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ معطوفة على الجملة قبلها، فيها تأكيد لانتفاء أي خير عنهم، أي: ولو قُدِّر أن الله أسمعهم سماع فهم ـ وهم بهذا الوصف لا خير فيهم ـ ﴿لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

واللام في قوله: ﴿لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ واقعة في جواب الشرط «لو»، أي: لتولوا بأبدانهم.

﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ الواو للحال، أي: حال كونهم معرضين بقلوبهم عن قصد استكباراً وعناداً، فجمعوا بين التولي بالأبدان والإعراض بالقلوب.

والمتولي ببدنه قد يرجع، لكن المعرض بقلبه لا أمل في رجوعه مهما سمع، وهذا هو محض عدم الخيرية التي علمها الله ـ تعالى ـ فيهم، وحالت دون إسماعهم.

قال ابن القيم: «فأخبر أن فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرى، وهي الكبر

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٢٩).

والإعراض، وفساد القصد، فلو فهموا لم ينقادوا، ولم يتبعوا الحق، ولم يعملوا به، فالهدى في حق هؤلاء هدى بيان وإقامة حجة، لا هدى توفيق وإرشاد، فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة»[١].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداء المؤمنين بوصف الإيمان للتكريم والتشريف لهم والحث على الاتصاف بهذا الوصف، وامتثال ما بعد هذا النداء من أمر أو نهي، وأن ذلك من مقتضيات الإيمان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

٢- وجوب طاعة الله ـ تعالى ـ ورسوله، بامتثال ما أمر الله به ورسوله، واجتناب ما نهى الله عنه ورسوله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٣- أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله ـ تعالى ـ حيث عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم «الله»، بالواو التي تقتضي التشريك، ويؤكد هذا عدم تكرار العامل مع قوله: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾.

٤- إثبات رسالته ﷺ وتشريفه وتكريمه بإضافته إلى ضميره ـ عز وجل.

٥- نهي المؤمنين عن التولي عن الله ورسوله، وعن أمر الله ـ عز وجل ـ ورسوله، وهم يسمعون كلام الله ـ عز وجل ـ وما فيه من الأمر والنهي والحجج والبراهين والمواعظ ـ وهذا توكيد للأمر بطاعة الله ورسوله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾.

٦- أن التولي عن طاعة الله ورسوله مع قيام الحجة بسماع الحق ـ أعظم وأشد، بل هو الذي يؤاخذ عليه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾.

٧- التعريض بذم الكفار، الذين قالوا: سمعنا وهم لا يسمعون، وتحذير المؤمنين من

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٣٠).

مسلكهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾.

٨- أن السماع قسمان: سماع بالآذان به تقوم الحجة على المكلفين، وسماع تدبر وانتفاع وتعقل، وهو مناط المدح، وضده مناط الذم.

٩- أن شر الدواب عند الله وشر الخليقة الصم عن سماع الحق، البكم عن النطق به وفهمه وتعقله من الكفار والمنافقين ونحوهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

١٠- أن العقل عقلان: عقل هو مناط التكليف، وبدونه لا يكلف الإنسان، كما قال ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن الصغير حتى يبلغ**»(١).

وعقل هو مناط المدح والذم يثبته الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين ويمتدحهم به، كما قال ـ تعالى: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨].

وينفيه ـ عز وجل ـ عن الكافرين، ويذمهم بذلك كما في هذه الآية، وكما قال ـ تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١].

وهو العقل الذي تطالب به الفئتان، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

١١- طاعة جميع المخلوقات وخضوعها لربها، واهتداؤها لما خلقت له، سوى الكفار؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ولله في ذلك حكمة.

١٢- انعدام الخيرية مطلقاً عند هؤلاء الكفار، مما حال بينهم وبين فهم القرآن

---

(١) أخرجه أبوداود في الحدود (٤٤٠٣)، والترمذي في الحدود (١٤٢٣)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٢) ـ من حديث علي ـ رضي الله عنه ـ وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

والانتفاع به؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ أي: لأسمعهم سماع فهم وتدبر، أما سماع الآذان الذي تقوم عليهم به الحجة فهو موجود عندهم كغيرهم.

١٣- شدة عناد المذكورين وبُعدهم عن الحق وقطع الأمل في استجابتهم، حتى لو أسمعهم الله وأفهمهم القرآن لجمعهم بين التولي بالأبدان والإعراض بالقلوب؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

١٤- من كتب الله عليه الضلالة فلا سبيل إلى هدايته، كما قال ـ تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةًۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٤-٢٦].

قوله ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ ﴾ .

هذا فيه توكيد لما سبق من أمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله، والترغيب في ذلك ببيان أن في ذلك حياتهم.

﴿ٱسْتَجِيبُواْ﴾ بمعنى: أجيبوا، قال الشاعر:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى ... فلم يستجبه عند ذاك مجيب[1]

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ ﴾ أبلغ من «أجيبوا»؛ لأن زيادة المبنى تدل ـ غالباً ـ على زيادة المعنى، فالتاء والسين فيه للتأكيد والمبالغة، وعدي باللام ـ كما هو الغالب ـ إذا اقترن بالسين والتاء.

والمعنى: اسمعوا وأجيبوا وانقادوا لله وللرسول. والأمر للوجوب.

﴿لِلَّهِ﴾ أي: فيما يأمركم به وينهاكم عنه، فامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه.

﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ أي: واستجيبوا للرسول فيما يأمركم به وينهاكم عنه.

وفي عطف قوله ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ دون إعادة العامل ﴿ٱسْتَجِيبُواْ﴾ دلالة على أن الاستجابة للرسول ﷺ استجابة لله ـ عز وجل.

وفي إعادة العامل وهو لام الجر في قوله ﴿ وَلِلرَّسُولِ ﴾ إشارة إلى وجوب الاستجابة لما أمر به ﷺ استقلالاً، وإن لم يأت الأمر به في القرآن الكريم؛ لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى، ولا يأمر إلا بما أوحاه الله ـ تعالى ـ إليه، كما قال ـ تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم: ٣، ٤].

---

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي.

﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ ﴿إِذَا﴾ ظرفية شرطية، وفاعل ﴿دَعَاكُمْ﴾ ضمير مستتر يعود إلى الله ـ عز وجل، أو إلى الرسول ﷺ، وهو الأظهر؛ لأنه أقرب مذكور، وهو المباشر لدعوتهم، وهو مبلغ عن الله ـ عز وجل، وإجابته إجابة لله ـ عز وجل.

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ اللام حرف جر، و«ما» موصولة، أي: للذي يحييكم، أي: يحيي قلوبكم وأرواحكم وأبدانكم، وبه صلاح أمر دينكم ودنياكم وأخراكم. وهو ما أنزل الله ـ عز وجل ـ على رسوله ﷺ من الوحي في الكتاب والسنة، وما فيهما من الهدى والعلم النافع والعمل الصالح الذي به حياة القلوب والأبدان، قال ـ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال ـ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وعن أبي سعيد بن المعلى ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ، فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال: «**ألم يقل الله:** ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾»، ثم قال: «**لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد**، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: «**الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته**»(١).

وقال ـ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [محمد: ٢٨]. أي: بالعلم النافع الذي به حياة القلوب والعمل الصالح الذي به حياة الأبدان. وقد أحسن القائل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأ لم يحي بالعلم ميت ... فليس له قبل النشور نشور

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنفال (٤٤٧٤)، وأبوداود في الصلاة (١٤٥٨)، والنسائي في الافتتاح (٩١٣)، وابن ماجه في الأدب (٣٧١٥).

وكذا ما فيهما من الأمر بالجهاد الذي هو سبب الحياة قبل الممات وبعده، كما قال ـ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩].

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ افتتحت هاتان الجملتان الخبريتان بقوله ـ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ للاهتمام بهما والحث على معرفة مضمونهما وتصديق خبرهما، وهذا كما قال ـ تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ [الحديد: ١٧].

وقال ﷺ لأبي مسعود البدري ـ رضي الله عنه: «**اعلم أبا مسعود، أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام**»(١).

والمصدر المؤوّل من «أن» المؤكدة وما بعدها في قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ﴾ في محل نصب سد مسد مفعولي «علم» والحول بين الشيئين منع اتصال أحدهما بالآخر، كما قال ـ تعالى في قصة نوح ـ عليه السلام ـ وابنه ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٣].

والمعنى أنه ـ عز وجل ـ يملك على المرء قلبه، ويصرفه كيف يشاء، فيحول بينه وبين الكفر إن أراد هدايته، وبينه وبين الإيمان إن أراد ضلاله، كما قال ـ تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان»(٢).

وفي هذا تحذير من عدم المبادرة إلى الاستجابة لله وللرسول؛ لأن ذلك قد يكون سبباً في أن يحول الله بينه وبين قلبه فيمنعه من الاستجابة في ثاني الحال لَـمَّا

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٦٥٩)، وأبوداود في الأدب (٥١٥٩)، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٠٨) ـ من حديث أبي مسعود البدري ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٠٨)، والحاكم (٢/ ٣٢٨).

امتنع منها في أول الحال، كما قال ـ تعالى ـ في الكفار: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال ـ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال ـ تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال ـ تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١].

كما أن في الآية ترغيباً في الإكثار من الدعاء المأثور: «يا مقلِّب القلوب ثبت قلبي على دينك»، «يا مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك» كما في حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفه حيث يشاء**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**اللهم مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك**»[١].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلِّب القلوب ثبت قلبي على دينك**» قال: فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك، وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلِّبها كيف يشاء**»[٢].

وعن النواس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه**»، وكان رسول الله ﷺ يقول: «**يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك**»، قال: «**والميزان بيد الرحمن يرفع أقواماً، ويخفض آخرين إلى يوم القيامة**»[٣].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: دعوات كان رسول الله ﷺ يكثر أن يدعو بها: «**يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك**». قالت: فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر تدعو بهذا الدعاء. فقال: «**إن قلب الآدمي بين إصبعين من أصابع الله ـ عز وجل، فإذا**

---

(١) أخرجه مسلم في القدر ـ تصريف الله القلوب كيف يشاء (٢٦٥٤)، وأحمد (٢/ ١٦٨، ١٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١١٢)، والترمذي في القدر ـ ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن (٢٢٢٦)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٤) ـ وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١١٢)، وابن ماجه في المقدمة ـ فيما أنكرت الجهمية (١٩٩).

شاء أزاغه، وإذا شاء أقامه»[(١)].

كما أن في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ إشارة إلى علمه ـ عز وجل ـ بما تنطوي عليه القلوب، وتحذير من مخالفة الباطن للظاهر، كما قال ـ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي: واعلموا أنه ـ عز وجل ـ إليه وحده دون غيره تجمعون فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم، فالمآب إليه، والحساب عليه، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

وفي هذا إشارة إلى أنه لا ملجأ ولا منجى منه ـ عز وجل ـ إلا إليه، ووعد لمن استجاب لله وللرسول، ووعيد لمن استكبر وتولى، وتحذير من ذلك، كما قال ـ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦، المجادلة: ٩].

قوله ـ تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةًۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

أمر الله ـ عز وجل ـ المؤمنين في الآية السابقة بالمبادرة للاستجابة لله وللرسول محذراً لهم من ترك ذلك، أو إضمار ما يخالف الباطن، مما قد يكون سبباً للحيلولة بينهم وبين الاستجابة بعد ذلك، ومذكراً لهم بأن مردهم إليه فيجازيهم على أعمالهم، ثم حذرهم في هذه الآية من عقوبة عاجلة تعم الظالم وغيره إذا كثر الشر والفساد وظهر المنكر ولم يغير.

قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةًۖ﴾ الواو عاطفة، والخطاب للمؤمنين، والتقوى: الحذر من الشيء الضار والمخوف، واتخاذ وقاية منه، والفتنة: الابتلاء والاختبار، وتكون بالشر والخير، كما قال ـ تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٩١)، وأخرجه بمعناه وأطول منه (٦/ ٣٠١-٣٠٢) ـ من حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها.

فِتۡنَةٗ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، والمراد بها هنا الابتلاء بالعقوبة، أو ما يكون سبباً لها كإقرار المنكر وترك الجهاد ونحو ذلك.

أي: واحذروا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، واتقوها بالاستجابة لله ورسوله، والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاستغفار، وفعل المأمورات وترك المنهيات.

وقوله: ﴿ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾ ﴿لَّا﴾ نافية، والجملة صفة لـ﴿فِتۡنَةٗ ﴾، و﴿خَآصَّةٗ ﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: لا تصيبن الذين ظلموا منكم إصابة خاصة بهم، أو حال، أي: حال كونهم خاصة، بل تصيبهم وغيرهم.

والمعنى: إذا أصابتكم لاتختص إصابتها بالذين ظلموا بارتكاب المعاصي ﴿مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾ بل تعم الظالم وغيره، والصالح والطالح إذا كثر الظلم وانتشر، ولم ينكر. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم، فيعمهم الله بالعذاب»(١).

وهذا من سنن الله الكونية أن العقوبات إذا كثر الخَبَث وظهر المنكر ولم يغير تعم فاعل المنكر وتارك الإنكار، فالأول لفعله المنكر والثاني لإقراره وعدم إنكاره؛ كما قال ـ تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]، وقال ـ تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ ﴾ [الروم: ٤١].

وعن زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخَبَثُ**»(٢).

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١١٥).
(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٤٦)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٠)، والترمذي في الفتن (٢١٨٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٣).

وعن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ مَن فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»(١).

وعن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه، فلا يستجيب لكم»(٢).

وعن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمَّهم الله بعذاب من عنده. فقلت: يا رسول الله، أما فيهم أُناس صالحون؟ قال: بلى. قلت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان»(٣).

وعن جرير ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم يُعْمَل فيهم بالمعاصي هم أَعَزُّ وأكثر ممن يعمله، لم يغيروه؛ إلا عمَّهم الله بعقاب»(٤).

وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه: «إن الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة، ولكن إذا عُمِل المنكر جهاراً استحقوا العقوبة كلهم»(٥).

والخطاب في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ عام لجميع المؤمنين من الصحابة ومن بعدهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الشركة (٢٤٩٣)، والترمذي في الفتن (٢٢٦٤)، وأحمد (٤/ ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٨، ٣٨٩)، والترمذي في الفتن (٢١٦٩)، وقال: «حديث حسن».

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٣٠٤).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦١، ٣٦٤)، وأبوداود في الملاحم ـ الأمر والنهي (٤٣٣٩)، وابن ماجه في الفتن ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٩).

(٥) ذكره ابن العربي في «أحكام القرآن» (٢/ ٨٤٧).

وقد روى مطرف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبدالله، ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذي قُتِل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير - رضي الله عنه: إنا قرأنا على رسول الله ﷺ، وأبي بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ لم نكن نحسب أنَّا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت»[١].

وفي رواية عن الزبير - رضي الله عنه - قال: «لقد خوفنا بها - يعني قوله: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾». وفي رواية: «لقد نزلت وما نرى أحداً منا يقع بها، ثم خلفنا حتى أصابتنا خاصة»[٢].

وفي رواية عن الزبير - رضي الله عنه - قال: «لقد قرأت هذه الآية زماناً، وما أرانا من أهلها، فإذا نحن المعنيون بها: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾»[٣].

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله - تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ يعني أصحاب النبي ﷺ خاصة»[٤].

وهذه الآثار عن الزبير وابن عباس - رضي الله عنهما - إن صحت فغايتها إنما تدل على أن الصحابة من جملة المعنيين في الآية، وهذا لا إشكال فيه، أما قصرها على الصحابة وما وقع بينهم أيام عثمان أو أيام علي - رضي الله عنهما - فهذا ليس بصحيح؛ لأن الآية عامة لجميع الأمة.

فالزبير - رضي الله عنه - فيما رُويَ عنه وربما روي عن غيره من الصحابة ما كانوا يتوقعون أن هذه الفتنة تقع فيهم. وهكذا حال كثير من الناس الذين هم أقل منزلة

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٦٥).
(٢) أخرجهما الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١١٤، ١١٦).
(٣) أخرجها الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١١٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٢).
(٤) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٧٨).

وإيماناً من الصحابة عندما يُخوفون بالفتن قد يستبعدون وقوعها فيهم، ثم ما تلبث أن تقع بهم، وكانوا يظنون أن تقع في غيرهم، أو أنها لا تدركهم؛ ولهذا حذر الله ـ عز وجل ـ منها، وحذر منها نبيه المصطفى ﷺ.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾.

صُدر هذا الخبر بالأمر بالعلم مع التوكيد بـ«أن» للاهتمام وشدة التحذير من عقاب الله ـ تعالى ـ أي: واعلموا أن الله شديد العقاب لمن خالف أمره ولم يستجب لله ولرسوله ﷺ، وعرض نفسه للفتن وعقاب الله وعذابه.

قوله ـ تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أمر الله ـ عز وجل ـ المؤمنين بالطاعة والاستجابة له ولرسوله ﷺ وحذرهم فتنة تعم الصالح والطالح، وعقابه الشديد، ثم ذكّرهم حالهم حين كانوا قلة مستضعفين خائفين، فأنعم عليهم وأحسن إليهم، فآواهم وكثَّرهم وأيَّدهم ونصرهم ورزقهم من الطيبات ليشكروه.

قوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ معطوف على ما قبله، والخطاب للمؤمنين، وبخاصة المهاجرين منهم و﴿إِذۡ﴾ ظرف بمعنى «حين».

أي: واذكروا أيها المؤمنون، أي: تذكروا .

﴿إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾ عددكم.

﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: يستضعفكم الكفار ويقهرونكم ويؤذونكم، وأنتم أبناء العم والعشيرة. وقد قيل:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة … على النفس من وقع الحسام المهند

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في أرض مكة، وفي أي أرض نزلتم. فأنتم ضعفة تحت حكم غيركم.

﴿تَخَافُونَ﴾ أي: تخافون بسبب قلتكم وشدة ضعفكم.

﴿أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ﴿تَخَافُونَ﴾ أي: تخافون تخطف الناس لكم. والتخطف: شدة الخطف، والخطف: الأخذ بسرعة، قال ـ تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠]. أي: يأخذها بشدة وبسرعة.

والمعنى: تخافون تخطف الناس لكم من المشركين وغيرهم وأخذهم لكم، ونيلهم منكم بالمكروه في أنفسكم وأموالكم وأعراضكم، كما قال ـ تعالى: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾.

أي: فجعل لكم مأوى تأوون إليه، بأن أذن لكم في الهجرة إلى المدينة، وقيَّض لكم الأنصار، آووكم، وواسوكم، ونصروكم، كما قال ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟﴾ [الأنفال: ٧٢، ٧٤]. فأعزكم بهم بعد الذلة، وكثَّركم بعد القلة، وذلك من أعظم أسباب القوة؛ ولهذا قال شعيب ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]. قال الشاعر:

ولست بالأكثر منهم حصى   وإنما العـــزة للكـاثـــر

وقالوا في المثل: «الكثرة تغلب الشجاعة».

﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ أي: قوَّاكم وثبَّتكم بنصره لكم في بدر بأسباب النصر كلها من الإمداد بالملائكة وغير ذلك، كما قال ـ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: وأعطاكم من الطيبات؛ من الحلال، وما يستلذ ويستطاب بمشاطرة الأنصار لكم أموالهم، وبما غنمتم من أموال المشركين يوم بدر وبما أدرَّ الله عليكم من الخيرات، وسعة الرزق بسبب الأمن، وأغناكم به بعد الفقر العيلة.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لأجل أن تشكروا الله ـ عز وجل ـ على هذه النعم

العظيمة والآلاء الجسيمة بطاعته والاستجابة له ـ عز وجل ـ ولرسوله ﷺ.

فأمر الله ـ عز وجل ـ المؤمنين بتذكر حالهم حين كانوا مستضعفين في الأرض خائفين تخطف الناس وأخذهم لهم ـ ثم ذكر ما امتنَّ به عليهم من إيوائهم إلى المدينة وتكثيرهم بالأنصار بعد القلة، وتأييدهم وتقويتهم بنصره لهم بعد الضعف والذلة، ورزقه لهم بعد الفقر والعيلة، وهذا وذاك؛ ليقارنوا حالهم الأولى بحالهم الثانية، فيعرفوا عظم قدر نعمة الله عليهم، ويشكروه حق شكره؛ لأنه لا يعرف قدر النعمة تماماً إلا من جرَّب فقدها، وتجرع مرارة ضدها.

ولهذا امتنَّ الله ـ عز وجل ـ على نبيه ﷺ وذكَّره بنحو مما ذكَّر المؤمنين وامتنَّ عليهم به، فقال ـ تعالى ـ في سورة الضحى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى: ٦-٨].

فقد نشأ ﷺ يتيم الأبوين فسخَّر الله له جده عبدالمطلب، فكفله وآواه، ثم عمه أبا طالب، ثم بايعه الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ على أن يؤووه ويناصروه في العقبة الأولى والثانية، وهاجر مَن هاجر من المؤمنين إلى الحبشة فآواهم النجاشي ـ رحمه الله، إلى أن حصل لهم الإيواء التام والنصر المبين، والرزق الوفير بعد هجرتهم إلى المدينة.

وهكذا قال ـ عز وجل ـ في سورة النور في وعد المؤمنين: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

كما قال ـ عز وجل ـ قبل ذلك كله لقريش: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣، ٤].

وقد قيل: «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى»، و«بضدها تتميز الأشياء».

الفوائد والأحكام:

١- العناية بخطاب المؤمنين وتشريفهم بندائهم بوصف الإيمان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

٢- أن من مقتضى الإيمان الاستجابة لله وللرسول وتقوى الله وشكره، وامتثال ما ذكر بعد هذا النداء.

٣- وجوب الاستجابة لله وللرسول؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾.

٤- أن الحياة الحقيقية كل الحياة، فيما دعا الله ورسوله إليه فيما أنزل من الكتاب والسنة، ففي ذلك حياة القلوب والأرواح والأبدان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾.

٥- أن من لم يستجب لله ورسوله، فهو كالميت؛ لمفهوم قوله ـ تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾.

٦- في عطف قوله: «للرسول» دون إعادة العامل ﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ ﴾ دلالة على أن الاستجابة للرسول ﷺ استجابة لله ـ عز وجل، كما أن في إعادة لام الجر إشارة إلى أن الاستجابة للرسول ﷺ تجب استقلالاً وإن لم يرد ذلك في القرآن الكريم.

٧- إثبات أن الله يحول بين المرء وقلبه، وأنه يقلب القلوب ويصرفها كيف يشاء بين الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾.

٨- التأكيد على وجوب الاستجابة لله وللرسول والمبادرة إلى ذلك بالعمل الصالح والاستغفار، والعلم بأن الله قد يحول بين المرء وقلبه، وقد يعرض للإنسان ما يمنعه من ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾.

٩- إثبات خلق الله ـ عز وجل ـ لأفعال العباد كلها خيرها وشرها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ وفي هذا رد على القدرية الذين يزعمون أن

الخلق يخلقون أفعالهم.

١٠- إثبات المعاد وجمع الخلائق وحشرهم إلى الله ـ عز وجل، ومحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

١١- تحذير المؤمنين من الصحابة ومَن بعدهم من فتنة تعم المسيء وغيره، وتشمل الصالح والطالح؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

١٢- إذا ظهرت المعاصي، ولم تنكر عمت الفتنة والعقوبة الصالح والطالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ وهذا من سنن الله الكونية، مما يوجب الحذر من ذلك.

١٣- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ مع استطاعته ذلك فهو شريك في الإثم والعقوبة لمن ترك المعروف وارتكب المنهي.

١٤- تأكيد شدة عقاب الله وعذابه لمن خالف أمره وعصاه، والحث على العلم بذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾..

١٥- تذكير المؤمنين بما هم عليه في أول الإسلام وقبله من القلة والضعف والفقر والخوف من تخطف الناس لهم، وما منَّ الله به عليهم بعد ذلك من إيوائهم المدينة وتكثيرهم بالأنصار وتأييدهم وتقويتهم بنصره لهم في بدر وتوسيع رزقهم، ليشكروه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

١٦- أن القلة سبب للاستضعاف وتسلط الآخرين واعتدائهم؛ لهذا ذَكَّر الله المؤمنين بحالهم حين كانوا قلة مستضعفين يخافون تخطف الناس لهم.

وفي المقابل فالكثرة سبب للقوة، ولهذا ذكر شعيب ـ عليه السلام ـ قومه بنعمة الله عليهم بتكثيرهم فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾

[الأعراف: ٨٦]. ولكن هذا ليس على إطلاقه، فقد تغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة؛ كما قال ـ تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وهكذا نصر الله المؤمنين في بدر وهم قلة أذلة.

١٧- أن الأمن أهم من الرزق، بل هو سبب الرزق، لهذا قَدَّم قوله ـ تعالى: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ على قوله ـ تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

وقال ﷺ في الحديث: «**من أصبح آمناً في سربه معافىً في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»[1]، فذكر الأمن أولاً، وقال الله ـ تعالى ـ في سورة المائدة: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [الآية: ٩٧]، أي: جعلها سبباً لأمنهم تقوم به أمور دينهم ودنياهم.

١٨- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

١٩- لا يعرف قدر النعمة تماماً إلا مَن جرَّب فقدها، وذاق مرارة ضدها.

* * *

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٤٦)، وابن ماجه في الزهد (٤١٤١) ـ من حديث سلمة بن عبيدالله بن محصن الخطمي عن أبيه ـ رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

قال الله ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٧-٢٩].

قوله ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

أمر الله ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة المؤمنين بالطاعة والاستجابة لله ولرسوله، ثم حذَّرهم في هذه الآية من خيانة الله والرسول بعدم امتثال ذلك، أو بإظهار الطاعة والاستجابة مع إضمار ما يخالف ذلك في الباطن.

رُويَ عن الزهري، وعبدالله بن أبي قتادة أن هذه الآية نزلت في أبي لبابة بن عبدالمنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة، لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك، وأشار بيده إلى حلقه؛ أي: أنه الذبح، ثم فطن أبولبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقاً، وربط نفسه في سارية مسجد المدينة حتى أنزل الله توبته، وحل رسول الله ﷺ رباطه بيده»(١).

والعبرة بعموم اللفظ لو صح هذا السبب.

قوله: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ ﴿لَا﴾ ناهية، والخيانة النقض، والنقض ضد الوفاء والأمانة.

وخيانة الله والرسول: عدم القيام بما أوجب الله ورسوله أو ارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله.

و«ال» في الرسول للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود محمد ﷺ. وعطفه

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٢١-١٢٢، ٦٥٧)، وعبدالرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٨٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٤)، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص(١٥٧-١٥٨) وروى غير ذلك.

على اسم الله دون إعادة العامل «تخونوا» لأن خيانة الرسول ﷺ خيانة لله تعالى.

﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ معطوفة على جملة النهي قبلها.

والأمانات: جمع أمانة، وهي كل ما ائتمن عليه الإنسان مما بينه وبين الله، ومما بينه وبين الخلق، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وخيانة الأمانات: التفريط فيها وإضاعتها، وعدم حفظها والقيام بحقها.

والأمانات قسمان: واجبات يجب القيام بها والمحافظة عليها وعدم تضييعها، كالصلاة والزكاة والصيام والحج، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، وحفظ حقوق الأولاد والأزواج، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوفاء بالعهود، وحفظ الودائع وردها إلى أصحابها، والقيام بما أنيط بالإنسان من حقوق الأمة على الوجه المطلوب، وغير ذلك.

والقسم الثاني من الأمانات: المنهيات التي يجب تركها والبعد عنها واجتنابها كالشرك بالله، والربا والقتل وأكل مال اليتيم والسحر وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، وأكل مال اليتيم واليمين الغموس ونقض العهود والحسد والظلم والغش والزنا والسرقة، وغير ذلك.

وهي تنقسم من وجه آخر إلى قسمين أيضاً: أمانات فيما بين الخلق وبين الله كإخلاص التوحيد لله والبُعد عن الشرك، وكالصلاة والصيام ونحو ذلك.

وأمانات بين الخلق فيما بينهم يجب عليهم الوفاء بها، كالعقود والعهود فيما بينهم، وحقوق بعضهم على بعض كحق الوالدين والأولاد والأزواج وصلة الأرحام وحقوق المسلمين، وحفظ الودائع، ونحو ذلك.

وهذه الحقوق وإن كانت للخلق، فإنها داخلة تحت حق الله ـ عز وجل؛ لأن الله ـ عز وجل ـ هو الذي أوجبها.

ويحتمل أن المراد بقوله ـ تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ ما بين الخلق من أمانات فيما بينهم وهذا أولى؛ لقوله قبله: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ من عطف العام على الخاص فيشمل جميع الأمانات فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم مع بعضهم البعض.

ومن أعظم الأمانات التي ضعف القيام بها، وعظم التفريط فيها الصلاة، وصلاة الجماعة خاصة، والتي هي في الحقيقة قاصمة الظهر، وسبب اختلال التوازن في حياة الأفراد والجماعات والأمة قاطبة، فإن الصلاة هي عمود الإسلام وقاعدته العريضة، التي يدور عليها رحاه، فهي أس مقومات السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وإقامتها والمحافظة عليها هي السبب الأول لنجاح الإنسان في دينه ودنياه وأخراه مع الأخذ بالأسباب، كما قال ـ تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هو: ١٢٣]. فعبادة الله ـ تعالى: فعل السبب لسعادة الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة والنجاة من النار، والتوكل على الله: الاعتماد على الله والثقة به، بعد فعل السبب.

فالتوفيق للأعمال الصالحة مرهون بالصلاة، والبعد عن المعاصي مرهون بالصلاة، والرزق مرهون بالصلاة، وقبول الأعمال مرهون بالصلاة، فلا عز ولا سعادة ولا فلاح ولا نجاح ولا طمأنينة ولا حياة طيبة إذا اختل أمر الصلاة.

فاحفظ أخي المسلم صلاتك وأقمها كما شرع الله، ثم انطلق لتكميل أمور دينك، وتحصيل أمور دنياك على ظهر سفينة النجاة بإذن الله ـ الصلاة ـ تجد التوفيق والتسديد من الله ـ تعالى ـ في أمور دينك ودنياك وأخراك.

ومن أعظم الأمانات التي حصل فيها التفريط، حقوق العمل في الأمة ومصالحها، والذي هو في الحقيقة من أعظم حقوق الله ـ تعالى ـ والذي ضعف القيام به لدى كثير من المسلمين، مما أضر بمصالح الأمة الإسلامية، وأخرها عن ركب الحضارة، وجعلها في مؤخرة الأمم، وإنه لمن المؤسف، ومما يندى له جبين كل مسلم غيور، ومما يُخجل أن نرى كثيراً من المؤسسات في البلاد غير الإسلامية تسير وفق نظام دقيق بسبب الانضباط في أداء الأعمال بينما نرى الفوضى في كثير من المؤسسات في البلاد الإسلامية بسببتخلي كثير من العاملين عن القيام بأعمالهم، وهذا لعمر الله عين الخيانة.

يُرشح للأعمال في تلك الدول الأكفأ فالأكفأ، بينما يُرشح في كثير من البلاد العربية والإسلامية لاعتبارات أخرى.

تُنجز المعاملات في تلك البلاد بأسرع وقت بشكل منظم مرتب، بينما تتأخر المعاملات في كثير من المؤسسات في البلاد الإسلامية الأيام والأسابيع، وربما الشهور والأعوام، بسبب الأنانية وعدم الانضباط.

قطع العالم شوطاً بعيداً في التقدم والانتظام في الأعمال والمواعيد وغير ذلك، ومازال كثير من المسلمين في مؤخرة الركب في هذا الميدان.

يجب أن نعمل جميعاً على استشعار عظم المسؤولية في أعمال الأمة ومصالحها، وأن نعلم أن قيام كل فرد بما أنيط به من هذه الأعمال من أعظم الواجبات، وهو من الجهاد الذي يؤجر المسلم عليه، إذ عليه مدار رقي الأمة ونهضتها وأخذها مكانها بين الأمم، إذ لا مكان لحياة الجهل والفوضى والتخلف.

والعجيب أن كثيراً من الناس لو استودع أو استدان بما قيمته خمسون ريالاً لاهتم لأداء ذلك ـ وهذا أمر محمود ـ لكنه في مجال العمل لا يبالي أن يقرب هذا، ويبعد هذا، ويُـخَلِّص معاملة هذا، ويؤخر هذا، ويتأخر في الحضور، ويخرج أثناء الدوام، وينصرف قبل انتهائه، وهذا ـ والله ـ من أعظم الخيانة ـ وقد يفوق بأضعاف مضاعفة إنكار ما لديه من وديعة لفلان من الناس؛ لأن التفريط في أعمال الأمة والمحاباة فيها ضرره أعم، فهو أعظم وأعظم، فهو هدم في كيان الأمة وأعمالها يؤدي إلى ضعف الأمة وتخلفها وتسلط الأعداء عليها.

وأعجب مما ذكر أن كثيراً ممن هذه حالهم يتباكون ويتلاومون على واقع الأمة، وهم أصل بلائها وسبب دائها، كالسوس ينخر في الأمة من داخلها، ويهدم في كيانها؛ لأن الأمة لا تقوم إلا على مؤسساتها، فإذا صلحت مؤسساتها بدءاً من المساجد والمدارس والوزارات والدوائر العامة والخاصة نهضت الأمة.

وصلاح مؤسسات الأمة مبني على صلاح أفرادها، وصلاح الأفراد يحتاج إلى العمل على رفع مستوى الوعي، بتوسيع مدلول الخطاب التعليمي والتوجيهي والديني ليشمل جميع جوانب الحياة، وأعمال الأمة في منظومة واحدة متكاملة.

قوله ـ تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الجملة في موضع نصب على الحال، أي: والحال أنكم تعلمون أن عملكم هذا خيانة لله والرسول، ولأماناتكم، وهي حال كاشفة بمنزلة الصفة، المقصود منها تشديد النهي وتشنيع المنهي عنه كما في قوله ـ تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله ـ تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وفي قصة حاطب بن أبي بلتعة ـ رضي الله عنه ـ لما كتب كتاباً وأرسله إلى المشركين يخبرهم فيه بعزم رسول الله ﷺ على فتح مكة، قال عمر ـ رضي الله عنه: «دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق»، وفي بعض الروايات: «لقد خان الله ورسوله». فقال ﷺ: «**قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فلقد غفرت لكم**»(١).

وقد استعاذ ﷺ من الخيانة ـ كما في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه ﷺ قال: «**اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة**»(٢).

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ كقوله ـ تعالى ـ في سورة التغابن: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٥].

نهى الله ـ عز وجل ـ المؤمنين عن خيانة الله والرسول وخيانة أماناتهم، ثم أتبع ذلك ببيان أنما أموالهم وأولادهم فتنة؛ لأن الأموال والأولاد من أعظم ما يحمل على الخيانة، ومما تقع فيه الخيانة، ولهذا قال بعض المفسرين في قوله: ﴿وَتَخُونُوا

---

(١) أخره البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٤)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٥٠)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٣٠٥) ـ من حديث علي ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبوداود في الصلاة (١٥٤٧)، والنسائي في الاستعاذة (٥٤٦٨)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٥٤).

أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾: «أمانات الأولاد».

قوله ـ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ الأمر للمؤمنين، وأمروا بالعلم بهذا الخبر للتنبيه والاهتمام وتأكيد التحذير.

﴿أَنَّمَآ﴾ أداة حصر، أي: ما أموالكم وأولادكم إلا فتنة.

وجعلت الأموال والأولاد نفس الفتنة وحصرت في ذلك للمبالغة في التحذير من فتنتها؛ لأن غالب الفتنة إنما يكون بسبب الأموال والأولاد، وإلا فإن من الأموال والأولاد ما هو خير ونعمة.

﴿أَمْوَٰلُكُمْ﴾ الأموال اسم لكل ما يتمول ويملك من نقد، وعين منقولة كالأثاث والسيارات وغير ذلك، أو غير منقولة كالعقار.

﴿وَأَوْلَٰدُكُمْ﴾ الأولاد: جمع ولد، ويشمل الذكر والأنثى من أولاد الإنسان وأولاد بنيه وإن نزلوا بمحض الذكور، هذا من حيث الأصل، فهم الذين ينسبون إلى الشخص، وهم الذين يرثونه.

كما قال الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

أما من حيث العموم ومن حيث كونهم فتنة فقد يدخل فيهم أيضاً أولاد البنات، وإن نزلوا.

﴿فِتْنَةٌ﴾ أي: ابتلاء، وامتحان من الله لكم هل تشكرون الله عليها وتؤدون حقها، وتطيعون الله فيها، أو تُقَصِّرون في حقها وتنشغلون بها عن طاعة الله ـ تعالى، كما قال ـ تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩]، وقال ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ﴾ [التغابن: ١٤].

قال عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ﴾

[التغابن: ١٥]: «ما من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله من مضلات الفتن»(١).

والفتنة في الأموال والأولاد من وجوه عديدة:

فالمال فتنة من حيث كسبه إذ قد يؤدي حبه والحرص عليه إلى اكتسابه من أي طريق كان، حتى ولو كان مشتبهاً أو محرماً كالربا والقمار والرشوة والغش والسرقة والغصب، والمساهمات المختلطة والمشبوهة ونحو ذلك.

وهو فتنة من حيث الانشغال به وبجمعه عن طاعة الله ـ تعالى ـ والقيام بحقوقه، وحقوق خلقه من الوالدين والأزواج والأولاد والأقارب والجيران، وحقوق المسلمين وغير ذلك.

وهو فتنة من حيث إنفاقه فيما لا يجوز إنفاقه فيه، أو الإسراف في إنفاقه أو التقتير في إنفاقه ومنع حق الله فيه من الزكاة والصدقة، وغير ذلك من الحقوق الواجبة والمستحبة للأهل والأولاد وغيرهم.

إلى غير ذلك من وجوه فتنة المال، وهذه الثلاثة أهمها، ولا يسلم منها إلا مَن رحم الله.

كما أن الفقر وفقدان المال فتنة لبعض الناس، فربما يجزع ويتسخط بسبب ذلك، وربما سلك بعض الطرق الملتوية والمحرمة بحثاً عن المال إلا مَن رحم الله.

والأولاد فتنة من حيث الولع في محبتهم والعطف عليهم والمبالغة في ذلك، وتقديم ذلك على محبة وطاعة الله ورسوله.

وهم فتنة من حيث الحاجة إلى الصبر والمجاهدة فيهم لتربية أجسامهم وعقولهم وتوجيههم وتأديبهم حال صغرهم.

وهم فتنة بعد بلوغهم ومراهقتهم يحتاجون إلى مجاهدة أكبر وصبر وتحمل أعظم في توجيههم وحملهم على ما ينفعهم وإبعادهم عما يضرهم.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١١٦، ١٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٥).

وهم فتنة في هذه الحال وبعدها إذ قد يحمل بعضهم والديه على التساهل فيما لا ينبغي مراعاةً وإرضاءً لهم، وكم جر الأولاد والديهم إلى أمور لا تحمد عقباها في دينهم ودنياهم.

وهم فتنة بعد كبرهم، هم وأولادهم وأزواجهم في علاقتهم مع والديهم، بِراً بهم ورحمة ووفاء، أو عقوقاً لهم وغلظة وجفاء.

إلى غير ذلك من وجوه فتنة الأولاد ما داموا على قيد الحياة هم ووالدوهم، ولهذا قال ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، وقال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال ﷺ: «**إن الولد مبخلة مجبنة**»(١).

كما أن عدم الأولاد فتنة لبعض الناس، فيتعب في طلبهم والبحث عنهم، وقد يجزع ويتسخط على ما قدّره الله عليه من العقم.

قوله ـ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

بيَّن ـ عز وجل ـ أن الأموال والأولاد فتنة، ثم أتبع ذلك بقوله ـ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لئلا تحمل الأموال والأولاد والديهم على التقصير في حق الله ـ تعالى ـ أو الانشغال عن طاعة الله، فما عند الله من الأجر العظيم خير من المنافع المرجوة من الأموال والأولاد، ومن الدنيا وما فيها.

أي: وأن الله عنده ثواب عظيم من حيث كميته وكيفيته ونوعه وديمومته وغير ذلك، ومن عظمته أنه من العظيم ـ سبحانه وتعالى ـ وعنده، ولهذا لا يقدر قدر عظمته إلا العظيم ـ سبحانه وتعالى، كما قال ـ تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠، الشورى: ٣٦].

وفي تسميته ـ عز وجل ـ ما أعدّه من الثواب للمؤمنين بالأجر توكيد لالتزامه ـ

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأدب (٣٦٦٦) ـ من حديث يعلى العامري ـ رضي الله عنه.

عز وجل ـ بذلك وإيجابه ذلك على نفسه لعباده ـ مع أنه ـ عز وجل ـ في الأصل لا يجب عليه شيء لخلقه، وإنما أوجب ذلك على نفسه تفضلاً منه وكرماً، كما قال ـ تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، وقال ـ تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾ [الأعراف: ١٥٦].

قوله ـ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ بفعل أوامره واجتناب نواهيه والدوام على طاعته.

﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ «الجعل» ينقسم إلى قسمين: شرعي، كما في هذه الآية، وكما في قوله ـ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨].

وكوني، كما في قوله ـ تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١)﴾ [الفرقان: ٦١].

وقوله: ﴿فُرْقَانًا﴾ أي: نوراً تفرقون به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، وبين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وتنجون به من فتنة الأموال والأولاد، ومن الحيرة والاضطراب والتبلبل والشك، وتسعدون به في دنياكم وأخراكم، وهو نور القرآن والهدى والعلم والإيمان المثمر للعمل الصالح، كما قال ـ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٨، الصف: ٩]. أي: بالعلم النافع والعمل الصالح، وقال ـ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨)﴾ [الحديد: ٢٨]، وقال ـ تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [النور: ٣٥]. أي: مثل نور الإيمان الذي يلقيه في قلب المؤمن، كمشكاة فيها مصباح؛ ولهذا قال في آخر الآية: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥]، وقال ـ تعالى ـ في الآية الأخرى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾

[النور: ٤٠]، وقال ـ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

قوله: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي يمح عنكم سيئاتكم، و«سيئات» جمع سيئة، وهي الذنوب، سميت بذلك لأنها تسوء صاحبها، وقد تسوء غيره.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ﴾ أي: ويغفر لكم ذنوبكم، أي: يسترها عن الناس.

ويجوز أن يكون المعنى ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: يمح ويزل صغائر ذنوبكم، كما قال ـ تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ﴾ أي: ويغفر لكم كبائر الذنوب بالتجاوز عنها وسترها.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ﴿ذُو﴾ بمعنى صاحب، و«الفضل» الزيادة والإحسان والكرم والجود والإنعام.

﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْفَضْلِ﴾ أي: الفضل العظيم من كل وجه؛ كماً وكيفاً ونوعاً وديمومة، وغير ذلك، الذي لا فضل أعظم منه، ولا يقدر قدر عظمة فضله إلا الذي وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم ـ سبحانه وتعالى.

فوعدهم ـ عز وجل ـ إن اتقوه بأربعة أشياء كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأول: الفرقان، وهو النور والهدى الذي يفرقون به بين الحق والباطل والهدى والضلال والحلال والحرام، ونحو ذلك.

والثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب صغيرها وكبيرها.

والرابع: الفضل العظيم والثواب الجسيم، كما قال ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٢٨].

الفوائد والأحكام:

١- نهي المؤمنين وتحذيرهم من خيانة الله والرسول وخيانة أماناتهم، وأن ذلك مما يخالف مقتضى الإيمان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾.

٢- تأكيد وتشديد النهي عن الخيانة وتشنيعها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾، أي: والحال أنكم تعلمون أن ذلك من الخيانة.

٣- وجوب طاعة الله ـ تعالى ـ ورسوله بفعل الواجبات والبُعد عن المنهيات، ووجوب أداء حقوق الخلق، لمفهوم النهي عن خيانة الله والرسول وخيانة الأمانات.

٤- أن خيانة الرسول ﷺ خيانة لله ـ تعالى؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ ووجه ذلك عطف «الرسول» على لفظ الجلالة «الله» دون إعادة العامل «تخونوا».

٥- التحذير من فتنة الأموال والأولاد؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾.

٦- إثبات أن الأموال والأولاد فتنة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ وذلك من وجوه عديدة.

٧- عظم ما عند الله ـ عز وجل ـ من الأجر العظيم للمؤمنين ـ مما لا يقدر قدره إلا هو سبحانه، ومن عظمته أنه منه ـ عز وجل ـ وعنده؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾، كما قال ـ تعالى: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ ﴾ [السجدة: ١٧].

٨- التنبيه إلى أنه لا ينبغي الانشغال بالأموال والأولاد عن طاعة الله ـ تعالى ـ أو تقديمها على محبة الله ـ تعالى ـ وطاعته فما عند الله من الأجر العظيم خير من المنافع المرجوة من الأموال والأولاد، ومن الدنيا وما فيها.

٩- تكفُّل الله ـ عز وجل ـ بثواب المؤمنين وضمانه لهم، لهذا سمّاه أجراً، فقال ـ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٠-٣٥].

قوله ـ تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

أمر الله ـ عز وجل ـ المؤمنين فيما سبق بتذكر حالهم إذ كانوا مستضعفين في الأرض خائفين فآواهم ونصرهم ورزقهم من الطيبات، وأمر رسوله ﷺ هنا بتذكر نعمته عليه بإنجائه وحفظه من كيد الكافرين ومكرهم، والمنة والنعمة عليه ﷺ منة ونعمة على أمته.

قوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الواو استئنافية، و«إذ» ظرف بمعنى «حين» متعلق بمحذوف تقديره «اذكر»، والخطاب للنبي ﷺ، أي: اذكر ما منَّ الله به عليك. وجاء التعبير بصيغة المضارع «يمكر» لاستحضار الحالة التي دبروا فيها المكر.

والمكر: الكيد والتدبير لإيقاع الضرر خفية.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: الذين كفروا بالله وكذبوا رسوله، وأنكروا ما جاء به، والمراد بهم هنا كفار مكة ـ وبخاصة سادتهم وكبراؤهم، كأبي جهل، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، وأُبيّ بن خلف، وأمثالهم.

﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ الإثبات: الحبس والتقييد والإيثاق، أي: ليحبسوك ويقيدوك ويوثقوك؛ ليمنعوك من الخروج.

﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ فيستريحوا منك ـ بزعمهم.

﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ أي: يُجْلُوك من بلدك مكة، كما قال ـ تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: ٧٦].

فهم مترددون هل يثبتونه، أو يقتلونه، أو يخرجونه؟

رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من نجد، سمعت أنكم اجتمعتم، فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح، قالوا: أجل، ادخل، فدخل معهم، فقال: انظروا شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يواثبكم في أموركم بأمره ـ قال: فقال قائل: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك، كما هلك من كان قبله من الشعراء، زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم. قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدي، فقال: والله ما هذا لكم برأي، والله ليُخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم، فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم. قالوا: فانظروا في غير هذا. قال: فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع، وأين وقع، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم، وكان أمره في غيركم. فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم ـ ثم استعرض العرب، لتجتمعن عليكم، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم، ويقتل أشرافكم. قالوا: صدق والله، فانظروا رأياً غير هذا. قال: فقال أبوجهل: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، ما أرى غيره. قالوا: ما هو؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلاماً وسيطاً شابًّا نهداً[(١)]، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فلا أظن هذا الحي من بني

---

(١) الوسيط: الشريف الحسيب في قومه. والنهد: الكريم الذي ينهض في معالي الأمور.

هاشم يقدرون على حرب قريش كلها، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل(١)، واسترحنا وقطعنا عنا أذاه. فقال الشيخ النجدي: هذا والله الرأي، القول ما قال الفتى، لا أرى غيره. قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له. قال: فأتى جبريل النبي ﷺ، فأمره ألا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل عليه بعد قدومه المدينة «الأنفال» يذكره نعمه عليه وبلاءه عنده: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

وأنزل في قولهم: تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الطور: ٣٠]. وكان يسمى ذلك اليوم: «يوم الزحمة» للذي اجتمعوا عليه من الرأي»(٢).

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: ما يبكيك يا بنية؟ قالت: يا أبت، ما لي لا أبكي، وهؤلاء الملأ من قريش في الحجر يتعاقدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلوك، وليس منهم إلا من عرف نصيبه من دمك. فقال: يا بنية، ائتيني بوضوء، فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى المسجد. فلما رأوه قالوا: إنما هو ذا، فطأطؤوا رؤوسهم، وسقطت أذقانهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم. فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب، فحصبهم بها، وقال: شاهت الوجوه، فما أصاب رجلاً منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافراً»(٣).

وعن مقسم مولى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ

---

(١) أي: الدية.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٣٤-١٣٥)، ورواه ابن إسحاق. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٨٠-٤٨٣).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ولا أعرف له علة» ذكره عنهما ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٨٦).

﴿كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ﴾ قال: «تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق ـ يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه. فأطلع الله نبيه على ذلك. فبات علي ـ رضي الله عنه ـ على فراش النبي ﷺ تلك الليلة، وخرج رسول الله ﷺ، حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليًا يحسبون أنه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوه عليًا رد الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري. فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه. فمكث فيه ثلاث ليال»(١).

قال ابن كثير(٢): «وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله، حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به، وأرادوا به ما أرادوا، أتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فأمره أن لا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه، فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فأمره أن يبيت على فراشه، وأن يتسجى ببرد له أخضر، ففعل. ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه، وخرج معه بحفنة من تراب، فجعل يذرها على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ، وهو يقرأ: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١-٩]».

قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ أي: والحال أنهم يمكرون، ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ كما قال ـ تعالى ـ في سورة آل عمران: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [الآية:٥٤].

والمعنى: أنهم يدبرون ويكيدون خفية، ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ أي: ويمكر الله بهم على وجه المجازاة لهم من حيث لا يشعرون، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٤٨)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٣٧).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٥٨٦) وقال: «قال الحافظ أبوبكر البيهقي: وروي عن عكرمة ما يؤكد هذا».

﴿أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل: ٥٠، ٥١]، وقال ـ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقال ـ تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٥].

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي: خير المجازين بالمكر، وأعظم مكراً وتأثيراً بمن يمكرون ويكيدون للرسول ﷺ وللحق وأهله.

قوله ـ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾.

ذكر الله ـ عز وجل مكر الذين كفروا وكيدهم للرسول ﷺ، ومكر الله ـ عز وجل ـ بهم ـ ودفاعه عن نبيه، ثم أتبع ذلك بذكر استخفافهم بما جاءهم به من الآيات، وتكذيبهم بها، فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ الآية.

وقد قيل: إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث[(١)].

قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ الواو: استئنافية، و«إذا» ظرفية شرطية ﴿تُتْلَىٰ﴾ تقرأ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي:على الذين كفروا، كما قال ـ تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم كفار قريش ﴿آيَاتُنَا﴾ أي: آيات القرآن الكريم.

وتكلم ـ عز وجل ـ عن نفسه بضمير العظمة؛ لأنه العظيم سبحانه المستحق لكمال العظمة كما في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله ـ عز وجل: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري**»[(٢)].

وفي حديث أبي سعيد وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ قالا: قال رسول الله ﷺ: «**العز إزاره والكبرياء رداؤه**»[(٣)].

والمعنى: وإذا تقرأ على هؤلاء الكفار آياتنا القرآن الكريم الدالة على صدق ما

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٤١-١٤٢)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٨٧).

(٢) أخرجه أبوداود في اللباس (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٢٠).

جاء به الرسول ﷺ.

﴿قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا﴾ أي: قد سمعنا ما يتلى علينا، أو ما تتلو علينا، وأكدوا قولهم بـ«قد» التي تفيد التحقيق، لكن سمعهم هنا لا يتجاوز الآذان، بلا عقل، ولا فهم، ولهذا لم ينتفعوا به، بل صار حجة عليهم؛ ولهذا قال ـ تعالى ـ محذراً المؤمنين عن صفتهم: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال: ٢١]. أي: لا يفهمون ولا يفقهون ما سمعوا.

﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ أي: لو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن، وهم كذبة مبطلون ويعلمون أنهم لا يستطيعون ذلك، وإلا فما الذي منعهم أن يشاؤا قول مثله، ولكنهم إنما يقولون هذا من باب المكابرة والعناد، والتبرير لباطلهم، والتغرير بغيرهم، وقد تحداهم الله ـ عز وجل ـ أن يأتوا بمثل القرآن، بل بعشر سور مثله، بل بسورة مثله، كما قال ـ تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال ـ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]، وقال ـ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨]، وقال ـ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣].

﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى «ما»، ﴿هَٰذَآ﴾ أي: القرآن، ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. ﴿إِلَّآ﴾ أداة حصر، و﴿أَسَٰطِيرُ﴾ جمع أُسطورة بضم الهمزة.

والمعنى: ما هذا القرآن إلا أساطير الأولين، أي: حكاياتهم التي تُذكر للتسلي، ولا حقيقة لها، ولا أصل، ومما سطروه في كتبهم من أخبار وخرافات؛ كما قال ـ تعالى ـ عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، وقال ـ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤].

قوله ـ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ

ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «قال أبو جهل: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فنزلت: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ إلى آخر الآية»[1].

وهذه المقالة التي صدرت من أبي جهل، أو منه ومن النضر بن الحارث كما قيل ذلك، ليست هي سبب نزول هذه الآية، لكن فيها تذكير بما حصل منهم، لأن الآية مدنية، وما حصل منهم كان بمكة.

قوله ـ تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: «اذكر»، أي: واذكر إذ قال الكفار كأبي جهل والنضر بن الحارث وأضرابهما: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾ يشيرون بـ﴿ هَٰذَا ﴾ إلى ما يتلى عليهم من آيات القرآن الكريم، وما جاء به الرسول ﷺ من الوحي. وضمير الفصل ﴿هُوَ ﴾ لتأكيد الخبر وتقويته.

﴿مِنْ عِندِكَ ﴾ حال من الحق، أي: منزلاً من عندك، فهم يطعنون في كون القرآن حقًّا، وفي كونه منزلاً من عند الله ـ عز وجل.

﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾، هذا من شدة جهلهم وتكذيبهم وعنادهم، وضعف عقولهم، وكان الأجدر بهم والأليق أن يقولوا: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه» فيدعوا لأنفسهم بالهداية إليه، ولكنهم مبالغة منهم في التكذيب والتهكم والسخرية، ونفي أن يكون القرآن حقًّا من

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنفال (٤٦٤٨)، ومسلم في صفات المنافقين ـ قول الله ـ تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ (٢٧٩٦)، والواحدي في أسباب النزول ص(١٥٨). وروي أنها نزلت في النضر بن الحارث ـ كما ذكر هذا الواحدي ص(١٥٨).

عند الله، استفتحوا على أنفسهم، ودعوا عليها بالعقوبة، واستعجلوا العذاب، كما قال ـ تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤]، وقال ـ تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال ـ تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، وقال ـ تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ [المعارج: ١، ٢].

وهذا من كفار قريش كما قال سفهاء قوم شعيب ـ عليه السلام: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧].

قوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: أنزل علينا حجارة تعذبنا بها، كما قال ـ تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ [الفجر: ١٣].

﴿أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿أَوِ﴾ عاطفة، أي: أو ائتنا بعذاب مؤلم موجع أيَّ عذاب يكون. وهذا من ذكر العام بعد الخاص، فطلبوا أولاً عقوبة خاصة، وهي مطر الحجارة، ثم عمموا في طلب أيِّ عذاب أليم. وهذا مبالغة منهم في نفي كون القرآن حقًّا منزلاً من عند الله.

رُويَ عن معاوية ـ رضي الله عنه ـ أنه قال لرجل من سبأ: «ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة. قال: أجهل من قومي قومك، قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾، ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا له».

قوله ـ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت، يقولون: لبيك، لبيك لا شريك لك. فيقول النبي ﷺ: «قد قد». فيقولون: إلا

شريك هو لك تملكه وما ملك، ويقولون: غفرانك غفرانك، فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾»[1].

وهذا ـ إن صح ـ فهو كما سبق ليس هو سبب نزول الآية وإنما فيه ذكر ما حصل من المشركين؛ لأن الآية مدنية وما حصل منهم كان بمكة.

قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ بيان للموجب لإمهالهم وعدم إجابة دعائهم على أنفسهم.

الواو: عاطفة، و«ما» نافية. واللام في قوله: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ لتأكيد النفي.

والواو في قوله: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ للحال، أي: والحال أنك فيهم، وفيه تكريم له ﷺ بمخاطبته بقوله: ﴿وَأَنتَ﴾ دون أن يقول: «ورسولي فيهم».

والمعنى: وما كان الله ليعذبهم وأنت بين ظهرانيهم، أي: حتى يخرجك من بينهم، فوجوده ﷺ بينهم كان أمنة لهم من العذاب، وهكذا قضت حكمته أن لا يعذب أمة وبينهم نبيهم حتى يخرجه من بين أظهرهم؛ لأن العذاب إذا نزل يعم. وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم.

والعذاب يشمل العذاب السماوي، وما يوقعه ـ عز وجل ـ عليهم بأيدي عباده، كما قال ـ تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [التوبة: ١٤].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ الواو عاطفة، و﴿وَمَا ﴾ كذلك نافية كسابقتها، ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الجملة حاليه، أي: والحال أنهم يستغفرون.

والمعنى: وما كان الله معذبهم لو استغفروا، كما قال ـ تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء: ١٤٧]، وقال ـ تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨].

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٥١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٩١)، والبيهقي في سننه (٥/ ٤٥).

وقال بعض المفسرين: وما كان الله معذبهم وفيهم من سبق له من الله الدخول في الإيمان والصلاة والاستغفار.

وفي حديث ثوبان ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله زَوَى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكهم بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال: من بين أقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً**»[(١)].

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الشيطان قال: وعزتك يا رب، لا أبرح أغوي عبادك، ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: وعزتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني**»[(٢)].

فالتوبة والاستغفار أمان من عذاب الله، ومما تُستجلب به النعم وتدفع به النقم، ولهذا جاء في حديث جندب بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء، فيدركه، فيكبه في نار جهنم**»[(٣)].

قوله ـ تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

ذكر الله ـ عز وجل ـ في الآيتين السابقتين استفتاح المشركين ودعاءهم على أنفسهم بالعقوبة بحجارة من السماء، أو إتيانهم بعذاب أليم، وبين أنه ـ عز وجل ـ ما

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩)، وأبوداود في الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢١٧٦)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩).

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٦٥٧)، والترمذي في الصلاة (٢٢٢).

كان ليعذبهم والرسول ﷺ بين ظهرانيهم، وما كان معذبهم وهم يستغفرون، ثم أتبع ذلك ببيان أنهم أهل للعذاب ومستحقون له لصدهم عن المسجد الحرام.

قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة على قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾.

و«ما» استفهامية، والاستفهام للإنكار، أي: أيّ شيء يمنعهم أن يعذبهم الله، أي: أنه لا شيء يمنعهم من عذاب الله، وليس عدم نزوله فيهم بسبب أنهم غير مستحقين له بأنفسهم.

﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنهم يصدون الناس، أي: يمنعونهم عن المسجد الحرام، حيث صدوا النبي ﷺ وأصحابه الذين هم أولى به منهم، فيمنعونهم من الوصول إلى البيت والصلاة فيه، والطواف والسعي والاعتكاف والعبادة فيه.

فعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: انطلق سعد بن معاذ معتمراً، قال: فنزل على أمية بن خلف أبي صفوان وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمرَّ بالمدينة نزل على سعد، فقال أمية: انتظر حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفت فبينما سعد يطوف إذ أتاه أبوجهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة؟ فقال سعد: أنا سعد، فقال أبوجهل: تطوف بالكعبة آمناً وقد آويتم محمداً وأصحابه»(١) الحديث.

والمعنى: أنهم قد استحقوا العذاب واستوجبوه بصدهم الرسول ﷺ والمؤمنين عن المسجد الحرام وعن عبادة الله ـ عز وجل ـ فيه، وتوحيده، وهذا أعظم الإلحاد فيه والظلم، وقد قال الله ـ عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

وما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر هو من العذاب الذي استحقوه، ولكن من رحمة الله ـ عز وجل ـ بهذه الأمة ببركة نبيها ﷺ لم يستأصلهم بعامة تحقيقاً لما

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٣٢)، وأحمد (١/ ٤٠٠).

أراد الله ـ عز وجل ـ من إيمان بعضهم وما وعد به في قوله ـ تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [الممتحنة: ٧]، وتحقيقاً لرجائه ﷺ، لما قال له ملك الجبال: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: «**بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً**»(١).

﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ الجملة معطوفة على جملة الحال، و«ما» نافية والضمير الهاء يعود إلى المسجد الحرام، أي: والحال أنهم ما كانوا أولياء المسجد الحرام ـ كما يزعمون.

وفي هذا إظهار شدة ظلمهم واعتدائهم في صدهم عن المسجد الحرام، لأنهم لا يجوز لهم الصد عن المسجد الحرام لو كانوا هم أولياءه، فكيف يصدون عنه وهم ليسوا أولياءه، فهذا أشد إثماً وأعظم جرماً، كما قال ـ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤].

﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى «ما» والضمير الهاء يعود إلى المسجد الحرام، أي: ما أولياء المسجد الحرام إلا المتقون الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وفي هذا إثبات أن أولياء المسجد الحرام هم المتقون، ونفي ولاية المشركين عليه، والتعريض بذمهم لعدم تقواهم، كما قال ـ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۝١٧ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٨﴾ [التوبة: ١٧، ١٨].

وقال بعض المفسرين: يجوز أن يعود الضمير في قوله: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٥) ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ إلى الله ـ عز وجل ـ أي: وما كانوا أولياء الله إن أولياؤه إلا المتقون.

وهذا محتمل وصحيح، لكن الأظهر الذي يناسب السياق القول الأول.

وقد قيل: الضمير يرجع إلى الرسول ﷺ، أي: وما كانوا أولياء الرسول ﷺ، إن أولياؤه إلا المتقون. وهذا بعيد ـ وإن كان المعنى عليه صحيح.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الواو عاطفة، و«لكن» حرف استدراك، أي: ولكن أكثر المشركين لا يعلمون أنهم ليسوا أولياء المسجد الحرام، وأن أولياءه حقيقة هم المتقون، ولهذا تجرأ المشركون على الصد عن المسجد الحرام ظناً أنهم أحق بولايته من المؤمنين وأن لهم الحق في الصد عنه.

ويفهم من قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أن من بينهم ـ وخاصة من عقلائهم ـ من يعلم صدق الرسول ﷺ، وأنه ليس لهم الصد عن المسجد الحرام، وإنما يفعلون ذلك، أو يؤيدون من قام به مجاراة ومتابعة لرؤسائهم رؤوس الكفر والضلال.

قوله ـ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾.

ذكر الله ـ عز وجل ـ قبل هذا استحقاق الكفار للعذاب لصدِّهم عن المسجد الحرام، ونفى ولايتهم للمسجد الحرام، ثم أتبع ذلك بما يشبه الدليل والعلة على انتفاء ولايتهم للمسجد الحرام، وعلى استحقاقهم للعذاب، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة، و«ما» نافية، ﴿صَلَاتُهُمۡ﴾ أي: دعاؤهم وعبادتهم.

﴿عِندَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ أي: عند الكعبة «البيت الحرام» سميت بيتاً لقيامها على أركان، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿مُكَآءٗ﴾ صفيراً، ﴿وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ تصفيقاً، مشتق من الصدى وهو الصوت الذي يردده الهواء.

وإنما كان المشركون يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ قراءته، واستهزاءً منهم به وبما جاء به، كما قال ـ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].

قال حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ يعيب المشركين في صنيعهم هذا:

إذا قام الملائكة انبعثتم ... صلاتكم التصدي والمكاء

فوضعوا المكاء والتصدية مكان الصلاة، كما قال الشاعر:

وما كنت أخشى أن يكون عطاؤه ... أداهم سوداً أو محدرجة سمراً[1]

أي: أنه وضع القيود والسياط مكان العطاء.

﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

أي: فذوقوا العذاب بسبب كفركم وجحودكم رسالته ﷺ ولما جاء به من الآيات، وهذا تبكيت لهم وتوبيخ وعذاب معنوي لا يقل عن العذاب الحسي.

والمراد ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي والأسر، وقيل: هو وعذاب الآخرة.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ بما دبَّره له الكفار من مكر، لحبسه أو قتله أو إخراجه، وامتنان الله ـ عز وجل ـ عليه بإنجائه وحفظه من مكرهم، ومكر الله ـ عز وجل ـ بهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

٢- عظم ما لاقى النبي ﷺ من قومه من الأذى، من المكر والكيد وغير ذلك مما لا قِبَل لأحدٍ به، وتجلُّده ﷺ بالصبر والعزم حتى أظهره الله ـ عز وجل.

٣- شدة عداوة قريش للنبي ﷺ ولما جاء به من الحق من عند الله ـ وعتوِّهم وجبروتهم وعنادهم.

---

(١) البيت للفرزدق.

٤- لجوء المكابرين والمعاندين عند عجزهم عن مقارعة الحق ورده إلى أساليب التصفية والقهر، من الحبس أو القتل أو الإخراج.

٥- إثبات مكر الله ـ عز وجل ـ بالماكرين على سبيل المجازاة لهم، وأنه ـ عز وجل ـ خير الماكرين، وذو الكيد المتين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾.

والمكر والكيد والاستهزاء والمخادعة، ونحو ذلك من الصفات لا يوصف الله بها على سبيل الإطلاق، وإنما على سبيل المقابلة، فهو ـ عز وجل ـ يمكر بالماكرين، ويكيد للكائدين ويستهزئ بالمستهزئين، ويخدع المخادعين، ونحو ذلك. وهي على هذا النحو تعد صفة كمال.

٦- شدة استخفاف الذين كفروا بالقرآن الكريم ـ وزعمهم الكاذب القدرة على الإتيان بمثله، إمعاناً منهم بالتكذيب والعناد، وتمويهاً على الآخرين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ وقد تحدَّاهم الله أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، فلم يستطيعوا.

٧- إقرار المشركين على أنفسهم بسماع ما يتلى عليهم من القرآن الكريم، مما تقوم عليهم به الحجة، ولكنه لا ينفعهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعْنَا ﴾..

٨- جرأة المكذبين والكفار على وصف القرآن بأقبح الصفات؛ لقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ كما وصفوه بالسحر والكهانة والشعر، ونحو ذلك.

٩- شدة جهل الكفار وضعف عقولهم، ومبالغتهم في التكذيب والعتو والعناد، ونفي أن يكون القرآن حقًّا من عند الله ـ حتى استفتحوا على أنفسهم ودعوا عليها بالعقوبة واستعجلوا العذاب؛ لقوله ـ تعالى عنهم: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ وكان الأجدر بهم أن يقولوا: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه».

١٠- إقرار الكفار بربوبية الله ـ عز وجل ـ وقدرته وعلوه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ

أَئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

١١- بركة النبي ﷺ وأن وجوده ﷺ بين قومه أمان لهم من عذاب الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾.

١٢- أن الإيمان والتوبة والاستغفار أمان من عذاب الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾.

١٣- فضل الاستغفار وأنه مما تُستجلب به النعم، وتُدفع به النقم بإذن الله ـ عز وجل.

١٤- استحقاق المشركين لعذاب الله لصدهم عن المسجد الحرام، وأنه لا مانع يمنع عنهم عذاب الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ وما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي والأسر هو من العذاب الذي استحقوه.

١٥- أن الكفار ليسوا بأولياء للمسجد الحرام، وإنما أولياؤه حقًّا المتقون؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ وهم كذلك ليسوا بأولياء لله ولا لرسوله ﷺ وإنما أولياء الله ورسوله هم المتقون.

١٦- جهل الكفار وعدم علمهم بأنه لا ولاية لهم على المسجد الحرام، وأنه لا يجوز لهم الصد عنه، وأن ولايته حقًّا للمتقين، وجهلهم وعدم علمهم بما ينفعهم وما يضرهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

١٧- أن صلاة الكفار عند البيت ليست إلا صفيراً وتصفيقاً، للتخليط على النبي ﷺ في قراءته وعلى المؤمنين واستهزاءً بما جاء به، مما يدلل على عدم ولايتهم للمسجد الحرام، وعلى استحقاقهم للعذاب؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

١٨- تبكيت الكفار وتعذيب قلوبهم معنويًّا ببيان أن ما أصابهم من العذاب يوم بدر هو بسبب كفرهم، وكذا ما يصيبهم بعد ذلك في الآخرة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٦-٤٠].

قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

رُوِيَ عن جمع من المفسرين أنها نزلت في نفقة المشركين في بدر وبعدها وفي أُحُد لقتال رسول الله ﷺ والمؤمنين(١).

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل من أنفق للصد عن سبيل الله فهو داخل في الوعيد.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾.

الإنفاق: إخراج المال وبذله، وهو محمود إذا كان في وجوهه المشروعة، ومذموم إذا كان في الوجوه المحرمة كالإنفاق في الصد عن سبيل الله.

وأضاف الأموال إليهم لأنها تحت أيديهم ويملكونها ملكاً نسبياً، وإلا فهم وما ملكوا ملك الله ـ عز وجل، وجمعها للمبالغة، لأنهم إنما ينفقون بعض أموالهم، وهي تشمل كل ما يتمول من نقد أو عين.

﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يصدوا الناس عن دين الله وصراطه المستقيم، فهم ينفقون أموالهم، وهي أعز الأشياء عليهم لأجل أسوأ هدف

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٧٠-١٧٥)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٩٧-١٦٩٨)، «أسباب النزول» للواحدي ص(١٥٩).

وهو صد الناس عن دين الله، كما صدوا عنه بأنفسهم.

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ الفاء للتفريع.

أي: فسينفقون أموالهم ويبذلونها للصد عن دين الله، ونصر الباطل.

وفي قوله: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ بالمضارع والسين الدالة على الاستقبال إشارة إلى أنهم كما أنفقوها في الماضي للصد عن دين الله فسينفقونها في المستقبل لهذا الغرض؛ ولهذا قال قبل هذا: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ بالمضارع للدلالة على استمرارهم في هذا النهج.

﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: ثم تكون هذه الأموال التي أنفقوها للصد عن دين الله عليهم حسرة. وأسند الحسرة إلى الأموال لأنها سبب الحسرة بإنفاقها للصد عن دين الله.

والحسرة: شدة الندامة، والتلهف والأسى على ما فات.

والمعنى: ثم تكون هذه الأموال التي أنفقوها للصد عن دين الله عليهم ندامة شديدة، وأسىً؛ لأنهم خسروها، لا فيما ينفعهم بل فيما يضرهم، كما قال ـ تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران: ١١٧].

وقد أحسن المتنبي في قوله:

إذا الجود لم يُرزق خلاصاً من الأذى　　　فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً

﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ أي: ثم تكون النتيجة أنهم يغلبون، فيخسرونها، كما في بدر وغيرها، ولا يحصلون من إنفاقها على طائل، ولا يستطيعون صد الناس عن دين الله، ولا إطفاء نوره ـ كما أرادوا؛ لأن الله ـ عز وجل ـ ناصر دينه ومظهره، ومتم نوره ولو كره الكافرون، كما قال ـ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٨، ٩].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ﴿جَهَنَّمَ﴾ اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها، وبُعد قعرها، وشدة حرها.

﴿يُحۡشَرُونَ﴾ أي: يساقون إليها ويجمعون فيها.

فجزاؤهم في الدنيا الحسرة والندامة على ضياع ما أنفقوه من أموالهم، والخزي بظهور الحق عليهم وقتلهم وأسرهم، وفي الآخرة حشرهم وجمعهم في جهنم؛ كما قال ـ تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢].

وأظهر في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ مقام الإضمار، فلم يقل: «وإلى جهنم يحشرون» لبيان سبب حشرهم إلى النار، وهو كفرهم، ولبيان أن الكفار جميعاً من هؤلاء وغيرهم سيحشرون إلى جهنم ويجمعون فيها.

قوله ـ تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بضم التحتية الأولى وفتح الميم، وكسر التحتية الثانية وتشديدها «لِيُمَيِّزَ».

وقرأ الباقون بفتح التحتية الأولى وكسر الميم وسكون التحتية الثانية «لِيَمِيْزَ».

وقوله: ﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلق بقوله: ﴿يُحۡشَرُونَ﴾ في الآية السابقة.

واللام للتعليل، أي: يحشر الذين كفروا إلى جهنم لأجل أن يميز الله الخبيث من الناس من الطيب، أي: يفرز ويفصل الخبيث من الطيب، فالخبيث من الناس ـ وهم الكفار ـ يحشرون إلى جهنم، والطيب من الناس ـ وهم المؤمنون ـ يحشرون إلى جنات النعيم، كما قال ـ تعالى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: ٥٩]، وقال ـ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤]، وقال ـ تعالى: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى:]، وقال ـ تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [يونس: ٢٨].

كما ميَّز الله الخبيث من الطيب قبل ذلك في الدنيا بأعمالهم، كما قال ـ تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال ـ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٦٦].

و«الخبيث» و«الطيِّب» و«الخُبْث» و«الطِّيْب» وصفان يوصف بهما الأشخاص، فالكافر خبيث، والمؤمن طيب، وتوصف بهما الأعيان، فالخمر خبيث والعنب طيب، وتوصف بهما الأفعال والأقوال، فيقال: هذا فعل خبيث وهذا فعل طيب، وهذا قول خبيث، وهذا قول طيب.

والخبيث لا يساوي الطيب بحال من الأحوال، كما قال ـ تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي: وليجعل الخبيث بعضهم على بعض من الأشخاص والأعمال والأعيان، ويضم بعضه إلى بعض، والجعل هنا وفي الموضع الذي بعده كوني.

﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي: فيجعله متراكماً متراكباً بعضه فوق بعض، كما قال ـ تعالى ـ في وصف السحاب: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ [النور: ٤٣] أي: متراكماً متراكباً بعضه فوق بعض، وقال ـ تعالى: ﴿يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الطور: ٤٤]. أي: مركوم متراكب بعضه على بعض.

وفي هذا ما لا يخفى من الإهانة والعذاب المعنوي لأهل الخبث.

﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ أي: فيصيره في نار جهنم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الإشارة للخبيث الذي جعل الله بعضه على بعض فركمه في جهنم، وأشير إليه إشارة من يعقل، وجمع جمع من يعقل تغليباً للعقلاء لأنهم هم المكلفون المحاسبون، وأشير إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تحقيراً لهم.

والخسارة في الأصل: ذهاب الربح مع رأس المال، والمراد بها في الآية الخسارة العظمى؛ خسارة الدين والدنيا والآخرة، خسارة النفس والمال والأهل والولد، وكل شيء؛ ولهذا أكَّد وحصر الخسارة فيهم بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وبضمير الفصل ﴿هُمُ﴾، كما قال ـ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

وقد أحسن القائل:

وكل كسر فإن الله جابره ... وما لكسر قناة الدين جبران

قوله ـ تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

ذكر الله ـ عز وجل ـ مكر الكفار ـ به ﷺ، وتكذيبهم ومخالفتهم له ولما جاء به، وصدهم عن المسجد الحرام، واستحقاقهم للعذاب، وكون صلاتهم عند المسجد الحرام مكاءً وتصدية، وإنفاقهم أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، وتوعدهم بحشرهم إلى جهنم، ثم أتبع ذلك بأمره ﷺ بحثهم على الانتهاء عما هم عليه من الكفر والمشاقة والعناد، والصد عن المسجد الحرام وعن سبيل الله، وترغيبهم في الدخول في الإسلام بوعدهم بمغفرة ما سلف منهم، وتخويفهم من العود والاستمرار على ما كانوا عليه، فيقع بهم ما وقع بالمكذبين قبلهم ـ وهذا على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ الجملة استئنافية، والأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد للذين كفروا وجحدوا دين الله وشرعه، وكذبوا رسوله ﷺ.

﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ أي: عما هم عليه من الكفر والتكذيب والعناد والصد عن المسجد الحرام وعن دين الله، ويدخلوا في الإسلام.

﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: يستر ويتجاوز لهم الذي قد مضى من الكفر والذنوب.

وهذا يدل على سعة رحمة الله ـ عز وجل ـ ولطفه وعفوه ومغفرته، وأنه لا يتعاظمه شيء أن يغفره حتى الكفر والشرك، بل إنه ـ عز وجل ـ يبدل سيئات التائبين حسنات، كما قال ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من أحسن في

الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر»(١).

وفي حديث عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ الطويل قال عمرو: «فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي. قال: مالك يا عمرو؟ قال: قلت: أردت أن أشترط. قال: تشترط بماذا؟ قلت: أن يغفر لي. قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله...»(٢).

﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ الواو: عاطفة، و«إن» شرطية، و﴿يَعُودُواْ﴾ فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والفاء رابطة لجواب الشرط لاقترانه بـ«قد».

والمعنى: وإن يرجعوا إلى ما هم عليه من الكفر والتكذيب والصد عن دين الله وقتال الرسول ﷺ والمؤمنين، ويستمروا على ذلك.

﴿فَقَدْ مَضَتْ﴾ أي: فقد تقدمت وسبقت ﴿سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ السنة: العادة المألوفة والسيرة المتَّبَعَة ـ وفي هذا وعيد شديد وتهديد أكيد، وتمثيل لهم بما جرى لأمثالهم من المكذبين.

أي: وإن يعودوا إلى ما هم عليه من الكفر والصد عن دين الله وقتال أوليائه فقد سبقت وتقدمت سنة الله ـ عز وجل ـ في إهلاك المكذبين الأولين، ومعاجلتهم بالعقوبة إذا استمروا على الكفر والتكذيب والعناد، كما قال ـ تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، ومن ذلك ما أوقعه ـ عز وجل ـ في أهل بدر، وفي غيرهم من المكذبين من الأمم قبلهم، كما قال ـ تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

قوله ـ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: وقاتلوا أيها المؤمنون

---

(١) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٢١)، ومسلم في الإيمان (١٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٤٢).
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢١)، وأحمد (٤/ ١٩٩، ٢٠٤، ٢٠٥).

أهل الكفر والشرك. والأمر للوجوب.

﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ لانتهاء الغاية، أي: حتى لا توجد فتنة، والفتنة: الكفر والشرك، أي: حتى لا يفتن الناس ويصدوا عن الدين الحق ويُضلون عنه بالكفر والشرك؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.فقابل بين الفتنة وكون الدين كله لله؛ مما يدل على أن الفتنة هي الكفر والشرك.

وقال هنا: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ﴾ بالتأكيد، بينما قال في آية البقرة: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ بدون تأكيد، قيل: لأن آية الأنفال أسبق نزولاً من آية البقرة، فناسب فيها التأكيد، وناسب في آية البقرة حذفه للإيجاز.

ومعنى الآية: ويكون الدين كله خالصاً لله، بأن يخلص التوحيد والعبودية والطاعة لله ـ عز وجل ـ وحده، لا شريك له، وهذا هو المقصد من القتال والجهاد في سبيل الله، كما قال ـ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك؛ عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»(١).

وعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ـ باب ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (٢٥)، ومسلم في الإيمان ـ الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله (٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في العلم ـ من سأل وهو قائم عالماً جالساً (١٢٣)، ومسلم في الإمارة ـ من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (١٩٠٤)، وأبوداود في الجهاد (٢٥١٧)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٦)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٣).

وعن نافع: «أن رجلاً أتى ابن عمر، فقال: يا أبا عبدالرحمن، ما حملك على أن تحج عاماً وتعتمر عاماً، وتترك الجهاد في سبيل الله ـ عز وجل ـ وقد علمت ما رغب الله فيه؟ قال: يا ابن أخي، بُني الإسلام على خمس: إيمان بالله ورسوله، والصلاة الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت. قال: يا أبا عبدالرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ قال: فعلنا على عهد رسول الله ﷺ، وكان الإسلام قليلاً، فكان الرجل يفتن في دينه، إما قتلوه، وإما يعذبونه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة. قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال: أما عثمان فكان الله عفا عنه، وأما أنتم فكرهتم أن تعفوا عنه. وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وختنه، وأشار بيده فقال: هذا بيته حيث ترون».

وفي رواية: «أن رجلاً قال لابن عمر: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على الملك»[1].

وعن نافع «أن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير ـ فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر بن الخطاب، وأنت صاحب رسول الله ﷺ ـ فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أن الله حرم عليَّ دم أخي المسلم. قالوا: ألم يقل الله: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ فقال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله».

وفي رواية أيوب بن عبدالله اللخمي، قال: «كنت عند عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ فأتاه رجل، فقال: إن الله يقول: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ فقال ابن عمر: قاتلت أنا وأصحابي حتى كان الدين كله لله وذهب الشرك،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنفال (٤٥١٥)، والترمذي في المناقب (٣٧٠٦).

ولم تكن فتنة، ولكنك وأصحابك تقاتلون حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله»(١).

رضي الله عنك يا ابن عمر، ليتك ترى حال المسلمين اليوم.

وعن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: «لا أقاتل رجلاً يقول: «لا إله إلا الله» أبداً. فقال سعد بن مالك: وأنا والله، لا أقاتل رجلاً يقول: «لا إله إلا الله» أبداً. فقال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾؟ فقالا: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله»(١).

قوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

عرض عز وجل على الكفار الانتهاء عما هم عليه من الكفر والعناد ورغَّبهم في ذلك بوعده لهم بمغفرة ما سلف منهم، وذلك قبل الأمر بقتالهم، ثم رغَّبهم ثانية بالانتهاء عما هم عليه بعد قتالهم.

وهذا وذاك يدل على سعة رحمة الله ـ عز وجل ـ وعفوه ومغفرته، وأنه لا يهلك عليه إلا هالك، وفيه تدرج في مجازاتهم من الأعلى إلى الأدنى، فقد رتب على انتهائهم عما هم عليه من الكفر قبل قتالهم مغفرة ما سلف منهم، بينما رتب على انتهائهم بعد قتالهم ما يفيد الكف عنهم وبيان اطلاعه على أعمالهم.

قوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ أي: فإن انتهوا ورجعوا وتركوا ما هم عليه من الكفر، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قرأ رويس عن يعقوب بالخطاب «تعملون» وقرأ الباقون بالغيب «يعملون». و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: فإن الله بالذي يعملون، أو بعملهم ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: عليم به، مطلع عليه، خبير به.

والمعنى: فإن انتهوا بقتالكم لهم عما هم عليه من الكفر والصد عن دين الله فكُفوا عنهم، وإن لم تعلموا بواطنهم، فإن الله عليم بأعمالهم مطلع عليها خبير بها، لا تخفى عليه منها خافية، وسيحاسبهم ويجازيهم عليها؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ

---

(١) أخرجهما ابن مردويه ـ فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٩٧).

لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال ـ تعالى: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [التوبة: ٥]، وقال ـ تعالى: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١]، وقال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها؛ عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله ـ عز وجل**»(١).

ولهذا عاتب الله المؤمنين لما قتلوا من ألقى إليهم السلام، فقال ـ تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [النساء: ٩٤].

وقال ﷺ لأسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ لما قتل رجلاً بعد أن قال: لا إله إلا الله: «**أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟**» قال: يا رسول الله، إنما قالها تعوذاً. قال: «**هلا شققت عن قلبه؟**» وجعل يقول ويكرر عليه: «**من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة**»؟ قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا ذلك اليوم»(٢).

قوله ـ تعالى: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾.

رتب عز وجل على انتهاء الكفار وعما هم عليه من الكفر قبل قتالهم مغفرة ما سلف منهم، ثم رتب على انتهائهم عن ذلك بعد قتالهم ما يفيد الكف عنهم وأمر بواطنهم إلى الله، ورتب على توليهم إعلام المؤمنين بأنه مولاهم نعم المولى ونعم النصير ـ طمأنة للمؤمنين.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٦٩)، ومسلم في الإيمان ـ تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله (٩٦)، وأبوداود في الجهاد ـ علام يقاتل المشركون (٢٦٤٣)، وابن ماجه في الفتن ـ الكف عمن قال: لا إله إلا الله (٣٩٣٠)، وأحمد (٥/ ٢٠٧) ـ من حديث أسامة ـ رضي الله عنه.

قوله ـ تعالى: ﴿ وَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ أي: فإن أعرضوا بأبدانهم وقلوبهم عن الحق، واستمروا على الكفر والصد عن دين الله، و محاربة المؤمنين.

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿ وَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ وافتتح بقوله: ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ ﴾ للاهتمام بهذا الخبر وتيقنه، أي: فأيقنوا أن الله مولاكم، أي معينكم وناصركم عليهم ومتولي جميع أموركم، فلا تبالوهم، ولهذا قال بعده:

﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ ﴿نِعۡمَ﴾ للمدح والثناء، أي: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ الذي لا يُضيع من تولاه، ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ الذي لا يُغلب من نصره.

و﴿ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ الذي يتولى غيره بجلب الخير والنفع له، و﴿ٱلنَّصِيرُ ﴾ الذي ينصر غيره بدفع الشر والضر عنه.

الفوائد والأحكام:

١- ذم الكفار في إنفاقهم أموالهم، وأنهم إنما ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن دين الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فكفروا بالله ـ عز وجل ـ وكفروا نعمه عليهم.

٢- ضياع أموال الكفار بلا فائدة، بل إنها تكون حسرة وندامة عليهم وضرراً لهم؛ لأنهم أنفقوها للصد عن دين الله، فلم ينتفعوا بها، بل ولم يسلموا من ضررها وهذا هو الخسران المبين.

٣- حكم الله ـ عز وجل ـ وقضاؤه بغلبة الكافرين وانتصار المؤمنين عليهم في بدر، وغيرها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ﴾.

٤- جمع الكفار من أهل مكة وغيرهم وحشرهم إلى جهنم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴾.

٥- شدة ظلمة النار وجهمتها وحرها وبعد قعرها؛ لهذا سميت «جهنم».

٦- تمييز الله ـ عز وجل ـ وفصله بين الخبيث والطيب، بين أهل الكفر، وأهل الإيمان في الدنيا والآخرة، وجعل الخبيث بعضه على بعض وركمه جميعاً

وجعله في جهنم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ ﴾.

٧- أن المؤمن طيب والكافر خبيث، ولا يستوي الخبيث والطيب، كما قال ـ تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

٨- الجمع للذين كفروا بين العذاب الحسي والمعنوي في جهنم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ ﴾.

٩- تأكيد خسارة الذين كفروا الخسارة العظمى؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ فقد أكد خسارتهم، بل وحصر الخسارة فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم».

١٠- أن الخسارة العظمى إنما هي الخسارة في الدين وذلك بالموت على الكفر، قال ـ تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الزمر: ١٥].

١١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ الآية.

١٢- سعة رحمة الله ـ عز وجل ـ وعفوه ومغفرته حيث وعد هؤلاء الكفار إن انتهوا عما هم عليه من الكفر والصد عن سبيل الله بمغفرة ما سلف منهم من الذنوب.

١٣- الوعيد والتهديد لكفار مكة إن عادوا لما هم عليه من المشاقة والمحاربة لله ورسوله والمؤمنين، واستمروا على ما هم عليه من الكفر والتكذيب والعناد بالعقوبة العاجلة، كما هي سُنَّة الله ـ تعالى ـ في المكذبين قبلهم مما أوقعه في أهل بدر، وفي المكذبين من الأمم الخالية؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

١٤- أن لله ـ عز وجل ـ سنناً كونية لا تتبدل ولا تتغير؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ فَقَدْ مَضَتْ

﴿سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

١٥- وجوب قتال الكفار؛ لقوله - تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ والأصل في الأمر الوجوب.

١٦- أن الغاية والحكمة من الأمر بقتال الكفار حتى لا يفتن الناس عن دينهم الحق إلى الشرك، وليكون الدين كله والعبودية لله وحده؛ لقوله - تعالى: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.

١٧- وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى؛ لقوله - تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.

١٨- أن أعظم فتنة هي الفتنة في الدين بالكفر والشرك بالله الموجب لسخط الله والخلود في النار.

١٩- إذا انتهى الكفار عما هم عليه من الكفر والمقاتلة للمؤمنين ينبغي الكف عن قتالهم. وأمر بواطنهم إلى الله - عز وجل؛ لقوله - تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٢٠- علم الله - عز وجل - واطلاعه التام على أعمال الكفار وغيرها من أعمال العباد؛ لقوله - تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٢١- تحذير الكفار من التولي وتهديدهم، وطمأنة الله - عز وجل - للمؤمنين بتوليه لهم ونصرهم؛ لقوله - تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾.

٢٢- إثبات ولاية الله الخاصة لعباده المؤمنين بالنصر والعون والتمكين وغير ذلك؛ لقوله - تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾.

٢٣- امتداح الله - عز وجل - لنفسه، وأنه لا أحد أعظم ولاية ولا نصرة منه - عز وجل - لعباده المؤمنين؛ لقوله - تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)﴾ [الأنفال: ٤١].

ذكر الله ـ عز وجل ـ في مطلع السورة حكم الأنفال مجملاً في قوله ـ تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الآية: ١]. ثم بيَّن ذلك وفصَّله في هذه الآية.

قوله ـ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ افتتح الله ـ عز وجل ـ هذا البيان والتفصيل بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ للتنبيه والاهتمام. والخطاب للمؤمنين، وبخاصة أهل بدر، فهو تعليم لهم وبيان بكيفية قسمة الغنائم.

والواو في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ استئنافية، و«أن» حرف توكيد ونصب، و«ما» اسم موصول مبني في محل نصب اسم «أن»، ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ بيان لعموم «ما» أي: واعلموا أن الذي غنمتموه من أي شيء قليلاً كان أو كثيراً.

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الجملة خبر «أن»، والغنيمة: ما يؤخذ من أموال الكفار عنوة بقتال، وهي الأنفال المذكورة أول السورة.

وأما ما أخذ من أموال الكفار بدون قتال، وإنما بصلح ونحوه فهو «فيء» وهو المذكور في قوله ـ تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ الآية [الحشر: ٦]، وقوله: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧][(١)].

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الفاء في قوله: ﴿فَأَنَّ﴾ لما في الموصول من معنى الشرط.

واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ وما بعده للاستحقاق، أي: فحق، أو فواجب لله خمسه وللرسول.

---

(١) انظر تفصيل الكلام على الفيء في تفسير سورة الحشر في «تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن».

وقوله: ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ وما بعده معطوف على قوله: ﴿لِلَّهِ﴾.

أي: فأن لله خمس الذي غنمتموه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فيقسم خمس الغنيمة على هذه الأصناف، والباقي وهو أربعة أخماس الغنيمة يكون للمقاتلين.

﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ أي: وللرسول المعهود محمد ﷺ ـ وفيه إثبات رسالته ـ ﷺ، وأكثر المفسرين على أن سهم الله وسهم الرسول واحد يأخذ منه ﷺ نفقته ونفقة عياله، ويجعل الباقي مجعل مال الله، يصرف في مصالح المسلمين؛ لما ثبت أنه ﷺ كان يأخذ من الخمس نفقته ونفقة عياله، ويجعل الباقي مجعل مال الله»[(١)].

وعن عبدالله بن شقيق عن رجل من بلقين قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بواد القرى وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «**لله خمسها، وأربعة أخماس للجيش**». قلت : فما أحد أولى به من أحد؟ قال: «**ولا السهم تستخرجه من جنبك، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم**»[(٢)].

وعن عبادة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أنملتيه، فقال: «**إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم، إلا الخمس، والخمس مردود عليكم...**»[(٣)].

وعن عمرو بن عبسة ـ رضي الله عنه ـ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ إلى بعير من المغنم، فلما سلم أخذ وبرة من جنب البعير، ثم قال: «**لا يحل لي من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس، والخمس مردود فيكم**»[(٤)].

ويؤيد هذا أن خمسه ﷺ بعد وفاته يصرف في مصالح المسلمين كما كان يفعل

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٣٠٣٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٥٧)، وأبوداود في الخراج والإمارة والفيء (٢٩٦٣)، والنسائي في قسم الفيء (٤١٤٠)، والترمذي في الجهاد (١٧١٩) ـ من حديث أوس بن الحدثان عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في قسمة الفيء والغنيمة ـ إخراج الخمس (٦/ ٣٢٤). قال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٤): «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٦).

(٤) أخرجه أبوداود في الجهاد (٢٧٥٥).

أبوبكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع والسلاح. وقيل: يرد على بقية الأصناف، وقيل: لولي الأمر بعده، وقيل غير ذلك.

﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: ولأصحاب قرابة النبي ﷺ، وهم بنو هاشم وبنو المطلب يسوى بين غنيهم وفقيرهم، عن جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أعطيت بني المطلب من خمس خيبر وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد**»(١).

وفي رواية: «**إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، وشبَّك بين أصابعه**»(٢).

فيعطى ذوو القربى من الخمس، غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم على السواء.

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ جمع يتيم ويتيمة، والمراد يتامى المسلمين. واليتيم من مات أبوه وهو لم يبلغ ذكراً كان أو أنثى؛ لقوله ﷺ فيما رواه علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه: «**لا يُتم بعد احتلام**»(٣).

فيعطى اليتامى من الخمس لفقدهم من يعولهم ويقوم بمصالحهم.

﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ جمع مسكين، وهم الذين لا يجدون ما يسد حاجتهم وخلتهم من الفقراء والمساكين، سموا مساكين من السكون وعدم الحركة؛ لأن الحاجة أذلتهم وأسكنتهم.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المنقطع في سفره، فيعطى ما يحتاجه في سفره وإن كان غنيًّا في بلده، كما يعطى من الزكاة.

---

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١٤٠)، وأبوداود في الخراج والإمارة والفيء (٢٩٧٨)، والنسائي في قسم الفيء (٤١٣٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٨١).

(٢) أخرجها أبوداود (٢٩٨٠)، والنسائي (٤١٣٧).

(٣) أخرجه أبوداود في الوصايا (٢٨٧٣).

وسمي المسافر ابناً للسبيل وهو الطريق لملازمته له.

فخمس الغنيمة يقسم أخماساً: سهم الله وسهم رسوله واحد، وسهم لذي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل.

ولم يقدر في الآية ما لكل صنف من هذه الأصناف، وذلك موكول إلى اجتهاد الرسول ﷺ والخلفاء من بعده، وولاة الأمر من بعدهم ـ فيقسم بحسب الحاجات والمصالح، بحيث يعطى كل صنف ما يحتاجه على وجه لا يضر بالصنف الآخر.

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ ﴿إِن﴾ شرطية، و﴿كُنتُمْ﴾ فعل الشرط، وجوابه محذوف دل عليه ما سبق، أي: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه، أي: اعلموا ذلك واعملوا به، فأقسموا الغنائم كما بيَّن الله لكم وارضوا بذلك، فجعل ـ عز وجل ـ ذلك من شرط الإيمان.

والإيمان بالله هو الإيمان بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه. وضده الكفر.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع، آمركم بالإيمان بالله، ثم قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من المغنم**»(١).

فأداء الخمس من المغنم من الإيمان بالله.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ الواو عاطفة، و«ما» اسم موصول مبني في محل جر معطوف على لفظ الجلالة في قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾ أي: إن كنتم آمنتم بالله وبالذي أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان من الوحي، والنصر وأسبابه، من الإمداد بالملائكة وإنزال المطر، وغير ذلك. وفي هذا تذكير لهم بهذه النعم، وتعظيم لها،

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٣)، ومسلم في الإيمان ـ الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه (١٧)، وأبوداود في الأشربة (٣٦٩٢)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٣١)، والترمذي في الإيمان (٢٦١١).

وإثبات علوه - عز وجل - على خلقه، وأن القرآن منزل غير مخلوق.

﴿عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ أي: على عبدنا محمد ﷺ وفي إضافته ﷺ إلى ضميره - عز وجل - ووصفه بالعبودية له تشريف وتكريم له ﷺ.

وإنما وصفه بالعبودية؛ لأنها أشرف ما يوصف به البشر، ولهذا وصفه بها في أعلى المقامات مقام الإسراء حين قُرْبه ﷺ من ربه، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ [الإسراء: ١].

كما وصفه بها في أعظم المقامات مقام الدعاء والعبادة، فقال - تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾ [الجن: ١٩].

﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ يوم بدر، يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة النبوية.

و﴿ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ الفرق والفصل بين شيئين، أو أكثر.

وسُمي يوم بدر بـ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾؛ لأن الله فرق وفصل فيه بين الحق والباطل، فأظهر فيه الحق، وأبطل الباطل، وفي هذا تعظيم وتشريف له.

﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ بدل من ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾، و«ال» في ﴿ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ للعهد أي: يوم التقى جمع المؤمنين وجمع المشركين.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ قدم المتعلق، وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على المتعلق به، وهو الخبر «قدير» ونكّر «شيء» لتأكيد عموم قدرته وشمولها لكل شيء.

و﴿قَدِيرٌ﴾ على وزن «فعيل» صفة مشبهة يدل على كمال قدرته، فهو - عز وجل - ذو القدرة التامة على كل شيء لا يمتنع عليه شيء أو يعجزه، كما قال - تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [فاطر: ٤٤].

ومناسبة تذييل الآية بقوله - تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ واضحة تماماً فإن الله - عز وجل - أجرى من أسباب النصر يوم بدر ما يدل على كمال قدرته من الإمداد بالملائكة، وتغشيته المؤمنين بالنعاس، وإنزال المطر عليهم، ونصرهم مع قلة عَدَدِهم وعُدَدِهم وكثرة عدوهم واستعداده.

الفوائد والأحكام:

١- فضل الله ـ عز وجل ـ على هذه الأمة المحمدية، وعلى نبيها ﷺ بإحلال الغنائم لهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٢- بيان وتفصيل كيفية قسمة الغنائم، وأهمية معرفة ذلك والعلم به؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾ الآية.

٣- أن خمس الغنائم لله وللرسول ولقرابته واليتامى والمساكين وابن السبيل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

وسهم الله وسهم رسوله واحد، فيقسم الخمس خمسة أسهم؛ سهم لله وللرسول، وسهم لقرابة الرسول ﷺ وهم بنو هاشم وبنو عبدالمطلب، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل.

وسهم الرسول ﷺ يأخذ منه ﷺ نفقته ونفقة أهله، ويضع ما بقي منه في مصالح المسلمين، لما ثبت أنه ﷺ كان يأخذ من الخمس نفقته ونفقة عياله، ويجعل الباقي مجعل مال الله»[١].

وقال ﷺ: «**ليس لي من غنائمكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم**»[٢].

والأمر في سهمه ﷺ بعد وفاته إلى الإمام يتصرف فيه ويضعه في مصالح المسلمين.

٤- أن قرابة الرسول ﷺ يعطون من الخمس، ويستوي غنيهم وفقيرهم، وذكرهم وأنثاهم؛ لظاهر الآية، فهي مطلقة. وقيل: يعطى فقراؤهم فقط.

٥- رعاية الإسلام لأهل الحاجات وعنايته بهم، كاليتامى والمساكين وابن السبيل، لهذا جعل لكل منهم سهماً في خمس الغنائم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

٦- أن الخمس يقسم في هذه الأصناف حسب الحاجة والمصلحة، فيعطى كل صنف ما يحتاجه على وجه لا يضر بالصنف الآخر، وذلك موكول لاجتهاد الرسول ﷺ والخلفاء من بعده وولاة الأمر بعدهم؛ لأنه لم يقدر في الآية ما لكل صنف.

٧- أن أربعة أخماس الغنيمة للغانمين؛ لأن الله أضاف الغنيمة إليهم في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ وأخرج منها الخمس بقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الآية.

٨- أن من شرط الإيمان بالله وبما أنزل على رسوله ﷺ يوم بدر من الوحي، والنصر وأسبابه، من الإمداد بالملائكة، وإنزال المطر، وغير ذلك العلم بأن لله خمس الغنيمة وللرسول ولمن ذكروا في الآية، وقسمة الغنيمة والخمس كما قسمها الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾.

٩- أن الإيمان بالله، وبما أنزل من الوحي شرط لقبول جميع الأعمال.

١٠- إثبات علو الله ـ عز وجل ـ على خلقه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

١١- أن القرآن الكريم منزل من عند الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

١٢- تشريف الله ـ عز وجل ـ وتكريمه لنبيه ﷺ بإضافته إليه بقوله ـ تعالى: ﴿عَبْدِنَا﴾ ووصفه بالعبودية له ـ عز وجل ـ التي هي أفضل صفة يوصف بها البشر.

١٣- تعظيم يوم بدر والتنويه به، وبما حصل فيه من إنزال القرآن، وأسباب النصر من الإمداد بالملائكة وإنزال المطر وغير ذلك، والفصل فيه بين الحق والباطل بنصر الحق وأهله ودحض الباطل وأهله؛ ولهذا سماه الله ـ عز وجل: «يوم الفرقان»، فقال: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾.

١٤- عموم قدرة الله ـ عز وجل ـ على كل شيء، وتمامها، وأنه لا يمتنع عليه شيء أو يعجزه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال: ٤٢-٤٤].

قوله ـ تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو ويعقوب «العِدوة» في الموضعين بكسر العين، وقرأ الباقون بضمها.

﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى «حين» متعلق بـ«أنزلنا»، أي: وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان حين أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى.

أي: حين أنتم أيها المؤمنون نزول ﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بعدوة وادي بدر الدنيا، أي: بضفته وجهته القربى مما يلي المدينة.

﴿وَهُم﴾ أي: المشركون ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ أي: بعدوة وادي بدر ﴿الْقُصْوَىٰ﴾ أي: البعدي مما يلي المدينة، والقربى مما يلي مكة.

﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ الركب: جمع راكب، والمراد بالركب العير التي فيها تجارة قريش مع أبي سفيان في نحو أربعين راكباً، والتي خرج المسلمون لطلبها، وخرج المشركون لحمايتها.

﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ ﴿أَسْفَلَ﴾ ظرف مكان منصوب في محل رفع خبر «الركب» أي: والركب أخفض منكم، أي: في الجهة السفلى منكم مما يلي ساحل البحر، وليس بعيداً منكم، ولكن أراد الله أن يفلت فلا تظفرون به، وفي هذا حكمة بالغة ودلالة على طي علم الغيب حتى عن الرسول ﷺ.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ الواو عاطفة، و«لو» شرطية، و﴿تَوَاعَدتُّمْ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ﴾. واللام رابطة لجواب الشرط.

والمعنى: ولو تواعدتم أيها المؤمنون أنتم والمشركون، أي: ولو كان بينكم

وبينهم موعد محدد مكاناً وزماناً أن تلتقوا في هذا المكان، وهذا الزمن ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي: لما استطعتم أن تلتقوا في الوقت المحدد والمكان المحدد بينكم، أي: لصار بينكم اختلاف في الزمان والمكان بتقدم أو تأخر، ما قد يعرض لكم ولهم من العوارض.

و﴿الْمِيعَادِ﴾ وقت وزمان الوعد.

قال السعدي[(١)]: «ولو تواعدتم أنتم وإياهم على هذا الوصف وبهذه الحال ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي: لابد من تقدم أو تأخر، أو اختيار منزل، أو غير ذلك، مما يعرض لكم، أو لهم يصرفكم عن ميعادهم».

﴿وَلَكِن لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ و«لكن» للاستدراك، أي: ولكن جمعكم الله على غير ميعاد بينكم وبينهم ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ كما قال كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ في حديثه الطويل حين تخلَّف عن غزوة تبوك: «إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد»[(٢)].

فالمسلمون خرجوا طلباً لعير قريش التي مع أبي سفيان ومن معه من الركب وأبوجهل ومن معه من صناديد قريش خرجوا لحماية العير فالتقوا ببدر.

﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يتم ﴿اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: واقعاً وكائناً، لا محالة، كما قال ـ تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ٢١]، وقال ـ تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقال ـ تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب: ٣٨].

ونكَّر ﴿أَمْرًا﴾ للتعظيم، أي: أمراً عظيماً، وهو التقاء المسلمين بالمشركين، وحصول المعركة والقتال بينهما، ونصر الإسلام أهله، وإذلال الشرك وأهله، وجعل

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٧١).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ـ قصة غزوة بدر (٤٤١٨)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩).

كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وإحقاق الحق وإبطال الباطل.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

والأصل في الهلاك «الموت»، والأصل في الحياة ما يضاد الموت، والمراد في الآية الهلاك المعنوي بالكفر والمعاصي، والحياة المعنوية بالإيمان والطاعة، كما قال ـ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال ـ تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [يونس: ٣١، الروم: ١٩].

وقال ﷺ: **«دعوني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم»**(١).

ولما وقع سلمة بن صخر ـ رضي الله عنه ـ على امرأته وهو صائم جاء فزعاً إلى النبي ﷺ، يقول: «يا رسول الله، هلكت وأهلكت. قال ﷺ: **ما الذي أهلكك**؟ قال: يا رسول الله، وقعت على امرأتي وأنا صائم..»(٢).

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ في معرض ذكرها حادثة الإفك: «فهلك في شأني من هلك»(٣).

والمعنى: ليكون كفر من كفر ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي: بعد قيام الحجة عليه، ببيان

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧٩)، وابن ماجه في المقدمة (٢) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٣٦)، ومسلم في الصيام (١١١١)، وأبوداود في الصوم (٢٣٩٠)، والترمذي في الصوم (٧٢٤)، وابن ماجه (١٦٧١) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٤١)، ومسلم في فضائل الصحابة ـ فضل عائشة ـ رضي الله عنها (٢٤٨٨)، وأبوداود في النكاح (٢١٣٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٧٠)، وأحمد (٦/ ١٩٤) ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

الحق من الباطل، كما قال ـ تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر ويعقوب وخلف والبزي عن ابن كثير وأبوبكر عن عاصم «حيِيَ» بياءين ظاهرتين الأولى مكسورة والثانية مفتوحة، وقرأ الباقون بياء واحدة مشددة.

أي: ولأجل أن يؤمن من آمن ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ أي: عن حجة واضحة، وبصيرة تامة، ومعرفة تامة بالحق، توجب له التمسك بالحق، والثبات عليه، رجاء ثواب الله، وخوفاً من عقابه، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

قال ابن القيم: «فتلك آية من أعظم آيات الله سبحانه، صدق بها رسوله وكتابه؛ ليهلك بعدها من اختار لنفسه الكفر والعناد عن بينة، فلا يكون له على الله حجة، ويحيى من حي عن بينة، فلا يبقى عنده شك ولا ريب، وهذا من أعظم الحكم»(١).

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ اللام في قوله: ﴿لَسَمِيعٌ﴾ للتوكيد، أي: وإن الله لذو سمع يسمع جميع الأصوات والحركات، حتى دبيب النمل على الصخر في الظلمات ومن ذلك سماعه ـ عز وجل ـ دعاء وتضرع المستغيثين به، وإيمان من آمن وكفر من كفر.

﴿عَلِيمٌ ﴾ ذو علم وسع كل شيء، كما قال ـ تعالى: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨]، عليم بالبواطن والظواهر، والغيب والشهادة، ومن ذلك علمه ـ عز وجل ـ بالكافرين، وعلمه بالمؤمنين واستحقاقهم النصر على أعدائهم الكافرين، وغير ذلك.

وباجتماع سعة السمع وسعة العلم في حقه ـ عز وجل ـ يزداد كمالاً إلى كمال.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٣٨).

قوله ـ تعالى: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٣، ٤٤].

كما جمع الله بين المؤمنين والكافرين في بدر على غير ميعاد بينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، جعل الله ـ عز وجل ـ لإتمام ما قضاه، وتثبيت المؤمنين أن أرى النبي ﷺ المشركين في منامه قليلاً، كما أرى كل فريق منهم قلة الفريق الآخر، ليحصل الإقدام من كل منهما على الآخر، ويتم ما قضاه.

قوله: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ ﴿ إِذْ ﴾ ظرف بمعنى «حين» متعلق بمحذوف تقديره «اذكر» أي: اذكر حين ﴿يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يريك المشركين ﴿فِى مَنَامِكَ﴾ أي: في نومك ﴿قَلِيلًا﴾ أي: قليلاً عددهم ـ تثبيتاً من الله ـ عز وجل ـ لك ولأصحابك، وطمأنة لقلوبكم. وفي هذا امتنان من الله ـ عز وجل ـ عليه ﷺ وعلى أصحابه، وتذكير لهم بذلك. وكان الله ـ عز وجل ـ قد أرى رسوله ﷺ في منامه جيش المشركين قليل العدد، فبشَّر بذلك أصحابه فتشجعوا للقائهم واطمأنت قلوبهم، وثبتوا، فكان ذلك من أسباب النصر.

وأسند ـ عز وجل ـ الإرادة إليه لبيان أنها حق ووحي من عنده ـ عز وجل ـ قال عبيد بن عمير: «رؤيا الأنبياء وحي»[1].

وقال إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ مخاطباً ابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾ [الصافات: ١٠٢].

﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: ولو أراك المشركين كثيراً عددهم ـ كما هو الحال ـ فإنهم أكثر من المسلمين ثلاث مرات ـ وأخبرت

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٣٨).

بذلك أصحابك ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾ اللام رابطة لجواب الشرط «لو» والفشل: الضعف والجبن، أي: لجبنتم وضعفتم وهبتم الإقدام.

﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: ولاختلفتم في أمر الإقدام على القتال أو الإحجام عنه.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي: ولكن الله سلمكم من الفشل والتنازع ولطف بكم، بأن أراكهم قليلاً.

وأظهر في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ فلم يقل: «ولكنه سلم» إظهاراً لعنايته ـ عز وجل ـ بهم.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: إنه ـ عز وجل ـ ذو علم تام بصاحبة الصدور، وهي القلوب وما تخفيه من المضمرات، كما قال ـ تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩]، وسميت القلوب بذات الصدور لأنها مستترة في الصدور، كما قال ـ تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، كما يقال للمضمرات: ذات الصدور، قال ـ تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات: ١٠].

ومن علمه ـ عز وجل ـ بما في القلوب علمه أن رؤيتك لهم في منامك قليلاً من أسباب تثبيت القلوب، وأنه لو أراكهم كثيراً لحصل الفشل والضعف والتنازع في الأمر.

قوله ـ تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ الجملة معطوفة على قوله ـ تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾.

و﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى «حين» أي: وحين يريكم أيها المؤمنون جيش المشركين حين التقيتم وإياهم ﴿فِىٓ أَعْيُنِكُمْ﴾ رؤية بصرية يَقَظة بالعين المجردة، كما في قوله ـ تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣].

﴿قَلِيلًا﴾ أي: قليلاً عددهم ـ لطفاً منه ـ عز وجل ـ بكم ليثبتكم ويجرئكم عليهم ويطمعكم فيهم ويزيدكم إقداماً.

عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة. قال: فأسرنا رجلاً منهم، فقلنا: كم هم؟ قال: ألفاً»[1].

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي: ويقللكم أيها المؤمنون في أعين المشركين يقظة استدراجاً لهم، وتغريراً بهم ليتركوا الاستعداد، استهانة منهم وعدم مبالاة بكم، وهذا في أول اللقاء.

فلما التحم القتال، وأمد الله المؤمنين بالملائكة، وبدت علامات النصر، صار الكفار يرون المؤمنين مثليهم؛ لينهزموا من داخلهم، كما قال ـ تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣].

﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ اللام للتعليل ـ أي: لأجل أن يتم الله أمراً كان واقعاً وكائناً لا محالة، وهو التقاء الفريقين ووقوع الحرب والقتال بينهما ونصر الحق وإظهاره وخذلان الباطل وإزهاقه.

فمن حكمته ـ عز وجل ـ أن قلل كل فريق في أعين الفريق الآخر ـ عند المواجهة واللقاء إغراءً كل منهما بالآخر، فلما التحم القتال، وتنزلت أسباب النصر من الإمداد بالملائكة، رأى الكفار المؤمنين مثليهم مع أنهم أقل من ثلثهم، لإدخال الرعب في قلوبهم وهزيمتهم من الداخل.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي وإلى الله ـ عز وجل ـ وحده، ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: ترد جميع الأشياء في الدنيا والآخرة، فالخلق والملك والتدبير والحكم له ـ عز وجل ـ ومرد الخلائق إليه، كما قال ـ تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال ـ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٠).

الفوائد والأحكام:

١- تذكير المؤمنين بما حصل بينهم وبين المشركين في بدر من لقاء على غير ميعاد، ليتم الله ـ عز وجل ـ أمراً واقعاً لا محالة وهو نصر الحق وأهله وخذلان الباطل وأهله. والامتنان على المؤمنين بذلك ليشكروه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾.

٢- أن الرسول ﷺ لم يخرج يوم بدر إلى حرب، وإنما خرج لطلب العير؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ﴾.

٣- إباحة أموال كفار قريش؛ لأن الرسول ﷺ خرج في طلب تجارتهم، وذلك لأنهم كفار محاربون آذوا الرسول ﷺ وأصحابه وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، فهم حلال الدم والمال.

٤- أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، ولهذا أفلت العير منهم، وكان نصيبهم النفير.

٥- حكمة الله ـ عز وجل ـ البالغة ـ وقدرته التامة، وقدره النافذ، حيث التقى الجمعان وتقابلا في العُدوتين، بلا موعد بينهما، ولو كان ذلك عن موعد لاختلفا في الميعاد، كما قال ـ تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾.

٦- أن مما قضاه الله وقدره التقاء المؤمنين والمشركين في بدر على غير ميعاد وحصول المعركة والقتال بينهما ونصر المؤمنين وخذلان المشركين، وإظهار الحق، ودحض الباطل.

٧- أن الله عز وجل نصر الحق وأهله في بدر، وخذل الباطل وأهله؛ ليتبين ويظهر الحق من الباطل، وتقوم الحجة على من سلك طريق الكفر والهلاك، ولتتضح المحجة لمن أراد سلوك طريق الإيمان والحياة والفلاح؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ﴾.

٨- إثبات صفة السمع الواسع لله ـ عز وجل ـ الذي يسع جميع الأصوات والحركات؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾.

٩- إثبات صفة العلم الواسع لله ـ عز وجل ـ الذي وسع كل شيء؛ لقوله ـ تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

١٠- منة الله - عز وجل - على الرسول ﷺ والمؤمنين حيث أراه الكفار في منامه قليلاً ليحصل له وللمؤمنين التثبيت والإقدام على قتالهم؛ لقوله - تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾.

١١- منة الله - عز وجل - على الرسول حيث لم يره الكفار كثيراً فيخبر أصحابه ويحصل لهم بذلك الفشل والجبن والتنازع والاختلاف حول القتال أو عدمه؛ لقوله - تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾.

١٢- علم الله - عز وجل - التام بالقلوب وما فيها من المكنونات والأسرار والضمائر؛ لقوله - تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

١٣- منة الله - عز وجل - على المؤمنين بتقليل الكفار في أعينهم عند لقائهم لطفاً منه - عز وجل - بالمؤمنين وتثبيتاً لهم، وترغيباً لهم في الإقدام؛ لقوله - تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾.

١٤- تقليل المؤمنين في أعين الكفار تغريراً بهم واستدراجاً لهم؛ ليستهينوا بالمؤمنين فلا يستعدوا لهم؛ لقوله - تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾.

١٥- جمع الله - عز وجل - للمؤمنين في بدر بين وسائل النصر المادية والمعنوية، وتسليمهم من وسائل الضعف والهزيمة.

١٦- أن الله - عز وجل - إذا أراد قضاء أمرٍ وإتمامه هيأ له أسبابه؛ لقوله - تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ بعد ما ذكر تقليل المشركين لرسول الله ﷺ في رؤيته لهم في منامه، وتقليل كل من الفريقين في أعين الفريق الآخر.

١٧- تأكيد قضاء الله التام وحكمه النافذ في نصرة الحق وأهله، وخذلان الباطل وأهله.

١٨- أن مرجع ومرد ومصير جميع الأمور والأشياء في الدين والدنيا والآخرة إلى الله - عز وجل؛ لقوله - تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

١٩- التنبيه للاستعداد للآخرة؛ كما قال - تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٩].

ذكر الله ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة ما أمد به المؤمنين في بدر من أسباب النصر، ثم أمرهم بالأسباب التي إذا أخذوا بها في قتالهم تحقق لهم النصر، من الثبات وذكر الله وطاعته ورسوله والصبر وعدم التنازع، وحذرهم من صفات الذين خرجوا من دارهم بطراً ورئاء الناس وصداً عن سبيل الله.

كما أن في الأمر بالثبات هنا توكيداً لما سبق من النهي عن تولية الكفار الأدبار.

قوله ـ تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ﴾ أي: إذا لقيتم جماعة من الكفار للقتال والنزال.

﴿ فَٱثْبُتُواْ ﴾ أي: فاثبتوا لقتالهم، واصبروا لمنازلتهم. عن عبدالله بن أبي أوفى ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: «**يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**». ثم قال ﷺ: «**اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد ـ كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس (٢٩٦٦)، ومسلم في الجهاد ـ كراهية تمني لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء (١٧٤٢)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٣١)، والترمذي في الجهاد (١٦٧٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٩٦).

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ الذكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، بأنواع الذكر القلبية، والقولية والفعلية، وهو ضد الغفلة والنسيان، أي: واذكروا الله ذكراً كثيراً بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم، كما قال ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، وقال ـ تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾ [الأحزاب: ٣٥].

أمر الله ـ عز وجل ـ بالذكر عند اللقاء؛ لأنه من أعظم أسباب الثبات، والعون على القتال، والنصر على الأعداء؛ كما قال ـ تعالى ـ في سورة النساء بعد ذكر صلاة الخوف: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النساء: ١٠٣].

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن تفلحوا. والفلاح: الفوز والظفر والنجاح، الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب؛ الفوز بالسعادة في الدنيا، والسعادة في الآخرة بالجنة والنجاة من النار.

عن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، واذكروا الله، فإذا أجلبوا وضجوا فعليكم بالصمت**»(١).

قوله ـ تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الطاعة: الامتثال، بفعل المأمور، وترك المحظور، أي: وأطيعوا الله ورسوله، بفعل ما أمركم الله به ورسوله، وترك ما نهاكم الله عنه ورسوله، مما يتعلق بالحرب والقتال، وغير ذلك، وهذا والله أقوى سلاح، وهو القوة المعنوية.

وفي عطف قوله: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ على اسم «الله» بالواو التي تقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه، دون إعادة الفعل «أطيعوا» دلالة على أن طاعة الرسول ﷺ

(١) أخرجه عبدالرزاق ـ فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٤)، والدارمي في السير ـ لا تتمنوا لقاء العدو (٢/ ١٣٥).

من طاعة الله ـ تعالى ـ كما قال ـ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ التنازع: الاختلاف، سُمي بذلك؛ لأن كلاً من المختلفين ينزع حجة الآخر، ويزعم أن الحق معه، أي: ولا تختلفوا.

﴿فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ الفشل: عدم تحقيق المراد، والهزيمة والضعف والجبن، أي: فتضعفوا وتجبنوا وتعجزوا عن مقاومة عدوكم.

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ الريح في الأصل: الهواء، ولها إقبال وإدبار، ولها منافع ومضار، وفي الحديث قال ﷺ: «**نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور**»[1].

و«الصبا» الريح الشرقية، و«الدبور» الغربية.

والمراد بالريح في الآية: القوة والغلبة والنفوذ، أي: فتزول قوتكم، ونفوذ أمركم، وهيبتكم، ويهون شأنكم، ويكون أمركم في إدبار بعد الإقبال. وقد قيل:

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فإن لكل ذارية سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فما تدري السكون متى يكون

والمعنى: ولا تنازعوا فتختلف قلوبكم وتتفرقوا فتفشلوا وتجبنوا وتضعفوا عن مقاومة عدوكم وتزول قوتكم، ويهون شأنكم، وتخذلوا.

فالتنازع والاختلاف نتيجته لا محالة الفشل والضعف، وزوال القوة، لما يسببه التنازع من اختلاف القلوب والعداوة والتفرق، وتربص بعضهم وانشغاله ببعض بدل الانشغال بالتعاون ضد العدو المشترك الحقيقي؛ كما قال ـ تعالى ـ في سورة آل عمران: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وواقع المسلمين اليوم شاهد على هذا، فبسبب بُعد كثير من المسلمين عن دينهم وتقصيرهم في طاعة الله ورسوله، والتنازع والاختلاف بينهم، والعداوة

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١٠٣٥)، ومسلم في صلاة الاستسقاء (٩٠٠) ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

والبغضاء والتفرق آلت حال المسلمين إلى ما آلت إليه من الضعف والهوان وتسلط الأعداء عليهم، وضعف مكانتهم في المحافل الدولية التي لا تقيم شأناً للضعيف، كما قيل:

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ... ولا يستشهدون وهم حضور

وقد تعمق هذا الاختلاف في بعض الأوساط الإسلامية، بسبب الانقسام إلى جماعات يكيد بعضها لبعض على حساب الإسلام، حتى خرج أناس على المسلمين بالتكفير والتفجير بدعوى الجهاد، وشوهت صورة الإسلام.

وهذا كله يوجب على المسلمين العودة إلى دينهم، والسعي إلى وحدة الأمة، والقضاء على أسباب النزاع والاختلاف والتفرق، والاجتماع على كتاب الله ـ عز وجل ـ وسنة رسوله ﷺ؛ كما قال ـ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩]، وقال ـ تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

قوله: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

الصبر لغة: الحبس، وفي الاصطلاح: صبر على أشياء وعن أشياء. ويقال: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

وهو أقسام ثلاثة: **الأول**: الصبر على طاعة الله، كما قال ـ تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، وقال ـ تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

والثاني: الصبر عن معصية الله كصبر يوسف عليه السلام عن إجابة امرأة العزيز حين راودته نفسه واستعصم وقال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣]، ومنه صبر الرجل الذي دعته امرأة

ذات منصب و جمال، فقال: إني أخاف الله[١].

والثالث: الصبر على أقدار الله، كما قال ـ تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٤]، وهذا يتناول الصبر على حكم الله الشرعي، وهو الصبر على تبليغ الرسالة، ويتناول الصبر على حكم الله القدري مما يلقاه من أذى قومه وغير ذلك.

ومنه قوله ﷺ لما أرسلت إليه إحدى بناته أن ابناً لها في الموت، قال: «**ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب**»[٢].

والأمر بالصبر في الآية يشمل الأقسام الثلاثة؛ لأن الله ـ عز وجل ـ أمر فيها بالثبات عند اللقاء، وذكره كثيراً، وطاعته ورسوله ـ فالصبر على هذا صبر على طاعة الله ـ تعالى ـ ونهى فيها عن التنازع، فالصبر عن هذا صبر عن معصية الله ـ تعالى ـ كما أفادت الآية بمفهومها النهي عن الفرار عند اللقاء، وعن الغفلة عن ذكر الله ـ عز وجل ـ وعن معصية الله ورسوله، فالصبر عن هذا صبر عن معصية الله ـ تعالى.

وأفادت أيضاً بمفهومها الأمر بالاجتماع وعدم التنازع، فالصبر على هذا صبر على طاعة الله ـ تعالى.

كما أن في الأمر فيها بالثبات أمر بالصبر على أقدار الله.

فانتظم قوله: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾ أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله ـ تعالى، والصبر عن معصية الله ـ تعالى، والصبر على أقدار الله ـ تعالى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ هذه الجملة فيها معنى التعليل للأمر بالصبر، وفيها الترغيب فيه بذكر ثمرته ومنفعته، وهي عونه ـ عز وجل ـ للصابرين وما يترتب على

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٠)، والترمذي في الزهد (٢٣٩١) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...**» الحديث..

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٧)، ومسلم في الجنائز (٩٢٣)، والنسائي في الجنائز (١٨٦٨) ـ من حديث أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه.

ذلك من منافع دينية ودنيوية وأخروية لا تحصى[١].

والمراد بالمعية هنا معية الله ـ عز وجل ـ الخاصة بأوليائه المؤمنين الصابرين ـ وهي معية التوفيق والعون والتسديد، والنصر والحفظ والتأييد.

وهناك المعية العامة، وهي معية الله ـ عز وجل ـ لجميع الخلق، بعلمه وإحاطته وقدرته.

قوله ـ تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ الآيات.

أمر الله ـ عز وجل ـ المؤمنين في الآيات السابقة بالأخذ بأسباب النصر؛ من الثبات وذكر الله ـ عز وجل ـ وطاعته ورسوله، ونهاهم عن التنازع المؤدي إلى الفشل والجبن وذهاب قوتهم وهيبتهم، ثم حذرهم من مشابهة الكفار الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس، وصداً عن سبيل الله. وفي هذا حث للمؤمنين على الإخلاص في جهادهم وتعريض بذم المشركين.

قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ معطوف على قوله في الآية السابقة: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا﴾، أو على قوله: ﴿فَٱثْبُتُوا﴾ في الآية قبلها.

أي: ولا تكونوا أيها المؤمنون كالكفار الذين خرجوا من مكة، وهم أبوجهل ومن معه من صناديد قريش يوم بدر.

﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ حالان، أي: حال كونهم بطرين مرائين للناس.

ومعنى ﴿بَطَرًا﴾ أي: كبراً واستعلاءً وخيلاءً، ودفعاً للحق، قال ﷺ: «**الكبر بطر الحق، وغمط الناس**»[٢] أي: رد الحق، واحتقار الناس.

---

(١) انظر الكلام على قوله ـ تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] في «منحة الكريم الوهاب في تفسير آيات الأحكام في سورة الأحزاب».

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٩)، والترمذي في البر والصلة (١٩٩٩) ـ من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه.

﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مراءاة للناس، وطلباً لثناء الناس عليهم بالشجاعة، غروراً منهم. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لما رأى أبوسفيان أنه أحرز عيره أرسل إلى قريش: إنكم خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله، فارجعوا. فقال أبوجهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدراً ـ وكان بدر موسماً من مواسم العرب، يجتمع لهم بها سوق كل عام ـ فنقيم عليها، وننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً، فامضوا»(١).

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها، وجاء التعبير بالمضارع للدلالة على استمرارهم على ذلك.

و﴿سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ صراطه المستقيم الموصل إليه.

والصد: الصرف والمنع، أي: ويصرفون الناس ويمنعونهم عن الدخول في دين الله بتعذيبهم وقتالهم للمؤمنين، وهذا أشد وأعظم من صدهم بأنفسهم عن دين الله وكفرهم به.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: والله بالذي يعملون، أو بعملهم محيط، أي: مطلع عليه، عالم به، لا تخفى عليه منه خافية.

وفي نهي المؤمنين عن التشبه بمن هم على هذه الصفات الذميمة تهديد ووعيد للمشركين، وذم لهم وتشنيع عليهم، وتقبيح لما هم عليه من هذا المسلك المشين وتكريه ذلك للمسلمين، وتحذيرهم منه، وترغيبهم في الإخلاص لله ـ عز وجل ـ في جهادهم وجميع أعمالهم.

ولا غضاضة في نهي المؤمنين عن التشبه بمن هذه صفاتهم وإن لم يقع ذلك منهم ـ بل وإن كان ذلك مستبعداً منهم بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان وأنقذهم الله به من

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢١٧-٢١٨)، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦١٨).

الكفر، وقد قال الله ـ عز وجل ـ للمعصوم سيد الرسل وأفضل الخلق صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [يونس: ٩٥]، وقال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

ولما أنكر بعد جلساء عمر ـ رضي الله عنه ـ على من قال له: «اتق الله» زجره عمر ـ رضي الله عنه ـ وقال: «لا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا ولا خير فينا إذا لم نسمعها منكم».

وإنما يستنكف عن هذا ضعاف الإيمان أو من لا إيمان عنده كما قال ـ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٦].

قوله ـ تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ الواو استئنافية، و﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى «حين» متعلق بمحذوف تقديره «اذكر».

و«التزيين» إظهار الشيء زيناً وحسناً، أي: وإذ حسن لهم الشيطان أعمالهم، أي: حسَّنها في قلوبهم؛ من الخروج بطراً ورياء، والصد عن سبيل الله، ومقاتلة أولياء الله، وغير ذلك، قال ـ تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

وقال الشاعر:

يقضى على المرء في أيام محنته　　　حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وقال لهم الشيطان مغرراً بهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية. كما قال ـ تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته والشيطان في صورة رجل من بني مدلج، في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾. فلما اصطفَّ الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها وجوه المشركين، فولوا مدبرين، وأقبل جبريل إلى إبليس فلما رآه،

وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده فولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة، أتزعم أنك جار لنا؟ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ وذلك حين رأى الملائكة»[١].

وعن عروة بن الزبير، قال: «ولما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر - يعني - من الحرب، فكاد ذلك أن يثنيهم، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، وكان من أشراف بني كنانة، فقال: أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعاً»[٢].

قوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿لَا﴾ نافية، ﴿غَالِبَ﴾ نكرة في سياق النفي فتعم، أي: لا أحد يغلبكم اليوم من الناس، أيًّا كان لا محمداً وأصحابه ولا غيرهم. أي: أنتم أقوى الناس وأشجعهم، وأشدهم بأساً، وأكثرهم عدداً وعدة، ونحو ذلك.

ولهذا أعجبوا بأنفسهم، وخرجوا بطراً ورئاء الناس، وقال أبو جهل مقالته السابقة.

﴿وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ أي: وإني مجير لكم، أي: حافظ ومانع ودافع للضرر عنكم.

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ﴾ تراءت مفاعلة من الرؤية، أي: تلاقت الفئتان ورأت كل منهما الفئة الأخرى، والمراد بالفئتين: جيش المسلمين وجيش الكفار.

والفئة: الجماعة.

﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ ﴿نَكَصَ﴾: أي: رجع من حيث جاء. والنكوص: الرجوع إلى الوراء.

﴿عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ تأكيد؛ لأن النكوص لا يكون إلا على العقبين، وهما تثنية

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٥).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٢٢)، وابن إسحاق في «السيرة». انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٦١٢)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٦).

«عقب» وهو مؤخر الرجل، ويجمع على أعقاب، كما قال ـ تعالى: ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المؤمنون: ٦٦].

والمعنى: فلما رأت كل فئة من الجيش الفئة الأخرى رجع وولى هارباً مدبراً على قفاه.

﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾ أي: بريء من عهد جواركم وتوليكم.

قال حسان ـ رضي الله عنه:

دلاّهــمُ بغــرور ثــم أَســلمهم إن الخبيــث لمــن ولّاه غــرارُ

وقد سمّاه الله ـ عز وجل: «الغرور» وحذّر منه، قال ـ تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان: ٣٣، فاطر: ٥] أي: الشيطان.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ قال المفسرون: رأى جبريل والملائكة ـ كما جاء في سبب النزول، وعن طلحة بن عبيدالله بن كريز ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما رؤي الشيطان في يوم هو فيه أصغر، ولا أحقر، ولا أدحر، ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وذلك مما يرى من تنزل الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رؤي يوم بدر.** قالوا: يا رسول الله، وما رؤي يوم بدر؟ قال: **أما إنه رأى جبريل ـ عليه السلام ـ يزع الملائكة**»(١).

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ هذه الجملة بيان لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي: إني أخاف الله فيما رأيت من جنود، أي: أنه خاف عقاب الله وبطشه به في الدنيا.

ويحتمل أن المعنى: إني أخاف الله وعقابه في الآخرة ـ زعماً منه وكذباً، كما قال الله ـ تعالى ـ عنه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١٦]، وقال ـ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» في كتاب الحج ـ جامع الحج (١/ ٤٢٢) حديث (٢٤٥)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٢٤)، قال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ١٩): «هو مرسل من هذا الوجه، ومعنى يزع الملائكة: يصفهم». وقد رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٠٧٠) موصولاً عن طلحة بن عبيد الله عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه.

ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

قال قتادة: «وذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة، فزعم عدو الله أنه لايدان له بالملائكة، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ﴾ وكذب والله عدو الله، ما به مخافة الله، ولكن علم أن لا قوة له، ولا منعة له، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مُسْلم، وتبرأ منهم عند ذلك»(١).

وقال عطاء: «إني أخاف أن يهلكني الله فيمن هلك».

قال ابن القيّم بعد ما ذكر قول عطاء: «أي: إنما خاف بطش الله ـ تعالى ـ به في الدنيا، كما يخاف الكافر والفاجر أن يقتل، أو يؤخذ بجرمه، لا أنه خاف عقاب الآخرة. وهذا أصح»(٢).

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يحتمل أن يكون هذا من جملة ما قاله الشيطان، ويحتمل أن يكون مستأنفاً. أي: والله شديد العقاب لمن استحق عقابه، فعقابه ـ عز وجل ـ شديد، من حيث كمه وكيفه ونوعه.

قوله ـ تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ﴾

﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى: «حين». متعلق بقوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ الآية.

فمقالة المنافقين ومرضى القلوب في حين زين الشيطان للمشركين أعمالهم وقال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ﴾.

فاجتمع على المسلمين العدو الظاهر وهم المشركون، والعدو الباطن وهم

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٦).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٤٠).

المنافقون ومرضى القلوب. وكما قيل:

ولو كان سهم واحد لاتقيته ... ولكنه سهم وثان وثالث

والمنافقون: جمع منافق، وهم الذين يُظْهِرون الإيمان ويبطنون الكفر.

وسُمي النفاق والمنافقون بهذا الاسم أخذاً من نافقاء «اليربوع» وهو دويبة صغيرة يتخذ جحراً في الأرض، ويجعل في نهايته مخرجاً للطوارئ، عليه قشرة رقيقة من الأرض فإذا داهمه عدو من باب جحره ضرب برأسه هذه القشرة وخرج.

فكذلك المنافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، يقابلون المؤمنين بوجه ويقابلون الكفار بوجه آخر، كما قال ـ تعالى ـ عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤]، وقال ـ تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء: ١٤٣].

﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: والذين في قلوبهم مرض الشبهة والشك وضعف الإيمان.

﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ الغرور: توهم المنفعة بما فيه مضرة.

﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ يشيرون إلى المؤمنين الذين خرجوا إلى بدر، أي: غر هؤلاء المؤمنين دينهم حين أقدموا مع قلة عددهم وعدتهم وضعفهم على قتال المشركين مع كثرة عددهم وعدتهم وقوتهم، يقولون هذا لمزاً للمؤمنين واحتقاراً لهم واستخفافاً بعقولهم.

وهم ـ والله ـ أحقر، وأخف عقولاً وأحلاماً حيث خرجوا بطراً ورئاءً وصداً عن سبيل الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم وغرّهم بكثرتهم وقوتهم وأنه جار لهم، ثم أسلمهم وتخلى عنهم.

قوله ـ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

فيه تشجيع للمؤمنين، وحض لهم على الثبات والتوكل على الله، والثقة بنصره، وإن قلَّ عددهم وعدتهم؛ لأنه عزيز حكيم، وفيه إرغام لأنوف المشركين والمنافقين ومرضى القلوب وتخييب لظنونهم.

قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ومن يعتمد على الله ـ عز وجل ـ ويفوض أمره إليه مع تمام الثقة بالله، والتسليم له، والرضا بقضائه.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ جواب الشرط، أو كناية عن الجواب، أي: فإن الله ينصره لأنه ـ عز وجل ـ عزيز حكيم.

و﴿عَزِيزٌ﴾ أي: ذو العزة التامة، عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿حَكِيمٌ﴾ أي: ذو الحكم التام الكوني والشرعي والجزائي، وذو الحكمة البالغة، الغائية والصورية.

والمعنى: ومن يعتمد على الله ويفوض أموره إلى الله مع تمام الثقة بالله، فإن الله ـ عز وجل ـ عزيز قوي غالب، ينصر من انتصر به وتوكل عليه، ولا يضام من لاذ بجنابه والتجأ إليه، حكيم ذو الحكم التام والحكمة البالغة، ينصر من يستحق النصر ويخذل من يستحق الخذلان.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والترغيب بالاتصاف بهذا الوصف.

٣- أن امتثال ما بعد هذا النداء بوصف الإيمان من الثبات عند اللقاء، وذكر الله كثيراً، وطاعة الله ورسوله، والصبر، وعدم التنازع، والبعد عن صفات الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورياءً وصدًّا عن سبيل الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٤- وجوب الثبات عند لقاء العدو، وتحريم الفرار؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾.

٥- مشروعية ذكر الله ـ عز وجل ـ كثيراً عند اللقاء والقتال وبعده؛ لأنه من أعظم

أسباب الطمأنينة والثبات والنصر على الأعداء؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

٦- أن الثبات عند اللقاء، والإكثار من ذكر الله ـ عز وجل ـ من أسباب الفلاح، والسعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة، والنجاة من النار؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

٧- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وفي هذا الرد على من نفى ذلك من أهل البدع.

٨- نهي المؤمنين وتحذيرهم من التشبه بالكافرين الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورياءً وصدًّا عن سبيل الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٩- لا غضاضة في نهي المؤمنين من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ عن التشبه بالكفار وصفاتهم ـ وإن لم يقع منهم ذلك، بل يستبعد أن يقع منهم ذلك ـ فقد قال الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ، وهو أشرف الخلق: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٩٥﴾ [يونس: ٩٥]، وهو المعصوم ﷺ.

١٠- ذم الكفار والتشنيع عليهم، وبيان سوء مقصدهم، وقبيح صنيعهم، وخيبة مسعاهم، حيث خرجوا من ديارهم بطراً ورياءً وصدًّا عن سبيل الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

١١- أن الكبر من أسباب رد الحق ودفعه والصد عنه، مما يوجب الحذر منه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

١٢- جمع المشركين بين الصد بأنفسهم عن دين الله، وصد غيرهم عنه، وهذا أعظم، مما يدل على شدة كفرهم وعداوتهم للرسول ﷺ ولما جاء به من الحق.

١٣- إحاطة الله ـ عز وجل ـ واطلاعه وعلمه بجميع ما يعمله الكفار من المكر

والكيد والصد عن سبيل الله، والتهديد الشديد، والوعيد الأكيد لهم، وأنه ـ عز وجل ـ سيجازيهم بأعمالهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

١٤- تزيين الشيطان وتحسينه للكفار أعمالهم السيئة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾.

١٥- تغرير الشيطان بالمشركين بكثرة عددهم وعدتهم وقوتهم بقوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾.

١٦- خديعة الشيطان للمشركين بعونه وإجارته لهم بقوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾.

١٧- خذلان الشيطان للمشركين في أشدِ المواقف ونكوصه على عقبيه لما التقى الجمعان ورأى الملائكة، وبراءته منهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾.

١٨- رؤية الشيطان للملائكة يوم بدر وخوفه من عقاب الله وبطشه في الدنيا؛ لقوله: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾.

١٩- زعم الشيطان أنه يخاف الله وعقابه الأخروي، وهذا على الاحتمال الثاني في معنى الآية، كما في قوله ـ تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١٦]، وهو في ذلك كاذب.

٢٠- ينبغي الحذر من الشيطان وتزيينه وغروره وكيده ووعوده الكاذبة.

٢١- شدة عقاب الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

٢٢- تربُّص المنافقين ومرضى القلوب بالمؤمنين ولمزهم واحتقارهم لهم واستخفافهم بهم، وتثبيطهم لهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾.

٢٣- الترغيب في التوكل على الله والاعتماد عليه؛ لأن مَن توكل عليه كفاه وحفظه ونصره؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

٢٤- إثبات صفة العزة التامة لله ـ عز وجل، عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾.

٢٥- إثبات صفة الحكم التام لله ـ عز وجل ـ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات صفة الحكمة البالغة له ـ عز وجل ـ الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله ـ تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

٢٦- في اقتران صفة العزة والحكم والحكمة في حقه ـ عز وجل ـ زيادة كماله ـ عز وجل ـ إلى كمال.

٢٧- في ختام الآيات بقوله ـ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تشجيع للمؤمنين على الثبات والثقة بنصر الله؛ لأنه عزيز حكيم، وتخييب لظنون المشركين والمنافقين ومرضى القلوب.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: ٥٠-٥٤].

قوله ـ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

ذكر الله ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة تزيين الشيطان للكفار أعمالهم وغروره لهم، ومن ثَمَّ خذلانه لهم، ونكوصه على عقبيه، وبراءته منهم في إشارة لما حلَّ بهم يوم بدر، ثم أتبع ذلك بذكر ما ينتظرهم من العذاب في الآخرة عند توفى الملائكة لهم وفي النار، كما قال ـ تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ [محمد: ٢٧].

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ الواو للاستئناف، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه، أي: ولو تشاهد إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة.

وحذف جواب «لو» للتهويل والتعظيم، والتقدير: لرأيت أمراً عظيماً فظيعاً منكراً.

﴿إِذْ يَتَوَفَّى﴾ قرأ ابن عامر بالتاء على التأنيث «تتوفى» وقرأ الباقون بالياء على التذكير «يتوفى».

و﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى: «حين» متعلق بـ ﴿تَرَىٰٓ﴾، و﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ فاعل، وقدم المفعول للاهتمام، والمراد بهم ملائكة العذاب.

ومعنى ﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أي: يقبضون أرواحهم بنزعها من أجسادهم، قال ـ تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة: ١١]، وقال ـ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١].

فالتوفي: الإماتة، وسُمي الميت متوفى لأنه استوفى رزقه وعمله وأجله.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم يضربون وجوههم وأدبارهم. أي: جميع أجسادهم، قد اشتد بهم الكرب والقلق، يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم، ونفوسهم ممتنعة مستعصية؛ لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]، بالضرب فيهم بأمر الله، فالمراد بالوجوه ما أقبل من أجسادهم؛ لأن الوجه يطلق على ما أقبل من الإنسان؛ كما قال ـ تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠] أي: فتوجه بجميع ما أقبل من جسدك شطر المسجد الحرام.

والمراد بالأدبار ما أدبر من أجسادهم؛ لأن الدبر يطلق على ما أدبر من الإنسان؛ كما قال ـ تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥].

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَضْرِبُونَ﴾ بتقدير: ويقولون.

أي: ذوقوا وأحسوا وتجرعوا عذاب الحريق؛ كما قال ـ تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٧]، وهذا تبكيت لهم، وعذاب معنوي ينصب على قلوبهم لا يقل عن العذاب الحسي.

﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ ﴿عَذَابَ﴾: مضاف و﴿ٱلْحَرِيقِ﴾: مضاف إليه، والإضافة بيانية، من إضافة الجنس إلى نوعه؛ لبيان نوع العذاب وأنه عذاب الحريق، أي: عذاب النار المضطرمة المحرقة، وهم فيها كما قال ـ تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ﴾ [النساء: ٥٦]، وقال ـ تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر: ٣٦].

وقد قيل: إن هذا التوفي والضرب والتبكيت يحصل من الملائكة للكفار عند حشرهم إلى النار.

وقال بعض المفسرين: أن المراد بقوله ـ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ ما حصل لهم يوم بدر.

فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم»[١].

قال ابن كثير[٢]: «وهذا السياق ـ وإن كان سببه وقعة بدر ـ ولكنه عام في كل كافر؛ ولهذا لم يخصصه ـ تعالى ـ بأهل بدر، بل قال ـ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ وفي سورة القتال مثلها».

وتقدَّم في سورة الأنعام قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الآية: ٩٣]، أي: باسطو أيديهم بالضرب فيهم، إذا استصعبت أنفسهم وامتنعت من الخروج من الأجساد لتخرج قهراً، كما في حديث البراء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب، فتتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود[٣] من الصفوف المبلول**»[٤].

قوله ـ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

هذا من تمام كلام الملائكة في تبكيتهم وتوبيخهم للكفار.

والإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ ترجع إلى ما تقدم من توفي الملائكة لهم حال كونهم يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، وأشار إليه بإشارة البعيد تهويلاً له وتعظيماً.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٣٠).

(٢) في «تفسيره» (٤/ ٢٠).

(٣) السفود: حديدة ذات شعب معقفة يُشوى بها اللحم.

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨، ٢٩٦)

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ الباء للسببية، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي قدمته أيديكم، أو بسبب تقديم أيديكم.

والمعنى: بسبب الذي قدمتم وعملتم من الأعمال السيئة في الدنيا من الكفر بالله والصد عن دينه، وقتال أوليائه، ونحو ذلك.

ويضاف ما قدمه الإنسان وما عمله وينسب إلى يديه؛ لأن بهما البطش والأخذ والعطاء. قال ـ تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ معطوف على قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: ذلك بسبب ما قدمت أيديكم وبسبب أن الله ليس بظلام للعبيد، فجوزوا بما ذكر بسبب ذنوبهم وجوزوا به دون زيادة؛ لأن الله ليس بظلام للعبيد.

و«ظلَّام» بصيغة المبالغة لتأكيد النفي، ولا مفهوم لها، والمعنى: أنه ـ عز وجل ـ ليس بذي ظلم، أو ليس يظلم أحداً، وهي نكرة في سياق النفي، فتعم نفي أي ظلم منه للعبيد مهما قلَّ؛ كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

واللام في قوله: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ للاستغراق في جميع العبيد، فلا يظلم ـ عز وجل ـ أحداً منهم؛ لأنه الحكم العدل الذي لا يظلم أحداً من خلقه مثقال ذرة؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال ـ تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وقال ـ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: ٤٤].

وقال ـ عز وجل ـ في الحديث القدسي: **«يا عبادي، إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»**[(١)].

وقد أقام لعباده الحجة وأوضح لهم المحجة؛ كما قال ـ تعالى: ﴿رُّسُلًا

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ـ تحريم الظلم (٢٥٧٧) ـ من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه.

﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال ـ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله ـ تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٥٢﴾.

ذكر الله ـ عز وجل ـ في الآيتين السابقتين ـ توفي الملائكة للكفار حال كونهم يضربون وجوههم وأدبارهم ويعنفونهم ويبكتونهم بقولهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ وذلك بسبب كفرهم وصدهم عن دين الله، ثم أتبع ذلك ببيان أن هذا دأب الأمم قبلهم تكذيب آيات الله، وما أوقعه بكفار مكة هو دأبه ـ عز وجل ـ وسنته في إهلاك المكذبين قبلهم.

قوله: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ ﴿كَدَأۡبِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: دأبهم كدأب آل فرعون.

والدأب: العادة والسيرة المألوفة المعروفة.

﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: فرعون وقومه.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي: والذين من قبلهم من الأمم مثل عاد وثمود.

﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: جحدوا وكذبوا بآيات الله الشرعية والكونية، الدالة على كمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه للعبادة وحده دون سواه.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾ أي: فعاقبهم الله وأهلكهم بسبب ذنوبهم بأنواع العقوبات.

والمعنى: أن كفار مكة سلكوا مسلك فرعون وقومه والذين من قبلهم من الأمم بالكفر بآيات الله وتكذيب رسله، فعاقبناهم كما عاقبنا المكذبين قبلهم؛ كما قال ـ تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ [الأحزاب: ٦٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ﴾ أي: إن الله قوي غالب لا يعجزه شيء؛ كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨].

﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن كفر به وعصاه؛ كما قال ـ تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

فأخذه ـ عز وجل ـ لهؤلاء المكذبين وغيرهم ممن سلك طريقهم قوي شديد؛ لأنه قوي شديد العقاب، كما قال ـ تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: ٤٢]، وقال ـ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

قوله ـ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

الإشارة إلى ما أوقعه الله بالكفار من أهل مكة، وفي آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة من العقوبات بسبب ذنوبهم.

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أن الله.

﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي: لم يكن مزيلاً نعمة أنعمها على قوم ومبدلاً لها بضدها، بل يحفظها عليهم ويبقيها لهم، ويزيدهم منها، كما قال ـ تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

وفي قوله ـ تعالى: ﴿أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ تذكير بأنه ـ عز وجل ـ هو المنعم الذي يجب أن يشكر ولا يكفر.

﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية، و﴿مَا﴾ موصولة، أي: إلى غاية أن يغيروا هم الذي بأنفسهم من طاعة الله ـ تعالى ـ إلى معصيته، ومن شكره إلى كفره، فإذا غيروا غير الله عليهم نعمته، وأحل بهم نقمته، جزاءً وفاقاً، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وقال ـ تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨]، قال العباس ـ رضي الله عنه: «ما نزل بلاء إلا بذنب، وما رُفع إلا بتوبة».

وفي قوله: ﴿لَمْ يَكُ﴾ بصيغة المضارع إيذان بتجدد العقوبات إذا وجد سببها؛ لأن هذه سنة الله في المكذبين.

وفي هذا تحذير وإنذار لجميع الكفار المكذبين من هذه الأمة أن يحل بهم ما حل بمن قبلهم.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾.

أي: وأن الله ذو سمع واسع يسع جميع الأصوات، وذو علم واسع يسع كل شيء؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

قوله ـ تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

هذه الآية تأكيد وتقرير للإنذار والتهديد في قوله قبل هذا: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

وبين الآيتين اختلاف في بعض الكلمات لزيادة الفائدة والتنويع في الأسلوب، ففي الآية الأولى: ﴿كَفَرُوا﴾، وفي الثانية: ﴿كَذَّبُوا﴾، والكفر والتكذيب كل منهما سبب للأخذ والإهلاك، وهما متقاربان.

وفي الآية الأولى: ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وفي الثانية: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وفي كل منهما تشنيع على الكافرين المكذبين، ففي قوله: ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ تشنيع عليهم لكفرهم بآيات الله العظيم المستحق للعبودية وحده دون من سواه، فكفروه بدل أن يعبدوه.

وفي قوله: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ تشنيع عليهم لتكذيبهم بآيات ربهم المنعم عليهم ومربيهم، فكذبوه بدل أن يشكروه.

وفي الآية الأولى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، وفي الثانية: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾. والإهلاك تفسير وبيان لأخذ الله لهم وأنه ينتهي بإهلاكهم.

وأسند أخذهم إليه باسمه العظيم ﴿ٱللَّهُ﴾ واسند إهلاكهم إلى نفسه بضمير العظمة «نا» لأنه العظيم الذي له العظمة المطلقة؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥، الشورى: ٤].

وقال ـ عز وجل ـ في الحديث القدسي: «**العظمة إزاري والكبرياء ردائي**»(١).

وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

وزيد في الآية الثانية: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ وفيه بيان أن إهلاكهم كان بالغرق، مما يدل على شدة عقوبتهم، وذلك ـ والله أعلم ـ لشدة جرمهم وهو دعوى الربوبية والألوهية.

وختمت الآية بقوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾ وتنوين «كلٌّ» عوض عن المضاف إليه. أي: وكل من المكذبين من هذه الأمة وفرعون وقومه والذين من قبلهم كانوا ظالمين بكفرهم وتكذيبهم، حيث كفروا وكذبوا بآيات الله ربهم ولا ظلم أعظم من الكفر والتكذيب بآيات الله، وحيث اجتمعوا في الظلم عمتهم العقوبات، كما هي سنة الله في الكفار المكذبين الظالمين؛ كما قال ـ تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

والظلم لغة: النقص، قال ـ تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣].

وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان. وأظلم الظلم الشرك بالله، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

وإنما كان الشرك أظلم الظلم؛ لأن حق الله ـ عز وجل ـ أبين الحقوق وأعظمها؛ خلق ورزق وأنعم على الخلق بجميع النعم، فالإشراك به وصرف حقه لغيره أظلم الظلم.

---

(١) سبق تخريجه.

الفوائد والأحكام:

١- شدة ما يلاقيه الكفار من التعذيب والإهانة على أيدي الملائكة عند توفيهم لهم وقبض أرواحهم بضرب وجوههم وأدبارهم وتبكيتهم وتعنيفهم لهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾.

٢- إثبات الملائكة وتوفيهم للكفار وتعذيبهم لهم، والإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان الستة.

٣- أن الميت قد استوفى ماله من رزق وعمل وأجل؛ لهذا سُمي الموت وفاة، وسُمي الميت متوفى.

٤- الجمع للكفار بين العذاب الحسي بضرب الوجه والأدبار والتعذيب بالنار وبين العذاب المعنوي بالتعنيف والتبكيت، وهو لا يقل عن العذاب الحسي؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

٥- إثبات النار؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: عذاب النار المحرقة.

٦- أن النار تحرق ما فيها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ لكنهم فيها كما قال الله ـ تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، وليس معنى ذلك أنهم يحترقون ويفنون، ولا أنهم يكونون جهنميين فلا يحسون فيها ـ كما يقول بعض أهل البدع والضلال.

٧- أن مجازاة الكفار بما ذكر من العذاب الحسي والمعنوي بسبب كفرهم، وما قدموه واقترفوه من الذنوب والمعاصي؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

٨- كمال عدل الله ـ عز وجل ـ وتأكيد نفي الظلم عنه، وأنه لا يظلم أحداً من خلقه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

٩- كفر وتكذيب فرعون وقومه والذين من قبلهم بآيات الله ربهم، وأخذه وإهلاكه لهم بذنوبهم.

١٠- سلوك كفار مكة مسلك فرعون وقومه والذين من قبلهم من الأمم في الكفر والتكذيب بآيات الله ربهم وأخذه وإهلاكه لهم بما حل بهم في بدر وحين توفي الملائكة لهم.

١١- إثبات أن سنن الله الكونية بأخذ الكافرين بآيات الله المكذبين بها بسبب ذنوبهم ثابتة لا تتبدل ولا تتغير وتأكيد ذلك، فكما أخذ آل فرعون والأمم قبلهم وأهلكهم بسبب ذنوبهم أخذ وأهلك كفار مكة بسبب ذنوبهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، وقوله ـ تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

١٢- وجوب الإيمان بآيات الله الكونية والشرعية، والحذر من الكفر والتكذيب بها؛ لأن ذلك سبب للعقوبات العاجلة والآجلة.

١٣- أن دأب كثير من الأمم وكثير من الناس الكفر بآيات الله والتكذيب بها، فلا ينبغي الاغترار بذلك.

١٤- أن الله ـ عز وجل ـ قوي لا يغالب، شديد العقاب لمن كفر به وعصاه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ مما يوجب خوفه وتقواه.

١٥- أن الله ـ عز وجل ـ لا يعاقب أحداً إلا بذنبه، ولا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم بالكفر بعد الإيمان، والمعصية بعد الطاعة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

١٦- أن النعم كلها من الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾.

١٧- أن النعم إذا شكرت قرَّت وإذا كفرت فرَّت.

١٨- أن ما يحصل من عقوبات وزوال للنعم إنما هو بسبب الذنوب والمعاصي، فهي سبب كل بلية، وجالبة كل رزية، مما يوجب الحذر منها والبعد عنها.

١٩- إثبات صفة السمع الواسع لله ـ عز وجل ـ الذي يسع جميع الأصوات؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾.

٢٠- إثبات صفة العلم الواسع لله ـ عز وجل ـ الذي يسع كل شيء؛ لقوله ـ تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

٢١- في اجتماع كمال السمع والعلم في حقه ـ عز وجل ـ زيادة كماله إلى كمال، والوعد لمن شكر والوعيد لمن كفر.

٢٢- إهلاك فرعون وقومه بالغرق، لشدة كفرهم وتكذيبهم، ودعوى فرعون الربوبية والألوهية، ولهذا نص على عقوبتهم دون غيرهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾.

٢٣- اجتماع الكفار والمكذبين من هذه الأمة ومن الأمم قبلهم على الظلم، بل على أظلم الظلم وهو الكفر بآيات الله والتكذيب بها، والشرك بالله؛ ولهذا جرت عليهم سنن الله الكونية في أخذ وإهلاك الظالمين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٥-٥٨].

قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

ذكر ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة عقابه لكفار مكة، وأنهم سلكوا مسلك من سبقهم من الكفار والمكذبين؛ فجرت عليهم سنن الله الكونية في أخذ وإهلاك الكفار والمكذبين.

ثم أتبع ذلك بذمهم وأنهم شر الدواب لكفرهم وعدم إيمانهم، ونقضهم للعهود، وعدم تقواهم.

قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: إن شر ما دب ويدب على الأرض من الحيوانات في حكم الله ـ عز وجل ـ وقضائه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ٦].

وقوله: ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ ولم يقل شر الناس، تحقيراً لهم، وتأكيداً لزيادة شرهم.

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الفاء استئنافية بيانية، أو تعليلية، أي: لأنهم لا يؤمنون.

أي: الذين كانوا على الكفر قبل الإسلام، واستمروا على كفرهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بعد سماع دعوة الإسلام، أو الذين كفروا بما جاء به النبي ﷺ من الوحي من عند الله وأصروا على كفرهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في المستقبل، بل سيستمرون على الكفر.

فهؤلاء هم شر الدواب لكفرهم، وانتفاء إيمانهم في المستقبل، وقد أكد ذلك بتقديم المسند إليه وهو قوله: ﴿فَهُمْ﴾ على الخبر، وهو الفعل المنفي وهو قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

والكفر وعدم الإيمان بالحق أول مرة سبب للاستمرار على الكفر والحيلولة بين القلب وبين الإيمان في المستقبل، كما قال ـ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال ـ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وإنما كان الذين كفروا شر الدواب لجهلهم بربهم وعصيانهم له دون سائر الدواب، فجميع المخلوقات من الحيوانات التي تدب على الأرض ناطقها وبهيمها، ومن الجمادات كلها انقادت لله ـ عز وجل ـ طائعة وسجدت له، واهتدت لما خلقت له، سوى الذين كفروا؛ كما قال ـ عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

قوله ـ تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦)﴾.

قوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والخطاب للنبي ﷺ، أي: الذين أخذت منهم العهد وهم قريظة ونظرائهم من المشركين والمنافقين وغيرهم، أي: الذين أخذت منهم العهد أن لا يحاربوك ولا يعينوا عليك عدواً.

﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ التعبير بالمضارع للدلالة على أن ذلك، كما حصل منهم قبل نزول هذه الآية يتجدد ويتكرر منهم بعد نزولها.

والمعنى: الذين عاهدت منهم ثم نقضوا عهدهم، وينقضونه في كل مرة، فلا يوفون بعهد، بل ديدنهم نقض العهود؛ كما قال الله ـ تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)﴾ [البقرة: ١٠٠].

﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها أو حالية. أي: وهم لا يتقون الله ـ أو الحال أنهم لا يتقون الله فيما ارتكبوه من الكفر ونقض العهود وغير ذلك من الذنوب ولا يخافون عقابه، ولا يتقون النار، وأكد عدم تقواهم بتقديم المسند إليه وهو الضمير «هم» على الخبر وهو الفعل المنفي وهو قوله: ﴿لَا يَتَّقُونَ﴾.

قوله ـ تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ ﴾ الفاء: عاطفة، و«إن» حرف شرط جازم، و«ما» زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى.

و﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ فعل الشرط والنون فيه للتوكيد، وجواب الشرط ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾ أي: فإما تجدنَّهم وتظفرنَّ بهم حال المحاربة، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق.

﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية.

والتشريد: التطريد والتفريق، ومنه «شرد البعير» أو الدابة إذا هرب من صاحبه، و«من» في قوله: ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ موصولة، أي: الذين وراءهم أي: خوّف بهم وفرّق وسمع من خلفهم . قال الشاعر:

أُطــوِّف بالأبــاطح كــلَّ يــوم   مخافــةَ أن يُــشرِّد بي حَكِــيمُ[1]

أي: مخافة أن يُسَمِّع بي حكيم. و«حكيم» رجل من بني سليم ولَّته قريش الأخذ على أيدي السفهاء.

والمعنى: غلِّظ وشدد عقوبتهم، وأثخنهم قتلاً، لتخيف وتنكِّل بذلك وتفرق به من وراءهم من الكفار، فلا يجترئون على نقض العهد مثلهم، فيكونوا عبرة وعظة لغيرهم، كما قال ـ تعالى ـ في عقوبة الذين اعتدوا في السبت: ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [البقرة: ٦٦].

وهكذا نكل ﷺ ببني قريظة لما نقضوا العهد، فحاصرهم في ديارهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ بأن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم، ففعل بهم رسول الله ﷺ ذلك، وقال لسعد: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات**»[2].

﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ضمير الغيبة في قوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ راجع إلى «من»

---

(١) البيت في «لسان العرب» مادة «شرد» بلا نسبة.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨٠٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٨) ـ من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

الموصولة في قوله: ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: لأجل أن يتذكر ويتعظ ويعتبر الذين خلفهم من الكفار، فلا يقعون فيما وقع فيه هؤلاء من نقض العهد ونحو ذلك. والسعيد مَن وُعِظَ بغيره.

قوله-تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

ذكر الله ـ عز وجل ـ في الآيتين السابقتين حكم من نقضوا العهد وكيفية التعامل معهم، ثم ذكر حكم من يخاف منهم الخيانة ونقض العهد.

قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ الواو: عاطفة، و﴿وَإِمَّا﴾ كسابقتها، و﴿تَخَافَنَّ﴾ فعل الشرط ﴿مِن قَوْمٍ﴾، ﴿قَوْمٍ﴾ نكرة في سياق الشرط فتعم كل قوم تُخاف منهم خيانة.

والخوف: توقع حصول ضرر من شيء بأمارة مظنونة أو معلومة.

والخيانة: ضد الأمانة، وهي هنا نقض العهد؛ لأن الوفاء بالعهد من الأمانة، أي: وإما تخافن من قوم ممن عاهدتهم ﴿خِيَانَةً﴾ أي: نقضاً لما عاهدوك عليه وغدراً بما ظهر من أمارات الغدر والخيانة.

﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط.

ومفعول ﴿فَانۢبِذْ﴾ محذوف، تقديره: فانبذ إليهم عهدهم، ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: نبذاً على سواء، أو حالاً من فاعل «انبذ» أي: حال كونه على سواء.

والنبذ: الطرح وإلقاء الشيء.

﴿عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ ﴿سَوَآءٍۚ﴾ بمعنى: «مستو»؛ كما في قوله ـ تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦]، قال الراجز:

فاضرب وجوه الغُدَّر الأعداء ... حتى يجيبوك إلى السواء[1]

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٢٤٠)، «التبيان» (٥/ ١٤٥).

والمعنى: فألق إليهم عهدهم واطرحه وارم به إليهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: نبذاً واضحاً علناً صريحاً مكشوفاً، يستوي فيه علمك وعلمهم، أن لا عهد بينك وبينهم، ولا تغدر بهم.

عن سليم بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة، يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاءً لا غدراً، إن رسول الله ﷺ قال: «**ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحُلن عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء**» قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عبسة ـ رضي الله عنه»[(١)].

وعن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ أنه انتهى إلى حصن أو مدينة، فقال لأصحابه: «دعوني أدعوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم، فقال: إنما كنت رجلاً منكم فهداني الله ـ عز وجل ـ للإسلام، فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أنتم أبيتم فأدوا الجزية، وأنتم صاغرون، فإن أبيتم نابذناكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين. يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها»[(٢)].

والأمر بنبذ عهدهم إليهم على سواء إذا خيف منهم الخيانة، من باب الاحتياط والاحتراز درءاً للخطر عن المسلمين؛ لأنه بعد وقوع الخيانة قد يصعب تدارك الأمر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ هذه الجملة تعليل للأمر بنبذ عهد من خاف منهم ﷺ الخيانة.

و﴿ٱلْخَآئِنِينَ﴾ الذين يغدرون وينقضون العهود والمواثيق، ولا يوفون بها، وهو عام في كل خائن سواء كان من الكفار أو من المؤمنين، بل إن الخيانة ونقض العهد

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١١١)، وأبوداود في الجهاد ـ في الإمام يستجن به في العهود (٢٧٥٩)، والترمذي في السير ـ ما جاء في الغدر (١٥٨٠) ـ وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٤٠).

من المؤمن أشد وأعظم. قال ﷺ: «**لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان**»[١].

وفي رواية: «**لكل غادر لواء يوم القيامة، يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدراً من أمير عائلة**»[٢].

وقال ﷺ: «**أدِ الأمانة لمن ائتمنك، ولا تخن من خانك**»[٣].

وإذا كان الله ـ عز وجل لا يحب الخائنين فهو يبغضهم، ومن أبغضه الله انتقم منه؛ كما قال ـ تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

ومفهوم الآية أنه ـ عز وجل ـ يحب الأوفياء الأمناء الموفين بالعهود والمواثيق والعقود، وفي هذا إثبات المحبة لله ـ عز وجل ـ على ما يليق بجلاله وعظمته.

الفوائد والأحكام:

١- أن شر ما دب ويدب على الأرض عند الله وفي حكمه الذين كفروا الذين لا يرجى منهم الإيمان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وهذا حكم من الله عليهم، وخبر عنهم أنهم كفار ولن يؤمنوا.

٢- طاعة جميع المخلوقات لله ـ عز وجل ـ من الحيوانات والجمادات وسجودها له، سوى الذين كفروا، ولهذا كانوا شر الدواب دون غيرهم.

٣- أن المعتبر في الحكم على الشيء بأنه خير أو شر، إنما هو حكم الله ـ عز وجل ـ وخبره؛ لقوله ـ تعالى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٨٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٧٢) ـ من حديث أنس ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣٨)، والترمذي في الفتن (٢١٩١) ـ من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبوداود في البيوع (٣٥٣٥)، والترمذي في البيوع (١٢٦٤) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

٤- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله ـ عز وجل ـ له بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾.

٥- نقض الكفار من اليهود والمشركين والمنافقين للعهود والمواثيق مراراً وتكراراً من غير خوفٍ من الله واتقاءٍ لعقابه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦﴾.

٦- التحذير من الكفر ونقض العهود وعدم التقوى؛ لأن هذه صفات شر الدواب عند الله.

٧- ينبغي التنكيل بنَقَضَة العهود من الكفار والتغليظ عليهم، والتشديد في عقوبتهم، والإثخان فيهم قتلاً إذا حصل الظفر بهم حال الحرب ليتشرد بهم من وراءهم من الكفار، ويكونوا عبرة وعظة لغيرهم، لأمره ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ بذلك بقوله ـ تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٥٧﴾ وهو أمر له ﷺ ولأمته ـ وبخاصة ولاة الأمر منهم.

٨- أن السعيد من وعظ بغيره، لقوله ـ تعالىٰ: ﴿فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾.

٩- الإشارة لوجوب احترام العهود والمواثيق مع الكفار، لمفهوم قوله ـ تعالى: ﴿فِي ٱلۡحَرۡبِ﴾ أي: حال كونهم محاربين لا عهد لهم ولا ميثاق.

١٠- إذا خيف خيانة الكفار ونقضهم للعهد وجب نبذ عهدهم إليهم على سواء نبذاً واضحاً صريحاً معلناً مكشوفاً، بأن لا عهد بيننا وبينهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾.

١١- ينبغي الحذر من الكفار ونقضهم عهودهم معنا؛ لأنهم أقدموا على ما هو أعظم من ذلك وهو الكفر بالله ـ عز وجل ـ وليس بعد الكفر ذنب أعظم منه.

١٢- إذا لم نخف خيانة الكفار ونقضهم العهد فلا يجوز لنا نبذ عهدهم إليهم، بل يجب الوفاء به وإتمامه إلى مدته؛ لمفهوم قوله ـ تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ﴾ الآية.

١٣- لا يجوز إذا خيف خيانة الكفار ونقضهم العهد أن نخونهم بل يجب إعلان نبذ عهدهم إليهم.

١٤- إذا ظهرت خيانة الكفار ونقضهم ما بيننا وبينهم من عهد فلا حاجة لنبذ عهدهم إليهم على سواء؛ لأنهم صاروا بحكم من لا عهد له. وهكذا فعل ﷺ لما نقضت قريش العهد بقتل خزاعة حلف رسول الله ﷺ فلم يرعهم إلا وجيش رسول الله ﷺ بمر الظهران على نحو أربعة فراسخ من مكة.

١٥- عدم محبة الله للخائنين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ وإذا لم يحبهم فإنه يبغضهم، ومن أبغضه الله انتقم منه؛ كما قال ـ تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

١٦- عظم حرمة الخيانة ونقض العهود، لما رتب الله عليها من العقوبة الشديدة للخائنين وعدم محبته لهم، وهذا عام في كل خيانة من كافر أو مؤمن، بل إن الخيانة من المؤمن أشد وأعظم.

١٧- إثبات المحبة لله ـ عز وجل ـ على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه يحب الأوفياء الأمناء؛ لمفهوم قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾.

١٨- تعظيم الإسلام للعهود والمواثيق واحترامه لها ـ حتى مع غير المسلمين.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٩-٦٣].

قوله ـ تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

في هذه الآية الكريمة تسلية وطمأنة للنبي ﷺ ولأصحابه تجاه ما يلاقونه من الكفار، من المشركين ممن نجوا يوم بدر، ومن بني قريظة والمنافقين وغيرهم من الخيانة ونقض العهود والأذى، ووعد لهم بالنصر، ووعيد وتهديد للكافرين.

قوله: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وأبوجعفر وحفص عن عاصم: «ولا يحسبن» بالياء على الغيبة، أي: ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم، سبقوا، أو: ولا يحسبن أحد الذين كفروا سبقوا.

وقرأ الباقون: «ولا تحسبن» بالتاء، على الخطاب، أي: ولا تحسبن يا محمد، ويا أيها السامع والمخاطب الذين كفروا سبقوا.

والحسبان بمعنى الظن، أي: ولا يظنن، أو: ولا تظنن الذين كفروا سبقوا، أي: سبقونا وفاتوا وأفلتوا من أن نظفر بهم، كما قال ـ تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤].

﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ قرأ ابن عامر بفتح الهمزة «أنهم»، وقرأ الباقون بكسرها أي: إنهم.

أي: إنهم وإن نجا منهم من نجا يوم بدر، واجترأ من اجترأ منهم على نقض العهد، كما حصل من بني قريظة وغيرهم من المشركين والمنافقين، فإنهم لا يعجزون الله، فالله قادر على إهلاكهم في الدنيا على يد رسوله ﷺ والمؤمنين، وبما شاء، وعلى تعذيبهم في الآخرة بالنار، قال ـ تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النور: ٥٧]، وقال ـ تعالى ـ فيما ذكر عن الجن

أنهم قالوا: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الجن: ١٢]، وقال ـ تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرحمن: ٣٣]، وقال ـ تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

قوله ـ تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ الآية.

بيَّن الله ـ عز وجل ـ في الآية السابقة عدم سبق الذين كفروا، وأنهم لا يعجزون، ثم أمر بإعداد المستطاع من عدة وقوة مادية ومعنوية لإرهابهم وغيرهم من أعداء الله وأعداء المؤمنين، وبهذا يظهر ضعفهم وعجزهم وعدم سبقهم.

قوله: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ معطوف على جملة: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ﴾ ويحتمل كون الجملة مستأنفة.

والأمر للمؤمنين، وبخاصة ولاة الأمر منهم، والضمير في قوله: ﴿لَهُم﴾ يعود إلى الذين كفروا.

والإعداد: التهيؤ والتجهيز والتحضير.

﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم ﴾ ﴿مَّا﴾ موصولة تفيد العموم، أي: وأعدوا للكفار كل الذي تستطيعونه وتقدرون عليه ﴿مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ أي: من أيِّ قوة كانت ومن رباط الخيل.

أي: وأعدوا لهم كل ما تقدرون عليه من قوة معنوية قوامها الإيمان والعلم والعقل وسداد الرأي والحنكة والسياسة.

وأعدوا لهم ما تقدرون عليه من قوة بدنية بالتمرين والتدريب واللياقة والشجاعة، وتعلم الرمي، فعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ **ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ـ فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه (١٩١٧)، وأبوداود في
=

وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومنبله**». وفي رواية: «**والممد به، فارموا واركبوا، ولأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا**»[(١)].

وعن سلمة بن الأكوع ـ رضي الله عنه ـ قال: مرَّ النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون، فقال النبي ﷺ: «**ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً، وأنا مع بني فلان**». قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم. فقال رسول الله ﷺ:« **ما لكم، لا ترمون؟**» فقالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال النبي ﷺ: «**ارموا فأنا معكم كلكم**»[(٢)].

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: «ما رأيت النبي ﷺ يفدي رجلاً بعد سعد، سمعته يقول: «**ارم فداك أبي وأمي**»[(٣)].

وأعدوا لهم ما تقدرون عليه من قوة آلية بالتسلح بأنواع الأسلحة؛ من السيوف والرماح والأقواس والبنادق والمدافع والدبابات والصواريخ والرشاشات، وغير ذلك في كل عصر بحسبه.

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ معطوف على قوله: ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ من عطف الخاص على العام للاهتمام. أي: وأعدوا لهم الذي استطعتم من رباط الخيل؛ لأن الخيل ـ حال نزول القرآن ـ من أعظم القوة، لهذا أقسم الله ـ عز وجل ـ بها في قوله ـ تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾ [العاديات: ١-٣].

وعن عروة بن جعد البارقي ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**الخيل**

=

الجهاد ـ باب في الرمي (٢٥١٤)، والترمذي في التفسير (٣٠٨٣)، وابن ماجه في الجهاد ـ الرمي في سبيل الله (٢٨١٣)، وأحمد (٤/ ١٥٦-١٥٧).

(١) أخرجه أبوداود في الجهاد (٢٥١٣)، والنسائي في الخيل ـ تأديب الرجل فرسه (٣٥٧٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨١١).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٩).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٠٥)، والترمذي في المناقب (٣٧٥٥).

معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمغنم»(١).

و﴿رِبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ ربطها وتقييدها وشدها في مكان حفظها، ويسمى به مكان ربطها وحفظها أيضاً.

و﴿رِبَاطِ﴾ على وزن «فعال» صيغة مبالغة للدلالة على الكثرة.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر؛ فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال لها في مَرْج**(٢) **أو روضة، فما أصابت في طِيَلها**(٣) **ذلك من المرج، أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طِيَلها، فاستنت شرفاً أو شرفين**(٤) **كانت أرواثها وآثارها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يُرد أن يسقيها كان ذلك حسنات له، فهي له أجر، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً**(٥) **ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر. ورجل ربطها فخراً ورياءً ونواءً**(٦) **فهي على ذلك وزر»**(٧).

وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**الخيل ثلاثة: ففرس للرحمن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان؛ فأما فرس الرحمن فالذي يربط في سبيل الله، فعلفه وروثه وبوله، وذكر ما شاء الله، وأما فرس الشيطان فالذي يقامر أو يراهن عليه، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها، فهي ستر من فقر»**(٨).

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد ـ الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٥٢)، ومسلم في الإمارة ـ الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (١٨٧٣)، والنسائي في الخيل (٣٥٧٥)، والترمذي في الجهاد (١٦٩٤)، وابن ماجه في التجارات (٢٣٠٥).

(٢) المرج: الأرض الواسعة، ذات نبات كثير، تمرج فيه الدواب، أي: تخلى تسرح مختلطة متى شاءت.

(٣) الطيل: بكسر الطاء، وفتح الياء: الحبل الذي تربط به.

(٤) أي: علت مكاناً أو مكانين عاليين.

(٥) أي: استغناء بها عن الناس وتعففاً بها عن السؤال.

(٦) أي: مناوأة ومعاداة.

(٧) أخرجه البخاري في الجهاد ـ الخيل لثلاثة (٢٨٦٠)، ومسلم في الزكاة ـ إثم مانع الزكاة (٩٨٧)، والنسائي في الخيل (٣٥٦٣)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٨)، وأحمد (٢/ ٢٦٢، ٣٨٣).

(٨) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٥).

وعلى من يربي الخيل أن يعلم مكانه من هذه الأصناف.

وعن سهل بن الحنظلية ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، ومن ربط فرساً في سبيل الله كانت النفقة عليه كالماد يده بالصدقة، لا يقبضها**»(١).

وفي قوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ أمر بإعداد المراكب المحتاج إليها عند القتال من المراكب البرية والبحرية والجوية، من الطائرات والسيارات والسفن في كل عصر بحسبه.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الجملة استئنافية بيانية، أو حال من ضمير ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ أي: حال كونكم ترهبون به عدو الله وعدوكم.

والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى المصدر المأخوذ من قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ أي: ترهبون وتخيفون بإعداد القوة ورباط الخيل ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، من الكفار من المشركين واليهود وغيرهم.

وفيه ذم لهم أن كانوا أعداء الله، وبيان سبب الأمر بإعداد العدة لهم، وإرهابهم، وتحريض المؤمنين ـ الذين هم أولياء الله ـ على قتالهم.

وعطف ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ على ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾ من عطف صفة على صفة لموصوف واحد مثل قول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

والمعنى: تخيفون بإعداد القوة عدو الله وعدوكم من الكفار الظاهرين، فلا يجرؤون على الاعتداء عليكم ولا على غزوكم، ويرهبون لقاءكم ويخافون بطشكم، ولهذا قال ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير**»(٢).

---

(١) أخرجه الطبراني ـ فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٢٦)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٣٥٩) ـ وقال: «رواه الطبراني، ورجاله ثقات».

(٢) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة (٧٩) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

وقد مضت سنة الحياة الكونية ـ وخاصة في غيبة تحكيم شرع الله ـ على أنه لا محل للضعيف والفقير، وعلى أكل الغني للفقير، وتسلط القوي على الضعيف، أشبه بشريعة الغاب، مما يوجب ويؤكد على المسلمين إعداد القوة ـ كما أمر الله ـ عز وجل ـ وقد قيل:

فلا منعت دار ولا عز أهلها ... من الناس إلا بالقنا والقنابل

وقال زهير:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وما أصاب المسلمين ما أصابهم من تسلط الأعداء عليهم، واحتلال بلادهم ومقدساتهم، والطمع في خيرات بلادهم، ومحاولتهم طمس هويتهم الإسلامية إلا بسبب ضعف المسلمين في إعداد القوة بقسميها: المعنوية بالإيمان والاجتماع على الحق، والمادية بالسلاح والعتاد ونحو ذلك حتى صار حال المسلمين اليوم كما قيل:

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ... ولا يستشهدون وهم حضور

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، وهو العودة إلى الله ـ عز وجل ـ وإعداد القوة مادياً ومعنوياً لكي يعود للأمة عزها ومجدها ـ وما ذلك على الله بعزيز.

قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، أي: وترهبون به «آخرين» أي: أقواماً أو أناساً، أو أعداءً آخرين.

﴿مِن دُونِهِمْ﴾ أي: ممن هم أقرب منهم إليكم، بل ممن هم بين أظهركم من المنافقين، وبعض قبائل العرب حول المدينة، الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة: ١٠١].

﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ أي: لا تعرفونهم بالتفصيل، ولا بالإجمال، ممن يضمرون العداوة للمؤمنين، ويتربصون بهم الدوائر من المنافقين، وبعض القبائل.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ لأنه المطلع على السرائر والضمائر، العليم الخبير، وفي هذا

تعريض بالتهديد لهؤلاء الآخرين، وإشارة إلى عناية الله ـ عز وجل ـ بالمؤمنين وإحصائه لأعدائهم.

وفي تقديم المسند إليه «الله» على الخبر «يعلمهم» تحقيق وتأكيد علمه ـ عز وجل ـ بهم، وتأكيد لازمه من التهديد لهؤلاء والعناية بهؤلاء.

والمنافقون أشد عداوة للمؤمنين من الكفار الظاهرين، وأشد تربصاً للدوائر بهم، وأشد رهبة منهم؛ كما قال الله ـ تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: ٤]، وقال ـ تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة ٥٢]، وقال ـ تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: ٦٤].

وهم أخطر على الأمة الإسلامية من أعدائها الظاهرين؛ لأنهم بين ظهراني المسلمين يَطَّلعون على أحوالهم، ويُلقون بأسرارهم إلى الكفار، ويصعب التحرز منهم، كما يصعب التخلص منهم بقتلهم ونحو ذلك؛ لأنهم يعتبرون في عداد المسلمين.

ولهذا لما قال عمر ـ رضي الله عنه: «دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق» يعني عبدالله بن أبي بن سلول حين قال كما حكى الله عنه: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، يعني بالأعز نفسه والمنافقين، ويعني بالأذل الرسول ﷺ وأصحابه.

قال ﷺ لعمر ـ رضي الله عنه: **«دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»**(١).

ولهذا يُقدَّم ذكرهم على الكفار والمشركين في باب الوعيد والعذاب، كما قال ـ تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: ٦٨]، وقال ـ تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٠٥)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٤)، والترمذي في التفسير (٢٣١٥) ـ من حديث جابر ـ رضي الله عنه.

وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٧٣]، وقال ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠].

قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

أمر الله ـ عز وجل ـ المؤمنين في أول الآية بإعداد ما يستطيعون من قوة ومن رباط الخيل لإرهاب عدو الله وعدوهم من الكفار ومن دونهم من المنافقين ونحوهم، ومن لازم ذلك الإنفاق بسخاء، ولهذا ختم الله ـ عز وجل ـ الآية بالترغيب بالإنفاق في سبيل الله بوعدهم بوفائه إليهم من غير ظلم.

ومعلوم أن الجهاد بالمال أهم من الجهاد بالنفس، ولهذا يقدم ـ غالباً ـ في القرآن الكريم على الجهاد بالنفس.

قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الواو عاطفة، و«ما» شرطية، ﴿مِن شَىْءٍ﴾ ﴿شَىْءٍ﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم أيَّ شيء كان، قليلاً أو كثيراً، صغيراً أو كبيراً.

﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في نصرة دين الله وإعلاء كلمته، كما قال ﷺ: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ـ عز وجل»**(١).

﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: تُعطون حقه كاملاً، ويؤدى إليكم أجره وثوابه تاماً وافياً، بل ومضاعفاً؛ كما قال ـ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال ـ تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

إضافة إلى ما يُعوضهم الله في الدنيا من الفيء والغنيمة والجزية والخراج والمباركة لهم في أموالهم وغير ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٢٣)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، وأبوداود في الجهاد (٢٥١٧)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٦)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٣) ـ من حديث أبي موسى ـ رضي الله عنه.

﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنكم لا تظلمون أيَّ ظلم، أي: لا تُنقصون مما أنفقتموه في سبيل الله شيئاً من أجوركم؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩، الإسراء: ٧١]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]، وقال ـ تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، وقال ـ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قوله ـ تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾.

أمر الله ـ عز وجل ـ المؤمنين بإعداد ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل إرهاباً لعدو الله وعدوهم ومن دونهم، ثم أتبع ذلك بأمره ﷺ إذا جنح العدو للسلم أن يجنح لها، ويتوكل على الله في إشارة واضحة إلى أنه ليس المقصود بإعداد القوة أن تكون سبباً لإشعال الحرب مع طلب العدو السلم.

قوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾ قرأ حمزة وأبوبكر عن عاصم وخلف «للسِّلم» بكسر السين وقرأ الباقون بفتحها.

والجنوح للشيء: الميل إليه، و«السلم» ضد الحرب، أي: وإن مال أعداؤكم الكفار وانقادوا للسلم والمصالحة والمهادنة عن رغبة صادقة.

﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ فمل إليها، أي: فأجبهم إليها، أي: للسلم ـ والتعبير بقوله: ﴿فَٱجْنَحْ﴾ لمشاكلة «جنحوا».

ولهذا لما طلب المشركون الصلح عام الحديبية أجابهم ﷺ، وتم الصلح بينه وبينهم على الهدنة لمدة عشر سنين حتى نقضوا العهد(١).

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنه سيكون بعدي اختلاف، أو أمر فإن استطعت أن يكون السلم فافعل»**(٢).

(١) كما جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ـ رضي الله عنهما ـ وسيأتي تخريجه قريباً.
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٩٠).

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: واعتمد على الله وفوّض أمرك إليه في حربك وسلمك وثق به.

والمعنى: صالحهم واعتمد على الله ولا تخف في الصلح مكرهم، فإن الله كافيك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ولهذا قال بعده: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ﴾.

وأيضاً فإن في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ بعد الأمر بإعداد المستطاع من القوة أمر للجمع بين فعل السبب والاعتماد على الله ـ عز وجل.

قال السعدي[1]: «﴿فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة، منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك كان أولى لإجابتهم، ومنها: أن في ذلك استجماماً لقواكم، واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر إن احتيج إلى ذلك، ومنها: أنكم إذا أصلحتم وأمن بعضكم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو، ولا يعلى عليه ـ إلى أن قال: فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين، ولا يُخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم، فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافيهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره، فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ﴾».

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ «السميع» و«العليم» اسمان من أسماء الله ـ عز وجل ـ كل منهما على وزن فعيل صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ على إثبات صفة السمع الواسع لله ـ عز وجل ـ وأنه ـ عز وجل ـ ذو السمع الواسع الذي وسع جميع الأصوات.

ويدل ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ على إثبات صفة العلم الواسع لله ـ عز وجل ـ وأنه ـ عز وجل ـ ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء، كما قال ـ تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٨٥). وانظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٨).

فهو - عز وجل - سميع لجميع الأصوات، ومن ذلك ما يدور بين الفريقين من كلام في أمر المسالمة والمصالحة، وهو عليم بكل شيء ومن ذلك أمر الصلح وما يدور في نوايا الكفار في طلبهم الصلح وغير ذلك.

قوله - تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾.

أمر الله - عز وجل - رسوله ﷺ إذا جنح العدو ومال إلى السلم أن يجنح لها ويسالمهم، ثم أتبع ذلك بما يبعث الطمأنينة في قلبه ﷺ وهو بيان أنهم إن أرادوا أن يخدعوه بإظهار الميل إلى السلم فإن الله حسبه وكافيه وأكد ذلك وبرهن له بسابق تأييده له بنصره وبالمؤمنين وبالتأليف بين قلوبهم.

قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ أي: وإن يرد أعداؤك الكفار.

﴿أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول للفعل ﴿يُرِيدُوٓاْ﴾ أي: وإن يريدوا خداعك، أو خديعتك.

والمعنى: وإن يرد الكفار وينووا ويضمروا - بإظهار ميلهم إلى السلم والمصالحة - خديعتك، ليأخذوكم على غرة، أو لأجل أن يتقووا ويستعدوا لكم، ونحو ذلك.

﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ﴾ و«إن» حرف توكيد ونصب. أي: فإن كافيك الله وحده بنصره ومعونته لك.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ الآيتين.

هذا فيه - كما أشرت سابقاً - طمأنة له ﷺ وتأكيد لكفايته - عز وجل - له إن أرادوا خيانته - بذكر سابق تأييده له بنصره وبالمؤمنين، والتأليف بين قلوبهم - وهذا أشبه بقوله - تعالى له - حين قال المشركون، لما فتر الوحي: «ودعه ربه وقلاه» فأنزل الله - تعالى: ردًّا عليهم: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ إلى أن قال مطمئناً ومؤكداً له: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا

فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [الضحى: ١-٨][1].

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ﴾ أي: هو ـ سبحانه وتعالى ـ الذي قوّاك وأظهرك.

﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾ أي: بنصره لك في بدر بالإمداد بالملائكة، وغير ذلك من أسباب النصر.

﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: وأيدك بالمؤمنين من المهاجرين والأنصار ـ رضي الله عنهم.

﴿ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ ﴾ أي: جمع بين قلوبهم على الإيمان، والأخوة في الله، وعلى مناصرة الحق ـ وهذا منَّة أخرى على رسول الله ﷺ، ومِنَّة أيضاً على المؤمنين، قال ـ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ﴾ «لو» شرطية، والخطاب للنبي ﷺ، و﴿مَا﴾ موصولة، تفيد العموم. و﴿جَمِيعٗا﴾ حال، أي: لو أنفقت الذي في الأرض جميعاً، من كل ما يتمول وينفق من نقد أو عين، أو غير ذلك.

﴿مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ جواب ﴿لَوۡ﴾، و﴿مَا﴾ نافية، أي: ما جمعت بين قلوبهم بعد النفرة والفرقة الشديدة، والأحقاد والإحن، والعداوة والبغضاء المتأصلة في قلوبهم، يرثها الأبناء عن الآباء، بسبب الحروب الكثيرة التي دارت بينهم قبل الإسلام، وبخاصة بين الأوس والخزرج.

والمعنى: لو حاولت تأليفهم ببذل المال العظيم ـ حتى لو كان ذلك ما في الأرض جميعاً ـ ما ألفت بين قلوبهم. وقد قيل:

إن القلوب إذا تنافر ودها … شبه الزجاجة كسرها لا يجبر

وقال الآخر:

وقد يَنْبُت المرعى على أَثَرِ الدِّمَنْ … وتبقى حزازتُ النفوس كما هيا

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٢٥)، وفي تفسير سورة الضحى (٤٩٥٠)، ومسلم في الجهاد والسير ـ ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٧)، وأحمد (٤/ ٣١٢-٣١٣)، والترمذي في التفسير (٣٣٤٥) ـ من حديث جندب بن سفيان ـ رضي الله عنه.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ولكن الله ـ عز وجل ـ بقدرته التامة، على تقليب القلوب وتصريفها، وإحيائها بعد موتها ألف بينهم وجمع قلوبهم.

ولهذا كان ﷺ يكثر من قوله: **«يا مقلّب القلوب والأبصار ثبِّت قلبي على دينك»**[(١)].

ولما نهى الله ـ عز وجل ـ المؤمنين عن موالاة الكافرين في مطلع سورة الممتحنة بقوله ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الآية: ١]، أعقب ذلك بفتح باب الرجاء لهم بإيمان المذكورين فتعود المودة بينهم، وذلك بقوله بعد عدة آيات ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [الممتحنة: ٧].

ولما عاتب ـ عز وجل ـ المؤمنين بقوله ـ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦]، أتبع ذلك بقوله ـ تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ [الحديد: ١٧]، طمأنة وبشارة للمؤمنين بأن من يحيي الأرض بعد موتها قادر على إحياء القلوب بعد موتها وتليينها بعد قسوتها، وجمعها بعد اختلافها وتفرقها.

ولهذا امتنَّ الله ـ عز وجل ـ على نبيه ﷺ بهذا التأليف بينهم، كما امتنَّ عليهم بذلك بقوله ـ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولهذا قال ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين: **«يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله**

---

(١) أخرجه الترمذي في القدر (٢١٤٠)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٤) ـ من حديث أنس ـ رضي الله عنه.

بي؟» كلما قال شيئاً؛ قالوا: الله ورسوله أمن[(١)].

وعن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «**إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزها شيء**، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾»[(٢)].

وإنما امتنَّ الله على نبيه ﷺ بتأليفه ـ عز وجل ـ بين قلوب المؤمنين؛ لأن اجتماع القلوب وتآلفها ومحبة المؤمنين بعضهم لبعض هو مكمن القوة والعزة والنصر والنجاة في الدنيا والآخرة؛ ولهذا أوجب الله ـ عز وجل ـ على المؤمنين المحبة فيما بينهم، وجعل ذلك من شرط الإيمان، كما قال ﷺ: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم**»[(٣)].

فدلَّ هذا على وجوب المحبة بين المؤمنين، وعلى الترغيب على ما يكون سبباً لذلك وهو إفشاء السلام بينهم.

كما رغَّب الإسلام في الهدية والمصافحة من أجل ذلك.

وقال ﷺ: «**إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما، كما يتحات الورق من الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفرت ولو كانت ذنوبهما مثل زبد البحر**»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ـ غزوة الطائف (٤٣٣٠)، ومسلم في الزكاة ـ إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (١٠٦١)، وأحمد (٤/ ٤٢) من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم ـ رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد أيضاً (١/ ٥٧، ٧٦) من حديث أبي سعيد ـ رضي الله عنه. ومن حديث أنس ـ رضي الله عنه (٣/ ١٠٤، ٢٥٣).

(٢) أخرجه عبدالرزاق فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٢٩)، والحاكم في «تفسير سورة الأنفال» (٢/ ٣٢٨-٣٢٩) ـ وقال: «صحيح على شرط الشيخين».

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٥٤)، وأبوداود في الأدب (٥١٩٣)، والترمذي في الاستئذان والآداب (٢٦٨٨)، وابن ماجه في المقدمة (٦٨) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الطبراني ـ فيما ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٣٧) وقال الهيثمي: «ورجاله رجال الصحيح، غير سالم بن عيلان وهو ثقة».

﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: إنه ـ عز وجل ـ ذو العزة التامة بأقسامها الثلاثة: عزة القوة؛ كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]، وعزة القهر والغلبة؛ كما قال ـ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾ [الزمر: ٤]، وعزة الامتناع فلا أحد يناله بسوء.

﴿حَكِيمٌ﴾ أي: ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة، الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتهديد للذين كفروا، وأنهم لن يسبقوا ويفوتوا ويفلتوا من عقاب الله وعذابه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ۚ﴾.

٢- لا ينبغي أن يظن أحد أن الذين كفروا سيفوتون ويفلتون من عذاب الله ـ تعالى.

٣- قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة على أخذ الكافرين، والانتقام منهم، وأنهم لا يعجزونه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.

٤- يجب على المسلمين إعداد ما استطاعوا من قوة معنوية، قوامها الإيمان والعلم والحنكة السياسية وسداد الرأي، ومن قوة مادية بالاستعداد بالقوة الآلية بصناعة المراكب البرية والبحرية والجوية، وأنواع الأسلحة والذخائر لكل عصر بحسبه والتدريب عليها، وغير ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ وذلك لتأمين الدعوة إلى الله ـ عز وجل، وحفظ مقدسات المسلمين وبلادهم وثرواتهم وثغورهم، وغير ذلك.

٥- وجوب الأخذ بالأسباب وأنه لا ينافي التوكل على الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم﴾ الآية.

٦- وجوب أخذ الحيطة من الكفار.

٧- أن التكليف إنما يكون بما يستطاع دون ما لا يستطاع؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

٨- أن الحقوق إنما تحفظ وتصان بالقوة بعد التوكل على الله ـ عز وجل.

٩- فضل الخيل والترغيب في رباطها في سبيل الله؛ لأنها من أعظم وسائل القوة للقتال في سبيل الله، وبخاصة في العهود الإسلامية الأولى؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

١٠- أن المقصود من إعداد القوة إرهاب عدو الله وعدو المؤمنين من الكفار من المشركين واليهود، ومن دونهم من المنافقين وغيرهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

١١- عداوة الكفار لله ـ عز وجل ـ وللمؤمنين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وأن من عادى الله فهو عدو للمؤمنين، كما أن من عادى المؤمنين فهو عدو لله ـ عز وجل.

١٢- التهديد للمنافقين وعظم خطرهم على الأمة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

١٣- أن البشر لا يعلمون الغيب، وما في القلوب؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾.

١٤- علم الله ـ عز وجل ـ بالخلق وأحوالهم؛ وما تنطوي عليه قلوبهم وضمائرهم من النفاق وغيره؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

١٥- الترغيب والحث على الإنفاق في سبيل الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

١٦- فضل النفقة في سبيل الله مهما قلَّت؛ لقوله ـ تعالى: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ أي: مهما كان قليلاً أو كثيراً.

١٧- إعطاء المنفقين أجر وثواب ما أنفقوه وافياً، بلا نقصان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، بل إن الله يضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ؛ كما قال ـ تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥]،

وقال ﷺ: «**كل عمل ابن آدم له يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله ـ عز وجل: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**»(١).

١٨- كمال عدل الله عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

١٩- أن الإنفاق في سبيل الله أعظم وأهم وسائل إعداد القوة؛ ولهذا رغب ـ عز وجل ـ بالإنفاق في سبيل الله ـ بعد الأمر بإعداد القوة، وذلك أن الجهاد نوعان: جهاد بالمال، وجهاد بالنفس، والجهاد بالمال أهم؛ لأن الجهاد بالنفس لا يقوم إلا على الجهاد بالمال، ولهذا نجد القرآن الكريم ـ غالباً ـ يقدم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس.

٢٠- إذا جنح الكفار للمسالمة ومالوا إلى المصالحة ينبغي لولي أمر المسلمين قبولها منهم ومسالمتهم؛ لأمر الله ـ عز وجل ـ نبيه ﷺ بذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾.

٢١- في الأمر بمسالمة العدو إذا طلب ذلك إشارة إلى أن القتال في الإسلام إنما شُرِع لهدف وهو هداية الناس لدين الله، وزحزحتهم عن النار، وإدخالهم الجنة، وليس المقصود منه القتل.

٢٢- حكمة التشريع العظيمة في الأمر بمسالمة العدو إذا طلب ذلك ومال إليه ـ والتي قد تخفى على الكثيرين، وذلك لما يترتب على السلم والصلح من فوائد عظيمة ومصالح جمة، ومنافع كثيرة، من معرفة الناس بالإسلام وأحكامه وعدله وإنصافه ومن ثم الدخول فيه، وأعظم شاهد على ذلك ما حصل وترتب على صلح الحديبية بين الرسول ﷺ والمشركين حيث حصلت الهدنة وأمن الناس بعضهم بعضاً فدخل خلق كثير في الإسلام وأقبلوا عليه ـ مع ما وجد بعض الصحابة كعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ من غضاضة في الصلح

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١١٥١)، والنسائي في الصيام (٢٢١٥)، والترمذي في الصوم (٧٦٤)، وابن ماجه (١٦٣٨) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

بداية الأمر ـ كما جاء في حديث الصلح[1].

٢٣- وجوب التوكل على الله ـ عز وجل ـ والاعتماد عليه، وتفويض الأمور إليه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٢٤- ينبغي فعل السبب بإعداد القوة مع التوكل على الله ـ عز وجل، كما ينبغي لولي أمر المسلمين إذا طلب العدو المسالمة ومال إليها أن يسالمهم ويتوكل على الله ـ عز وجل ـ فإنه كافيه ما وراء ذلك.

٢٥- إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ وما يدل عليه من صفة السمع الواسع لله ـ عز وجل ـ الذي يسع جميع الأصوات؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

٢٦- إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ وما يدل عليه من صفة العلم الواسع لله ـ عز وجل ـ الذي وسع كل شيء؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾.

٢٧- في اجتماع صفة السمع الواسع والعلم الواسع لله ـ عز وجل ـ زيادة كماله إلى كمال.

٢٨- طمأنة الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ بكفايته له إن أراد الكفار بطلب المسالمة خديعته ﷺ؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ وهذا له ﷺ ولولاة الأمر من بعده من المسلمين.

٢٩- في قوله ـ تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ ما يشير إلى توقع الخيانة من الكفار، وأن ذلك وارد، إذ ليس بعد الكفر ذنب أعظم منه.

٣٠- تأكيد كفايته ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ إن أرادوا بطلب السلم خديعته ﷺ ـ بذكر سابق تأييده له بنصره وبالمؤمنين وبالتأليف بين قلوبهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

٣١- أن من أعظم نعم الله ـ عز وجل ـ على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين تأليفه ـ عز

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط ـ الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (٢٧٣١ ـ ٢٧٧٢)، وعبدالرزاق في «المصنف» (٥/ ٣٣٣-٣٤٢) ـ المغازي ـ غزوة الحديبية ـ من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ـ رضي الله عنهما.

وجل ـ بين قلوبهم ـ مع ما كان بينهم من العداوة المتأصلة بسبب الحروب التي كانت بينهم في الجاهلية ـ ولهذا امتن الله ـ عز وجل ـ على النبي ﷺ بذلك، فقال ـ تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾.

٣٢- أن التأليف بين القلوب المتنافرة ليس بالأمر اليسير، بل ولا الممكن إلا بتوفيق الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾.

٣٣- قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة على تقليب القلوب، والتأليف بينها، وإحيائها بعد موتها.

٣٤- أن العبرة بالائتلاف والاجتماع ائتلاف القلوب واجتماعها، لا الأبدان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، وقوله: ﴿مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

٣٥- إثبات صفة العزة التامة لله ـ عز وجل ـ بأقسامها الثلاثة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾.

٣٦- إثبات صفة الحكم التام لله ـ عز وجل ـ بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات صفة الحكمة البالغة لله ـ عز وجل ـ بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله ـ تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٤-٦٦].

قوله ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

وعد الله ـ عز وجل ـ في الآية السابقة نبيه ﷺ بأنه إن أراد الكفار أن يخدعوه بطلبهم السلم فإن حسبه وكافيه الله ومن اتبعه من المؤمنين، ثم أتبع ذلك بوعده في هذه الآية بكفايته له مطلقاً، هو ومن اتبعه من المؤمنين.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادي مبني على الضم في محل نصب و«ها» للتنبيه، و﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ صفة لـ«أي» أو بدل.

والنداء لنبينا محمد ﷺ، وقد خصه الله ـ عز وجل ـ من بين الأنبياء والرسل بندائه باسم النبوة والرسالة تكريماً وتشريفاً له ﷺ.

وتصدير الخطاب بالنداء فيه مع التشريف والتكريم له ﷺ التنبيه والعناية والاهتمام بما بعده من أحكام ونحو وذلك.

و«النبي» أصله «النبيء» مشتق من النبأ وهو الخبر؛ لأنه مُنْبأٌ ومُخْبَرٌ من عند الله ـ عز وجل، ومُنْبِئٌ ومُخبِرٌ لقومه، وأيضاً مشتق من النبوة، وهي المكان المرتفع؛ لأن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ذوو مكانة عالية ومنزلة رفيعة عند الله، وعند المؤمنين.

﴿ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

الواو للمعية، أي: حسبك الله مع من اتبعك من المؤمنين، كما قال الشاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا ... فحسبك والضحاك سيف مهند

أي: حسبك مع الضحاك.

والمعنى: يكفيك الله مع من اتبعك من المؤمنين، أي: يكفيكم جميعاً.

ويجوز كون الواو عاطفة، وتكون «من» معطوفة على الكاف المجرورة في ﴿حَسْبُكَ﴾ أي: حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين، أي: يكفيك الله ويكفي من اتبعك من المؤمنين.

أي: يكفيك الله وحده كفاية عامة بالحفظ والنصر والتأييد وغير ذلك أنت والذي اتبعك واهتدى بهديك من المؤمنين.

ولا يصح أن تكون «من» معطوفة على اسم الله، فيكون المعنى: حسبك الله وأتباعك من المؤمنين، لأن الحسب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة، والرغبة والإنابة والحلف ـ كما قال المؤمنون: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣]؛ ولهذا قال ـ تعالى ـ في الآية السابقة: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال: ٦٢]، ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد بنصره وبالمؤمنين. وقال ـ تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، فأخبر أنه وحده كاف عبده.

قوله ـ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾.

أعيد النداء في هذه الآية تأكيداً للمعاني السابقة من تشريفه ﷺ وتكريمه، والعناية والاهتمام بما بعد هذا النداء من أحكام.

﴿حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ التحريض: الحث والترغيب والتهييج على الشيء، أي: حث المؤمنين على القتال، وهيجهم وشجعهم عليه، ورغِّبهم فيه بذكر ما يترتب عليه من النصر والتمكين للأمة، وما أعد الله للمجاهدين في سبيله.

ولهذا كان ﷺ يحث على القتال، ويحرض عليه، عند التحام الصفوف، ومواجهة العدو؛ كما قال ﷺ لأصحابه يوم بدر لما أقبل المشركون بعَدَدهم وعُددهم: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**» فقال عمير بن الحمام: عرضها السموات والأرض؟! قال رسول الله ﷺ: «**نعم**». فقال: بخٍ بخٍ. فقال: «**ما يحملك على قول: بخٍ بخٍ**»؟ قال: رجاء أن أكون من أهلها. قال: «**فإنك من أهلها**» فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات، فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن

من يده، وقال: لئن حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قُتِل ـ رضي الله عنه»[(١)].

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ الكلام استئناف بياني، و«كان» هنا تامة، أي: إن يوجد منكم، أيها المؤمنون ﴿عِشْرُونَ﴾ رجلاً مقاتلاً ﴿صَٰبِرُونَ﴾ أي: ثابتون في القتال متحملون لمشاقه، وللكرِّ والفرِّ فيه، كما قال ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، وإذا لقيتموهم فاصبروا**»[(٢)].

﴿يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ أي: يقاوموا ﴿مِا۟ئَتَيْنِ﴾ أي: مائتي مقاتل من الذين كفروا وينتصروا عليهم بإذن الله ـ عز وجل ـ فالمقاتل الواحد من المؤمنين يصابر ويقاوم عشرة من الكفار.

﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم وأبوعمرو ويعقوب ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ﴾ بالياء على التذكير، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث «وإن تكن».

وهذا مثل آخر لزيادة التوكيد على أنه ينبغي أن يقاوم الواحد من المؤمنين عشرة من الكفار، سواء قلَّ عدد الفريقين أو كثر، ولزيادة الاطمئنان بالغلبة للمؤمنين.

أي: وإن يكن منكم أيها المؤمنون مائة مقاتل ﴿يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: يقاوموا ﴿أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وينتصروا عليهم ـ بإذن الله ـ عز وجل.

ولم يقل هنا «مائة صابرون» أو «مائة صابرة» اكتفاءً بالوصف الأول في قوله: ﴿عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾، كما اكتفى بذكر قيد «الكفر» هنا عن الجملة الأولى.

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ـ ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠١)، وأحمد (٣/ ١٣٦-١٣٧) ـ من حديث أنس ـ رضي الله عنه. وانظر: «السيرة النبوية» (١/ ٦٢٧)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٠).

(٢) سبق تخريجه.

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

الباء للسببية، والضمير «هم» يعود إلى الذين كفروا، أي: إنما كان الواحد من المؤمنين يقاوم العشرة من الكفار بسبب أن الكفار ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

والمعنى: أن هؤلاء الكفار لا يفقهون فقهاً ينتفعون به في دينهم ويسعدون به في دنياهم وأخراهم؛ لكفرهم وعدم إيمانهم.

فهم لا يؤمنون إلا بالمحسوسات، ولا يؤمنون بالبعث وما بعده من العذاب والنعيم، فليس لهم هدف سام يقاتلون من أجله، ولهذا يخافون أشد الخوف من الموت، ويخشون الناس أشد من خشيتهم من الله، كما قال ـ تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقال ـ تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣].

قوله ـ تعالى: ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لما نزلت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ شق ذلك على المسلمين، حين فرض عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، فجاء التخفيف، فقال: ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ قال: فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم»(١).

قوله ـ تعالى: ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآية.

شرع الله ـ عز وجل ـ في الآية السابقة أن يقاوم الواحد من المؤمنين عشرة من

(١) أخرجه البخاري في تفسير قوله ـ تعالى: ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ﴾ (٤٦٥٣)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٤٦).

الكفار، ثم خفف ـ عز وجل ـ ذلك بمقاومة الواحد من المؤمنين للاثنين من الكفار.

قوله: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ ظرف للزمان الحاضر منصوب على الظرفية، أي: وقت نزول الآية، وما بعده.

﴿ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ أي: خفف الله عنكم فيما شرع لكم من مقاومة الواحد للعشرة.

﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ قرأ عاصم وحمزة وخلف بفتح الضاد: «ضَعفا»، وقرأ الباقون بضمها «ضُعفا»، وقرأ أبو جعفر وحده: «ضعفاء» جمع ضعيف.

والضعف: عدم القدرة على العمل الشاق، وقد يكون ضعفاً جسدياً أو نفسياً، أو كليهما؛ لأن كلاً منهما قد يؤدي إلى الآخر.

أي:علم أن فيكم ضعفاً، لا تستطيعون معه أن يقاوم الواحد منكم عشرة من الكفار.

﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بالياء على التذكير ﴿فَإِن يَكُن ﴾ وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث «فإن تكن».

أي: فإن يكن منكم أيها المؤمنون مائة صابرة ثابتة متحملة مشقة القتال﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ أي: يقاوموا مائتي مقاتل من الذين كفروا، وينتصروا عليهم.

وأعيد قيد الصبر بقوله: ﴿صَابِرَةٌ ﴾ للتأكيد على الصبر، وأنه لابد منه حتى مع التخفيف في مقاومة الواحد للاثنين.

﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ ﴾ أي: وإن يكن منكم أيها المؤمنون ألف مقاتل ﴿يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ أي: يقاوموا ألفين وينتصروا عليهم.

﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ قيد للجملتين أي: بإذن الله وأمره الكوني، وإذن الله ينقسم إلى قسمين: إذن كوني كما في هذه الآية، وكما في قوله ـ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، وإذن شرعي كما في قوله ـ تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١]، أي: ما لم يشرعه الله.

ولم يذكر قيد الصبر هنا اكتفاءً بذكره مع قوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ كما لم يذكر قيد الكفر بجملتي التخفيف اكتفاءً بما قبله.

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ معية الله ـ عز وجل ـ تنقسم إلى قسمين: معية عامة لجميع الخلق، بمعنى العلم والإحاطة ونحو ذلك، فهو ـ عز وجل ـ مع خلقه كلهم بعلمه وإحاطته، كما قال ـ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

ومعية خاصة بمعنى التوفيق والنصر والتيسير والتسديد ونحو ذلك، وهذه خاصة بعباده المؤمنين الصابرين المتقين، فهو ـ عز وجل ـ معهم بتوفيقه وعونه وتيسيره وحفظه لهم، كما في هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)﴾ [البقرة: ١٥٣، الأنفال: ٤٦]، وكما في قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)﴾ [النحل: ١٢٨].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾.

٢- تشريفه ﷺ وتكريمه بندائه بوصف النبوة خاصة من بين الأنبياء؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾.

٣- إثبات نبوته ﷺ.

٤- كفاية الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ ولأتباعه المؤمنين، كفاية تامة، من جميع الوجوه؛ حفظاً، ونصراً وغير ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٥- فضل الإيمان واتباع الرسول ﷺ لكفاية الله ـ عز وجل ـ له ﷺ ولمن اتبعه من المؤمنين.

٦- تحريض المؤمنين على القتال وحثهم عليه، وترغيبهم فيه، لما يترتب عليه من تأمين وحماية حرية الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ وحفظ وصيانة بلاد المسلمين ومقدساتهم وثرواتهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾.

٧- تكليف المؤمنين في أول الأمر بمقاومة الواحد منهم عشرة من الكفار؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ ولعل من أسباب ذلك ـ والله أعلم ـ قلة المسلمين مع كثرة أعدائهم.

٨- أن الكفار لا يفقهون فقهاً ينتفعون به في دينهم ويسعدهم في دنياهم وأخراهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ فهم يقاتلون بلا هدف سام، لا يرجون ثواباً، ولا يخافون عقاباً، ولهذا فهم يخافون أشد الخوف من الموت ويخشون الناس أشد من خشيتهم لله، ويرهبونهم أشد من رهبتهم من الله ـ ولهذا من شدة خوفهم وجبنهم يقاوم الواحد من المؤمنين عشرة منهم.

٩- نسخ مصابرة الواحد من المؤمنين لعشرة من الكفار بمصابرة الواحد من المؤمنين لاثنين من الكفار ـ تخفيفاً على المؤمنين بسبب ضعفهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وقد أجمع أهل العلم على أن المؤمن مكلف بمصابرة اثنين من الكفار بدل أن كان مكلفاً بمصابرة عشرة، لكن من أهل العلم من يسمي هذا تخفيفاً، ومنهم من يسميه نسخاً وهو الصحيح. وهذه المسألة من أصح مسائل النسخ في القرآن الكريم.

١٠- أن من أنواع النسخ في القرآن الكريم النسخ إلى الأخف، كما في هذه الآية الكريمة، فنسخ الله ـ عز وجل ـ مصابرة الواحد من المؤمنين لعشرة من الكفار بما هو أخف، وهو مصابرة الواحد من المؤمنين لاثنين من الكفار.

١١- مراعاة الشرع الحكيم لأحوال المكلفين، فالتخفيف لأجل ضعفهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

١٢- أن من أقسام النسخ في القرآن الكريم نسخ الحكم مع بقاء التلاوة، فالآية في مقاومة الواحد للعشرة نسخ حكمها وبقيت تلاوتها.

١٣- تأكيد الحكم وإيضاحه بذكر أكثر من مثال، ففي مصابرة الواحد للعشرة أول الأمر ذكر أن العشرين يغلبون مائتين، وأن المائة يغلبون ألفاً.

وفي مصابرة الواحد للاثنين ذكر أن المائة يغلبون مائتين، وأن الألف يغلبون ألفين. وفي هذا تأكيد الحكم وإيضاحه، وبيان أن الأمر لا يختلف سواءً قل الفريقان أو كثرا.

١٤- في إتيان الأمر في الآية بمقاومة الواحد من المؤمنين عشرة من الكفار، ومقاومة الواحد من المؤمنين بعد التخفيف لاثنين من الكفار - بلفظ الخبر تقوية قلوب المؤمنين والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين، وامتنان من الله - عز وجل - على المؤمنين وثناء عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة والإيمان والقوة في الحق، وإخبار لهم بذلك ليحمدوه ويشكروه.

١٥- ينبغي للمقاتلين في سبيل الله الصبر والثبات وقوة التحمل والتجلد على ما يصيبهم في ذات الله؛ لقوله - تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ الآية، وقوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ﴾ الآية، وقوله - تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

١٦- بلاغة الإيجاز في القرآن فقد حذف وصف الصبر في موضعين اكتفاءً بالوصف الذي قبلهما.

١٧- أن غلبة المؤمنين للكفار وانتصارهم عليهم بإذن الله - عز وجل؛ لقوله - تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ولا شيء يحصل في الكون إلا بإذن الله - عز وجل.

١٨- إثبات معية الله - عز وجل - الخاصة بالمؤمنين الصابرين، معية التوفيق والنصر والحفظ والتسديد؛ لقوله - تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

١٩- فضل الصبر والترغيب فيه وفضل أهله؛ لأن الله - عز وجل - معهم بمعيته الخاصة، بالتوفيق والنصر والحفظ والتسديد.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٧-٧١].

سبب النزول:

عن ابن عباس في حديثه عن عمر ـ رضي الله عنهما ـ فلما كان يومئذٍ ـ يعني يوم بدر ـ والتقوا، فهزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلاً.

قال أبوزميل: قال ابن عباس: «فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**ما ترون في هؤلاء الأسارى**»؟ فقال أبوبكر: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترى يا ابن الخطاب**»؟ قلت: لا والله، يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبوبكر، ولكني أرى أن تمكنّا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًّا من عقيل، فيضرب عنقه، وتمكني من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبوبكر، ولم يهو ما قلت. فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبوبكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «**أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء. لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة**» شجرة قريبة من نبي الله ﷺ. وأنزل الله ـ عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ فأحل الله

الغنيمة لهم»[(١)].

قوله ـ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

هاتان الآيتان عتاب للمؤمنين في استبقائهم الأسرى، وأخذهم الفداء منهم.

قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ قرأ أبوعمرو ويعقوب بالتاء مؤنثاً «أن تكون» وقرأ الباقون بالياء مذكراً «أن يكون».

وقرأ أبوجعفر «أسارى» بضم الهمزة وبألف بعد السين، وقرأ الباقون بفتح الهمزة وإسكان السين من غير ألف.

و«ما» في قوله: ﴿مَا كَانَ﴾ نافية، أي: ما كان لنبي من الأنبياء فيما شرعه الله له ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾. أي: أن يستبقي الأسرى ليفاديهم.

والأسرى: جمع أسير ومأسور. والأسر: الحبس.

﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: حتى يغلظ ويشتد في العدو قتلاً وتنكيلاً، ويتمكن سلطانه وأمره، وتقوى شوكة الحق وأهله، وتنكسر شوكة الباطل وأهله، ويأمن من عودة العدو إلى القوة.

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير ـ الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (١٧٦٣)، وأبوداود في الجهاد ـ فداء الأسير بالمال (٢٦٩)، وأحمد (١/ ٣٠-٣١)، والواحدي في «أسباب النزول» ص١٦١(-١٦٢).
وأخرج الترمذي في تفسير سورة الأنفال (٥٠٨٠)، وأحمد (١/ ٣٨٣-٣٨٤)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٧٣-٢٧٦)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(١٦٠-١٦١)، والحاكم في المغازي (٣/ ٢١-٢٢) ـ نحوه من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن». وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».
وأخرج أحمد (٣/ ٢٤٣) ـ نحوه مختصراً من حديث أنس ـ رضي الله عنه.
وأخرجه بمعناه الحاكم في تفسير سورة الأنفال (٢/ ٣٢٩) ـ من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما. وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبي: «على شرط مسلم».

قال المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «قوله: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وذلك يوم بدر والمسلمون يومئذٍ قليل، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ بعد هذا في الأسارى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ [محمد: ٤]، فجعل الله النبي والمؤمنين بالخيار، إن شاؤوا قتلوهم، وإن شاؤوا استعبدوهم، وإن شاؤوا فادوهم»[(١)].

﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ الخطاب للمؤمنين، والجملة كالعلة للنهي الذي دل عليه قوله: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ﴾ الآية.

أي: تحبون وتطلبون بإبقاء الأسرى ﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾. والعرض: ما يعرض ثم يزول.

وعرض الدنيا متاعها وحطامها الزائل الفاني؛ لأنه ينتفع به قليلاً ثم يزول بسرعة، والدنيا كلها عرض زائل، وظل حائل، كما قال لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ أي: والله يحب لكم، ويطلب منكم أن تحبوا الآخرة وتطلبوها، وما فيها من الثواب العظيم، والنعيم المقيم، بإخلاص العمل لله وإعلاء كلمته، وإعزاز دينه دون شائبة من إرادة الدنيا.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

أي: له ـ عز وجل ـ العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة، ومن عزته ـ عز وجل ـ وحكمه، وحكمته أن نهى عن استبقاء الأسرى حتى يُثْخَن في الأرض.

﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ ﴿ لَّوْلَا ﴾ شرطية، وهي حرف امتناع لوجود.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٣٢).

﴿كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿كِتَٰبٌ﴾ بمعنى «مكتوب»، أي: لولا مكتوب من الله وقضاء ﴿سَبَقَ﴾ في اللوح المحفوظ.

﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أي: لأصابكم، والخطاب لأهل بدر ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ «في» للسببية، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي أخذتم أو بسبب أخذكم الغنائم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الدنيا، أو في الدنيا والآخرة.

أي: لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بإحلال الغنائم لهذه الأمة؛ لأصابكم يا أهل بدر بسبب ما أخذتم من الغنائم عذاب عظيم، ويؤيد هذا قوله ﷺ: «**وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي**»(١).

وقال بعض المفسرين: لولا قضاء من الله سبق أنه لا يعذب أحداً إلا بعد الحجة لأصابكم بسبب أخذ الفداء من الأسرى عذاب عظيم؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال ـ تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال بعضهم: لولا قضاء من الله سبق لأهل بدر أنه مغفور لهم، وإن عملوا ما شاؤوا لعاقبكم على أخذ الفداء؛ كما قال ﷺ في قصة حاطب بن أبي بلتعة لما قال عمر ـ رضي الله عنه: «دعني أضرب عنقه». قال ﷺ: «**وما يدريك لعل الله اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»(٢).

ولا مانع من حمل الآية على كل ما ذكر إذ لا منافاة بينها.

قوله ـ تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ الفاء للتفريع، والأمر في قوله: «كلوا» للإباحة. وفيه امتنان عليهم. و«ما» في قوله: ﴿مِمَّا﴾ موصولة، أي: فكلوا أيها

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٨)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) ـ من حديث جابر ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٤)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٥٠)، والترمذي في التفسير (٣٣٠٥) ـ من حديث علي ـ رضي الله عنه.

المؤمنون من الذي غنمتم من أموال المشركين ﴿حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾.

و﴿حَلَٰلٗا﴾ حال، و﴿طَيِّبٗاۚ﴾ صفة له، أي: حال كونه حلالاً طيباً، والحلال: ضد الحرام، والطيب: الجيد النفيس، ضد الرديء الخسيس.

ومعنى ﴿حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ أي: حلالاً من خير الحلال لا شائبة فيه بوجه من الوجوه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ أي: واتقوا الله بفعل ما أمركم الله به، واجتناب ما نهاكم عنه، وما حرَّمه عليكم، شكراً لله ـ عز وجل ـ على ما أنعم به عليكم من دفع العذاب عنكم، وإحلال الغنائم لكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: إن الله ذو مغفرة واسعة لذنوب عباده؛ كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢]، يغفر لمن تاب جميع الذنوب، ويغفر لمن شاء ما دون الشرك.

والمغفرة ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه، كما جاء في حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ أن الله ـ عز وجل ـ يقرر المؤمن بذنوبه ثم يقول له: «**أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»(١).

ومن مغفرته ـ عز وجل ـ أن دفع العذاب عنهم.

﴿رَّحِيمٞ﴾ أي: ذو رحمة واسعة وسعت كل شيء وعمَّت كل حي؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ [الكهف: ٥٨]، .

رحمة ذاتية ثابتة له ـ عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين. ومن رحمته ـ عز وجل ـ أن أباح الغنائم لهم وللأمة وأطابها.

قوله ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾.

بعد ما أحل الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين الغنائم وما أخذوه من الأسرى من

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٧٣).

الفداء، أتبع ذلك بأمره ﷺ بدعوة الأسرى إلى الخير والإيمان ليعوضهم الله خيراً مما أُخِذ منهم من الفداء.

سبب النزول:

عن مجاهد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «قال العباس: فيَّ نزلت: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فأخبرت النبي ﷺ بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذ مني فأبى فأبدلني الله بها عشرين عبداً كلهم تاجر، مالي في يديه»[(١)].

وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ ﴾ الآية. وكان العباس أُسر يوم بدر، فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس حين نزلت هذه الآية: لقد أعطاني الله ـ عز وجل ـ خصلتين، ما أحب أن لي بهما الدنيا، إني أُسرت يوم بدر، ففديت نفسي بأربعين أوقية، فآتاني أربعين عبداً، وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله»[(٢)].

قوله: ﴿قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ ﴾ قرأ أبوجعفر وأبوعمر: «من الأسارى»، وقرأ الباقون: «من الأسرى».

أي: قل للذين في أيديكم أنت وأصحابك، أي في مَلكتكم ووثاقكم وتحت ولايتكم وحكمكم من أسرى بدر، وهم سبعون رجلاً من صناديد قريش، والذين أخذتم منهم الفداء.

﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا ﴾ أي: إيماناً، بدليل قوله بعده: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ وهذا إنما يحصل للمؤمن، وبخاصة المغفرة.

﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أي: يعطكم خيراً مما أخذ منكم من الفداء، خيراً منه ماديًّا، كمًّا وكيفاً ونوعاً من المال الكثير والرزق الواسع الوفير، من

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٣٧).
(٢) أخرجه الطبري (١١/ ٢٨٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٧٣٧).

الغنائم وغير ذلك، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «أتي رسول الله ﷺ بمال من البحرين، فقال: «**انثروه في المسجد**» قال: وكان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ، فخرج إلى الصلاة، ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاء العباس، فقال: يا رسول الله، أعطني فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلاً، فقال له رسول الله ﷺ: «**خذ**»، فحثى في ثوبه، ثم ذهب يُقِلُّه، فلم يستطع، فقال: مُرْ بعضهم يرفعه إليَّ. قال: «**لا**» قال: فارفعه أنت عليَّ. قال: «**لا**»، فنثر منه، ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق، فمازال رسول الله ﷺ يتبعه ببصره حتى خفي عنه، عجباً من حرصه، فما قام رسول الله ﷺ وثَمَّ منها درهم»(١).

وأيضاً يعطكم خيراً مما أُخِذ منكم معنوياً من السعادة والطمأنينة وانشراح الصدر بالإيمان في الدنيا وأيضاً في الآخرة مع الأجر العظيم.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: ويغفر لكم ذنوبكم من الشرك وما دونه؛ لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله كما قال ﷺ لعمرو بن العاص ـ رضي الله عنه: «**أما علمت أن الإسلام يجب ما قبله، وأن التوبة تَجبُّ ما قبلها**»(٢).

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذه الجملة توكيد وتقرير لمضمون ما قبلها.

أي: والله ذو مغفرة واسعة، وذو رحمة واسعة عامة وخاصة.

قوله ـ تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟﴾ أي: وإن ينووا ـ يعني الأسرى.

﴿خِيَانَتَكَ﴾ أي: الغدر بك بنقض العهد الذي أعطوه بأن لا يعودوا إلى قتال المسلمين، وفيما يُظهر بعضهم من الإسلام والنصح للمسلمين، أو بمنع ما ضمنوا من الفداء.

﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بكفرهم بالله وعدم قيامهم بالأمانة التي حملوها، وهي الإيمان

---

(١) أخرجه البيهقي فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٣٧-٣٨)، وأخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في الجزية ـ ما أقطع النبي ﷺ من مال البحرين (٣١٦٥).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢١) ـ من حديث عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه.

بالله، وأداء حقه، وأذية رسول الله ﷺ والمؤمنين.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بدر، وفي هذا ما فيه من ذمهم وتوقع الخيانة منهم.
﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: فأمكنك والمؤمنين منهم في بدر، وأظفركم بهم قتلاً وأسراً.

وفي هذا تحذير لهم من الخيانة، وتهديد لهم إن خانوا، كما أن فيه طمأنة من الله ـ عز وجل ـ لرسوله ﷺ والمؤمنين بتمكينهم منهم مرة أخرى، إن هم خانوا.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: والله ذو علم واسع وسع كل شيء؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨]، ومن ذلك علمه ـ عز وجل ـ بما في قلوب الأسرى من خير وصدق، أو إضمار للخيانة والغدر وغير ذلك.

﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكم تام، وحكمة بالغة في مجازاة كلٍ بعمله، وفي كل ما شرع وقدر.

وبعلمه ـ عز وجل ـ الواسع، وحكمه التام، وحكمته البالغة شرع هذه الأحكام الجليلة في شأن الأسرى، وغيرها.

الفوائد والأحكام:

١- عتاب الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ والمؤمنين في استبقاء الأسرى، وأخذ الفداء منهم دون قتلهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾.

٢- في عتاب الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ في شأن الأسرى رد على من يزعمون أنه ﷺ تقوّل القرآن وافتراه من عند نفسه، كما قال ـ تعالى ـ عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الطور: ٣٣]، وقال ـ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [يونس: ٣٨، هود: ١٣، ٣٥، السجدة: ٣. الأحقاف: ٨]، ومثل هذا العتاب ما جاء في قوله ـ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾﴾ [عبس: ١، ٢]، كما أن في الآيتين أيضاً دلالة على أن الأنبياء ليسوا بمعصومين من الوقوع في الصغائر، لكنهم لا يُقَرّون عليها وسرعان ما يرجعون عنها ويتوبون(١).

---

(١) انظر: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٤/ ٣١٩).

٣- نفي الله ـ عز وجل ـ أن يكون لنبي أسرى فيما شرعه الله له حتى يثخن في الأرض قتلاً، وتقوى شوكة الحق وأهله، وتنكسر شوكة الباطل وأهله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ وهو نفي وخبر بمعنى النهي، أي: ما ينبغي لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض.

٤- اهتداء النبي ﷺ واقتداؤه وكل نبي بمن قبله، كما قال ـ تعالى: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٥- إذا تم للنبي ﷺ وأتباعه الإثخان في الأرض جاز لهم استبقاء الأسرى ومفاداتهم؛ لمفهوم قوله ـ تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾. والإمام مخير فيهم إن شاء قتلهم وإن شاء منَّ عليهم، وإن شاء فاداهم؛ كما قال ـ تعالى ـ في سورة محمد: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ﴾ [الآية: ٤].

٦- مشروعية الجهاد في الرسالات السابقة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ﴾.

٧- إرادة المؤمنين باستبقاء الأسرى عرض الدنيا، وهو ما يؤخذ منهم من الفداء؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾.

٨- إثبات الإرادة للإنسان والاختيار، وأنه ليس مجبوراً على ما يقول ويفعل، كما يزعمه الجبرية.

٩- التعريض بحقارة الدنيا وما فيها من المال والمتاع؛ لأن كل ذلك يعرض ويزول سريعاً؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾.

١٠- إثبات الإرادة الشرعية لله ـ عز وجل ـ التي بمعنى المحبة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ ﴾.

١١- ينبغي للمؤمنين الإخلاص لله ـ عز وجل ـ في قتالهم وجميع أعمالهم، رجاء ما عنده من الأجر العظيم والنعيم المقيم في جنات النعيم في الدار الآخرة، كما أراد الله ذلك، وأحبه لهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ ﴾.

١٢- إثبات صفة العزة التامة لله ـ عز وجل، والحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله ـ عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

١٣- في اجتماع صفة العزة التامة والحكم التام، والحكمة البالغة في حقه ـ عز وجل ـ زيادة كماله سبحانه إلى كمال.

١٤- التحذير للمؤمنين من مخالفة أمر الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

١٥- أنه سبق في علم الله ـ عز وجل ـ وفيما كتبه وقضاه في اللوح المحفوظ أنه سيحل الغنائم لهذه الأمة، كما سبق في حكمه وقضائه أنه لا يعاقب أحداً قبل إقامة الحجة عليه، وأنه غفر لأهل بدر ـ رضي الله عنهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

١٦- ليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب أو حسب؛ لهذا عاتب رسوله ﷺ والمؤمنين، وبين تعرضهم للعذاب العظيم، فقال ـ تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

١٧- إباحة الغنائم لهذه الأمة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ وهذا مما خصّت به وفضلت هذه الأمة. والأمر بعد الحظر يدل على الإباحة.

١٨- تأكيد حل الغنائم لهذه الأمة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أي: لا شائبة فيه بوجه من الوجوه.

١٩- وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه وترك ما حرمه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٢٠- إثبات صفة المغفرة والرحمة الواسعتين لله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وتأكيد ذلك بقوله ـ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢١- نداء الله ـ عز وجل ـ وخطابه لنبيه محمد ﷺ باسم النبوة تشريفاً وتكريماً له، وعناية واهتماماً بما بعد هذا النداء، لقوله ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾.

٢٢- ترغيب هؤلاء الأسرى بالخير والإيمان بوعدهم إن آمنوا بإيتائهم خيراً مما أخذ

منهم من الفداء، في الدنيا والآخرة، والمغفرة لهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾.

٢٣- فضل الله ـ عز وجل ـ وتوبته، ومغفرته ورحمته حيث دعا هؤلاء الأسرى ورغبهم بالخير والإيمان ووعدهم بتعويضهم خيراً مما أخذ منهم، مع ما كانوا عليه من الكفر والصد عن دين الله وقتال المؤمنين؛ لأنه ـ عز وجل ـ لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولهذا تاب على من تاب منهم كالعباس ـ رضي الله عنه.

٢٤- علم الله ـ عز وجل ـ بما تنطوي عليه القلوب، وتخفيه الصدور، من الإيمان وضده؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾.

٢٥- أن الخير في الإيمان لما يترتب عليه من الخير في الدنيا والآخرة ومغفرة الذنوب.

٢٦- ثبوت أخذ المؤمنين الفداء من أسرى بدر؛ لقوله ـ تعالى: ﴿مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾.

٢٧- تحذير وتهديد الأسرى وغيرهم من خيانته ﷺ بنقض العهد الذي أعطوه بأن لا يعودوا إلى قتال المسلمين، وبما يُظهر بعضهم من الإيمان والنصح للمسلمين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾.

٢٨- أن الكفر خيانة لله ـ عز وجل ـ والكفار ممن خانوا الله ـ عز وجل؛ لأنهم لم يقوموا بالأمانة التي حملوها وهي الإيمان بالله والقيام بحقه ـ عز وجل.

٢٩- طمأنة الرسول ﷺ بتمكينه من الأسرى وغيرهم من الكفار مرة أخرى إن هم أرادوا خيانته؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ أي: في بدر.

٣٠- إثبات صفة العلم الواسع لله ـ عز وجل، والحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله ـ عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٣١- في اقتران العلم الواسع والحكم التام والحكمة البالغة واجتماعها في حقه ـ عز وجل ـ زيادة كماله إلى كمال.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٞ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٧٢-٧٥].

ختم الله ـ عز وجل ـ هذه السورة العظيمة بإثبات الموالاة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار دون من لم يهاجروا، وبيان أن الكفار بعضهم أولياء بعض.

قوله ـ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: إن الذين صدّقوا بقلوبهم وألسنتهم بالله وشرعه وبكل ما يجب الإيمان به، وانقادوا لذلك بجوارحهم.

﴿ وَهَاجَرُواْ ﴾ أي: وهاجروا من مكة إلى المدينة فراراً بدينهم، فتركوا ديارهم وأولادهم وعشيرتهم وأموالهم.

والهجرة في اللغة: الترك، وشرعاً الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

وكانت سنة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فقد هاجر إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات: ٩٩]، وهاجر لوط ـ عليه السلام ـ وقال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وهاجر موسى ـ عليه السلام، وهاجر محمد ﷺ، وهاجر المسلمون بإذنه إلى الحبشة، ثم إلى المدينة.

﴿ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: وبذلوا جهدهم وطاقتهم بأموالهم وأنفسهم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: في القتال لإعلاء كلمة الله ـ عز وجل؛ كما قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العُليا فهو في سبيل الله**»[1].

---

(١) سبق تخريجه.

وقدم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس لأهمية الجهاد بالمال؛ لأن عليه قيام الجهاد بالنفس؛ فإعداد العدة من السلاح والمراكب والطعام والأثاث كل ذلك وغيره مما يحتاجه المجاهدون في سبيل الله، ولا يحصل ذلك إلا بالمال.

ولأهمية الجهاد بالمال يقدم القرآن الكريم ـ غالباً ـ الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾.

ذكر الله ـ عز وجل ـ المهاجرين أولاً، وأثنى عليهم، ثم ذكر بعدهم الأنصار وأثنى عليهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾أي: والأنصار الذين آووا الرسول ﷺ وأصحابه المهاجرين وأسكنوهم في منازلهم في المدينة، وواسوهم بأموالهم.

﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾ أي: ونصروا دين الله ورسوله، ولهذا سموا بـ«الأنصار» ـ رضي الله عنهم، قال ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ الإشارة للفريقين المهاجرين والأنصار وأشار إليهم بإشارة البعيد تعظيماً لهم، ورفعة لشأنهم.

أي: فالمؤمنون من المهاجرين والأنصار بعضهم أولى وأحق ببعض من كل أحد، وبعضهم أنصار بعض؛ ولهذا آخى الرسول ﷺ بينهم، والمؤمنون كلهم بعضهم أولياء بعض، كما قال ـ تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

عن جرير بن عبدالله البجلي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة»**(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٣)، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٣٩): «تفرد به أحمد».

وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المهاجرون والأنصار والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة**»[١].

وقد حمل جمع من المفسرين وأهل العلم الولاية هنا على ما يشمل ولاية النصرة والمؤازرة مع الميراث، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «**كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحمه للأُخُوَّة التي آخى النبي ﷺ بينهم**»[٢].

وحمل كثير من المفسرين وأهل العلم الولاية هنا على ولاية النصرة والمعونة والمؤازرة دون الميراث.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ بيَّن ـ عز وجل ـ في الآية السابقة ولاية المؤمنين من المهاجرين والأنصار بعضهم بعضاً، ثم بيَّن أنه لا ولاية بينهم وبين الذين لم يهاجروا.

قوله ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟﴾ أي: ولم يهاجروا من مكة والبوادي إلى المدينة.

﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ قرأ حمزة بكسر الواو «وِلايتهم» وقرأ الباقون بفتحها، والمعنى واحد.

والخطاب في قوله: ﴿مَا لَكُم﴾ لجميع المؤمنين من المهاجرين والأنصار وغيرهم و﴿مَا﴾ نافية.

والمعنى: لا ولاية بينكم وبينهم في شيء، أو لا تتولونهم في شيء ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ أي: إلى غاية أن يهاجروا من أرض الشرك إلى أرض الإسلام، وفي هذا ترغيب في الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام وتأكيد لوجوبها.

عن جرير بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا بريء من أي**

(١) أخرجه أبويعلى في «مسنده» فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٣٩).
(٢) أخرجه البخاري في الحوالات (٢٢٩٢)، وأبوداود في الفرائض (٢٩٢٢).

مسلم يقيم بين أظهر المشركين» قالوا: يا رسول الله، لم؟ قال: «**لا تراءى ناراهما**»(١).

وعن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله**»(٢).

وعن بريدة بن الحصيب ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تَغدروا، ولا تُمَثِّلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فَأَيَّتُهُنَّ ما أجابوك، فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم**»(٣).

والهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام باقية إلى قيام الساعة، قال ﷺ: «**لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها**»(٤).

---

(١) أخرجه أبوداود في الجهاد ـ النهي عن قتل من اعتصم بالسجود (٢٦٤٥)، والنسائي في القسامة (٤٧٨٠)، والترمذي في السير (١٦٠٤).

(٢) أخرجه أبوداود في الجهاد ـ الإقامة بأرض الشرك (٢٧٨٧).

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد ـ تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته لهم بآداب الغزو وغيرها (١٧٣١)، وأبوداود في الجهاد (٢٦١٣)، والترمذي في الديات (١٤٠٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٥٨)، وأحمد (٥/ ٣٥٢).

(٤) أخرجه أبوداود في الجهاد (٢٤٧٩)، والدارمي في السير (٢٥١٣) ـ من حديث معاوية ـ رضي الله عنه.

وأما قوله ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح**»[1] فمعناه لا هجرة من مكة؛ لأنها أصبحت بعد فتحها دار إسلام.

﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: وإن طلبوا منكم النصر على عدوهم لأجل الدين، لرد الفتنة عنهم في دينهم، كما إذا حاول الكفار إرجاعهم عن دينهم.

﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ قدم الخبر للاهتمام به، أي: فيجب عليكم النصر لهم، أو فواجب عليكم نصرهم، انتصاراً لدين الله ـ عز وجل، ولأنهم إخوانكم في الدين، حتى وإن لم يستنصروكم. ومفهوم هذا أنهم إذا استنصروهم لمقصد من المقاصد غير الدين فليس عليهم نصرهم.

﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌۚ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، أي: إلا أن يستنصروكم على قوم بينكم وبينهم ميثاق، أي: عهد مؤكد وهدنة فلا تنصروهم، ولا تخفروا ذمتكم، وتنقضوا عهدكم مع الذين عاهدتم.

عن علي بن طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ﴾ يعني: إن استنصركم الأعراب المسلمون أيها المهاجرون والأنصار على عدوهم فعليكم أن تنصروهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌۚ﴾»[2].

وهذا يدل على عظمة الإسلام واحترامه للعهود والمواثيق حتى مع غير المسلمين، بل حتى مع المحاربين.

فهؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا وطلبوا النصر من المؤمنين المهاجرين والأنصار وغيرهم على قوم بينهم وبينهم ميثاق اجتمع فيه أمران:

الأول: أنهم لم يهاجروا، **والثاني**: أنهم طلبوا النصر على قوم عاهدهم المؤمنون.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٧)، والنسائي في المناسك (٤١٧)، والترمذي في السير (١٥٩٠)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٣) ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٩٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٤٢).

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ «ما» موصولة أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملون، أو بعملكم بصير، أي: مطَّلع وشاهد عليه، عليم به، وإذا كان سبحانه بصيراً مطلعاً على أعمالهم عالماً بها، فسيحاسب ويجازي عليها وفي هذا وعد للمؤمنين، ووعيد للكافرين والعُصاة.

قوله ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾.

بعد ما بيَّن أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض من المهاجرين والأنصار وغيرهم، أتبع ذلك ببيان المقابل وهو أن الكفار بعضهم أولياء بعض.

أي: والذين كفروا على اختلاف مللهم ونحلهم من المشركين والمنافقين واليهود والنصارى وغيرهم بعضهم أنصار وأعوان بعض على الباطل ضد المؤمنين، وليسوا ولا أحد منهم بأولياء للمؤمنين، وبدهي أن يوالي الكفار بعضهم بعضاً وخاصة ضد الإسلام والمسلمين؛ لأن الكفر ملة واحدة، وهم وإن اختلفوا فيما بينهم في بعض الأشياء فإنهم يجتمعون على موالاة بعضهم بعضاً ضد الإسلام والمسلمين.

وهذا مما يوجب على المسلمين الحذر منهم جميعاً، ومن موالاتهم، ومن الاغترار بما يبدونه من موالاة ومحبة ونُصح للمؤمنين ـ كما يزعمون، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٢٠].

كما يؤكد هذا على المسلمين وجوب موالاة بعضهم لبعض دون الكافرين، وأن لا يكون الكفار أحسن حالاً منهم في الموالاة بينهم.

وإن مما يحز في نفس كل مسلم أن يكون الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم أشد موالاة فيما بينهم، من كثير من المسلمين فيما بينهم ـ وهذه والله المصيبة العظمى، والطامة الكبرى ـ فبينما ترى أهل الكفر يتسارعون إلى عقد المعاهدات والمحالفات والاتحادات فيما بينهم، ترى المسلمين ـ وهم الأمة الواحدة ـ موغلين في الاختلاف والتدابر، يكيد بعضهم لبعض، ويتربص بعضهم ببعض الدوائر، بل ويقاتل بعضهم بعضاً، لا تكاد تجمعهم راية، أو توحدهم غاية، ولم يحافظوا ولا على الحد الأدنى من الموالاة والتناصر فيما بينهم. وحل محل ذلك التفرق

والتناحر، كما قال الشاعر:

فتفرقوا شيعاً فكل مدينة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر

ولن يعود للأمة الإسلامية عزها و مجدها وقوتها إلا بالاجتماع على الحق ونبذ الاختلاف والفرقة، وموالاة المسلمين بعضهم بعضاً والبراءة من الكافرين؛ ولهذا قال ـ تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿إِلَّا﴾ أدغمت «إن» الشرطية في «لا» النافية، والضمير في ﴿تَفْعَلُوهُ﴾ يعود إلى مضمون ما ذكر، أي: إلا تفعلوا أو تمتثلوا ما ذكر من موالاة ومناصرة بعضكم بعضاً أيها المؤمنون، وعدم موالاة الكافرين.

﴿تَكُن فِتْنَةٌ﴾ «كان» تامة، ونكّر ﴿فِتْنَةٌ﴾ للتعظيم، أي: تقع وتحصل فتنة عظيمة. والفتنة تكون بالخير والشر؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

والمعنى: تقع وتحصل بسبب موالاة الكافرين، وعدم موالاة المؤمنين فيما بينهم، أو بموالاة المؤمنين والكافرين وعدم التمييز بينهم فتنة عظيمة في الأرض، وبين الناس، بالتباس الأمر، واختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وتعطل الجهاد والهجرة، وكثير من مقاصد الشرع، وضعف المسلمين وتفرقهم وجرأة الكفار عليهم، وربما ارتد بعضهم عن دينه، بسبب قرب العهد بالإسلام، وتأثير المشركين عليهم بكثرتهم وقوتهم، ونحو ذلك.

﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ الفساد: ضد الصلاح، أي: ويقع بسبب ذلك فساد كبير عظيم؛ كما قال ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه؛ إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في النكاح ـ ما جاء في من ترضون دينه (١٠٨٥) ـ من حديث أبي حاتم المزني ـ رضي الله عنه ـ وقال: «هذا حديث حسن غريب». وأخرجه الترمذي أيضاً (١٠٨٤) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

قال ابن كثير[١]: «أي: إن لم تجانبوا المشركين، وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمن بالكافر فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض».

قوله ـ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ ﴾.

بيَّن الله ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة ولاية المؤمنين بعضهم لبعض، من المهاجرين المجاهدين في سبيله والأنصار الذين آووا ونصروا، ثم أتبع ذلك بالثناء عليهم، ومدحهم بصدق الإيمان وتحقيقه، وبيان عظم ما أعد لهم من المغفرة والرزق الكريم في الآخرة.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تعظيماً ورفعة لشأنهم، وأكد هذا الوصف فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم».

و﴿حَقّٗاۚ﴾ مفعول مطلق، أي: فأولئك هم المؤمنون حقيقة، إيماناً حقًّا، الذين صدقوا إيمانهم بفعالهم، فالمهاجرون تركوا أولادهم وأهليهم وقومهم وديارهم وأموالهم، والأنصار آووا إخوانهم المهاجرين وواسوهم وآثروهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، والجميع جاهدوا في سبيل الله ونصروا دين الله، ووالى بعضهم بعضاً في ذات الله.

﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ قدم الخبر ﴿لَّهُم﴾ للتأكيد، ونكَّر ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ للتعظيم، والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة.

﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ الرزق: العطاء، أي: وعطاء وثواب ﴿كَرِيمٞ﴾ أي: كثير واسع طيب حسن دائم.

أي: ولهم عطاء وثواب كثير واسع طيب حسن دائم في الجنة لا نكد فيه، ولا

---

(١) في «تفسيره» (٤/ ٤٢).

كدر؛ كما قال ـ تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨]، وقال ـ تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: ٦].

فجمع لهم ـ عز وجل ـ بين زوال المرهوب بالمغفرة لذنوبهم وسترها والتجاوز عنها، وبين حصول المطلوب بالرزق والعطاء الواسع الكثير الجزيل.

وقدم المغفرة؛ لأن التخلية قبل التحلية.

وقد أثنى الله ـ عز وجل ـ على المهاجرين والأنصار وبين عظم ما أعده لهم، فقال ـ تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال ـ تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧]، وقال ـ تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٨، ٩].

قوله ـ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾.

ذكر الله ـ عز وجل ـ السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وما هم عليهم من الموالاة والمناصرة فيما بينهم، وأثنى عليهم بما هم عليه من حقيقة الإيمان، وما أعد لهم من المغفرة والرزق الكريم، ثم أتبع ذلك ببيان حكم من آمن بعدهم وهاجر وجاهد معهم وأنه منهم له ما لهم وعليه ما عليهم.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ﴾ أي: من بعد المهاجرين الأولين والأنصار ﴿وَهَاجَرُوا﴾ إلى دار الإسلام ﴿وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ في سبيل الله.

﴿فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ دخلت الفاء على الخبر لتضمن الموصول معنى الشرط، أي: فأولئك من جملتكم في حكم الإيمان والهجرة والجهاد، وفي الموالاة، وفي المغفرة والرزق الكريم في الآخرة، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم؛ كما قال ـ

تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

قوله ـ تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾.

لما ذكر ـ عز وجل ـ الموالاة العامة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار ومن بعدهم، وهي الموالاة بالنصرة والمحبة ونحو لذلك أتبع ذلك بذكر الموالاة الخاصة بينهم، وهي الموالاة بين القرابة بالإرث.

قوله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ الواو عاطفة، و﴿أُو۟لُوا۟﴾ بمعنى أصحاب، أي: وأصحاب الأرحام، والأرحام: جمع رحم، وهو في الأصل: موضع تكوّن الجنين. والمراد بالأرحام القرابة، وسُمي القرابة أرحاماً، قيل: لأنهم خرجوا من رحم واحد، وقيل: لأنهم يتراحمون فيما بينهم.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في النصرة والصلة وحسن الصحبة، وفي الميراث، سواء كانوا من ذوي الفروض والعصبات، أو من دونهم من القرابة عند فقد ذوي الفروض والعصبات؛ لأن ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ يشمل جميع القرابة.

﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في مكتوب الله وحكمه في اللوح المحفوظ، وقضائه وشرعه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ قدّم المتعلّق وهو قوله: ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ على المتعلَّق به وهو الخبر ﴿عَلِيمٌ﴾ لتأكيد عموم علمه ـ عز وجل ـ بكل شيء، فعلمه ـ عز وجل ـ محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، قال ـ تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه حقيقة إدراكاً جازماً.

ومن علمه ـ عز وجل ـ أن جعل أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وتقرير الولاية بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار، وإيجابها بين المؤمنين مطلقاً؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾.

٢- أن الإيمان شرط في صحة الهجرة والجهاد، لتقديمه عليهما، وأن الهجرة أفضل من الجهاد، لتقديمها عليه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

٣- فضل المهاجرين على الأنصار لتقديمهم عليهم في الآية، وقد قال ﷺ: «**لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار**»[1].

٤- أهمية الجهاد بالمال وأنه أفضل من الجهاد بالنفس، لتقديم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾.

٥- أن المعتبر من الجهاد ما كان في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

٦- لا ولاية بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار وبين من آمن ولم يهاجر إلى بلاد الإسلام؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ﴾.

٧- وجوب الهجرة من بلد الشرك إلى بلاد الإسلام، وبخاصة إذا كان المسلم ـ في بلاد الشرك ـ لا يستطيع إظهار شعائر دينه؛ لأن الله نفى الولاية بين المؤمنين وبين من آمن ولم يهاجر.

٨- يجب على المؤمنين إذا استنصر بهم في الدين قوم ممن آمنوا ولم يهاجروا أن ينصروهم نصرة لدين الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾ بل قد تجب مناصرتهم وإن لم يطلبوا ذلك.

فإن طلبوا النصر لمقصد من المقاصد غير الدين فليس على المؤمنين نصرتهم؛ لمفهوم الآية.

٩- لا يجوز للمؤمنين نصر من استنصروهم في الدين ممن لم يهاجروا على قوم

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٦١) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

بينهم وبينهم ميثاق؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ وهذا يدل على احترام الإسلام للعهود والمواثيق وإيجابه الوفاء بها.

١٠- علم الله ـ عز وجل ـ واطلاعه التام على جميع أعمال العباد؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وفي هذا وعد لمن آمن وأطاع الله، ووعيد لمن كفر وخالف أمر الله؛ لأن مقتضى علمه ـ عز وجل ـ بأعمال العباد محاسبتهم ومجازاتهم عليها، خيرها وشرها.

١١- موالاة الكفار بعضهم لبعض على اختلاف مللهم ونحلهم ـ وبخاصة ضد الإسلام وأهله ـ ولا عجب في هذا فالكفر ملة واحدة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

١٢- قطع الموالاة بين المؤمنين والكافرين؛ لأن الله جعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض. فلا يجوز مناصرة الكافرين ولا مودتهم، ولا توارث بينهم وبين المؤمنين.

١٣- يجب على المؤمنين عدم الاغترار بما يبديه الكفار من موالاة للمؤمنين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

١٤- تأكيد وجوب موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً، وعدم موالاة الكافرين، والتحذير مما يترتب على مخالفة ذلك من الفتنة في الدين، والفساد الكبير، والشر المستطير؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

١٥- ثناء الله ـ عز وجل ـ على المؤمنين السابقين من المهاجرين والأنصار، وامتداحه لهم، حيث صَدَّقوا إيمانهم بفعالهم، فالمهاجرون بهجرتهم وجهادهم، والأنصار بإيوائهم المهاجرين ونصرة دين الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

١٦- التنويه بعظم ما أعد الله للسابقين من المهاجرين والأنصار من المغفرة والعطاء الواسع الجزيل، الدائم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

١٧- فضل الله ـ عز وجل ـ على الذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا مع السابقين

قبلهم بجعلهم منهم، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾.

١٨- أن القرابة بعضهم أولى ببعض في الميراث في اللوح المحفوظ وفي حكم الله الشرعي؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

١٩- نسخ التوارث بالحلف والمؤاخاة بالإرث بالقرابة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾، ولقوله ـ تعالى ـ في سورة الأحزاب: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ [الأحزاب: ٦]. أي: من الإرث بالهجرة للمؤاخاة التي آخاها الرسول ﷺ بين المهاجرين ـ أول مقدمهم المدينة ـ وبين إخوانهم الأنصار حتى صار الأنصاري يرث المهاجري دون ذوي رحمه[(١)]؛ حتى نسخ ذلك بهاتين الآيتين.

٢٠- توريث ذوي الأرحام كالخال والخالة والعمة ونحوهم إذا فقد أصحاب الفروض والعصبات؛ لعموم قوله ـ تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ ﴾ أي: وأصحاب القرابة، وهذا يشمل جميع القرابة بما فيهم ذوو الأرحام كالخال ونحوه. وفي الحديث: «**الخال وارث من لا وارث له، يرث ماله ويعقله**»[(٢)].

ومن كان من القرابة فهو أولى بميراث قريبه من بيت المال، وينزلون في الميراث منزلة من أدلوا به.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنهم لا يرثون. قالوا: لأنه لم ينص على أنصبائهم، وقد قال ﷺ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر**»[(٣)].

٢١- سعة علم الله ـ عز وجل ـ وشموله لكل شيء؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبوداود في الفرائض ـ ميراث ذوي الأرحام (٢٨٩٩، ٢٩٠٠) ـ من حديث المقدام الكندي ـ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٣٢)، ومسلم في الفرائض (١٦١٥)، وأبوداود في الفرائض (٢٨٩٨)، والترمذي في الفرائض (٢٠٩٨)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٤٠) ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

تفسير آيات الأحكام في سورة التوبة

نزلت سورة التوبة في المدينة، وهي من آخر ما نزل، فعن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: «آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، وآخر سورة نزلت: «براءة»(١).

وتسمى هذه السورة: «سورة براءة»؛ لقوله ـ عز وجل ـ في مطلعها: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾.

كما تسمى: «سورة التوبة»؛ لأنه ذكر فيها توبة الله ـ عز وجل ـ على الثلاثة الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك؛ كما قال ـ تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١١٨﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨]، وأيضاً جاء ذكر التوبة فيها في عدة مواضع؛ كما في الآيات: [٢، ٥، ١١، ٢٧، ٧٤، ١٠٢، ١٠٤، ١١٢].

وذكر لها أسماء رُويت عن بعض السلف من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم، منها: «المقشقشة»، قالوا: لما فيها من الدعوة إلى تحقيق الإخلاص، والبراءة من النفاق والشرك. كما كانت تسمى «سورة الكافرون» بهذا الاسم، لهذا المعنى.

ومنها: «الفاضحة»؛ لأنها فضحت المنافقين بذكر أحوالهم السيئة، وكشف عوارهم.

ومنها: «سورة العذاب»، و«البَحوث»، و«المنقرة»، و«المبعثرة»، و«الحافرة»، و«المخزية» و«المنكِّلة»، و«المشدِّدة»، و«المدمدمة»، و«المثيرة»، و«المشردة».

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة براءة (٤٦٥٤)، ومسلم في الفرائض (١٦١٨)، وأبوداود في الفرائض (٢٨٨٩)، والترمذي في التفسير (٣٠٤١).

ولم تكتب البسملة في مطلعها؛ لأنها لم تنزل مع هذه السورة ـ كما قال القشيري فيما نقله عنه القرطبي(١)، ولو نزلت لحفظت؛ لأن الله تكفَّل بحفظ القرآن كله، فقال ـ تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩].

ونحن نجزم جزماً قاطعاً ـ ولله الحمد ـ أن القرآن الكريم ـ وصل إلينا كاملاً محفوظاً بحفظ الله ـ عز وجل.

أما الحكمة والعلة في عدم نزول البسملة مع هذه السورة فقد قيل فيها عدة أقوال لا دليل عليها ـ والله أعلم.

عن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ قال: «فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ حتى خاتمة براءة»(٢).

قال الله ـ تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة: ١-٥].

قوله ـ تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ مبتدأ، خبره الجار والمجرور بعده، أي: براءة صادرة من الله ورسوله، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذه براءة

---

(١) انظر: «جامع الأحكام» (٨/ ٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في «فضائل القرآن» (٤٩٨٦)، والترمذي في «التفسير» (٣١٠٣).

من الله ورسوله، والبراءة: التبرؤ من الشيء.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: إلى الذين عاهدتم أيها المسلمون من المشركين، بفسخ عهودهم ونقضها، وإبلاغ المسلمين بذلك؛ ليتبرؤوا منهم، كما تبرَّأ الله ورسوله منهم، وإبلاغ المشركين بذلك ليأخذوا حذرهم.

والمراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من كان بينهم وبين المؤمنين عهد أمان مطلق غير مقيَّد بمدة معينة، وكذا مَن كان لهم عهد مقيَّد بما دون أربعة أشهر.

أما من كان لهم عهد أكثر من أربعة أشهر فيتم لهم عهدهم إلى مدته؛ كما قال ـ تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤]، وقال ـ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾ [التوبة: ٧].

﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ الفاء للتفريع، والسياحة في الأرض: السير والسفر والذهاب فيها.

أي: فسيروا في الأرض، واذهبوا فيها حيث شئتم بعد هذه البراءة آمنين من القتل والقتال.

﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ وهذا لمن كان لهم عهد مطلق، وكذا من كان عهدهم دون أربعة أشهر يكمل لهم أربعة أشهر.

وهذه الأشهر تسمى أشهر السياحة والتسيير، تبدأ من اليوم العاشر من ذي الحجة سنة تسع من الهجرة، حيث بعث النبي ﷺ عليًّا مع أبي بكر ـ رضي الله عنهما؛ ليبلغ الناس بهذه الآيات، وتنتهي بعشر يخلون من ربيع الآخر. فهذه أربعة أشهر، ثم لا عهد لهم بعد ذلك.

ولعلَّ من الحكمة في إنظارهم وتأمينهم من القتل وغيره هذه الأشهر الأربعة؛ ليتفكروا ويراجعوا أنفسهم، وليعلموا قوة المسلمين ـ إذ لم يخشوا استعدادهم لهم.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَسِيحُوا۟﴾ وصُدر هذا الخبر بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ للتحذير والاهتمام.

ومعنى ﴿غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي: غير فائتين بأنفسكم ومفلتين من عذاب الله، وقدرته وحكمه، بل أنتم في قبضته وسلطانه حيث كنتم، وأين ذهبتم في الأرض.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: واعلموا أن الله مذل الكافرين ومهينهم في القتل والأسر وغير ذلك في الدنيا، وفي الآخرة بعذاب النار.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ أنزل الله ـ عز وجل ـ براءته ورسوله من المشركين المعاهدين وأعلمهم بذلك، وأنظرهم أربعة أشهر، ثم أمر بإعلام الناس جميعاً يوم الحج الأكبر ببراءته ـ عز وجل ـ من المشركين ورسوله، إعذاراً منه للمسلمين، وإنذاراً للمشركين.

قوله ـ تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ معطوف على قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ وفيه إطناب وإظهار في مقام الإضمار، فلم يقل: وأذان بذلك؛ لأن المقام يقتضي الإيضاح والبيان.

والأذان: الإيذان والإعلام، أي: وإعلام من الله ورسوله إلى الناس جميعاً، المؤمن والكافر المعاهد وغيره، من نكث من المعاهدين ومن لم ينكث، من شهد منهم موسم الحج ذلك العام ومن لم يشهده.

ففي قوله: ﴿بَرَآءَةٌ﴾ الآية إخبار بثبوت البراءة، وفي قوله: ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ الآية إخبار بوجوب الإعلام بالبراءة.

و﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ هو يوم النحر، كما دلَّت على ذلك الأحاديث في بعثه ﷺ أبا بكر وعلياً ـ رضي الله عنهما.

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «بعثني أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ في الحجة التي أمَّره رسول الله ﷺ عليها قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر: ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»[1]. قال الزهري: فكان حميد

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٦٢٢)، ومسلم في الحج (١٣٤٧)، وأبوداود في المناسك (١٩٤٦)، والنسائي في الحج (٢٩٥٧).

يقول: يوم النحر يوم الحج الأكبر، لأجل حديث أبي هريرة[١].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بعثني أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ في تلك الحجة في المؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب، فأمره أن يؤذن ببراءة.

قال أبوهريرة: فأذَّن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»[٢].

وفي رواية بعد قوله: «ولا يطوف بالبيت عريان ـ قال: ويوم الحج الأكبر يوم النحر. وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس: «الحج الأصغر»، فنبذ أبوبكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه النبي ﷺ مشرك»[٣].

وعن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: لما كان ذلك اليوم، قعد رسول الله ﷺ على بعير له، وأخذ الناس بخطامه أو زمامه، فقال: «**أي يوم هذا**»؟ قال: فسكت حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال: «**أليس هذا يوم الحج الأكبر**»[٤].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ «أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال: «**أي يوم هذا**»؟ قالوا: يوم النحر. قال: «**هذا يوم الحج الأكبر**»[٥].

وهذا قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين، وأهل العلم بعدهم أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر؛ لهذه الأحاديث وغيرها[٦]؛ ولأنه اليوم الذي تقضى فيه جل

(١) ذكره النووي في شرحه لهذا الحديث.
(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٦٩).
(٣) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٧٧).
(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣٣٣).
(٥) أخرجه أبوداود في المناسك (١٩٤٥)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٥٨)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٦٤٨)، وأخرجه البخاري معلقاً في الحج (١٧٤٢).
(٦) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٥٩٤-٥٩٥).

أعمال الحج، من رمي جمرة العقبة ونحر الهدي والحلق والطواف، وهو يوم العيد.

وقيل: يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة؛ لقوله ﷺ: «**الحج عرفة**»[(١)]؛ ولأن الناس يجتمعون فيه في صعيد واحد.

وهو مروي عن جمع من السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: أنه لا عهد بين الله وبين المشركين، بل قد انتقض عهدهم وانفسخ.

﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ معطوف على لفظ الجلالة، أي: وأن رسوله بريء من المشركين لا عهد بينه وبينهم؛ لأن العهد بينهم وبين الرسول هو عهد بينهم وبين الله؛ كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: ١٠].

والمعنى: إعلام من الله ورسوله إلى جميع الناس مؤمنهم وكافرهم ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ ببراءته ـ عز وجل ـ ورسوله من المشركين.

وأن عهدهم قد انتقض وانفسخ، فلا عهد بين الله ورسوله وبينهم.

﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ الفاء للتفريع، والخطاب للمشركين الذين آذنهم الله ببراءته ورسوله منهم.

أي: فإن رجعتم عما أنتم عليه من الشرك إلى الإيمان وإخلاص العبادة لله.

والتوبة: الرجوع من الكفر والشرك إلى الإيمان والتوحيد، ومن الضلال إلى الهدى، ومن المعصية إلى الطاعة.

وشروطها خمسة: الإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم العود إليها، وأن تكون خالصة لله ـ عز وجل ـ وأن تكون في وقتها المناسب، قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ أي: فهو خير لكم خيرية مطلقة في دينكم ودنياكم

---

(١) أخرجه أبوداود في المناسك (١٩٤٩)، والنسائي في مناسك الحج (٣٠٤٤)، والترمذي في الحج (٨٨٩)، وابن ماجه في المناسك (٣٠١٥) ـ من حديث عبدالرحمن بن يعمر ـ رضي الله عنه.

وأخراكم؛ وذلك لما في التوبة والإيمان من السعادة في الدنيا والآخرة، مع مغفرة الذنوب؛ كما قال ﷺ لعمرو بن العاص ـ رضي الله عنه: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله**»(١).

﴿ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي: أعرضتم عن التوبة والإيمان بقلوبكم وأبدانكم، وأقمتم على ما أنتم عليه من الكفر والشرك والضلال.

﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ﴾ تحذير وتهديد لهم، أي: فاعلموا أنكم غير فائتين ولا مفلتين من قدرة الله ـ عز وجل ـ وأخذه وعقابه.

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ البشارة في الأصل: الإخبار بما يَسر ويُفرح، مأخوذة من البشرة؛ لأن الإنسان إذا سمع خبراً سارًّا ظهر أثر ذلك على وجهه وبشرته، بحيث يستنير وجهه وتتسع بشرته؛ كما قال كعب بن مالك رضي الله عنه: «وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»(٢).

وليس المراد بالبشارة في الآية الإخبار بما يسر، وإنما المراد بها ضد ذلك وهو الإخبار بما يسوء، وهو العذاب الأليم، على طريق التهكم بالكفار والسخرية بهم، والتهديد والوعيد لهم؛ كما قال ـ تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾ [النساء: ١٣٨].

و﴿ أَلِيمٍ ﴾ على وزن «فعيل» بمعنى «مفعل»، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، في الدنيا بالقتل والأسر وغنم الأموال؛ كما قال ـ تعالى ـ في غزوة حنين: ﴿ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [التوبة: ٢٦]، أي: عذبهم بالقتل والأسر وأخذ أموالهم ـ وهذا ما حصل لهم في حنين.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢١) ـ من حديث عمرو ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩) ـ من حديث كعب بن مالك ـ رضي الله عنه.

أيضاً وبشرهم بعذاب أليم في الآخرة بالنار وبئس القرار.

وقد تم إيذان الناس وإعلامهم ببراءة الله ـ عز وجل ـ ورسوله من المشركين يوم النحر في الحجة التي حجها أبوبكر بالناس سنة تسع من الهجرة، حيث بعث رسول الله ﷺ مع أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ علي بن أبي طالب وأبا هريرة رضي الله عنهما في رهط يؤذنون في الناس ببراءة الله ـ عز وجل ـ ورسوله من المشركين، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فآذنوا الناس بذلك، وقرأ علي رضي الله عنه هذه الآيات على الناس ـ كما سبق في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

وفي رواية عن محرّر بن أبي هريرة عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «كنت مع علي ـ رضي الله عنه ـ حين بعثه النبي ﷺ ينادي، فكان إذا صحل صوته[١] ناديت. قلت: بأي شيء كنتم تنادون؟ قال: بأربع: لا يطوف بالكعبة عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك»[٢].

وفي بعض روايات حديث أبي هريرة: «من كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فأجله إلى أربعة أشهر»[٣].

وهذا ـ إن صح ـ محمول على مَن كان له عهد مطلق، أو مَن كان عهده دون أربعة أشهر ـ كما تقدم في تفسير الآية ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ويدل على هذا ما جاء في حديث زيد بن يثيع ـ رجل من همدان ـ قال: سألنا عليًّا: بأي شيء بُعِثت؟ يعني يوم بعثه النبي ﷺ ـ مع أبي بكر في حجة الوداع ـ قال: «بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ

(١) صحل صوته: أي: بح صوته. انظر: «اللسان» مادة «صحل».

(٢) أخرجها الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣١٣)، والنسائي في «الكبرى» (١١٢١٤)، وابن حبان (٣٨٢٠)، والحاكم (٢/ ٣٣١).

(٣) أخرجها الطبري (١١/ ٣١٤)، وأحمد بنحوه (٢/ ٢٩٩).

عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا»[١].

قوله ـ تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

﴿ إِلَّا ﴾ أداة استثناء، و﴿ٱلَّذِينَ ﴾ في محل نصب على الاستثناء المتصل من قوله ـ تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي: إلا الذين عاهدتم منهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ ﴾.

ويحتمل كون الاستثناء منقطعاً، أي: لكن الذين عاهدتم من المشركين فحكمهم كذا وكذا.

﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا ﴾ أي: ثم لم ينقصوكم شيئاً مما عاهدوكم عليه، أي: لم يخلوا بشيء من شروط العهد، والعطف بـ«ثم» يدل على ثباتهم على عهدهم مع تمادي المدة، و﴿ شَيْـًٔا ﴾ نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي: لم ينقصوكم أي شيء مهما قلّ مما عاهدوكم عليه.

﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾ المظاهرة: المعاونة، أي: ولم يعاونوا عليكم أحداً من أعدائكم، برجال، أو سلاح، أو برأي ومشورة، أو غير ذلك.

﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ أي: فأوفوا لهم بعهدهم، وأكملوه إلى نهاية مدتهم حسب ما عاهدتموهم عليه، وإن طال ذلك؛ كما قال ـ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٧].

وفي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه: «ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته»[٢].

وهذا يدل على سمو مبادئ الإسلام واحترامه للعهود والمواثيق ـ حتى مع غير المسلمين.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٧٩)، والترمذي في تفسير سورة التوبة (٥٠٨٧)، والطبري (١١/ ٣١٤-٣١٥) ـ وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) سبق تخريجه.

ومفهوم الآية أنهم إن أخلُّوا بالشرطين، بأن نقصوا المسلمين شيئاً، وظاهروا عليهم أحداً، أو أخلُّوا بأحد الشرطين، لم يجب إتمام عهدهم إليهم، بل يجب قتالهم؛ كما قال ـ تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التوبة: ١٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ في ختام الآية بهذه الجملة تأكيد على الوفاء بالعهد وأن ذلك من تقوى الله ـ عز وجل ـ وترغيب في تقوى الله عموماً؛ لأن الله يحب المتقين، أي: إن الله يحب المتقين له ـ سبحانه ـ بفعل أوامره واجتناب نواهيه، من الوفاء بالعهود، وعدم نقضها، وغير ذلك.

وفي الآية إثبات المحبة لله ـ عز وجل ـ على ما يليق بجلاله وعظمته، ومفهوم ذلك نفي محبته عن غير المتقين.

قوله ـ تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [التوبة: ٥].

هذه الآية تسمى آية السيف.

بيَّن الله ـ عز وجل ـ في مطلع هذه السورة براءته ورسوله ممن عوهد من المشركين، سواء كان عهدهم مطلقاً أو مقيداً بأقل من أربعة أشهر، وأجَّلهم جميعاً أربعة أشهر يسيحون فيها في الأرض حيث شاؤوا ـ ثم أمر المؤمنين إذا انتهت هذه الأشهر التي أمهلوا فيها ـ بقتالهم حيث وجدوهم وأخذهم وحصرهم، والقعود لهم كل مرصد.

قوله: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ الفاء للتفريع على قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أو استئنافية.

أي: فإذا انقضت الأشهر الحرم وخرجت، قال ـ تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يس: ٣٧]. أي: نخرج منه النهار، يقال: سلخت الشهر،

أي: خرجت منه، قال الشاعر:

إذا ما سلخت الشهر أهللت مثله كفى قاتلاً سلخي الشهور وإهلالي[(١)]

و﴿ٱلۡأَشۡهُرُ﴾ جمع شهر، و«ال» فيها للعهد الذكري، أي: الأشهر المذكورة قبل في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ [التوبة: ٢]. و﴿ٱلۡحُرُمُ﴾ جمع حرام.

والمراد بالأشهر الحرم أشهر السياحة والتسيير المذكورة في قوله ـ تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ تبدأ من يوم النحر العاشر من ذي الحجة سنة تسع من الهجرة ـ حيث أعلم الناس جميعاً في موسم حج هذه السنة ببراءة الله ورسوله من المشركين، وتنتهي بعشر يخلون من ربيع الآخر.

وهذا ما يدل عليه السياق، فإن عود العهد إلى مذكور، أولى من عوده إلى مقدر، وأيضاً فإن الأشهر الحرم المعروفة سيأتي حكمها في آية أخرى في هذه السورة.

وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية، وبه قال أكثر السلف وأهل العلم من المفسرين وغيرهم.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالأشهر الحرم في الآية هي الأشهر الحرم المعروفة المذكورة في قوله ـ تعالى: ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞ﴾ [التوبة: ٣٦]، وهي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب. فيكون المراد ما بقي منها وهو خمسون يوماً من يوم النحر إلى نهاية المحرم. لكن السياق لا يساعد على هذا.

ومعلوم أن القتال في الأشهر الحرم لا يجوز ابتداءً على الصحيح من أقوال أهل العلم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقوله ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]، ولكونه ﷺ إذا دخل الأشهر الحرم كفَّ عن القتال.

﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ جواب الشرط «إذا» أي: فإذا انسلخت

---

(١) البيت في «لسان العرب» مادة «سلخ» بلا نسبة.

الأشهر الحرم وانقضت فاقتلوا المشركين بأي مكان وجدتموهم من الأرض وظفرتم بهم، ويخص من هذا القتال ابتداءً في الحرم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١].

﴿وَخُذُوهُمْ﴾ الأخذ: الأسر، أي: وأْسروهم.

﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ الحصر: المنع والتضييق، أي: حاصروهم في معاقلهم وحصونهم، وامنعوهم من التوسُّع في الأرض، وضيِّقوا عليهم.

﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ ﴿كُلَّ﴾ مفعول به منصوب بـ﴿وَٱقْعُدُوا۟﴾ بتضمينه معنى «الزموا»، كما في قوله ـ تعالى ـ حكاية عن الشيطان أنه قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦].

ويجوز نصب ﴿كُلَّ﴾ بنزع الخافض، أي: واقعدوا لهم في كل مرصد.

والمراد بالقعود في الآية: المرابطة والملازمة للترصُّد لهم.

﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ المرصد: مكان الرصد والترقب، قال عامر بن الطفيل:

ولقد علمت وما إخالك ناسياً … أن المنية للفتى بالمرصد

وقال عدي:

أعاذل إن الجهل من لذة الفتى … وإن المنايا للنفوس بمرصد

والمعنى: وترصدوا للمشركين في كل طريق ومسلك وممر، ورابطوا في جهادهم حتى تضيقوا الخناق عليهم.

قوله ـ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾.

أمر الله ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة بإعلان البراءة من المشركين، وأمر بقتلهم حيث وجدوا وأخذهم وحصرهم والترصد لهم، ثم أتبع ذلك بقوله ـ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ الآية؛ ترغيباً لهم في التوبة وحثًّا لهم عليها، ولبيان أنه ليس المقصود في القتال مجرد القتل وإنما المراد هداية الناس إلى دين الله ـ تعالى.

قوله: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ أي: رجعوا عما هم عليه من الشرك، و الصد عن دين الله،

ودخلوا في الإسلام.

﴿وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَوٰةَ﴾ فجمعوا بين الإيمان والإسلام، وبين الإيمان والعمل، ظاهراً وباطناً.

﴿وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ﴾ أي: وأقاموا الصلاة إقامة تامة، بشروطها وأركانها وواجباتها وسُننها.

والصلاة في اللغة الدعاء، قال ـ تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

أي: ادع لهم.

وفي حديث أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة، فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «**نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما**» الحديث(١).

قال الشاعر:

تقول بنتي وقد قرّبتُ مرتحلاً ... يا رب جنِّب أبي الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صليت فاغتمضي ... نوماً فإن لجنب المرء مضطجعا(٢)

أي: عليك مثل الذي دعوتِ.

والصلاة في الشرع: التعبُّد لله ـ عز وجل ـ بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

وخص الصلاة بالذكر من بين العبادات البدنية، وقدَّمها في الذكر على جميع العبادات؛ لأنها أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي عمود الإسلام، وقاعدته العريضة التي يدور عليها رحاه، فبإقامتها ـ بعد الشهادتين ـ يدخل المرء في عداد

(١) أخرجه أبوداود في الأدب (٥١٤٢)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٦٤).
(٢) البيتان للأعشى، انظر «ديوانه» ص(١٥١).

المسلمين، وبإقامتها والمحافظة عليها كما شرع الله يصلح أمر الدنيا والدين، ويسعد الإنسان في الدارين.

﴿ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي: وأعطوا الزكاة الواجبة في أموالهم لمستحقيها وهم الأصناف الثمانية.

والزكاة في اللغة: النماء والزيادة، يقال: زكا الزرع إذا نما وزاد، وسميت الزكاة بهذا الاسم؛ لأنها تزكي المال وتزيده، وتزكي نفس الغني من الشح و البخل، وتزكي نفس الفقير من الحقد والضغينة على إخوانه الأغنياء، ومن السعي لطلب الرزق بالطرق المحرمة كالسرقة والبغاء ونحو ذلك.

والزكاة في الشرع: حق مالي واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة في زمن مخصوص.

وخصَّ الزكاة بالذكر من بين العبادات المالية؛ لأنها أعظم العبادات المالية، وقرنها بالصلاة في اثنين وثمانين موضعاً؛ لأنهما أعظم العبادات، ففي الصلاة الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله. وأداؤهما أعظم دليل على صدق التوبة والإيمان.

﴿ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ ﴾ أي: اتركوهم ولا تتعرضوا لهم بسوء؛ لأنهم بتوبتهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة دخلوا في الإسلام فعُصِمَت دماؤهم وأموالهم؛ كما قال ـ تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِۗ ﴾ [التوبة: ١١].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله ـ عز وجل**»[١].

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ـ ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (٢٥)، ومسلم في الإيمان ـ الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: «لا إله إلا الله» (٢٢).

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها وصلوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا، وذبحوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**».

وفي رواية: «**من شهد أن لا إله إلا الله، واستقبل قبلتنا، وصلى صلاتنا؛ وأكل ذبيحتنا فهو المسلم، له ما للمسلم، وعليه ما على المسلم**»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: إن الله ذو مغفرة واسعة لذنوب عباده يستر الذنب ويتجاوز عن العقوبة، وذو رحمة واسعة، رحمة ذاتية ثابتة له ـ عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها مَن شاء مِن خلقه، رحمة خاصة بالمؤمنين، ورحمة عامة لجميع الخلق.

ومن مغفرته ـ عز وجل ـ ورحمته: التوبة على من تاب إليه من المشركين وآمن، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، ومغفرة ما سلف منهم من الكفر والغدر، وعصمة دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

الفوائد والأحكام:

١- عدم مشروعية البسملة عند قراءة مطلع سورة التوبة؛ لأنها لم تكتب في مطلع هذه السورة، وذلك لأنها لم تنزل مع هذه السورة، ولو نزلت لحفظت؛ لأن الله تكفَّل بحفظ القرآن كله، فقال ـ تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ⑨﴾ [الحجر: ٩].

٢- براءة الله ـ عز وجل ـ ورسوله من المشركين المعاهدين ممن بينهم وبين المؤمنين عهود مطلقة، أو مقيدة دون أربعة أشهر ـ وإمهالهم جميعاً أربعة أشهر يسيحون فيها في الأرض حيث شاؤوا آمنين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ① فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

٣- أن من برئ الله منه فقد برئ منه الرسول، ومن برئ منه الرسول فالله منه بريء؛

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ـ فضل استقبال القبلة (٣٩٣)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٤١)، والنسائي في تحريم الدم (٣٩٦٦)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٨).

لقوله ـ تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ بالعطف والواو التي تقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه.

٤- إعلام المشركين بقدرة الله ـ عز وجل ـ التامة عليهم وأنهم غير معجزيه فهم تحت قهره وسلطانه، ولن يفوتوه أو يفلتوا من عقابه، تحذيراً وتهديداً لهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾.

٥- الوعيد والتهديد للكافرين بالخزي والذل والهوان في الدنيا والآخرة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٦- الإعلام من الله ورسوله إلى الناس جميعاً يوم الحج الأكبر ببراءته ـ عز وجل ـ ورسوله ﷺ من المشركين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾.

٧- وجوب براءة المؤمنين من المشركين؛ لبراءة الله ورسوله منهم.

٨- أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر، لإيذان علي وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ الناس بهذه البراءة في هذا اليوم في رهط بعثهم النبي ﷺ مع أبي بكر في حجته بالناس سنة تسع من الهجرة.

٩- وضوح الإسلام في أحكامه وتعامله حتى مع غير المسلمين، ومع الأعداء؛ لأن الله ـ عز وجل ـ أمر بإعلان براءته ورسوله من المشركين، وإمهال من كان منهم له عهد مطلق أو مقيد بما دون أربعة أشهر إلى أربعة أشهر.

١٠- ذم الشرك وأهله؛ لأن الله أعلن براءته ورسوله من المشركين.

١١- قبول التوبة من المشركين، وترغيبهم فيها، وبيان أنها خير لهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وفي هذا دلالة على سعة رحمة الله ـ عز وجل ـ ومغفرته، و محبته للتوبة، وأنه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب إليه، ولو كان أعظم الذنوب وهو الشرك بالله.

١٢- فضل التوبة وأنها تهدم ما كان قبلها من الذنوب حتى الشرك.

١٣- تحذير المشركين من التولي والإعراض والاستمرار على ما هم عليه من

الشرك، وإعلامهم بتمام قدرة الله عليهم، وأنهم لن يعجزوه أو يفوتوا ويفلتوا من قبضته وقهره؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾.

١٤- إخبار الذين كفروا بالعذاب الأليم حسيًّا للأبدان ومعنويًّا للقلوب، وبشارتهم بذلك على سبيل التهكم والسخرية بهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

١٥- وجوب إتمام عهد من كان بينهم وبين المؤمنين عهد مؤقت من المشركين والوفاء لهم بذلك، ما لم ينقصوا المؤمنين شيئاً مما عاهدوهم عليه أو يظاهروا أحداً على المؤمنين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾.

١٦- إذا نقص المشركون شيئاً مما عاهدوا المؤمنين عليه، أو ظاهروا على المؤمنين أحداً من الكفار جاز للمؤمنين نقض عهدهم معاملة لهم بالمثل؛ لمفهوم قوله ـ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾.

وفي هذا ما يدل على أن المشركين الذين تبرأ الله منهم ورسوله، وأجَّلهم أربعة أشهر ، وأمر ـ عز وجل ـ بإعلام الناس ببراءته ورسوله منهم أنه قد حصل منهم نقض لما بينهم وبين المؤمنين من عهود. كما قال ـ تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة: ١٢].

١٧- سمو مبادئ الدين الإسلامي، واحترامه للعهود والمواثيق حتى مع غير المسلمين، بل وحتى مع الأعداء المحاربين.

١٨- الترغيب في تقوى الله ـ عز وجل ـ بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك الوفاء بالعهود، وعدم نقضها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

١٩- إثبات صفة المحبة لله ـ عز وجل ـ كما يليق بجلاله وعظمته، وأنه يحب المتقين من عباده؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ومفهوم هذا عدم

محبته لغير المتقين.

٢٠- وجوب قتال المشركين بعد انقضاء الأشهر الحرم، أشهر السياحة والتأجيل الأربعة حيث وجدوا وأخذهم وأسرهم ومحاصرتهم والترصد لهم في جميع الطرق والمسالك وتضييق الخناق عليهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾.

لكن يخص من عموم قوله ـ تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ القتال في الحرم فلا يجوز قتالهم فيه ابتداءً، لكن إن قاتلوا فيه جاز قتالهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾ [البقرة: ١٩١].

كما يخص من هذا العموم ـ على الصحيح ـ القتال في الأشهر الحرم المعروفة؛ ذي القعدة وذي الحجة ومحرم ورجب، فلا يجوز القتال فيها ابتداءً، لكن إن بدأ العدو بالقتال، جاز قتاله فيها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقوله ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [المائدة: ٢].

والآية عامة في قتال جميع المشركين بعد انقضاء أشهر السياحة الأربعة، ممن كان لهم عهد مطلق أو مقيّد دون أربعة أشهر، أو لا عهد لهم.

أما من كان لهم عهد مقيد أكثر من أربعة أشهر فيجب إتمام عهدهم إليهم إلى نهاية مدته؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ [التوبة: ٤]، وقوله ـ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٧].

وقد توسّع بعض الناس فجعل هذه الآية ناسخة لآيات الأمر بالعفو والصفح والمجادلة بالتي هي أحسن ونحو ذلك، وبالغوا في ذلك، حتى أوصل بعضهم الآيات المنسوخة بهذه الآية إلى نحو مائة وأربع وعشرين آية، وليس هذا بصحيح.

فهذه الآية وغيرها من آيات القتال كقوله ـ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، ونحوها لا تنافي بينها وبين آيات الأمر بالعفو والصفح والمجادلة بالتي هي أحسن، ونحوها؛ لأن آيات القتال تستعمل في وقتها، وآيات العفو تستعمل في وقتها، ولكل منهما حال تناسبها، ولا تعارض بينها حتى يقال بالنسخ.

٢١- إذا تاب المشركون عما هم عليه من الشرك والكفر وآمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وجب على المسلمين تخلية سبيلهم والكفّ عنهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾.

٢٢- وجوب الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، والإيمان ظاهراً وباطناً، بين الإيمان والإسلام؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٢٣- عظم مكانة الصلاة والزكاة في الإسلام؛ لهذا خصهما بالذكر من بين أركان الإسلام، وواجباته؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ففي الصلاة الإحسان في عبادة الله ـ تعالى، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله.

٢٤- أن من شروط صحة الإسلام إقامة الصلاة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهذا أمر مجمع عليه، قال ـ تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، فمن لم يصل فليس بمؤمن، بل هو كافر.

قال ﷺ: «**بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة**»(١)، وقال ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**»(٢)، وعن عبدالله بن شقيق قال:

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٨٢)، وأبوداود في السنة (٤٦٧٨)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٧٨) ـ من حديث جابر ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي في الصلاة (٤٦٣)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٧٩) ـ من حديث بريدة ـ رضي الله عنه ـ وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

«كان أصحاب محمد لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة»[١].

٢٥- أن المقصود والمهم في الصلاة إقامتها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٢٦- خطورة منع الزكاة؛ لقوله ـ تعالى في الآيتين: ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ولهذا ذهب بعض أهل العلم إلى كفر من منع الزكاة. قال عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه: «**أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يزك فلا صلاة له**»[٢].

وقد قرنت الزكاة مع الصلاة في نحو اثنين وثمانين موضعاً، مما يدل على عظم مكانتهما معاً فهما القرينتان في كتاب الله ـ عز وجل ـ وقد قاتل أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ الذين منعوا الزكاة، وقال: «والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً أو عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها»[٣].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة**»[٤].

٢٧- ينبغي لمن وجبت عليه الزكاة إيتاؤها لمستحقيها دون تكليفهم البحث عنها أو المطالبة بها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٢٨- أن التوبة تهدم ما كان قبلها، وأن الإسلام يهدم ما كان قبله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ فلا يؤاخذون بما فعلوا

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦٢٢).

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٥٤).

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٠)، وفي الاعتصام (٧٢٨٥)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، وأبوداود في الزكاة (١٥٥٦)، والنسائي في الزكاة (٢٤٤٣)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٧) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٤) سبق تخريجه.

قبل توبتهم وإسلامهم؛ ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢٩- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾.

٣٠- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله ـ عز وجل ـ الذاتية والفعلية، العامة والخاصة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾.

٣١- في اقتران المغفرة والرحمة في حقه ـ عز وجل ـ زيادة كماله إلى كمال.

٣٢- في اجتماع المغفرة والرحمة زوال المرهوب، وحصول المطلوب، وفي تقديم المغفرة على الرحمة بيان أن التخلية قبل التحلية.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١﴾ [التوبة: ٦-١١].

قوله ـ تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾.

أمر الله ـ عز وجل ـ بقتل المشركين حيث وجدوا وأخذهم وحصرهم والترصد لهم، ثم أتبع ذلك ببيان أنه إذا طلب أحد منهم الجوار ليسمع كلام الله وجب أن يجار.

قوله ـ تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾.

و﴿أَحَدٌ﴾ بمعنى «واحد»، وهو نكرة في سياق الشرط، تفيد التنصيص على العموم، أي: وإن مشرك استجارك، أيًا كان غنيًا أو فقيراً، شريفاً أو وضيعاً.

وقدم ﴿أَحَدٌ﴾ على ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ للاهتمام بالمسند إليه، وتأكيد بذل الأمان لكل من يسأله من المشركين إذا كان ذلك لمصلحة.

ومعنى ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ طلب منك الجوار والأمان وأن تمنعه من الضرر حين قدومه إلى دار الإسلام، إذا كان ذلك لمصلحة كأداء رسالة، أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادنة، ونحو ذلك. والخطاب للنبي ﷺ، ولأئمة المسلمين من بعده ونوابهم.

﴿فَأَجِرْهُ﴾ أي: فأمّنه؛ ولهذا قال ﷺ لأم هانئ: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ**»[١].

وقال ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**»[٢].

وقال ﷺ: «**من أمّن رجلاً على نفسه فقتله، فأنا بريء من القاتل**» وفي لفظ: «**أعطي لواء الغدر يوم القيامة**»[٣].

ولهذا لما قدم على رسول الله ﷺ رسول مسيلمة الكذاب قال له النبي ﷺ: «**أتشهد أن مسيلمة رسول الله**»؟ قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «**لولا أن الرسل لا تقتل ضربت عنقك**»[٤].

﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي: إلى غاية أن يسمع كلام الله منك بأن تقرأ عليه القرآن الكريم، وتدعوه إلى الإسلام، وتعظه وتقيم الحجة عليه.

﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ أي: ثم أتم له أمانه حتى يرجع إلى مأمنه، أي: المكان الذي يأمن فيه، وهو بلده وأرض قومه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ الجملة في موضع التعليل لتأكيد الأمر في الجملة قبلها، والإشارة لما سبق من الأمر بإجارة من استجار من المشركين وتأمينه حتى يسمع كلام الله، ثم إبلاغه مأمنه.

والباء للسببية، أي: بسبب أنهم قوم لا يعلمون.

والمعنى: إنما أمرناك بإجارة من استجار من المشركين حتى يسمع كلام الله، ثم إبلاغه مأمنه بسبب أنهم قوم لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويهديهم إلى الحق،

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٧١) ـ من حديث أم هانئ ـ رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبوداود في الديات (٤٥٣٠)، والنسائي في القسامة (٤٠١٣٤) ـ من حديث علي ـ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٣، ٢٢٤، ٤٣٧)، وابن ماجه في الديات (٢٦٨٨) ـ من حديث عمرو بن الحمق الخزاعي ـ رضي الله عنه ـ وإسناده صحيح.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٠٠).

فلأجل أن يُعلَّموا ذلك وتنتشر الدعوة، وتقوم عليهم الحجة أمرنا بذلك.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾.

ذكر - عز وجل - في مطلع السورة براءته ورسوله من المشركين، ونبذ عهودهم المطلقة والمقيدة بما دون أربعة أشهر، وإنظار الجميع أربعة أشهر يسيحون في الأرض، وأمر بقتلهم إذا انسلخت هذه الأشهر حيث وجدوا وأخذهم وحصرهم والترصد لهم، ثم بيّن في هذه الآية الحكمة والسبب في ذلك، وهو شركهم بالله، وخيانتهم للعهود.

قوله - تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾

﴿كَيْفَ﴾ استفهام فيه معنى الإنكار والنفي والاستبعاد المشرب بالتعجب.

أي: كيف يبقى ويستمر للمشركين عهد أمان عند الله وعند رسوله مع ما هم عليه من الكفر والتكذيب والنقض للعهود وقتال المؤمنين والصد عن دين الله، أي: لا يمكن أن يبقى لهم عهد عند الله وعند رسوله.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ هذا الاستثناء كسابقه يجوز أن يكون منقطعاً أو متصلاً.

أي: إلا الذين عاهدتم من المشركين عند المسجد الحرام، وذلك عام الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة حيث تم الصلح بينهم وبين المسلمين وعاهدهم الرسول ﷺ على الهدنة وترك الحرب بينهم عشر سنين، كما قال - تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح: ٢٥، ٢٦].

﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ الفاء للتفريع، أو استئنافية، و«ما» مصدرية

ظرفية فيها معنى الشرط، أي: فماداموا مستقيمين لكم على الوفاء بعهدكم ﴿فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾ على الوفاء بعهدهم، أي: فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم. ويجوز كون «ما» اسم شرط جازم والتقدير أيَّ وقت استقاموا فيه لكم فاستقيموا لهم، والفاء في قوله: ﴿فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾ واقعة في جواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية.

وقد قال الطبري[1] بعدما ذكر اختلاف أهل التأويل في الآية هل نزلت في قوم من جذيمة بن الدُّئِل، أو في قريش، أو في خزاعة، وذكر الآثار الواردة في ذلك عن السلف قال: «وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي قول من قال: هم بعض بني بكر من كنانة، ممن كان أقام على عهده، ولم يكن دخل في نقض ما كان بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية من العهد مع قريش حين نقضوه بمعونتهم حلفاءهم من بني الدُّئِل على حلفاء رسول الله ﷺ من خزاعة. قال: وإنما قلت: هذا القول أولى الأقوال في ذلك بالصواب؛ لأن الله أمر نبيه والمؤمنين بإتمام العهد لمن كانوا عاهدوه عند المسجد الحرام ما استقاموا على عهدهم. وقد بيَّنا أن هذه الآيات إنما نادى بها عليٌّ في سنة تسع من الهجرة، وذلك بعد فتح مكة بسنة، فلم يكن بمكة من قريش ولا خزاعة كافر يومئذٍ بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فيؤمر بالوفاء له بعهده ما استقام على عهده؛ لأن من كان منهم من ساكني مكة، كان قد نقض العهد، وحورب قبل نزول هذه الآيات».

وقال ابن كثير[2] في كلامه على قوله ـ تعالى: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾: «يبين ـ تعالى ـ حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا، فقال تعالى: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ﴾ وأمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به

---

(١) في «جامع البيان» (١١/ ٣٥٠-٣٥٤).

(٢) في «تفسيره» (٤/ ٥٦-٥٧).

وبرسوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعني يوم الحديبية، كما قال ـ تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ الآية [الفتح: ٢٥]، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ أي: مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ومالئوا حلفاءهم بني بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكّنه من نواصيهم، ولله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، و من استمر على كفره وفرّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء، منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تعليل للأمر بالاستقامة على الوفاء بالعهد للمشركين ما استقاموا على عهدهم.

أي: إن الله يحب المتقين له ولعذابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك الوفاء بالعهود وعدم نقضها.

قوله ـ تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

تأكيد لما سبق من أنه لا يمكن أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله.

قوله: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿كَيْفَ﴾ مؤكدة للتي قبلها، أي: تأكيد للإنكار والنفي في قوله ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾.

والواو في قوله: ﴿وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ حالية، أي: كيف يكون لهم عهد،

والحال أنهم إن يظهروا عليكم ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

ويجوز كونها عاطفة، أي: كيف يكون لهم عهد وهم إن يظهروا عليكم ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

ومعنى ﴿يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ينتصروا عليكم، وتكون لهم القوة والغلبة والعلو عليكم. قال ـ تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾ [الصف: ١٤]، أي: منتصرين، وقال ـ تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]، أي: أن يعلوه.

﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: لا يراعوا فيكم ويحفظوا لكم ﴿إِلًّا﴾ «الإل» القرابة، قال الشاعر:

أفسد الناس خلوف خلفوا ... قطعوا الإل وأعراق الرحم[1]

وقال حسان[2]:

لعمرك إن إلَّك من قريش ... كإل السقب من رأل النَّعام

وقال الآخر:

وجدناهم كاذباً إِلُّهُمْ ... وذو الإلِّ والعهد لا يكذب[3]

﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: ولا يرقبوا فيكم ذمة، والذمة: العهد، أي: ولا يراعوا فيكم عهداً.

والمعنى: كيف يكون للمشركين عهد والحال أنهم يتربصون بكم الدوائر ويتحينون الفرص أن يظهروا وينتصروا عليكم، فلا يراعوا فيكم قرابة ولا عهداً ولا يرحموكم.

وفي هذا تحريض للمؤمنين على البراءة من المشركين ومعاداتهم، وعدم

---

(١) البيت لتميم بن مقبل. انظر: «جامع البيان» (١١/ ٣٥٨)، «التبيان» (٥/ ١٧٨).

(٢) انظر: «ديوانه» ص(٣٣٦)، «اللسان» مادة «ألل»، و«السقب»: ولد الناقة ساعة يولد، و«الرأل» ولد النعام. يقول حسان ـ رضي الله عنه: إنه لا قرابة بينك وبينهم، كما أنه لا قرابة بين ولد الناقة وولد النعام.

(٣) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٣٥٩).

الاطمئنان إليهم وتهييج لهم على قتالهم.

﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ الجملة مستأنفة، أي: يرضونكم بقولهم بأفواههم.

﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي: وتمتنع قلوبهم أن توافق ما قالوه بأفواههم.

أي: يعطونكم من القول المعسول بألسنتهم من دعوى محبتهم لكم والنصح لكم ونحو ذلك، خلاف ما يضمرونه لكم في قلوبهم من العداوة والبغضاء، والتربص بكم وإضمار الشر لكم.

﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ أي:وأكثرهم خارجون عن الحق والعدل، والصدق والمروءة ناقضون للعهد.

﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ أي: استبدلوا واعتاضوا ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بالقرآن الكريم والإيمان به، وما فيه من الآيات البينات والحجج الواضحات.

﴿ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ أي: ثمناً زهيداً وهو متاع الدنيا الزائل ولذاتها الفانية، وما عليه أهل الجاهلية من أحوال سيئة من الفجور وشرب الخمور واللذات الفاسدة والمحرمة.

كما قال ـ تعالى ـ في وصف أهل الكتاب: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ۝١٨٧﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ أي: فعدلوا وانصرفوا عن دين الله، وصرفوا عنه غيرهم.

﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي:إنهم ساء وقبح الذي كانوا يعملون، وساء عملهم من الشرك بالله، والاشتراء بآيات الله ثمناً قليلاً والصد عن سبيله.

﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ أي: لا يراعون في مؤمن أيًّا كان قرابة ولا عهداً. وفي هذا ـ مع توكيده لما قبله ـ ما يبين أن هذا موقف أهل الشرك من عموم المؤمنين في كل زمان ومكان ـ وفي هذا كله تحريض على قتالهم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ الإشارة للمشركين الذين أمر ـ عز وجل ـ بقتالهم، وحرض المؤمنين عليه، ونفى أن يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله،

الذين اعتاضوا بآيات الله ثمناً قليلاً وصدوا عن سبيله، ممن لا يرقبون في المؤمن قرابة ولا عهداً.

وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم، وأكد وصفهم بالاعتداء بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وفي ضمير الفصل «هم».

ومعنى ﴿ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ أي: المجاوزون الغاية في الظلم بالشرك والصد عن دين الله وقتال المؤمنين.

قوله ـ تعالىٰ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ في هذه الآية ترغيب وحث ثان للمشركين على التوبة والدخول في دين الله، وتوكيد لسعة مغفرة الله ـ عز وجل ـ ورحمته.

وقد سبق الكلام على قوله ـ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

قوله: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وفي التعبير بقوله: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ استمالة لقلوبهم.

وقال هنا: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ لمناسبة ذكر عداوتهم للمؤمنين قبل هذا؛ كما قال في الآية السابقة: ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ لمناسبة ما قبلها وهو الأمر بقتلهم وأخذهم وحصرهم والترصد لهم.

﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ونبين ونوضح الآيات الشرعية والكونية.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لقوم يعلمون علماً ينتفعون به في أمر دينهم ودنياهم وأخراهم، وهم المؤمنون، فلهم ولأجلهم فصل الله الآيات وفي هذا مدح وحث لهم على التأمل والعمل بها، وتعريض بجهل المشركين وعدم علمهم، وإعراضهم؛ كما قال ـ تعالى ـ عنهم قبل هذا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

الفوائد والأحكام:

١- ينبغي إجارة من طلب الجوار من المشركين حتى يسمع كلام الله، ويدعى إلى الإسلام، وتأمينه حتى يرجع إلى مأمنه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ

ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾.

وهكذا ينبغي إجارة كل من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام لمصلحة، كأداء رسالة، أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة ونحو ذلك.

٢- إثبات أن القرآن كلام الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، وفي حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس، ويقول: «**ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي، فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي**»(١).

وفي هذا إثبات الكلام لله ـ عز وجل ـ على ما يليق بجلاله وعظمته، والرد على من نفى ذلك من الجهمية وغيرهم.

كما أن فيه الرد على القائلين بخلق القرآن من المعتزلة وغيرهم.

٣- أن الحكمة في الأمر بإجارة من طلب الجوار من المشركين وتأمينه، لأجل أن يسمع كلام الله، ويدعى إلى الإسلام، وتقوم عليه الحجة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، وقوله ـ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾.

٤- أن المشركين لا يعلمون علماً ينتفعون به، ويهديهم إلى الحق؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾.

٥- سمو مبادئ الإسلام وأحكامه في التعامل مع غير المسلمين.

٦- إنكار ونفي أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ـ مع ما هم عليه من الشرك بالله والصد عن دين الله ونقض العهود؛ لقوله ـ تعالى: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾، وقوله ـ تعالى: ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُوٓاْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾.

(١) أخرجه أبوداود في السنة (٤٧٣٤)، والترمذي في فضائل القرآن (٢٩٢٥)، وابن ماجه في المقدمة (٢٠١).

٧- من لم يكن له عهد عند الله، فليس له عهد عند رسول الله، كما أن من لم يكن له عهد عند رسول الله فليس له عهد عند الله.

٨- استثناء المشركين الذين عاهدهم الرسول ﷺ والمؤمنون عند المسجد الحرام من عموم المشركين بالأمر بالاستقامة لهم على الوفاء بعهدهم ما استقاموا على الوفاء بالعهد للمؤمنين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾.

٩- أن الجزاء من جنس العمل والمعاملة تكون بالمثل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾.

١٠- احترام الإسلام للعهود والمواثيق حتى مع غير المسلمين، بل مع المحاربين.

١١- إثبات محبة الله ـ تعالى للمتقين ترغيباً في تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والتي منها الوفاء بالعهود، وعدم نقضها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

١٢- إثبات صفة المحبة لله ـ عز وجل ـ كما يليق بجلاله وعظمته.

١٣- يفهم من قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ نفي محبته ـ عز وجل ـ عن غير المتقين.

١٤- تأكيد إنكار ونفي أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

١٥- شدة عداة المشركين للمؤمنين وتربصهم بهم الدوائر وتحينهم الفرص للظهور عليهم وغلبتهم وعدم مراعاتهم فيهم قرابة ولا عهداً؛ لقوله ـ تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

١٦- كذب المشركين فيما يظهرونه بأفواههم وألسنتهم من محبة المؤمنين ومناصرتهم ونحو ذلك، لما تنطوي عليه قلوبهم من مخالفة ذلك، مما يوجب

الحذر منهم وعدم الاطمئنان إليهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾.

١٧- ينبغي عدم الاغترار فيما يدعيه ويظهره أعداء الإسلام من موالاة ومحبة للمسلمين.

١٨- أن أكثر المشركين فاسقون خارجون عن الحق والعدل والصدق والمروءة، ناقضون للعود؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وفي هذا إخبار عنهم وذم لهم.

١٩- استبدال المشركين بآيات الله والإيمان بها متاع الدنيا ولذاتها الفانية، وما عليه أهل الجاهلية من الأحوال والعادات السيئة كالفجور وشرب الخمور ونحو ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهذا أيضاً إخبار عنهم وذم لهم.

٢٠- التعريض بذم الدنيا بما فيها من المتاع ونحو ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٢١- صد المشركين عن سبيل الله بحالهم وأقوالهم وأفعالهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾.

٢٢- تحقير المشركين بالإشارة إليهم بإشارة البعيد (أولئك) تحقيراً لهم.

٢٣- شدة اعتداء المشركين، فقد عبدوا مع الله غيره، وصدوا عن سبيل الله، وقاتلوا المؤمنين، ونقضوا العهود وغير ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ فقد أكد الاعتداء وحصره فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل (هم).

٢٤- سعة رحمة الله ـ عز وجل ـ ومغفرته وعفوه، حيث رغب المشركين بالتوبة والإسلام مع ما هم عليه من الكفر والشرك وشدة العداوة للمؤمنين وقتالهم، واستبدالهم بآيات الله ثمناً قليلاً وصدهم عن سبيل الله، وسوء عملهم

واعتدائهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

٢٥- أن التوبة تهدم ما كان قبلها، وأن الإسلام يهدم ما كان قبله.

٢٦- إذا تاب المشركون وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فهم إخوة للمؤمنين في الدين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

٢٧- أن من شرط صحة الإسلام إقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

أما الصلاة فبالإجماع لهذه الآية، ولقوله ـ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وقال ﷺ: «**بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة**»(١)، وقال ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**»(١).

وقال عبدالله بن شقيق: «**لم يجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أمر تركه كفر سوى الصلاة**»(١).

وأما الزكاة فذهب بعض أهل العلم إلى أنها شرط في صحة الإسلام مستدلين بقوله تعالى في الآيتين: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وغيرها من الأدلة ـ كما سبق ـ ولا شك أن من منع الزكاة فهو على خطر عظيم.

٢٨- عظم مكانة الصلاة والزكاة بين أركان الإسلام وواجباته، فالصلاة أعظم أركان الإسلام وأعظم العبادات بعد الشهادتين، والزكاة أعظم العبادات بعد الصلاة، وأعظم العبادات المالية.

٢٩- أن المطلوب في أمر الصلاة إقامتها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها

(١) سبق تخريجها قريباً.

وسننها، وأن المطلوب في أمر الزكاة إعطاؤها لمستحقيها من غير تكليفهم البحث عنها أو المطالبة بها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٣٠- إثبات الأخوة بين المؤمنين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾.

٣١- تفصيل الآيات وبيانها إقامة للحجة على الخلق؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

٣٢- أن الذين ينتفعون بتفصيل الآيات وبيانها هم الذين يعلمون علماً يهديهم إلى معرفة الحق والعمل به، وهم المؤمنون؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، وفي هذا تعريض بالمشركين وجهلهم وعدم علمهم.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التوبة: ١٢-١٦].

قوله ـ تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾ إلى قوله ـ تعالى: ﴿ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

أمر الله ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة المؤمنين بإتمام عهد من عاهدوه من المشركين ممن لم ينقصوا المؤمنين شيئاً ولم يظاهروا عليهم أحداً إلى مدتهم، وكذا من عاهدوه منهم عند المسجد الحرام ما داموا مستقيمين على العهد مدة عهدهم ـ وهذا وذاك فيمن كان عهدهم مقيداً بمدة أكثر من أربعة أشهر ـ ثم أتبع ذلك بالأمر بقتالهم إن نكثوا أيمانهم وطعنوا في دين الإسلام وتحريض المؤمنين على ذلك في هذه الآيات.

قوله: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم ﴾.

النكث: النقض لما أبرم، قال ـ تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ ﴾ [النحل: ٩٢].

قال الشاعر:

وإن حلفتْ لا ينقض النأيُ عهدَها ... وليس لمخضوب البنان يمين

وتطلق الأيمان على العهود؛ لأن العهود غالباً تؤكد بالأيمان.

والمعنى: وإن نقض هؤلاء المشركون عهودهم ومواثيقهم وغدروا، وحنثوا في أيمانهم التي أكدوا بها تلك العهود والمواثيق.

﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾ أي: وقدحوا في دينكم دين الإسلام وعابوه وتنقصوه،

كما قال ـ تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا ﴾ [التوبة: ٤].

والطعن في دين المسلمين من نقض العهد ونكث الأيمان، فعطفه على ما قبله أشبه بعطف الخاص على العام.

والواو في قوله: ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾ بمعنى «أو» أي: أو طعنوا في دينكم، فيجب قتالهم، إذا ارتكبوا أحد الأمرين أو كليهما.

﴿ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟﴾؛ لأن الجواب جملة طلبية.

والأمر في قوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟﴾ للوجوب.

﴿أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو (أيمة) بتسهيل الهمزة الثانية بين الهمزة والياء، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين (أئمة).

وقرأ هشام عن ابن عامر وأبوجعفر بمد بين الهمزتين.

و﴿أَئِمَّةَ ﴾ جمع إمام، والإمام من يكون قدوة ومثالاً يحتذى به، سواء في الخير، أو في الشر، قال ـ تعالى ـ في أئمة الخير: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال ـ تعالى ـ في أئمة الشر: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [القصص: ٤١].

قال لبيد: ولكل قوم سنة وإمامها.

فأئمة الكفر الذين بلغوا الغاية فيه، فصاروا قدوة لغيرهم بالكفر والشرك، ونقض العهود، والطعن في الدين، كأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف وغيرهم.

ولم يقل (فقاتلوهم) بل قال: ﴿ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ لزيادة التشنيع عليهم وأنهم كلهم قد بلغوا الغاية في الكفر، وليشمل ذلك أئمة الكفر من قريش وغيرهم.

قال ابن كثير[١]: «ومن هاهنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ومن طعن في دين الإسلام، أو ذكره بنقص».

﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ الجملة تعليل للأمر بقتالهم، قرأ ابن عامر بكسر الهمزة «إيمان» على أنه مصدر، وقرأ الباقون بفتحها على أنه جمع يمين.

فعلى قراءة كسر الهمزة تكون الجملة تعليلاً وتأكيداً لما قبلها، أي: لا إيمان لهم مطلقاً.

وعلى قراءة فتح الهمزة: أي: أنهم لا قيمة لأيمانهم، ولا حقيقة لها؛ لأنها أيمان كاذبة، وعهود فاجرة، يعاهدون وينقضون، ويحلفون ويحنثون.

﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أي: لأجل أن ينتهوا، أي: يرجعوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب ونقض العهود، ويدخلوا في دين الإسلام، والآية عامة في كل من نكث العهد وطعن في دين الإسلام من قريش وغيرهم.

قوله ـ تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

أمر الله ـ عز وجل ـ في الآية السابقة بقتال أئمة الكفر، الذين نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وطعنوا في دين الإسلام؛ لأنهم لا أيمان لهم ولا إيمان، ثم أتبع ذلك بتهييج المسلمين وحضهم على قتالهم في هذه الآيات الثلاث.

قوله: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ ﴿أَلَا﴾ للتحضيض، كما في قوله ـ تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]، أي: للتحضيض على قتال المذكورين، ويجوز أن تكون الهمزة للاستفهام و«لا» نافية. والاستفهام على هذا للإنكار، أو لتقرير النفي.

(١) في «تفسيره» (٤/ ٥٩).

﴿تُقَٰتِلُونَ﴾ المقاتلة المفاعلة من القتل بين فريقين أي: ألا تقاتلون أيها المؤمنون.

﴿قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ أي: نقضوا عهودهم التي أكدوها بالأيمان والحلف، ولم يفوا بها وهم كفار قريش.

ومن ذلك نقضهم العهد بينهم وبين النبي ﷺ بقتالهم مع حلفائهم بني بكر ضد خزاعة أحلاف الرسول ﷺ.

﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾

«ال» في ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود محمد ﷺ الذي هو سيد الرسل وأفضلهم ـ صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

أي: أرادوا إخراج الرسول محمد ﷺ من بلده مكة، وسعوا في ذلك ما أمكنهم، وخططوا له حين تشاوروا في دار الندوة، كما قال ـ تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال ـ تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: ٧٦].

فقد هموا بإخراج الرسول ﷺ وكادوا له بأنواع المكائد واستفزوه بأنواع الأذى حتى اضطروه للخروج ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من بلده مكة.

ولهذا قال ـ تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال ـ تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١].

ووقف ﷺ على «الحَزْوَرَة»[1] مخاطباً موطنه وبلده مكة شرفها الله: «والله لأنت أحب البلاد إليَّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت»[2].

---

(١) الحَزْوَرَة على وزن قسورة موضع في مكة عند باب الحناطين.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٩٢٥)، وابن ماجه في المناسك (٣١٠٨) ـ من حديث عبدالله بن عدي ـ رضي الله عنه ـ وقال الترمذي: «حديث حسن غريب صحيح».

﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ﴿أَوَّلَ﴾ منصوب على المصدرية، وإضافته إلى ﴿مَرَّةٍ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، والتقدير: مرة أولى. أي: وهم بدؤوكم أولاً بمحاربتهم وقتالهم لكم يوم بدر.

وقيل: بنقض عهدهم والقتال مع حلفائهم بني بكر ضد خزاعة، حلفاء النبي ﷺ وقاتلوا معهم، والبادئ أظلم.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ الهمزة للاستفهام ومعناه النهي، أي: لا تخشوهم.

ويجوز كون الاستفهام للإنكار، أو التقرير.

أي: أتتركون قتالهم خوفاً على أنفسكم منهم.

﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ الفاء هي الفصيحة، و(الله) مبتدأ و«أحق» خبر، و﴿أَن تَخْشَوْهُ﴾ في تأويل مصدر بدل اشتمال من (الله)، أي: فخشية الله أحق، ويجوز أن تكون في محل جر بحرف محذوف، أي: فالله أحق بالخشية من غيره.

أي: فالله أوجب أن تخافوه في ترك قتالكم لهم وفي جميع أحوالكم، لعظمته ـ عز وجل ـ وشدة نقمته وعقوبته، وكون الخلق والملك له، والتدبير بيده؛ كما قال ـ تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣].

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِن﴾ شرطية، و﴿كُنتُم﴾ فعل الشرط، وجوابه دل عليه ما سبق، أي: إن كنتم مؤمنين فلا تخشوهم واخشوني، فمن شرط صحة الإيمان خشية الله وحده؛ لأن الخشية نوع من أنواع العبادة، التي يجب صرفها لله وحده دون غيره، كالرجاء والتوكل والذبح والنذر، ونحو ذلك.

فالمؤمن حقًّا لا يخشى ولا يخاف إلا الله، ولا يرجو ولا يعتمد إلا على الله، ولا يتعبد بأي عبادة إلا الله ـ عز وجل، كما قال ـ تعالى ـ عن المؤمنين: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

قوله ـ تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾.

أمر الله ـ عز وجل ـ بقتال أئمة الكفر الذين نقضوا أيمانهم، وحض المؤمنين وحرضهم على ذلك، ثم أكد الأمر بقتالهم ـ مبيناً ما يترتب على قتالهم من منافع، واعداً المؤمنين ومبشراً لهم بنصرهم وإذلال الكافرين.

قوله: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ﴾ تأكيد لما سبق من الأمر بقتالهم.

﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ «يعذب» مجزوم في جواب الأمر، أي: يعذبهم الله بأيديكم بالقتل الجراح والأسر وغير ذلك.

وفي قوله: ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ إشارة إلى أنه ـ عز وجل ـ قادر على تعذيبهم وإهلاكهم ونصر المؤمنين عليهم بأمر من عنده دون قتال المؤمنين لهم، لكنه ـ عز وجل ـ أراد أن يحصل ذلك على أيدي المؤمنين لما في ذلك من المنافع الدينية والدنيوية والأخروية لهم.

﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ أي: ويذلهم بالهزيمة والقتل والأسر والاسترقاق ونحو ذلك، فيجتمع في حقهم العذاب الحسي والعذاب المعنوي.

﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ويجعل لكم الغلبة والظهور عليهم.

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤﴾ شفاء الصدور معافاتها مما فيها من ألم، أي: ويعاف بقتالكم هؤلاء الكفار وتعذيبهم بأيديكم وإذلالهم ونصركم عليهم صدور قوم مؤمنين ممن شهد القتال وممن لم يشهده ـ مما فيها من الألم والغم والهم ونحو ذلك.

وقد قيل: المراد بقوله ـ تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ المؤمنون من خزاعة حلفاء الرسول ﷺ وقيل غيرهم. والعموم أولى.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها للتأكيد، والغيظ: الحنق والغضب الشديد، أي: ويزل ما في قلوب المؤمنين من الحنق والغضب الشديد.

والمعنى: ويشف صدور قوم مؤمنين مما فيها من الألم والهم والغم ويزل ما

في قلوبهم من الغيظ والحنق والغضب الشديد بسبب محاربة هؤلاء الكفار لله ورسوله، وبسبب ما نال المؤمنين منهم من المكروه والأذى؛ من نكث العهود والطعن في الإسلام وإخراج الرسول والبدء بقتال المؤمنين وغير ذلك.

﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ويتوب الله على من يشاء من هؤلاء الكفار، فيحصل للمؤمنين أجر هدايتهم على أيديهم.

وتوبة الله تنقسم إلى قسمين:

الأول: توفيقه عبده للتوبة.

والثاني: قبولها منه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨]، أي: ثم وفقهم للتوبة ليتوبوا فيقبلها منهم، كما قال ـ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال ـ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥].

والتوبة من العبد الرجوع من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة.

وقد تاب الله على نفر منهم كأبي سفيان، وعكرمة بن أبي جهل رضي الله عنهما، وغيرهما.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: ذو العلم الواسع المحيط بكل شيء، كما قال ـ تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

﴿حَكِيمٌ﴾ ذو الحكم التام، والحكمة البالغة، له الحكم بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي. وله الحكمة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

فهو عز وجل حاكم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ومحكم متقن في خلقه وأمره ونهيه وشرعه.

وفي اجتماع كمال العلم والحكم والحكمة في حقه ـ عز وجل ـ زيادة كماله إلى كمال.

قوله ـ تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ

يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

أمر الله ـ عز وجل ـ المؤمنين ـ في الآيات السابقة بقتال الكفار وحرضهم على ذلك، ثم ذكر في هذه الآية أن من الحكمة في شرعه الجهاد الابتلاء والامتحان ليتبين الصادق من غيره.

قوله: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾ ﴿أَمۡ﴾ هي المنقطعة التي بمنى «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أحسبتم.

و﴿حَسِبۡتُمۡ﴾ ظننتم، والخطاب للمسلمين.

﴿أَن تُتۡرَكُواْ﴾ ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي «حسب».

والمعنى: أظننتم أن تتركوا دون أن تؤمروا بالجهاد، كما قال ـ تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]، وقال ـ تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ الجملة في محل نصب على الحال من ضمير ﴿تُتۡرَكُواْ﴾ أي: والحال أنه لما يعلم الله الذين جاهدوا منكم، أي: ولما يظهر في علمه ـ عز وجل ـ الذين جاهدوا منكم ظهوراً يترتب عليه الجزاء، لأنه ـ عز وجل ـ علم أزلاً وأبداً من سيجاهد منهم، لكنه إنما يجازي الخلق على أفعالهم وما يظهر منهم، كما قال ـ تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

وقال ـ تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

ومعنى ﴿جَٰهَدُواْ﴾ أي: بذلوا جهدهم وما يستطيعون في القتال في سبيل الله.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ الجملة معطوفة على جملة الحال قبلها، أي: ويعلم الذين لم يتخذوا، أي: لم يجعلوا ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: دخيلة وبطانة في الخفاء، وأولياء من الكفار يفضون إليهم بأسرار المسلمين.

ومفهوم هذا أنهم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله وللمسلمين.

والمعنى: ولما يعلم الله المتصفين بما ذكر ممن هم على ضد ذلك ممن لم يجاهدوا واتخذوا من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة، أي: اتخذوا الكافرين أولياء، فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر، إيثاراً لعدم ذكره لحقارته وسوئه.

فشرع الله ـ عز وجل ـ القتال والجهاد وأوجبه على المؤمنين، ليعذب ـ عز وجل ـ الكفار على أيدي المؤمنين، ويذلهم وينصر المؤمنين عليهم، ويشفيَ صدور المؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، ويتوب الله على من يشاء، وليبتلي المؤمنين، ليظهر في علمه ـ عز وجل ـ الذين جاهدوا، ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين أولياء من الكفار ممن كانوا بخلاف ذلك.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: والله ذو خبرة واطلاع وعلم واسع بالذي تعملونه، أو بعملكم. و«الخبير» المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، فهو أخص من «العليم» ولهذا فاطلاعه على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها من باب أولى.

وفي ختام الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وعد لمن اتقى وامتثل أوامر الله ـ عز وجل، ووعيد لمن خالف ذلك؛ لأن مقتضى خبرته ـ عز وجل ـ بأعمالهم أن يحاسبهم ويجازيهم عليها.

الفوائد والأحكام:

١- الإشارة والإيماء إلى توقع نقض المشركين عهدهم مع المؤمنين وطعنهم في

دينهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ ﴾.

٢- وجوب قتال الكفار إذا نقضوا عهدهم مع المؤمنين، وطعنوا في دين الإسلام؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾.

٣- كفر من طعن في الدين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾.

٤- أن الكفار لا مراعاة ولا احترام عندهم للأيمان والعهود؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ ﴾ وفي هذا ذم لهم، وليس بعد الكفر ذنب.

٥- أن الحكمة من قتال الكفار لأجل أن ينتهوا عما هم عليه من الكفر، وأذية المؤمنين وقتالهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾.

٦- تهييج المؤمنين وتحريضهم على قتال الكفار؛ لنقضهم الأيمان، وهمهم بإخراج الرسول ﷺ، وابتدائهم بقتال المؤمنين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾.

٧- وجوب خشية الله ـ عز وجل ـ وخوفه وتعظيمه وحده، والنهي عن خشية من سواه من الكفار وغيرهم، وأن ذلك من شرط الإيمان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

٨- تأكيد الأمر بقتال الكفار مع بيان ما يترتب على ذلك من المصالح والمنافع من تعذيب الكفار بأيدي المؤمنين وإذلالهم، ونصر المؤمنين عليهم، وشفاء صدور المؤمنين، وإذهاب غيظ قلوبهم، وتوبة الله على من شاء من الكفار؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾.

٩- الإشارة إلى قدرته ـ عز وجل ـ على تعذيب الكافرين بلا قتال من المؤمنين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ الآية.

١٠- وعد الله ـ عز وجل ـ وبشارته للمؤمنين بنصرهم وهزيمة الكافرين وإذلالهم.

١١- عناية الله ـ عز وجل ـ بالمؤمنين ومحبته لهم حتى إنه جعل من جملة المقاصد

الشرعية للقتال شفاء ما في صدورهم وإذهاب غيظ قلوبهم.

١٢- إثبات صفة التوبة لله ـ عز وجل ـ بقسميها: توفيقه من يشاء للتوبة، وقبولها منهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

١٣- سعة عفو الله ـ عز وجل ـ ورحمته وفضله حيث يوفق من شاء من هؤلاء الكفار المقاتلين للحق وأهله للتوبة ويقبلها منهم.

١٤- إثبات صفة العلم الواسع لله ـ عز وجل، والحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله ـ عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وفي اقتران هذه الصفات في حقه ـ عز وجل ـ زيادة كماله إلى كمال.

١٥- أن الله لم يخلق الخلق سدى ولم يتركهم هملاً خلقهم ليبتليهم أيهم أحسن عملاً؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ ﴾ الآية.

١٦- أن من حكمة الله ـ عز وجل ـ في مشروعية الجهاد الابتلاء والامتحان، ليعلم الله الذين جاهدوا، ونصحوا لله ولرسوله وللمؤمنين من غيرهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾.

١٧- أن الله ـ عز وجل ـ لا يحاسب الناس ويجازيهم على ما سبق في علمه بهم في الأزل وإنما يحاسبهم على ما يظهر من أعمالهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ ﴾ الآية.

١٨- الترغيب في الجهاد والنصح لله ولرسوله وللمؤمنين، والتحذير من ترك الجهاد واتخاذ بطانة وأولياء من دون الله ورسوله والمؤمنين.

١٩- إثبات خبرة الله ـ عز وجل ـ واطلاعه التام وعلمه الواسع بأعمال العباد؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وفي هذا وعد لمن اتقى الله، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه؛ لأن مقتضى خبرته ـ عز وجل ـ وعلمه بأعمالهم محاسبتهم ومجازاتهم عليها خيرها وشرها.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [التوبة: ١٧-٢٢].

قوله ـ تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ﴾ قرأ أبوعمرو ويعقوب وابن كثير (مسجد الله) بالإفراد، أي: المسجد الحرام، وقرأ الباقون بالجمع على أن المراد به المسجد الحرام وسائر المساجد، واتفقوا جميعاً على القراءة بالجمع في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾.

و﴿ مَا ﴾ في قوله: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ نافية، وجملة ﴿أَن يَعْمُرُوا۟ ﴾ في محل رفع اسم كان، أي: ما كان للمشركين عمارة مساجد الله، أي: عمارتها بالعبادة.

﴿ شَٰهِدِينَ ﴾ حال من ضمير «يعمروا» أي: مقرين ومعترفين على أنفسهم بالكفر، بأحوالهم وأقوالهم وأفعالهم.

أي: ليس المشركون بأهل لعمارة مساجد الله بالعبادة، لكفرهم بالله، وشهادتهم على أنفسهم بذلك؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤].

ومساجد الله إنما بنيت وأسست على اسمه ـ عز وجل ـ وحده لا شريك له، وتقواه؛ كما قال ـ تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال ـ تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن: ١٨].

وهذه الآية ـ والله أعلم ـ توطئة وتمهيد لمنع المشركين من دخول المسجد

الحرام في قوله ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [التوبة: ٢٨].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم.

ومعنى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ أي: بطلت أعمالهم بسبب شركهم وكفرهم؛ كما قال ـ تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور: ٣٩، ٤٠].

﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ أي: وفي النار هم مقيمون إقامة أبدية لا يتحولون عنها؛ لأن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها؛ كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وقال ـ تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٥]، وقال ـ تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجن: ٢٣].

قوله ـ تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

نفى ـ عز وجل ـ في الآية السابقة أن يكون للمشركين عمارة مساجد الله مع ما هم عليه من الكفر، ثم بيَّن أنه إنما يعمر مساجد الله حقًّا المؤمنون الموصوفون بالصفات المذكورة في هذه الآية.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ ﴿إِنَّمَا ﴾ كافة ومكفوفة، تفيد الحصر، أي: ما يعمر مساجد الله بالعبادة فيها وتعظيمها إلا ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية.

﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ ﴿مَنْ ﴾ موصولة، أي: الذي صدق بالله

وباليوم الآخر.

والإيمان بالله: الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه.

والإيمان باليوم الآخر: الإيمان بالبعث بعد الموت والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال.

وكثيراً ما يقرن ـ عز وجل ـ بين الإيمان بالله واليوم الآخر؛ لأن اليوم الآخر فيه الحساب والجزاء على الأعمال، فالإيمان به من أعظم ما يحمل ويدفع للعمل الصالح.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أتبع الإيمان بالعمل الصالح، فجمع بين الإيمان بالاعتقاد الصحيح في الباطن، وبين الإسلام بالعمل الظاهر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. أي: وأقام الصلوات الخمس، ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطاها لمستحقيها.

﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، أي: ولم يخف إلا الله، والخشية: شدة الخوف، فهي أخص منه؛ لأنها تدل على عظم المخشي، وعلم الخاشي، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وقد بدأ بعمل الباطن وهو الإيمان بالله واليوم الآخر، وختم به بقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ لأن الإيمان وعمل الباطن هو الأصل لقبول العمل وصلاحه، كما قال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[(١)].

﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤) ـ من حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يقول: إن أولئك هم المفلحون، كقوله لنبيه ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩]، يقول: إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهي الشفاعة وكل ﴿عَسَىٰٓ﴾ في القرآن، فهي واجبة»[١].

وقال محمد بن إسحاق: «و﴿عَسَىٰٓ﴾ من الله حق»[٢].

والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للموصوفين بما في الآية من الإيمان بالله واليوم الآخر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعدم خشية غير الله، وأشار إليهم بإشارة البعيد تعظيماً لهم.

أي: فعسى الموصوفين بما ذكر أن يكونوا من ﴿ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ أي: من المتصفين بالاهتداء المطلق، لا مطلق الاهتداء، ولهذا قال: ﴿مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، ولم يقل: (مهتدين) وفي هذا حث للمؤمنين على الاستزادة من الاهتداء بالعلم النافع والعمل الصالح مع ترجيح جانب الخوف وعدم الاغترار، كما أن فيه قطعاً لأطماع الكفار وإبطالاً لزعمهم أنهم عمار المسجد الحرام وأولياؤه.

قوله ـ تعالى: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾.

عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ قال: «كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم. فزجرهم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وذلك يوم الجمعة ـ ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل، فأنزل الله ـ عز وجل: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣٧٦-٣٧٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٦).
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣٧٧).

سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾»[١].

وقد روي أيضاً أن المشركين كانوا يفخرون بالحرم، وأنهم أهله وعمّاره، وسقاة الحاج، فأنزل الله هذه الآيات تبين لهم أن ذلك لا ينفعهم ولا يستوي مع الإيمان بالله والهجرة والجهاد في سبيله[٢].

قوله: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، والخطاب لمشركي مكة، و﴿ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ ﴾ سقي حجاج بيت الله الحرام من ماء زمزم، وكانت لبني هاشم، وجاء الإسلام وهي للعباس بن عبدالمطلب.

﴿ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ببنائه والقيام على إصلاحه، وعلى حراسته وهو السدانة والحجابة، وكانت لبني عبدالدار بن قصي، وجاء الإسلام وهي لعثمان بن طلحة.

﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الكاف للتشبيه، بمعنى «مثل» و«من» موصولة، أي: مثل الذي آمن بالله واليوم الآخر.

﴿وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: بذل جهده وطاقته في القتال لإعلاء كلمة الله.

﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي: في حكم الله، وفي منازلهما عنده ـ عز وجل، فسقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام والقيام على مصالحه وسدانته ـ وإن كانت عملاً محموداً ـ لكن ذلك لا ينفع مع الشرك بالله وعدم الإيمان فلا يستوي من هذه حاله مع من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله.

وأيضاً: لا يستوي عند الله من آمن وسقى الحاج وعمر المسجد الحرام بالعبادة؛

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة – فضل الشهادة في سبيل الله (١٨٧٩)، وأحمد (٤/ ٢٦٩)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣٧٧-٣٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٧)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(١٦٣).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٣٧٨)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٧٦٨)، «أسباب النزول» للواحدي ص(١٦٤)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ٦٣-٦٥).

بالطواف والصلاة والاعتكاف ونحو ذلك مع من آمن بالله وجاهد في سبيله - فمن آمن وجاهد أفضل وأعظم درجة عند الله.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا يناسب القول بأن المراد بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام من المشركين، وأن ذلك لا يجدي ولا ينفع مع عدم الإيمان.

وهداية الله تنقسم إلى قسمين: هداية البيان والدلالة والإرشاد، وبها أقام الله - عز وجل - الحجة على الناس بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، كما قال - تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال - تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وهذه الهداية عامة، فالله - عز وجل - هاد بمعنى دال ومرشد لعباده، والرسل والدعاة هداة إلى الله - عز وجل - بهذا المعنى.

والقسم الثاني: هداية التوفيق، وهذه خاصة بالله - عز وجل، كما قال - تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦]، وهي المرادة بقوله هنا: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يوفقهم.

و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جمع ظالم، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، وهو النقص، كما قال - تعالى: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئاً.

و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالتعريف يدل على أنهم بلغوا الغاية في الظلم، كيف وقد أشركوا بالله، والشرك أعظم الذنوب، وأظلم الظلم، كما قال - تعالى - فيما حكاه عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: ١٣].

وإنما كان الشرك أظلم الظلم؛ لأن حق الله، وهو عبادته - عز وجل - أعظم الحقوق وأوضحها وأبينها خلق ورزق، وأنعم على العباد بسائر النعم، فصرف حقه لغيره أعظم الظلم، وهو الحنث العظيم.

قوله - تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً

﴿عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾ الآيات.

نفى - عز وجل - في الآية السابقة أن يستوي عند الله سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، مع من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، ثم أتبع ذلك ببيان فضل الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله وعظم منزلتهم عند الله، وما لهم من الفوز والبشرى بالرحمة والرضوان والجنات، وما فيها من النعيم المقيم والخلود والأجر العظيم.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صدقوا بقلوبهم وألسنتهم بالله وبكل ما يجب الإيمان به، وانقادوا بجوارحهم.

﴿وَهَاجَرُواْ﴾ أي: وهاجروا من مكة إلى المدينة، فراراً بدينهم ونصرة لله ورسوله. والهجرة في اللغة: الترك، وفي الشرع: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي: بذلوا جهدهم وطاقتهم في الجهاد والقتال لإعلاء كلمة الله، قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ بالإنفاق في الجهاد وتجهيز الغزاة.

﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ بالخروج للجهاد بأنفسهم.

وقدم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس لأهمية الجهاد بالأموال؛ لأن الجهاد بالنفس لا يقوم إلا على الجهاد بالمال(٢).

﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: أرفع منزلة عند الله من أهل السقاية والعمارة؛ حتى لو كانوا مؤمنين، فكيف إذا كانوا غير مؤمنين.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) راجع الكلام على قوله - تعالى - في سورة الأنفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٧٢].

والمفاضلة قد تجري بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل البتة، كما قال ـ تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤]، أي: خير مستقراً وأحسن مقيلاً من أهل النار علماً أن النار ليس فيها خير ولا حسن البتة.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ تعظيماً لهم، وأكد الفوز وحصره فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، و بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾. والفوز: الحصول على المطلوب والنجاة من المرهوب، أي: الفائزون بالسعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة والنجاة من النار.

قوله ـ تعالىٰ: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

هذا تفسير وبيان لما لهم عند الله من عظيم المنزلة والفوز.

قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ البشارة الإخبار بما يسر القلب ويبهج النفس. أي: يخبرهم ربهم بما يسرهم، وسمى الخبر السار بشارة وبشرى أخذاً من بشرة الإنسان؛ لأن الإنسان إذا أخبر بما يسره اتسعت واستنارت بشرته. وفي حديث كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «وكان رسول الله ﷺ إذا سُر استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»(١).

وكون هذه البشارة من ربهم خالقهم ومالكهم ومربيهم بسائر النعم يدل على عناية الله ـ عز وجل ـ بهم، وعلى عظم هذه البشارة، فلا يقدر قدرها إلا من بشرهم بها وهو الرب الجواد الكريم ـ سبحانه وتعالى.

﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

نكَّر «رحمة» و«رضوان» و«جنات» و«نعيم» للتعظيم. وأكد تعظيمها بقوله: ﴿مِّنْهُ﴾ وهو الجواد الكريم سبحانه.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، والترمذي في التفسير (٣١٠٢).

والمراد بقوله: ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ ﴾ رحمته الخاصة بالمؤمنين، كما قال ـ تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

﴿وَرِضْوَانٍ﴾ على وزن «فعلان» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: ورضا كامل منه ـ عز وجل ـ عنهم، كما قال ـ تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال ـ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧، ٨].

وفي الحديث القدسي: **«أن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك. قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»**[1].

﴿وَجَنَّاتٍ﴾ جمع جنة، سميت بذلك لأنها تجن من بداخلها بكثرة أشجارها وغصونها وأوراقها وثمارها؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ: ١٦].

وجمعت باعتبار أنواعها ومراتبها وأنواع النعيم فيها، كما قال ـ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن أم الربيع بنت البراء، وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة، وكان قُتِل يوم بدر

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٤٩)، ومسلم في الإيمان (١٨٣) ـ من حديث أبي سعيد ـ رضي الله عنه.

أصابه سهم غرب[1]، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء. قال: «**يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**»[2].

وقال ﷺ: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**»[3].

﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ قدم الخبر ﴿لَهُمْ﴾ للتوكيد وبيان اختصاصهم بذلك، أي: لهم دون غيرهم.

﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنات.

﴿نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ ﴿نَعِيمٌ﴾ نكرة يعم جميع أنواع النعيم، أي: ولهم فيها أنواع النعم التي لا تعد ولا تحصىٰ، من المآكل والمشارب والمساكن والفرش والأزواج، ولهم فيها أنواع التنعم والسرور والبهجة وقرة العين، كما قال ـ تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٢]، وقال ـ تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]، وقال ـ تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿مُقِيمٌ﴾ دائم مستمر، لا ينقطع أبداً، ولهذا قال بعده:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ حال، أي: حال كونهم خالدين في هذه الجنات، خلوداً أبديًا لا يحول ولا يزول؛ لأن الجنات لا تفنى، ولا يفنى أهلها ولا نعيمها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ إن الله عنده ثواب عظيم، مما ذكر ومما لم يذكر،

---

(١) «سهم غرب» أي: سهم طائش، لا يدرى من أين أتى، ومن الذي رمى به.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٩)، والترمذي في التفسير (٣١٧٤).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

عظيم كمًّا، وكيفاً، لا يدرك عظمته إلا من هو عنده ومِنْهُ، وهو العظيم ـ سبحانه وتعالى، كما قال ـ تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال ـ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال ـ تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

ويعظم هذا الأجر بكونه عند الله ومنه، أجود الأجودين وأكرم الأكرمين الغني الحميد.

وقد سمى ـ عز وجل ـ ثوابهم أجراً؛ لأنه ـ عز وجل ـ تكفَّل به وأوجبه على نفسه تكرماً منه ـ سبحانه، كما قال ـ عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال ـ تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

الفوائد والأحكام:

١- نفي أن يكون المشركون عمار مساجد الله وهم على ما هم عليه من الكفر؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾.

٢- تحقير المشركين والكفار، وبيان حبوط أعمالهم ـ ولو كانت مما يثاب عليه المؤمنون ـ وخلودهم في النار؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾.

٣- أن النار لا تفنى ولا يفنى أهلها ولا عذابها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ أي: خلوداً أبديًّا وعلى هذا دل القرآن الكريم في مواضع عدة.

٤- بيان أنه إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

٥- أن الأهم في عمارة المساجد عمارتها معنويًّا بالإيمان بالله والصلاة فيها والعبادة.

٦- أن أعظم أركان الإيمان هو الإيمان بالله، بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته،

وشرعه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾.

٧- أن من أعظم وأهم أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

٨- لا يستقيم الإيمان بلا عمل، إذ لابد من الجمع بين الإيمان في الباطن وبين الإسلام بالعمل الظاهر؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٩- عظم مكانة الصلاة في الإسلام، فهي عمود الإسلام وأعظم أركانه بعد الشهادتين وأعظم العبادات، لهذا قدمت في الذكر وخصت من بين العبادات البدنية؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١٠- أن المقصود من الصلاة إقامتها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١١- أن الزكاة قرينة الصلاة، وهي أعظم العبادات المالية وأعظم العبادات بعد الصلاة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

١٢- وجوب دفع الزكاة لمستحقيها وعدم تكليفهم طلبها والبحث عنها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

١٣- وجوب خشية الله ـ عز وجل ـ وحده دون سواه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

١٤- أهمية صلاح الباطن، لهذا بدأ به بقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وختم به بقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

١٥- وعد الله ـ عز وجل ـ بتحقيق الهداية لمن آمن به واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

١٦- أن على الإنسان أن يجتهد بالقيام بشرائع الإيمان والإسلام، ويسأل الله الهداية والتوفيق، ويرجو ثواب الله، ويخشى عقابه، ولا يُدِل على الله بعمله؛ لقوله ـ

تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾.

١٧- لا يستوي عند الله من قام بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بالقيام عليه وحراسته ونحو ذلك مع الشرك بالله، مع من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾.

١٨- لا يستوي من آمن وقام بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بالعبادة فيه مع من آمن وجاهد في سبيل الله، فهؤلاء أعظم درجة عند الله ولهم من الفضل والنعيم ما ليس لغيرهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ﴾ الآية.

١٩- نفي هداية الله وتوفيقه عن القوم الظالمين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ومفهوم هذا إثبات هدايته ـ وتوفيقه لغير الظالمين.

٢٠- عظم ما أعد الله ـ عز وجل ـ للذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم من الدرجات، وما خصهم به من الفوز والبشارة بالرحمة والرضوان والجنات وما فيها من النعيم المقيم والخلود الأبدي، والأجر العظيم عنده، لقوله ـ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ (٢١) خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ (٢٢)﴾.

٢١- فضل الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس.

٢٢- أن الإيمان أصل وأساس لقبول جميع الأعمال؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ الآية.

٢٣- فضل الهجرة على الجهاد لتقديمها عليه في الآية.

٢٤- أن المعتبر من الجهاد ما كان في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله.

٢٥- أن الجهاد بالأموال أهم من الجهاد بالأنفس؛ لتقديم الجهاد بالأموال في الآية على الجهاد بالأنفس ـ وهو الغالب في القرآن الكريم.

٢٦- إثبات ربوبية الله الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾.

٢٧- إثبات صفة الرحمة والرضا لله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾.

٢٨- إثبات أبدية الجنة ونعيمها وأهلها، وأنها لا تفنى، ولا يفنى نعيمها، وأهلها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

٢٩- عظم ما عنده الله من الأجر والثواب مما لا يقدر قدره سواه ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

٣٠- الترغيب في المسابقة في الطاعات والعمل الصالح لنيل ما عند الله من الأجر العظيم.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة: ٢٨، ٢٩].

قوله ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ ﴾ الآية.

نفى ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة أن يكون المشركون أهلاً لعمارة المسجد الحرام مع شهادتهم على أنفسهم بالكفر توطئة وتمهيداً للنهي عن قربهم المسجد الحرام، وهو ما ذكره الله ـ عز وجل ـ في هذه الآية.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ النداء والخطاب للمؤمنين حال نزول الآية، ومن يأتي بعدهم من المؤمنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة، تفيد الحصر، أي: ما المشركون إلا نجس، والنجس يطلق على النجس حسيًّا؛ كالغائط والبول والدم المسفوح والخنزير والميتة ونحو ذلك.

ويطلق على النجس معنوياً كالشرك والمعاصي ونحو ذلك. وهو المراد هنا فنجاسة المشركين نجاسة معنوية، وهي صفة ملازمة لهم، وهي أشد من النجاسة الحسية؛ لأن النجاسة الحسية يزيلها الماء والتراب ونحو ذلك، وأما النجاسة المعنوية، وهي نجاسة العقائد والأعمال فلا يزيلها إلا التوبة والإيمان، ولهذا فإن المؤمن طاهر لا ينجس، كما قال ﷺ: «**إن المؤمن لا ينجس**»[1].

(١) أخرجه البخاري في الغسل ـ عرق الجنب وأن المسلم لا ينجس (٢٨٥)، ومسلم في الحيض (٢٧١)، وأبوداود في الطهارة (٢٣١)، والترمذي في الطهارة (١٢١)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٥٣٤) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

وقد قيل: المراد بالنجس في الآية على ما يشمل النجاسة المعنوية والحسية أيضاً؛ لأنهم لا يتطهرون من النجاسات، ومن الحدث الأكبر والأصغر.

﴿ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ الفاء للتفريع، و«لا» ناهية، والنهي للمؤمنين بأن لا يَدَعوا المشركين يقربون المسجد الحرام، وظاهره نهي المشركين عن قرب المسجد الحرام مبالغة في نهي المؤمنين من تمكينهم من ذلك.

وقوله: ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ﴾ أبلغ من «فلا يدخلوا» أي: فلا يمكنوا من الاقتراب من المسجد الحرام احتراماً وتكريماً له من رجسهم؛ لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، كما قال ﷺ(١).

والمراد بالمسجد الحرام ما يشمل الحرم كله. كما ينبغي منعهم من دخول سائر المساجد.

﴿ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ وهو العام الذي نزلت فيه هذه الآيات سنة تسع من الهجرة، فلا يجوز أن يقربوا المسجد الحرام بعد هذا العام، لا لحج ولا لعمرة، ولا لغير ذلك؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليًّا بهذه الآيات مع أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ وأمر عليًّا في نفر من الصحابة أن ينادوا في الناس: «أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»(٢).

قال ابن كثير(٣): «فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدراً».

وإنما أضيف العام إليهم في قوله: ﴿ بَعْدَ عَامِهِمْ ﴾؛ لأن هذا الحكم الخطير المبلغ لهم فيه وهو المنع من قرب المسجد الحرام يتعلق بهم خاصة.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ الواو عاطفة.

---

(١) هذا جزء من حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ الذي فيه: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله**» وقد سبق تخريجه قريباً.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في «تفسيره» (٤/ ٧٣).

و«إن» شرطية، و﴿خِفْتُمْ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾. و«العيلة» الفقر. قال ـ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۝٣﴾ [النساء: ٣]، أي: ألا تفتقروا.

والمعنى: وإن خفتم أيها المؤمنين فقراً بسبب منع المشركين من قرب المسجد الحرام، بانقطاع ما قد يحصل منهم من نفقات وهدايا وتجارة في المواسم.

﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ ارتبط الجواب بالفاء لاقترانه بـ«سوف».

وهذا وعد من الله ـ عز وجل ـ بأن يغني المؤمنين مما عنده من الفضل والزيادة.

وقد أنجز ـ عز وجل ـ وعده، وأغنى المسلمين من فضله بما أوجب على المشركين من الجزية، وبما بسط من الأرزاق للمسلمين، وأدرَّ لهم من الخيرات ورزقهم من الثمرات حيث دخل أهل كثير من البلاد في الإسلام وأخذوا يؤمون البيت للحج والعمرة والاعتكاف والعبادة، ولطلب التجارة، فصارت تجبى إلى الحرم الثمرات والأرزاق من كل حدب وصوب، من اليمن ومصر والشام والهند، وغير ذلك، تحقيقاً لوعد الله ـ عز وجل ـ واستجابة لدعاء خليله عليه الصلاة والسلام حيث قال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧].

﴿إِن شَاءَ﴾ أي: إن أراد، والمشيئة يراد بها في القرآن الكريم الإرادة الكونية.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ذو علم واسع، وذو حكم تام، وحكمة بالغة، ومن علمه ـ عز وجل ـ وحكمه وحكمته أن نهى عن قرب المشركين المسجد الحرام، وعلم ما قد يخطر في نفوس المؤمنين من خوف العيلة والفقر فوعدهم بأن يغنيهم من فضله إن شاء فوفى ـ عز وجل ـ لهم بما وعدهم وصب عليهم الأرزاق صبًّا.

قوله ـ تعالىٰ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ

وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾

أَمَرَ الله ـ عز وجل ـ فيما سبق بقتل المشركين وأخذهم أينما وجدوا وقتالهم حتى يتوبوا ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك وجب تخلية سبيلهم والكف عنهم، وأنهم إخواننا في الدين، ثم أمر في هذه الآية بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وهو أول أمر بقتالهم، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة، ولهذا تجهز ﷺ لقتال الروم وخرج إليهم بنحو ثلاثين ألف مقاتل ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامِه، وذلك لضيق الحال وضعف الناس(١).

قوله: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ أي: قاتلوا الكفار الذين لا يصدقون بالله وربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته ﴿وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ يوم القيامة وما فيه من الحساب والجزاء على الأعمال والجنة والنار.

وفي إعادة «لا» وحرف الجر مع العطف تأكيد وجوب الإيمان باليوم الآخر، وأن من آمن بالله ولم يؤمن باليوم الآخر لم ينفعه ذلك.

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ «ما» موصولة، أي: ولا يحرمون الذي حرم الله ورسوله من المحرمات، بل استحلوا ما حرم الله ورسوله بأدنى الحيل، كما احتالوا في وضع الشباك للصيد يوم السبت وأخذه يوم الأحد، وكما جملوا الشحوم التي حرمها الله عليهم وأذابوها وأكلوا ثمنها وغير ذلك.

وأعاد «لا» لتأكيد وجوب تحريم ما حرم الله ورسوله، وأن ذلك من لازم الإيمان بالله.

وعطف وصف الرسول أو اسمه في قوله ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ على اسم «الله» بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن ما حرمه رسوله كالذي حرمه الله، بل هو مما حرمه الله، كما قال ـ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال ـ تعالى: ﴿وَمَآ

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٧٤-٧٥).

ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧].

﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ ﴾ ﴿ دِينَ ٱلْحَقِّ ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة، أي: الدين الحق، الذي جاء به محمد ﷺ ونسخ جميع الأديان قبله، كما قال ـ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال ـ تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ ﴿ مِنَ ﴾ بيانية، أي: من الذين أعطوا الكتاب، وهم اليهود والنصارى، والمراد بـ﴿ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ الجنس، فاليهود أوتوا التوراة والنصارى أوتوا الإنجيل.

وهم كما لم يدينوا بدين الحق الذي جاء به محمد ﷺ لم يدينوا قبل ذلك بما جاءت به رسلهم قبل أن ينسخ، بل حرفوا في ذلك وبدلوا، وأشركوا مع الله غيره، واتبعوا أهواءهم، كما ذكر الله ـ تعالى ـ عنهم.

قال ـ تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص: ٤٨-٥٠].

ولهذا كفروا بمحمد ﷺ وبما جاء به من الدين الحق مع معرفتهم لذلك في كتبهم، كما قال ـ تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [البقرة: ٧٥]، وقال ـ تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال ـ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ ﴾ [البقرة: ١٤٦، ١٤٧]، وقال ـ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٠].

﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾ أي: قاتلوهم إلى غاية أن يدفعوا الجزية، إن لم يسلموا.

و﴿ٱلْجِزْيَةَ﴾ الخراج والمال الذي يؤخذ على رقاب الكفار، مقابل الكف عن قتالهم، وتأمينهم والحفاظ على دمائهم وأعراضهم وأموالهم، وإذلالاً لهم وصغاراً.

ولهذا قال بعده:

﴿عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ ﴿عَن يَدٍ﴾ في موضع نصب على الحال، أي: حال كون إعطائهم إياها عن يد بأن يدفعوها بأيديهم مستسلمين مقهورين، من غير إرسال بها، أو ممانعة.

وعلى ما قيل من أنه قد يراد باليد في قوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ يد الآخذ للجزية وهم المسلمون فمعنى ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: عن قوة وسلطة قاهرة، أو إنعام عليهم بقبول الجزية منهم وترك قتالهم.

﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ حال، أي: حال كونهم صاغرين، وهذه حالة لازمة لإعطاء الجزية عن يد.

والصغار: الذل والهوان. والصاغر: الذليل الحقير، أي: وهم ذليلون حقيرون مهانون حيث أهانوا أنفسهم بالكفر وعدم الإيمان: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

ولهذا قال ﷺ: «**لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيقه**»(١).

والمقصود من أخذ الجزية منهم ومعاملتهم على هذا الوجه تعظيم حكم الله ـ عز وجل ـ وتحقير أهل الكفر، وترغيبهم في الدخول في الإسلام.

---

(١) أخرجه مسلم في السلام ـ النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (٢١٦٧)، وأبوداود في الأدب (٥٢٠٥)، والترمذي في السير (١٦٢٠) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

الفوائد والأحكام:

١- العناية والاهتمام بخطاب المؤمنين وتكريمهم وتشريفهم، وترغيبهم في الامتثال؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

٢- نجاسة المشركين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ ولا خلاف في نجاستهم معنويًّا لما هم عليه من الشرك والمعاصي، بل قيل بنجاستهم حسيًّا لأنهم لا يتطهرون من النجاسات والحدث الأصغر والأكبر.

والراجح أن أبدانهم ليست بنجسة؛ لأن الله ـ عز وجل ـ أباح نساء أهل الكتاب وذبائحهم وهم مشركون، كما قال الله عنهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقد توضأ النبي ﷺ من مزادة مشركة[١].

ويفهم من الآية طهارة المؤمنين، وقد قال ﷺ: «**المؤمن لا ينجس**»[٢].

٣- تحريم دخول المشركين المسجد الحرام، ووجوب منعهم من ذلك، بعد نزول هذه الآية، وذلك سنة تسع من الهجرة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ وهكذا ينبغي منعهم من دخول الحرم النبوي وسائر المساجد.

٤- إثبات حرمة الحرم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾.

٥- أن دخول المشركين للمسجد الحرام لم يكن ممنوعاً قبل هذا العام ونزول هذه الآيات.

٦- الإشارة إلى أنه قد يخطر في نفوس المؤمنين تخوف الفقر وانقطاع الإمداد

---

(١) أخرجه البخاري في الغسل (٢٨٥)، ومسلم في الحيض (٣٧١)، وأبوداود في الطهارة (٢٣١)، والنسائي في الطهارة (٢٦٩)، والترمذي في الطهارة (١٢١)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٥٣٤) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

والتجارة عنهم بسبب منع المشركين من دخول المسجد الحرام؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾.

٧- وعد الله ـ عز وجل ـ الذي لا يخلف الميعاد ـ بإغناء المسلمين من فضله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ وهكذا حصل بما أوجب الله ـ عز وجل ـ على المشركين من أهل الكتاب من دفع الجزية، وبما بسط للمسلمين من الأرزاق وأدر عليهم من الخيرات والثمرات التي صارت تجبى إليهم من كل حدب وصوب بعد أن دخل أهل كثير من البلاد في الإسلام.

٨- إثبات المشيئة لله ـ عز وجل ـ وهي الإرادة الكونية، وأنه لا يقع شيء إلا بمشيئته وإرادته. ولا يجب عليه شيء لخلقه إلا ما أوجبه سبحانه وتعالى على نفسه ـ تفضلاً منه وكرماً مما يوجب التعلق به ـ عز وجل ـ والتضرع إليه ورجاءه ـ مع بذل الأسباب.

٩- أن الغنىٰ في الدنيا ليس من لوازم الإيمان؛ لأن الله ـ عز وجل ـ علقه على مشيئته، وهي إرادته الكونية، التي بها يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ممن يحب وممن لا يحب[1].

١٠- إثبات صفة العلم الواسع لله ـ عز وجل ـ المحيط بكل شيء؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾.

١١- إثبات صفة الحكم التام لله ـ عز وجل، والحكمة البالغة؛ لقوله ـ عز وجل: ﴿حَكِيمٌ﴾.

١٢- وجوب قتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله

---

(١) كما جاء في حديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه**» أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣)، والدارمي في الرقاق (٢٧٨٣)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

ورسوله ولا يدينون دين الحق حتى يعطوا الجزية مقهورين أذلاء صاغرين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الجزية لا تؤخذ من غير أهل الكتاب؛ لأن الله لم يأمر بأخذ الجزية إلا منهم، وألحقوا بأهل الكتاب المجوس؛ لأن الرسول ﷺ أخذها من مجوس هجر[(١)].

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أنها تؤخذ من جميع الكفار، لا فرق بين كتابي وغيره، من العرب وغيرهم، ورجح هذا ابن القيم رحمه الله[(٢)]؛ لحديث بريدة ـ رضي الله عنه ـ أنه ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، وفيه: «**إذا لقيت عدوك فادعهم إلى ثلاث خصال، أو خلال فأيتهن أجابوك فأقبل منهم، وكف عنهم، ثم أمره أن يدعوهم إلى الإسلام فإن أبوا سألهم الجزية فإن أبوا قاتلهم**»[(٣)].

وليس فيها تقدير ثابت لا في الجنس ولا في القدر بل يجوز أن تكون ثياباً وذهباً وحللاً، وتزيد وتنقص بحسب حاجة المسلمين وحال من تؤخذ منه.

وتؤخذ وجوباً من الرجال الأحرار المكلفين، دون سواهم.

١٣ – وجوب الإيمان بالله، بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأن ذلك أعظم أركان الإيمان وأولها وأساسها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ

(١) كما في حديث بجالة أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لم يكن أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبدالرحمن بن عوف أن النبي ﷺ أخذها من مجوس هجر» أخرجه البخاري في الجزية (٣١٥٧)، وأبوداود في الخراج (٣٠٤٣)، والترمذي في السير (١٥٨٦).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ١٥٣-١٥٥)، (٥/ ٩٠-٩٢).

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)، وأبوداود في الجهاد (٢٦١٢)، والترمذي في السير (١٦١٧)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٥٨).

ٱلْأَخِرِ﴾.

١٤- وجوب الإيمان باليوم الآخر، يوم القيامة وأن ذلك من أعظم وأهم أركان الإيمان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾.

١٥- وجوب تحريم ما حرم الله ورسوله، طاعة وعبادة لله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

١٦- جواز عطف وصف الرسول ﷺ أو اسمه على اسم الله ـ عز وجل ـ في باب التحليل والتحريم بالواو التي تقتضي التشريك، وأن ما حرمه رسول الله ﷺ كالذي حرمه الله، بل هو مما حرمه الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

١٧- أن المحَرَّم ما حرمه الله ورسوله وما عداه فهو حلال.

١٨- أن دين الإسلام هو دين الحق، الذي يجب اتباعه، والذي نسخ جميع الأديان، ولا يقبل من أحد سواه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾.

١٩- أن أهل الكتاب حرفوا وبدلوا فيما أنزل الله عليهم في كتبهم، وأشركوا مع الله غيره ولم يدينوا بما جاء في كتبهم قبل نسخها.

٢٠- أن الغاية من قتال من لم يؤمن من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، فلو أعطوها بلا قتال لم يجز قتالهم.

٢١- ينبغي أن تؤخذ الجزية من أهل الكتاب على الصفة التي ذكر الله ـ عز وجل ـ تعظيماً لحكم الله ـ عز وجل ـ وقهراً لهم وإذلالاً، وترغيباً لهم في الدخول في الإسلام.

٢٢- أن من العقوبات ما يكون بدفع المال؛ لأن الله ـ عز وجل ـ أوجب على أهل الكتاب إعطاء الجزية مجازاة لهم على كفرهم، وأماناً لهم مع ترك قتالهم.

٢٣- أن الكفر والمعاصي تذل صاحبها وتهينه في الدنيا والآخرة، كما أن الإيمان والطاعة ـ عز للمرء في الدنيا والآخرة.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

قوله ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾.

أمر الله ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة بقتال أهل الكتاب، لما هم عليه من الكفر بالله واليوم الآخر ونحو ذلك حتى يعطوا الجزية مقهورين أذلاء، ثم ذكر بعض نقائصهم في هذه الآية تحقيراً لهم في نفوس المؤمنين، وتحريضاً للمؤمنين على عداوتهم والتشديد في معاملتهم، وتحذيراً من مسلكهم.

قوله: ﴿إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ﴾.

و﴿ٱلۡأَحۡبَارِ﴾ جمع «حبر» بفتح الحاء وكسرها، وهم العلماء، ولهذا سُمي ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «حبر الأمة، وترجمان القرآن».

وسُمي العلماء أحباراً؛ لأنهم يُحبِّرون العلم، أي: يُحسِّنونه ويزينونه ويبينونه للناس، وهو محبر في صدورهم؛ كما قال ـ تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

ومن هذا ما روي أن أبا موسى ـ رضي الله عنه ـ لما قال له النبي ﷺ: «**لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود**»[(١)]، قال أبوموسى ـ رضي الله عنه: «لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٨)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٩٣)، والترمذي في المناقب (٣٨٥٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٤١) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) جاء هذا في رواية ابن سعد وغيره كما ذكر ذلك صاحب الفتح في شرح حديث أبي موسى.

والمراد بالأحبار في الآية: علماء اليهود؛ كما قال ـ تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣]، وقال ـ تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤]:

و﴿وَالرُّهْبَانِ﴾ جمع راهب، والمراد بهم عباد النصارى؛ كما قال ـ تعالى: ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٨٢]، والقسيسين: علماء النصارى، والرهبان: عبادهم؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧].

والمراد بالكثير من الأحبار و الرهبان الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب بما جاء به نبينا ﷺ، وهم أكثر أهل الكتاب.و قد آمن منهم من آمن كعبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ من اليهود، والنجاشي من النصارى.

﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ اللام في قوله: ﴿لَيَأْكُلُونَ﴾ للتأكيد والباء للملابسة، أي: ليأكلون أموال الناس أكلاً ملابساً للباطل.

و«الأموال» كل ما يتمول ويملك من نقد وعين.

و﴿النَّاسِ﴾ البشر، بنو آدم سموا بـ«الناس» لأنهم ينوسون، أي: يتحركون، ويأنس بعضهم ببعض، ويُؤْنسون، أي: يُرون ويشاهدون، بخلاف الجن فهم مستترون.

والباطل: الحرام، وما ليس بحق، كالربا والقمار والرشوة والغش، واتخاذ مناصبهم ورياساتهم وسيلة لاستغلال الناس وأكل أموالهم بغير حق، والمداهنة في شرع الله؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ١٦١].

والتعبير بالأكل لأنه المقصد الأهم من جمع المال، وهو كما يقال: كسوة الباطن، وللتشنيع عليهم وتقبيح فعلهم، ومثله صرفهم لها بأي وجه كان.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي:ويصدون الناس ويصرفونهم عن دين

الله وصراطه المستقيم بتلبيسهم الحق بالباطل، بعد أن صدوا عنه بأنفسهم؛ كما قال ـ تعالى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾﴾ [التوبة: ٩].

وكما أن في الآية ذمًّا لكثير من الأحبار والرهبان من أهل الكتاب ففيها أيضاً تحذير من مسلكهم.

وقد قال ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه. قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن**»(١).

قال سفيان بن عيينة: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى»(٢).

قوله ـ تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ﴾ الآية. وفي هذا إشارة إلى سبب أكل كثير من الأحبار والرهبان لأموال الناس بالباطل إيثارهم حب المال وكنزه على أمر الله وتناسيهم وعيده. والآية عامة في أهل الكتاب وغيرهم من هذه الأمة.

عن زيد بن وهب، قال: مررت بالربذة، فإذا أنا بأبي ذر ـ رضي الله عنه ـ فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشام، فاختلفت أنا ومعاوية في: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، فكان بيني وبينه في ذاك، وكتب إلى عثمان ـ رضي الله عنه ـ يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن اقدم المدينة، فقدمتها، فكثر عليَّ الناس، حتى

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩) ـ من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٨٠).

كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال لي: إن شئت تنحيت، فكنت قريباً، فذلك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمّروا عليّ حبشياً لسمعت وأطعت»(١).

قال ابن كثير(٢) في كلامه على الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾: «هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء، وعلى العباد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس».

و«الكنز» المال الذي لا تؤدى زكاته.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمته ـ يعني: شدقيه، ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك ـ ثم تلا:** ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٠]»(٣).

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن أعرابيًّا قال له: «أخبرني عن قول الله ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما: «من كنزها فلم يؤد زكاتها فويل له، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أُنزلت جعلها الله طهراً للأموال»(٤).

وفي رواية: زيادة ثم قال ابن عمر: «ما أبالي لو كان لي أحد ذهباً أعلم عدده وأزكيه، وأعمل فيه بطاعة الله ـ تعالى»(٥).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ كبر ذلك على المسلمين، فذكر عمر ـ رضي الله عنه ـ

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ـ ما أدي زكاته فليس بكنز (١٤٠٦).

(٢) في «تفسيره» (٤/ ٨٠).

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٣)، والنسائي في الزكاة (٢٤٨٢).

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة ـ ما أدي زكاته فليس بكنز (١٤٠٤).

(٥) أخرجها ابن ماجه في الزكاة ـ ما أدي زكاته فليس بكنز (١٧٨٧).

لرسول الله ﷺ، فقال: إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم»[(١)].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك**»[(٢)].

فالمعنى: والذين يجمعون الذهب والفضة والأموال، ولا يؤدون زكاتها، والحقوق الواجبة فيها. ولهذا قال بعده:

﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

الضمير الهاء يعود إلى الكنوز أو الأموال المفهومة من ﴿يَكْنِزُونَ﴾.

وفيه من الدلالة على الكثرة ما ليس في التثنية. وخص الذهب والفضة لأنهما الأصل الغالب في الأموال.

والإنفاق إخراج المال وبذله.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ابتغاء وجه الله، ووفق شرعه، وما أمر به من وجوه الإنفاق الواجبة والمستحبة، كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد، وفي الجهاد في سبيل الله، ومساعدة الفقراء والمساكين، ومصالح الأمة كبناء المساجد والمدارس والمستشفيات والسدود وحفر الآبار وغير ذلك.

وقد ذم الله ـ عز وجل ـ وتوعَّد ـ في مواضع عدة من كتابه مَن هذه صفته، فقال ـ عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ [الهمزة: ١-٣]، وقال ـ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾ [المعارج: ١٥-١٨]، وقال ـ تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١، ٢].

لكن إذا وفق الإنسان لكسب المال من الحلال، وإنفاقه في الحلال، مع أداء حقوق الله ـ تعالى ـ فيه، ولم يشغله عن طاعة الله ـ تعالى، ولم يكاثر فيه، فكما قيل:

---

(١) أخرجه أبوداود في الزكاة ـ باب في حقوق المال (١٦٦٤).

(٢) أخرجه الترمذي في الزكاة (٦١٨)، وقال: «حديث حسن غريب».

نعم المال الصالح للرجل الصالح.

وقال الشاعر:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس في الرجل

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرة المدينة فاستقبلنا أُحد، فقال: «**يا أبا ذر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: ما يسرني أن عندي مثل أُحد ذهباً تمضي عليّ ثالثة وعندي منه دينار، إلا شيئاً أرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه، ثم مشى، فقال: إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه، وقليل ما هم..**»(١).

ولا شك أن التقلل من الدنيا أولى وأسلم لما في المال من الفتنة غالباً؛ لما يعتري مكاسبه تارة من الشبهة، ولما يحصل تارة من منع حقوقه، وتعلق القلب به، والانشغال به عن طاعة الله ـ تعالى، ولهذا قال ـ تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨، التغابن: ١٥]، وقال ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩].

وقال ﷺ: «**فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم**»(٢).

وقال ﷺ: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب**»(٣).

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ خبر الموصول «الذين» وربط بالفاء لشبه الموصول

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٤)، ومسلم في الزكاة (٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في الجزية (٣٦٥٨)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦١)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٢)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٧) ـ من حديث عمرو بن عوف الأنصاري ـ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٣٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٤٩) ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

بالشرط. والضمير «هم» يعود إلى الموصول، ويجوز عوده إلى الأحبار والرهبان والذين يكنزون.

والبشارة في الأصل الإخبار بما يسر، والمراد بها هنا الإخبار بما لا يسر على سبيل التهكم، أي: فأخبرهم على سبيل التبشير لهم تهكماً بهم بعذاب أليم، كما قال ـ تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾ [النساء: ١٣٨].

و«العذاب» هو العقوبة، و«أليم» أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان ومعنوياً للقلوب.

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ ﴿ يَوْمَ ﴾ ظرف للعذاب، و﴿ يُحْمَىٰ ﴾ يوقد، والضمير في ﴿ عَلَيْهَا ﴾ يعود إلى الكنوز والأموال من الذهب و الفضة.

و﴿ جَهَنَّمَ ﴾ اسم من أسماء النار سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

أي: يوم يوقد على ما كنزوه من الذهب والفضة في نار جهنم حتى تبلغ الغاية في الحمو والحرارة وتكون صفائح من نار.

﴿ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ بوضع صفائح الذهب والفضة المحماة على جباههم وجنوبهم وظهورهم.

والكي: إلصاق الحار من الحديد بالعضو حتى يحترق الجلد.

والجباه: جمع جبهة، وهي أعلى الرأس مما يلي الوجه، أي: ما بين الحاجب والناصية.

والجنوب: جمع جانب، وهو جانب الجسد من اليمين واليسار.

والظهور: جمع ظهر.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة**

وإما إلى النار..» الحديث[١].

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: «**بشر الكنازين برضْفٍ يحمى عليه في نار جهنم، ثم يوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه، ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل**»[٢].

ويؤخذ من هذا الإطناب في التعداد في قوله: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾: تهويل شأن هذا العذاب وتعظيمه، وعمومه لجميع جهات الجسم.

وأيضاً: الإشارة إلى اختلاف هذه الجهات وتفاوتها في الإحساس بألم الكي فعمم عليها لتذوق أصناف العذاب كلها، فالكي في الجبهة أشهر وأبشع، وفي الجنب والظهر آلم وأوجع، وهكذا.

﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: ويقال لهم هذا تنديماً وتبكيتاً، وتوبيخاً وتقريعاً، وهذا من العذاب المعنوي الذي ينصب على القلوب، مما قد لا يقل عن العذاب الحسي.

والإشارة في قوله ﴿هَٰذَا﴾ إلى تعذيبهم وكيهم بما كنزوه من الذهب والفضة.

و﴿مَا﴾ موصولة، أي: هذا الذي جمعتم لأنفسكم، أو مصدرية، أي: هذا جمعكم لأنفسكم.

﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ ﴿مَا﴾ كسابقتها، أي: فقاسوا وأحسوا بألم وسوء عاقبة الذي كنتم تكنزون، أو بألم وسوء عاقبة كنزكم، وهذا كقوله ـ تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٨، ٤٩].

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٩٨٧)، وأبوداود في الزكاة (١٦٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٨)، ومسلم في الزكاة (٩٩٢).

الفوائد والأحكام:

١- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم باسم الإيمان والعناية والاهتمام بخطابهم.

٢- ذم كثير من أحبار أهل الكتاب ورهبانهم، وبيان ما هم عليه من أكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله تحريضاً للمؤمنين على عداوتهم والتشديد في معاملتهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣- التحذير من علماء السوء وعباد الضلال من أهل الكتاب وغيرهم، وما هم عليه من أكل أموال الناس بالباطل، والصد عن دين الله.

٤- تحريم أكل أموال الناس بالباطل، كالربا والرشوة، وأخذ العوض على الواجب، والمداهنة في شرع الله وأحكامه.

٥- أن من أحبار أهل الكتاب ورهبانهم من آمن واتبع ما جاء به نبينا ﷺ من الحق وهم قلة؛ لمفهوم قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ﴾ الآية.

٦- وجوب الزكاة في النقدين؛ الذهب والفضة بشروطها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

واختلف في وجوب الزكاة في الحلي المستعمل على قولين لأهل العلم.

٧- وجوب إخراج النفقات الواجبة في المال غير الزكاة كالنفقة على الأهل والأولاد وغير ذلك، واستحباب النفقات المستحبات من الصدقات وغيرها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رآني قال: «**هم الأخسرون ورب الكعبة**». قال: فجئت حتى جلست فلم أَتَقَارَّ حتى قمت فقلت: يا رسول الله، فداك أبي وأمي، مَن هم؟ قال: «**هم الأكثرون أموالاً، إلا من قال هكذا وهكذا، من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه،**

وعن شماله وقليل ما هم»(١).

٨- الوعيد والتهديد بالعذاب الأليم لمن يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، وذمهم والتهكم بهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٩- جواز التهكم بأهل الكفر الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهذا على سبيل التهكم بهم.

١٠- تعذيب أهل الكنز بكيِّهم بما كنزوه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾.

١١- شدة ظلمة النار وحرها، وبُعد قعرها، لهذا سميت جهنم.

١٢- الجمع لمن يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بعد العذاب الحسي بكيهم بها في نار جهنم، وبين العذاب المعنوي بالتنديم والتوبيخ والتقريع؛ لقوله ـ تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾.

١٣- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٣٨)، ومسلم في الزكاة (٩٩٠)، والنسائي في الزكاة (٢٤٤٠)، والترمذي في الزكاة (٦١٧)، وابن ماجه في الزكاة (١٧٨٥).

قال الله ـ تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة: ٣٦-٣٧].

قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية.

قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ أي: إن عدد الشهور. و«الشهور» جمع شهر، وسمي الشهر شهراً لاشتهاره والمراد بالشهور الشهور القمرية المعروفة عند العرب، وأكثر الأمم، وهي أقدم أشهر التوقيت وأضبطها لاعتمادها على القمر واختلاف أحواله ومنازله وهي التي يدور عليها فلك الأحكام الشرعية؛ كما قال ـ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وقال ـ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكم الله ـ عز وجل، وتقديره، وشرعه.

﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ قرأ أبو جعفر «عشْر» بسكان الشين، وقرأ الباقون بفتحها.

وهذه الأشهر هي: المحرم، وصفر، وربيع الأول، وربيع الثاني، وجمادى الأولى، وجمادى الثانية، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذو القعدة، وذو الحجة.

﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في مكتوب الله في اللوح المحفوظ، وتقديره.

﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ ظرف زمان لـ﴿كِتَٰبِ﴾ منصوب. أي: يوم خلق السموات السبع والأرضين السبع، كما قال ـ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى

خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢].

ويقدم غالباً ذكر السموات، لأنها أعظم وأعلى، وخلقت قبل دحو الأرض، كما قال ـ تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠].

أما خلق الأرض فهو قبل خلق السموات؛ لقوله ـ تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

وقد يقدم ذكر خلق الأرض، كما قال ـ تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾ [طه: ٤].

﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ أي: من هذه الأشهر الاثني عشر أربعة أشهر حرم، ثلاثة سرد، وهي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وواحد فرد وهو رجب.

ومعنى ﴿حُرُمٌ﴾ أي: أنها أشهر محرمة، يجب احترامها، ويحرم فيها القتال، ونحو ذلك.

عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ خطب في حجته، فقال: «**ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض؛ السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، و المحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان**»(١).

وهذا تقرير منه ﷺ وتثبيت للأمر على ما جعله الله ـ تعالى ـ في أول الأمر، من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقصان، ولا نسيء ولا تبديل.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة التوبة (٤٦٦٢)، ومسلم في القسامة ـ تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩)، وأحمد (٥/ ٣٧).

والحكمة ـ والله أعلم ـ في كون ثلاثة منها سرداً، هي ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم؛ ليأمن الناس ويتمكنوا من أداء مناسك الحج والعمرة، ويكون في ذلك المدة الكافية لقدومهم وعودهم إلى بلادهم آمنين، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار، ليتمكن من أراد زيارته من أقصى جزيرة العرب من الزيارة والعود إلى وطنه آمناً(١).

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الإشارة لما سبق من كون عدة الشهور عند الله ـ عز وجل ـ اثنا عشر شهراً في كتابه يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له.

﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: الشرع الكامل المستقيم.

﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ الفاء للتفريع، و«لا» ناهية، ﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في الأشهر الأربعة الحرم، لأنها أقرب مذكور، ولأن الظلم فيها أشد لحرمتها، كما قال ـ تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فإن الفسوق منهي عنه في الحج وغيره، لكنه في الحج أعظم، ولأنه لو أريد الأشهر الاثنا عشر لقال: «فيها» ولم يقل «فيهن».

أي: فلا تظلموا في هذه الأشهر الأربعة المحرمة أنفسكم، بالقتال فيها وإحلالها وارتكاب الذنوب والمعاصي المتعدية وغيرها فيها؛ لأن ذلك كله ظلم للنفس، وهو في الأشهر الحرم أشد ظلماً وإثماً، كما قال ـ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج: ٢٥]، فإن كان ظلم النفس بالاعتداء على الآخرين، فهو ظلم لها من وجهين:

الأول: أن ظلم الإنسان لأخيه بمثابة ظلمه لنفسه؛ لأن الأمة كالجسد الواحد، كما قال ـ تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٨٩).

والثاني: أن عاقبة الاعتداء والظلم ترجع إلى الظالم، كما قيل:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً فالظلم يرجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

ويجوز كون الضمير ﴿فِيهِنَّ﴾ يعود إلى الأشهر الاثني عشر كلها.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ الآية، ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ في كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة فجعلهن حراماً، وعظم حرماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم»(١).

﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ ﴿كَآفَّةً﴾ حال من المشركين في الموضع الأول، وفي الموضع الثاني حال من ضميرهم «الواو» وهي بمعنى «جميعاً».

والكاف في قوله: ﴿كَمَا﴾ للتشبيه والتعليل، و«ما» مصدرية، أي: مثل قتالهم لكم كافة، كما في قوله ـ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

والمعنى: قاتلوا المشركين كلهم جميعاً، كما يقاتلونكم كلهم جميعاً.

ويحتمل أن ﴿كَآفَّةً﴾ في الموضعين حال من المخاطبين، أي: قاتلوا المشركين كلكم جميعاً، كما يقاتلونكم كلكم جميعاً.

ويَرِدُ على هذا الاحتمال أن النفير لا ينبغي لجميع المؤمنين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢].

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أمر هنا بالعلم؛ لأن هذا مما ينبغي أن يعلمه المؤمن ويعتقده بقلبه، وهو أن الله ـ عز وجل ـ مع عباده المتقين.

والمراد بالمعية هنا المعية الخاصة بأوليائه ـ عز وجل ـ وهي معية التوفيق

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٦٩١).

والحفظ والنصر و التأييد، إضافة إلى معية العلم والإحاطة العامة لهم ولغيرهم، فهو عز وجل مع عباده المتقين له بفعل أوامره واجتناب نواهيه بتوفيقه وحفظه ونصره وتأييده لهم.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل «معكم»، إشارة إلى أنهم من جملة المتقين ليستبشروا بذلك، وأيضاً حثًّا لهم على الاستزادة من تقوى الله ـ عز وجل ـ وليشمل غيرهم من المتقين فيكون فيه ترغيب بتقوى الله.

قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

ذكر ـ عز وجل ـ في الآية السابقة أن عدة الشهور عنده اثنا عشر شهراً في كتابه، منها أربعة حرم، ونهى عن ظلم الأنفس فيهن، ثم أتبع ذلك ببيان حكم ما كان يفعله المشركون من النسيء في هذه الأشهر، بتحليل الحرام، وتحريم الحلال، وأن ذلك من زيادة الكفر، ومن الضلال والظلم، تحذيراً من ذلك.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ قرأ ورش عن نافع وأبوجعفر بياء مشددة بدون همز (النسيُّ)، وقرأ الباقون (إنما النسيء) بالهمز.

و﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، أي: ما النسيء إلا زيادة في الكفر و﴿ٱلنَّسِىٓءُ﴾ التأخير والتأجيل. والمراد به في الآية تأخير حرمة الشهر الحرام إلى شهر حلال، فيحلون الشهر الحرام ويحرمون بدلاً منه شهراً حلالاً، يوخرون مثلاً حرمة المحرم إلى صفر ونحو ذلك استعجالاً منهم للاعتداء والغارات على الآخرين.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ قال: «النسيء: أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يوافي الموسم كل عام، وكان يكنى «أبا ثمامة»، فينادي: ألا إن أبا ثمامة لا يُحابُ ولا يُعابُ، ألا وإن صَفَر العام الأول العام حلالٌ، فيحله الناس، فيحرم صفراً عاماً،

ويحرم المحرم عاماً. فذلك قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾. وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ يقول: يتركون المحرم عاماً، وعاماً يحرمونه»[١].

كما قال شاعرهم:

لقد علمت مَعَدٌّ أنَّ قومي ... كرام الناس أنَّ لهم كراما

ألسنا الناسئين على معد ... شهور الحل نجعلها حراماً

فأي الناس لم ندرك بوتر ... وأي الناس لم نُعلك لجاماً[٢]

﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ لأنه تحليل ما حرمه الله وتحريم ما حلله فهو كفر مضموم إلى كفرهم.

﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ خبر ثان عن «النسيء» وصيغة المضارع تدل على الاستمرار. قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم بضم الياء وفتح الضاد (يُضَل) بالبناء للمفعول، وقرأ يعقوب بضم الياء وكسر الضاد (يُضِل) أي: يضل به الذين كفروا الناس، فالذين كفروا فاعل.

وقرأ الباقون بفتح الياء وكسر الضاد (يَضل) أي: يَضِلون هم بأنفسهم.

والضلال: البعد والتيه عن الطريق السوي. والإضلال: إبعاد الناس عنه.

والباء في قوله (به) للسببية، أي: يُضَل بسببه الذين كفروا عن الحق، فَيَضِلون، ويُضِلون.

﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا﴾ بيان للنسيء، أي: يحلون الشهر عاماً، ويحرمونه عاماً، أو يحلونه في بعض الأعوام ويحرمونه في بعضها، أو يحلون النسيء عاماً ويحرمونه عاماً.

﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ اللام للتعليل، والمواطأة الموافقة، أي: لأجل أن

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤٥٢).

(٢) الأبيات لعمرو بن قيس المعروف «بجَذْل الطِّعان». انظر: «السيرة النبوية» (١/ ٤٥)، «الروض الأنف» (١/ ٤٢)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ٩١).

يوافقوا عدة ما حرم الله، فيحرموا من الشهور عدد أربعة أشهر بعدد ما حرم الله منها، حفاظاً على العدد، وإن خالفوا في المعدود، ولهذا قال: ﴿ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة، أي: فيحلوا الذي حرمه الله منها.

وأظهر في قوله: ﴿ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ ﴾ ولم يقل: (فيحلوه) لزيادة التشنيع عليهم وذمهم في جرأتهم على الله.

﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْۗ ﴾ أي: حسن لهم الشيطان والأنفس الأمارة بالسوء، وغيرهما أعمالهم السيئة، فرأوا السيئ والقبيح حسناً، كما قال ـ تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ ﴾ [فاطر: ٨]، وسوء العمل والعمل السيئ هو ما يسوء صاحبه في الحال والمآل، وقد يسوء غيره إذا كان متعدياً، مباشراً، أو غير مباشر.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أي: لا يوفقهم، وأظهر ولم يقل (والله لا يهديهم) للتسجيل عليهم بالكفر وتأكيد بلوغهم الغاية في الكفر، وأن كفرهم سبب عدم هدايتهم، ولتعميم نفي الهداية عنهم وعن غيرهم من الكافرين.

الفوائد والأحكام:

١- أن عدد الشهور عند الله وفي حكمه وشرعه اثنا عشر شهراً في مكتوبه في اللوح المحفوظ منذ خلق السموات و الأرض، كما هي عليه اليوم، منها أربعة أشهر حرم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ﴾.

٢- إثبات تقدير الله ـ عز وجل ـ مقادير كل شيء، قبل خلق السموات والأرض.

٣- أن كون الأشهر اثني عشر شهراً منها أربعة حرم هو الدين القويم والشرع المستقيم، مما ينبغي على المسلمين الأخذ به و السير عليه في حساباتهم.

٤- وجوب تعظيم الأشهر الحرم، ذي القعدة، وذي الحجة، ومحرم، ورجب، وتحريم الظلم والقتال والاعتداء فيها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ ﴾.

٥- تغليظ ظلم النفس في الأشهر الحرم بالذنوب والمعاصي أشد من غيرها؛ لقوله - تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ فإن كانت الذنوب مما يتعدى فهو أشد؛ لأنه ظلم للنفس وظلم للغير.

٦- تحريم القتال في الأشهر الحرم؛ لأنه من الظلم للنفس؛ لأن الله حرم القتال في الأشهر الحرم؛ قال - تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال - تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال - تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

وقد تقدم ذكر الخلاف في نسخ القتال في الأشهر الحرم في الكلام على هاتين الآيتين في سورة البقرة والمائدة، وبيان أن الصحيح أنه باق لم ينسخ فلا يجوز ابتداء القتال فيها.

٧- رحمة الله - عز وجل - بعباده وشفقته عليهم أكثر من شفقتهم على أنفسهم لنهيه - عز وجل - لهم عن ظلم أنفسهم في هذه الأشهر الحرم.

٨- أن بعض الأزمنة أفضل من بعض فالأشهر الحرم أفضل من غيرها، ورمضان أفضل من غيره، وعشر ذي الحجة وأيام التشريق ويوم الجمعة والاثنين والخميس أفضل من غيرها، كما أن بعض الأمكنة أفضل من بعض، فالمسجد الحرام والمسجد النبوي والمساجد عموماً أفضل من غيرها.

٩- وجوب قتال جميع المشركين لقتالهم جميعاً للمؤمنين وعداوتهم لهم؛ لقوله - تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾.

١٠- يجب على المؤمنين جميعاً أن يكونوا يداً واحدة في قتال المشركين؛ لقوله - تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أي: كلكم جميعاً لكن من غير نفير الجميع؛ لأن الله - تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢].

١١- قتال المشركين وعداوتهم لجميع المؤمنين؛ لقوله - تعالى: ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي: كما يقاتلونكم كلكم جميعاً.

١٢- إثبات معية الله ـ عز وجل ـ الخاصة للمتقين بتوفيقه لهم وحفظهم ونصرهم وتأييدهم، وأن هذا مما ينبغي علمه واعتقاده؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

١٣- الترغيب والحث على تقوى الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

١٤- إبطال ما كان عليه المشركون من النسيء بتحليل الشهر الحرام وتحريم الشهر الحلال، وتحليل بعض الشهور عاماً وتحريمه عاماً، وبيان أن ذلك من زيادة الكفر، ومن الضلال؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾.

١٥- أن تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل من الكفر؛ لقوله ـ تعالى: ﴿زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾.

١٦- وجوب تحريم ما حرم الله، وتحليل ما أحل الله من الشهور وغير ذلك.

١٧- أن إحلال الأشهر الحرم الأربعة أو بعضها، وتحريم أشهر حلال بعددها، ليوافق ذلك عدد ما حرم الله لا يغير من الأمر شيئاً لما فيه من الإخلال بالمعدود وهو الأهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾.

١٨- التشنيع على الكفار، وذمهم في جرأتهم على الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾.

١٩- أن ما وقع فيه المشركون من النسيء وتحليل ما حرم الله من الشهور وغير ذلك من سيئ الأعمال مما زينه لهم الشيطان وأتباعه والأنفس الشريرة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾.

٢٠- نفي هدايته ـ عز وجل ـ وتوفيقه عن القوم الكافرين بسبب كفرهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ويفهم من هذا هدايته ـ عز وجل ـ للمؤمنين.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة: ٥٨-٦٠].

ذكر الله ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة بعض صفات المنافقين موبخاً لهم، من التثاقل عن الجهاد والاستئذان والاعتذار عن الخروج إليه، وركونهم إلى الدنيا وعرضها القريب، وابتغائهم الفتنة، وتربصهم بالمؤمنين، وفسقهم، وعدم قبول نفقاتهم لكفرهم بالله ورسوله، وعدم إتيانهم الصلاة إلا وهم كسالى، وعدم إنفاقهم إلا وهم كارهون، وحلفهم أنهم من المؤمنين وليسوا منهم. ثم أتبع ذلك ببيان أنهم مع ما سبق من الصفات الذميمة يتدخلون فيما لا يعنيهم فيعترضون على قسمته ﷺ للصدقات ويلمزونه في ذلك ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ مبيناً لهم ما ينبغي أن يكونوا عليه ولمن تكون الصدقات.

سبب النزول:

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: «بينا النبي ﷺ يقسم جاء عبدالله بن ذي الخويصرة التميمي، فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: «**ويحك، ومن يعدل إذا لم أعدل**» قال عمر بن الخطاب: ائذن لي فأضرب عنقه، قال: «**دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّميَّة، ينظر في قُذَذِهِ**[1] **فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نصله**[2] **فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه**[3] **فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيِّه**[4] **فلا يوجد فيه**

---

(١) قُذَذِهِ: القذذ: ريش السهم، واحده قذة. انظر: «النهاية» مادة «قذذ».

(٢) نصله: النصل: حديدة تكون فوق رأس السهم لينفذ في الغرض. انظر: «النهاية» و«اللسان» مادة «نصل».

(٣) رصافه: الرصاف: عقب يلوى على مدخل النصل في السهم. انظر: «النهاية» مادة «رصف».

(٤) نضيه: النضي: السهم قبل أن ينحت إذا كان قدحاً. انظر: «النهاية» مادة «نضا».

شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل إحدى يديه، أو قال: إحدى ثدييه مثل ثدي المرأة، أو قال: مثل البضعة تَدَرْدَرُ[(١)] يخرجون على حين فرقة من الناس».

قال أبوسعيد: أشهد سمعت من النبي ﷺ، وأشهد أن عليًّا قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل النعت الذي نعته النبي ﷺ، قال: فنزلت فيه ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾»[(٢)].

قوله ـ تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

قرأ يعقوب: (يلمُزُك) بضم الميم، وقرأ الباقون بكسرها. و﴿ مَّن ﴾ موصولة والخطاب للنبي ﷺ، أي: ومن المنافقين الذي يلمزك في الصدقات.

واللمز: هو القدح والتعييب والتنقص، كما قال ـ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ [التوبة: ٧٩]. أي: يعيبونهم وينتقصونهم بالسخرية منهم.

﴿فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ أي: في قسم الصدقات بين الناس.

﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ ﴾ أي: فإن أعطوا من الصدقات رضوا.

﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ أي: وإن لم يعطوا منها سخطوا وغضبوا و«إذا» هي الفجائية، أي: يفاجئون بالسخط والغضب إذا لم يعطوا منها دون ترو أو تأمل، لجشعهم وشحهم، كما قال ـ تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ ﴾ [الأحزاب: ١٩].

وهذا يدل على أن اعتراضهم على قسمه ﷺ للصدقات ولمزهم له في ذلك ليس لقصد صحيح، وإنما لأجل حظوظ أنفسهم، فهو عدل إن أعطاهم وغير عدل إن

---

(١) تَدَرْدَر: أي: ترجرج، تجيء وتذهب. انظر: «النهاية» مادة «دردر».

(٢) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين والمعاندين ومن ترك قتال الخوارج للتألف (٦٥٣٤)، ومسلم في الزكاة ـ ذكر الخوارج وصفاتهم (١٤٨)، والنسائي في الكبرى ـ تفسير قوله ـ تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ (١١١٢٠)، وعبدالرزاق في «المصنف» (١٠/ ١٤٧)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٥٠٨).

لم يعطهم، وهذا هو حقيقة. اتباع الهوى، واشتراء الحياة الدنيا ومتاعها الزائل بالآخرة.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ الواو عاطفة، و﴿ وَلَوْ ﴾ حرف شرط غير جازم، و﴿رَضُوا۟ ﴾ فعل الشرط و﴿مَآ ﴾ موصولة، وجواب «لو» محذوف دل عليه المعطوف عليه، أي: ولو أن هؤلاء المنافقين رضوا الذي أعطاهم الله ورسوله من قسم قليلاً كان أو كثيراً لكان خيراً لهم.

وفي عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه في قوله: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ بالواو التي تقتضي التشريك، دون إعادة الفعل ﴿ءَاتَىٰهُمُ﴾ دلالة على أن ما آتاهم الرسول ﷺ هو مما آتاهم الله، وأنه بوحي من الله.

﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ أي: كافينا الله، فنرضى بما قسمه لنا.

﴿ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ بيان لجملة ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾، والسين في قوله: ﴿سَيُؤْتِينَا ﴾ للاستقبال أي: سيعطينا الله مما عنده من الزيادة والخير العظيم. فيكون رجاؤهم وثقتهم بما وعدهم الله به أوثق مما في أيديهم.

﴿وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ أي: ويؤتينا رسوله من فضله ـ عز وجل؛ لأنه ﷺ هو المباشر لقسم الصدقات. ولهذا لم يقل من فضله وفضل رسوله.

قال ابن تيمية: «فذكر أن الرسول يؤتيهم، وأن ذلك من فضل الله وحده، ولم يقل من فضله وفضل رسوله»[(١)].

﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ تعليل، أي: لأننا إلى الله راغبون.

وقدم الجار والمجرور لإفادة القصر،ن أي: إلى الله وحده راغبون لا إلى غيره.

والرغبة: الطلب بتضرع ورجاء، أي: راغبون إلى الله متضرعون إليه، راجون توفيقه لنا لطاعته، وأن يغنينا بفضله عمن سواه.

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (٣/ ٢٠٠).

قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾

ذكر عز وجل في الآية السابقة لمز المنافقين للنبي ﷺ في قسم الصدقات، ثم أتبع ذلك بالرد عليهم ببيان أنه ـ عز وجل ـ هو الذي قسمها بنفسه، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره، فقال ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الآية.

كما في حديث زياد بن الحارث الصدائي ـ رضي الله عنه ـ قال: «أتيت النبي ﷺ فبايعته ـ فذكر حديثاً طويلاً ـ قال: فأتاه رجل فقال: أعطني من الصدقة. فقال له رسول الله ﷺ: «**إن الله ـ تعالى ـ لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أجزاء، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك**»[(١)].

وعن معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي**»[(٢)].

وفي الآية حسم لأطماع المنافقين وبيان أنهم لا يستحقون شيئاً منها.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه. ويقال لها كافة ومكفوفة؛ لأن «ما» دخلت على «إن» فكفتها عن العمل، وهو نصب المبتدأ ورفع الخبر.

أي: ما الصدقات إلا لهؤلاء المذكورين الفقراء والمساكين. إلخ.

و﴿ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ جمع صدقة، والمراد بها الزكاة الواجبة في الأموال: النقدين، والخارج من الأرض، وعروض التجارة، والسائمة من بهيمة الأنعام، قال ـ تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى

---

(١) أخرجه أبوداود في الزكاة ـ من يعطى الصدقة وحد الغنى (١٦٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في العلم ـ من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين (٧١)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٧).

اليمن: «**وأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**»[(١)].

وسميت صدقة لأنها تدل على صدق إيمان باذلها، كما سميت زكاة؛ لأنها تزكي المال، وتزيده بركة، وتحفظه من الآفات، وتزكي نفس صاحبها من الشح والبخل وتزكي نفس من دفعت إليه فلا يحمل على إخوانه الأغنياء ولا يبحث عن المال بطريق غير مشروع بسبب الحاجة.

﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ اللام في قوله ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ وما بعده للاستحقاق والتمليك، فهم يستحقون الزكاة ويملكونها ملكاً خاصًّا إذا أعطيت لهم.

و«الفقراء» جمع فقير، وهو المعدم الذي لا شيء عنده، أو عنده أقل من نصف الكفاية. وسمي الفقير فقيراً لخلو يده أخذاً من القفر وهي الأرض الخالية، أو لشدة حاجته أخذاً من فقار الظهر، فهو لإعدامه يشبه من انقصمت فقار ظهره فأشرف على الهلاك. قال لبيد:

لما رأى لبد النسور تطايرت رفع القوادم كالفقير الأعزل

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ جمع مسكين، وهو من عنده نصف الكفاية فأكثر دون تمامها، وسمي مسكيناً من السكون، وهو اللصوق في الأرض وعدم الحركة؛ لأن الحاجة أذلته وأسكنته، كما قال ـ تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: ١٦].

وقُدم الفقراء على المساكين، كما قدموا على بقية الأصناف لشدة فاقتهم وحاجتهم وقد اختلف أهل العلم في الفرق بين الفقير والمسكين على أقوال عدة أوصلها بعضهم إلى نحو أحد عشر قولاً[(٢)]. والأظهر أن الفقير المعدم الذي لا يجد شيئاً أو يجد قليلاً من الكفاية، والمسكين الذي لا يجد تمام الكفاية وإن وجد بعضها ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٣٩٥)، ومسلم في الإيمان (١٩)، وأبوداود في الزكاة (١٥٨٤)، والنسائي في الزكاة (٢٤٣٥)، والترمذي في الزكاة (٦٢٥)، وابن ماجه في الزكاة (١٧٨٣) ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «الناسخ والمنسوخ» بتحقيقنا (٢/ ٤٤٢)، «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» (١/ ١٦٠).

وقد استدل لهذا بقوله ـ تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقوله ـ تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]، فسموا مساكين وهم يملكون سفينة.

كما استدل له بأن الرسول ﷺ استعاذ من الفقر، وفتنته، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ كان يقول: «**وأعوذ بك من فتنة الفقر**»(١).

وعن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة: «**اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر**»(٢).

وقد روي عنه ﷺ أنه سأل المسكنة، فقال: «**اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة**»(٣).

وعلى كل حال فمن كان عنده ما يغنيه لم تحل له الزكاة، وكذا من كان لديه قدرة على الكسب مع توفر أسبابه. عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرة سويّ**»(٤).

وعن عبدالله بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ ـ يسألانه عن الصدقة، فقلَّب فيهما النظر، فرآهما جلدين، فقال: «**إن شئتما أعطيتكما، ولاحظَّ فيها لغني، ولا لقوي مكتسب**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٦٨)، ومسلم في الذكر والدعاء (٥٨٩)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٨).

(٢) أخرجه النسائي في السهو (١٣٤٧).

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٥٢) ـ من حديث أنس رضي الله عنه ـ وقال: «حديث غريب».

(٤) أخرجه أبوداود في الزكاة ـ من يعطى من الصدقة وحد الغنى (١٦٣٤)، والترمذي في الزكاة ـ ما جاء من لا يحل له الصدقة (٦)، وأحمد (٢/ ١٦٤، ١٩٢)، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٥) أخرجه أبوداود في الزكاة ـ من يعطى من الزكاة وحد الغنى (١٦٣٣)، والنسائي في الزكاة ـ مسألة القوي المكتسب (٢٥٨٩)، وأحمد (٤/ ٢٢٤).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه**»(١).

﴿ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا ﴾ وهم الجباة والسعاة على قبضها وجمعها، وحفظها وتوزيعها، فيعطون من الزكاة للحاجة إليهم أجرة عملهم عليها، وإن كانوا أغنياء، لكن لا يجوز أن يكونوا من قرابة الرسول ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة، لما جاء عن المطلب بن ربيعة بن الحارث: أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله ﷺ، ليستعملهما على الصدقة، فقال: «**إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس**»(٢).

﴿ وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ ﴾ وهم الذين يعطون منها لتأليف قلوبهم ممن يرجى إسلامهم، أو قوة إيمانهم أو كف شرهم عن المسلمين، ونحو ذلك.

فقد أعطى ﷺ صفوان بن أمية يوم حنين حتى أسلم، فعن صفوان بن أمية ـ رضي الله عنه ـ قال: «**والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ**»(٣).

وأعطى ﷺ يوم حنين جماعة من الطلقاء كل منهم مائة من الإبل، وقال: «**إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه، مخافة أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير قوله ـ تعالى: ﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا﴾ (٤٥٣٩)، ومسلم في الزكاة ـ المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه (١٠٣٩)، وأبوداود في الزكاة (١٦٣١)، والنسائي في الزكاة (٢٥٧١)، وأحمد (٢/ ٢٦٠، ٣٩٣).

(٢) أخرجه النسائي في الزكاة ـ ترك استعمال آل النبي ﷺ على الصدقة (١٠٧٢)، والنسائي في الزكاة (٢٦٠٩) ـ من حديث عبدالمطلب بن ربيعة والفضل بن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٣١٣)، والترمذي في الزكاة ـ ما جاء في إعطاء المؤلفة قلوبهم (٦٦٦)، وأحمد (٦/ ٤٦٢).

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٧)، ومسلم في الإيمان (١٥٠)، وأبوداود في السنة (٤٦٨٣)، =

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ «أنه بعث إلى النبي ﷺ بذهيبة في تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخير، وقال: أتألفهم»(١).

وفي حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ: «**فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم**»(٢).

﴿وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ بـ«في» الظرفية وكذا ما بعده للتنبيه على عظم حق هذه الأصناف، وأنها كالوعاء للزكاة. وفيه دلالة على أنه لا يشترط تمليكهم إياها، ودفعها لهم بأنفسهم، بل يجوز دفع ما يُعطى في الرقاب لأسيادهم، ودفع ما يُعطى للغارمين لغرمائهم ولو لم يعلموا بذلك، كما أن ما يدفع في سبيل الله لا يختص بملكه شخص بعينه بل هو في تجهيز الجيش عامة.

ومعنى ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي: وتصرف الزكاة في عتق الرقاب، وتخليصها، بشراء الرقاب وإعتاقها من الرق، وعون المكاتبين على سداد ما كاتبوا عليه وتخليصهم.

فيدفع سهم من الزكاة لعتق الرقاب وتخليصها أو المساعدة في ذلك، وهذا يدل على تشوق الإسلام وتشوفه إلى تحرير الرقيق، وتمليكه منافعه، ولهذا جعل سهماً من الزكاة في عتق الرقاب، كما جعل كثيراً من الكفارات في ذلك مثل كفارة القتل، وكفارة الظهار، وكفارة اليمين، وغير ذلك. قال ـ تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [البلد: ١١-١٣].

وعن عمرو بن عبسة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من

=

والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩٢) ـ من حديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٤٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٧٨) ـ من حديث أبي سعيد ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣١)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٩)، والنسائي في الزكاة (٢٦١٠)، والترمذي في المناقب (٣٩٠١).

أعتق رقبة مؤمنة كانت له فداءه من النار عضواً بعضو»[١].

وعن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، دلني على عمل يقربني من الجنة، ويباعدني عن النار. فقال: «**أعتق النسمة، وفك الرقبة**» فقال: يا رسول الله، أليسا واحداً؟ قال: «**لا، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها**»[٢].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة حق على الله عونهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف**»[٣].

وكما يعتق منها الرقيق والمكاتب فكذلك يفك منها الأسير المسلم عند بعض أهل العلم.

﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ جمع غارم، وهم الذين غرموا وتحملوا حمالات؛ لإصلاح ذات البين، بين المسلمين، أو ركبتهم ديون في غير معصية عجزوا عن أدائها، وكذا من أصابته جائحة اجتاحت ماله، ونحو ذلك.

فمن غرم لإصلاح ذات البين أعطي بمقدار ما غرم ولو كان غنياً، ومن غرم لإصلاح نفسه أو أصابته جائحة فيعطى ما يفي دينه، ويسد حاجته.

عن قبيصة بن مخارق الهلالي ـ رضي الله عنه ـ قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها. فقال: «**أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها**» قال: ثم قال: «يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة، فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش أو قال سداداً من عيش، ورجل أصابته فاقة، حتى يقوم

---

(١) أخرجه النسائي في الجهاد (٣١٤٢).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٩٩).

(٣) أخرجه النسائي في النكاح ـ معونة الله الناكح الذي يريد العفاف (٣١٢٠)، والترمذي في فضائل الجهاد ـ ما جاء في المجاهد والمكاتب والناكح وعون الله إياهم (١٦٥٥)، وابن ماجه في الأحكام (٢٥١٨)، وأحمد (٢/ ٢٥١، ٤٣٧).

ثلاثة من ذوي الحجا من قومه، فيقولون: لقد أصابت فلاناً فاقة، فحلت له المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش، أو قال: سداداً من عيش، فما سواهن من المسألة سحتاً، يأكلها صاحبها سحتاً»[1].

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها، فكثر دينه، فقال النبي ﷺ: «**تصدقوا عليه**» فتصدق الناس فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: «**خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك**»[2].

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم الغزاة المجاهدون في سبيل الله ـ عز وجل، أي: لإعلاء كلمة الله؛ كما قال ﷺ: «**من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[3].

فيجعل سهم من الزكاة لتجهيز الغزاة والمجاهدين في سبيل الله؛ لأن الجهاد لا يقوم إلا على المال بل هو أهم من الجهاد بالنفس، ولهذا نجد القرآن الكريم ـ غالباً ـ يقدم في الذكر الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المجتاز من بلد إلى بلد المنقطع في سفره، أي: الذي نفذت نفقته، فيعطى ما يوصله إلى بلده، ولو كان غنيًّا.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف يدل عليه قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ أي: فرض الله ذلك فريضة وأوجبه وقدره.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ذو علم واسع وسع كل شيء. فعلمه ـ عز وجل ـ

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ـ من تحل له المسألة (١٠٤٤)، وأبوداود في الزكاة (١٦٤٠)، والنسائي في الزكاة (٢٥٩١).

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة (١٥٥٦)، وأبوداود في البيوع (٣٤٦٩)، والنسائي في البيوع (٤٥٣٠)، والترمذي في الزكاة (٦٥٥)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٥٦).

(٣) سبق تخريجه.

محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة؛ قبل وجودها، وبعد وجودها، وبعد عدمها. يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

والعلم في الأصل إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكاً جازماً.

﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي: ذو حكم تام وحكمة بالغة، له الحكم الكوني والحكم الشرعي والحكم الجزائي، والحكمة الغائية والحكمة الصورية.

فهو - عز وجل - ذو العلم الواسع والحكم التام والحكمة البالغة في قسمة الصدقات وفي كل ما قدر وشرع، يعلم أحوال خلقه وما هو أصلح لهم بعلمه وحكمه وحكمته.

ومن علمه - عز وجل - وحكمه، وحكمته أن جعل الزكاة في هذه الأصناف الثمانية؛ الذين منهم من يعطى لحاجته كالفقراء والمساكين، وفي الرقاب، وابن السبيل، وكذا الغارمون إذا كان غرمهم لأنفسهم.

ومنهم من يعطى للحاجة إليه، كالعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي سبيل الله، وكذا الغارمون إذا كان غرمهم للإصلاح بين الناس تشجيعاً لهم على هذا العمل النبيل - وإن كانوا أغنياء.

ولو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم كما شرع الله - عز وجل - لم يبق في المسلمين فقير ولا محتاج، ولحصل من الأموال ما تكون به أعظم العدة والقوة والمنعة للأمة ضد أعدائها، وما تصلح به جميع مصالحها الدينية.

الفوائد والأحكام:

١- لمز بعض المنافقين للنبي ﷺ في قسم الصدقات، وتنقصهم وعيبهم له، لقوله - تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

٢- أن هدف المنافقين في لمزهم وعيبهم له ﷺ في قسم الصدقات من أجل أن يعطوا منها؛ لقوله - تعالى: ﴿ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾.

٣- أن نظرة المنافقين للحياة نظرة بهيمية مادية محضة، يرضيهم أن يعطوا من الصدقات، ويسخطهم أن لا يعطوا منها، ولا يفكرون فيما وراء ذلك.

٤- كان الأولى بهؤلاء الذين يلمزون النبي ﷺ في الصدقات الرضا بما آتاهم الله ورسوله، والتوكل على الله والثقة بكفايته وعطائه من فضله ورسوله مع الرغبة والتضرع إلى الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾.

٥- أن ما يعطيه الرسول ﷺ هو من عطاء الله ـ عز وجل ـ وفضله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بعطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسمه ـ عز وجل ـ بالواو التي تقتضي التشريك، دون إعادة الفعل ﴿ءَاتَىٰهُمُ﴾ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ أي: ورسوله يؤتينا من فضل الله ـ عز وجل.

٦- وجوب الرضا بما قسمه الله والثقة بكفايته وبما عنده من الفضل، وأنه نعم الحسيب، والحث على الرغبة والتضرع إليه ورجائه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية.

٧- تولى الله ـ عز وجل ـ وتفرده وحده بقسم الصدقات، وبيان أهلها، كما تولى قسمة المواريث؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الآية.

٨- أن أهل الزكاة المستحقون لها ثمانية أصناف، وهم: الفقراء، والمساكين، والعاملون عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمون، وفي سبيل الله، وابن السبيل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

٩- لا يجوز صرف الزكاة لغير الأصناف المذكورة؛ لأن الله ـ عز وجل ـ حصرها فيهم، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الآية. والحصر إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

والأولى صرفها لجميع الأصناف، ويجوز صرفها لصنف واحد؛ كما قال ـ تعالى: ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧١]، وقال ﷺ

لمعاذ ـ رضي الله عنه: «**أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**»(١).

بل يجوز صرفها لشخص واحد من صنف واحد؛ كما جعل ﷺ لسلمة بن صخر صدقة بني زريق(٢).

ولا تلزم التسوية بين الأصناف ولا بين أفراد الصنف الواحد إذا أُعطوا جميعاً.

ولا يجوز إعطاؤها من تلزمه نفقته كالأصول والفروع والزوجة، ولا لغني، ولا لمن كان ذا قدرة على الكسب مع توفر أسبابه، كما لا يجوز أن تعطى لقرابة النبي ﷺ وهم بنو هاشم وبنو عبدالمطلب.

١٠- أن إخراج الزكاة وإعطاءها لمستحقيها دليل على صدق إيمان دافعها، لهذا سميت صدقة.

١١- أن الفقراء أشد حاجة وفاقة من المساكين؛ لأن الله ـ عز وجل ـ قدمهم على المساكين وعلى بقية الأصناف.

١٢- أن المساكين غير الفقراء؛ لأن الله ـ عز وجل ـ عطفهم عليهم، والعطف في الأصل يقتضي المغايرة، ولهذا لو أوصى شخص للفقراء مثلاً بسدس ماله، وأوصى للمساكين بسبع ماله وجب إعطاء الفقراء السدس والمساكين السبع كما في وصيته، لكن لو أوصى لأحد الصنفين وحده دخل معه الآخر؛ لأن الفقير والمسكين من الأسماء المترادفة، التي إذا اجتمعت انفردت، وإذا انفردت اجتمعت كالإسلام والإيمان، والبر والتقوى، ونحو ذلك. ولهذا لو أوصى رجل بثلث ماله للفقراء دخل معهم المساكين، ولو أوصى بذلك

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٣٩٥)، ومسلم في الإيمان (١٩)، وأبوداود في الزكاة (١٥٨٤)، والنسائي في الزكاة (٢٤٣٥)، والترمذي في الزكاة (٦٢٥)، وابن ماجه في الزكاة (١٧٨٣) ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبوداود في الطلاق (٢٢١٣)، والترمذي في التفسير (٣٢٩٩)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٦٢) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

للمساكين دخل معهم الفقراء ـ وهكذا.

١٣- أن العاملين على الزكاة يعطون منها أجرة عملهم، حتى ولو كانوا أغنياء، وكذا المؤلفة قلوبهم على الإسلام يعطون ولو كانوا أغنياء؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهذا مطلق.

وقد اختلف أهل العلم في بقاء سهم المؤلفة قلوبهم بعد النبي ﷺ، فروي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ وجماعة من السلف أنهم لا يعطون من الزكاة بعد رسول الله ﷺ؛ لأن الله قد أعزَّ الإسلام وأهله، ومكن لهم في البلاد، فليسوا في حاجة إلى تأليف أحد على الإسلام.

وقال بعض أهل العلم إنهم يعطون منها عند الحاجة؛ لأن النبي ﷺ قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن وبعد ما أعز الله الإسلام. قالوا: وهذا أمر قد تدعو الحاجة والمصلحة إليه، فهو باق على جوازه[(١)].

١٤- جواز أخذ الأجرة لكل من اشتغل بعمل من أعمال المسلمين كالقضاء ونحوه؛ لأن الله فرض للعاملين على الزكاة فيها حقًّا، فكذلك غيرها من أعمال المسلمين.

١٥- حرص الإسلام على تحرير الرقيق، وفك الرقاب من الرق؛ لهذا جعل لذلك سهماً من الزكاة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾.

١٦- ترغيب الإسلام وتشجيعه في إصلاح ذات البين بين الناس وتحمل الغرم في سبيل ذلك، لهذا جعل للغارمين سهماً من الزكاة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾.

١٧- تخفيف الإسلام عن أتباعه ما يقع عليهم من غرامات وديون وجوائح في أموالهم بإعطائهم نصيباً من الزكاة.

١٨- أهمية المال في الجهاد في سبيل الله، لهذا جعل الشرع سهماً من الزكاة لتجهيز

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٥١٩-٥٢٣)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٨٢٢-١٨٢٣)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٠٧-١٠٨).

الغزاة والمجاهدين في سبيل الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وقد قيل: يعطى منها في الحج؛ لأنه من سبيل الله، كما يعطى منها من تفرغ لطلب العلم، ونحو ذلك. بل وفي بناء المساجد والمدارس والمستشفيات وحفر الآبار وغير ذلك.

ولكن هذا القول يضعفه الحصر في قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ الآية، فلو جعل معنى (في سبيل الله)، في الآية كل عمل بر وخير لما كان للحصر فائدة.

وأيضاً: لو جعلت الآية عامة في كل بر لحُرِمَ من الزكاة من تُيقن أنه من أهلها. وخاصة أن بعض أعمال البر يبقى نفعها كبناء المساجد فيرغب الناس في وضع زكاتهم في مثل هذه الأعمال، فالصحيح أن المراد بقوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تجهيز الغزاة والمجاهدين في سبيل الله خاصة.

١٩- عناية الإسلام بأبناء السبيل وهم المسافرون بإعطائهم نصيباً من الزكاة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٢٠- أن إعطاء الزكاة لمن ذكر الله ـ عز وجل ـ من الأصناف فرض واجب فرضه الله ـ عز وجل ـ وأوجبه وقدَّره؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٢١- إثبات أن الله ـ عز وجل ـ ذو العلم الواسع، والحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٢٢- في اقتران العلم الواسع والحكم التام والحكمة البالغة في حقه ـ عز وجل ـ زيادة كماله ـ عز وجل ـ إلى كمال، وكمال ما قدره وشرعه من قسم الصدقات وغير ذلك.

٢٣- أن الدين الإسلامي دين التكافل الاجتماعي بأسمى معانيه حيث أوجب في أموال الأغنياء حقًّا لإخوانهم المحتاجين من الفقراء والمساكين ونحوهم مما لا نظير له في جميع الأديان والمذاهب.

* * *

تفسير آيات الأحكام في سورة النحل

قال الله ـ تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٠-٩٧].

قوله ـ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

هذا خبر من الله ـ عز وجل ـ وثناء منه على نفسه وشرعه، وقد جمع الله ـ عز وجل ـ في هذه الآية أصول التشريع، وهي الأمر والنهي، وهي بيان لقوله ـ تعلى ـ فيما سبق: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل: ٨٩].

عن عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ أنه مر على النبي ﷺ وهو جالس بفناء بيته فكشر إلى رسول الله ﷺ، فقال له: «ألا تجلس»؟ فقال: بلى. فجلس ثم أوحي إليه هذه الآية، فقرأها عليه. قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي، وأحببت محمداً ﷺ»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣١٨).

وقال عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه: «إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية» جاء في زيادة «الخير يمتثل والشر يجتنب»(١).

لهذا أمر الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ بتلاوتها في الخطبة يوم الجمعة. وانتدب أكثم بن صيفي رجلين إلى النبي ﷺ ـ فتلا عليهما رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فأتيا أكثم، فقرآها عليه، فقال: إني قد أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملائمها، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ولا تكونوا فيه أذناباً»(٢).

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ ﴿إِنَّ﴾ للتوكيد والاهتمام بهذا الخبر الذي معناه الأمر.

والأمر: طلب الفعل على جهة الاستعلاء، إذا كان من أعلى إلى من هو دونه. فإن كان من مساوٍ فهو التماس، وإن كان من أدنى إلى من هو فوقه فهو دعاء.

و«العدل» القسط والاستقامة، بفعل الواجبات، وترك المحظورات، بأداء حقوق الله ـ عز وجل ـ وحقوق النفس، وحقوق الخلق، في الأقوال والأفعال والأحكام، في الغضب والرضا. قال ـ تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال ـ تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقال ﷺ: **«إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولزوجك عليك حقًّا، ولزورك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقه»**(٣).

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٧).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥١٥).

(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦٨)، والترمذي في الزهد (٢٤١٣) ـ من حديث سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه.

والإحسان فعل المندوبات والمستحبات، قولاً وفعلاً وبذلاً، فالعدل واجب والإحسان فضيلة، فالله ـ عز وجل ـ أوجب العدل وندب إلى الإحسان، كما قال ـ تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال ـ تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال ـ تعالى: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥].

وكما أن العدل بمعناه العام إعطاء كل ذي حق حقه، فإن الإحسان بمعناه العام والذي هو أعلى درجات الإحسان، كما قال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

وهو بهذا المعنى يشمل جميع أنواع العبادة من الأقوال والأفعال، والبذل، والترك، وغير ذلك، وهو على هذا قسمان: إحسان في عبادة الله ـ عز وجل ـ بالإخلاص له ـ عز وجل ـ والمتابعة لرسوله ﷺ، وإحسان إلى عباد الله وخلقه بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة؛ ولهذا قال ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة**»(٢).

وقدم ـ عز وجل ـ في أمره «العدل» لأنه يتناول فعل الواجب وترك المحرم، وهو حقه ـ عز وجل ـ على العباد، ولهذا لما جاء الرجل الذي يسأل عن الإسلام قال له رسول الله ﷺ: «**خمس صلوات في اليوم والليلة. فقال: هل عليَّ غيرهن؟ قال: لا، إلا أن تطوّع، وصيام شهر رمضان. فقال: هل عليَّ غيره؟ فقال: لا، إلا أن تطوّع، وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة. فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوع**»، قال: فأدبر

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأبوداود في الضحايا (٢٨١٥)، والنسائي في الضحايا (٤٤٠٥)، والترمذي في الديات (١٤٠٩)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٧٠) ـ من حديث شداد بن أوس ـ رضي الله عنه.

الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فقال رسول الله ﷺ: «**أفلح إن صدق**» وفي رواية: «**أفلح وأبيه إن صدق، أو دخل الجنة وأبيه إن صدق**»(١).

وفي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه: «**من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا**»(٢).

وقد قال ـ عز وجل ـ في الحديث القدسي: «**وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه**»(٣).

فالعدل كل العدل والواجب العض على فعل الواجبات بالنواجذ وإقامتها وإتمامها كما شرع الله، والبعد كل البعد عن المنهيات، والاجتهاد بعد ذلك بفعل النوافل والمستحبات.

وقد ظهر عند كثير من الناس اليوم التشبث ببعض النوافل مع الإخلال بالواجبات حتى كثر هذا فيمن يتوسم فيه الحرص على الخير والصلاح، بل وفي بعض المنتسبين إلى العلم يتسابقون إلى صلاة الجنازة وإلى صلاة التراويح ما لا يتسابقون إلى صلاة الجماعة، يترك كثير منهم ما يجب عليه من الأذان أو الإمامة، أو العمل الوظيفي الذي يتقاضى عليه أجراً بحجة أنه ذاهب للعمرة أو لحضور درس أو محاضرة، أو عمل خيري ونحو ذلك. وما حال هؤلاء إلا كما قيل: «يعمر قصراً ويهدم مصراً».

والنوافل مطلوبة ومرغب فيها وقد قال ـ عز وجل ـ في الحديث القدسي: «**وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه**»(٣).

لكن النوافل إنما تنفع ويرقع بها نقص الفرائض عند الحرص على إتمام الفرائض، أما مع التهاون اليومي شبه المتعمد في الفرائض ـ كما هو حال كثير من

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٦)، ومسلم في الإيمان (١١)، وأبوداود في الصلاة (٢٩١) ـ من حديث طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٣٩٧)، ومسلم في الإيمان (١٤).

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

الناس اليوم ـ فإن هذا خرق عظيم خطير، يخشى أن لا تُرقِّعه النوافل مهما كثرت.

﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: ويأمر بإعطاء صاحب القربى حقه الواجب والمستحب، ببره وصلته بالزيارة والسلام، والإحسان إليه قولاً وفعلاً وبذلاً، وغير ذلك؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقال ـ تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وكل من كان أقرب فحقه أولى وأوجب. وخص إيتاء ذي القربى مع أنه داخل في العدل والإحسان، لعظم حق القريب، وكثرة التهاون فيه والغفلة عنه.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ الجملة معطوفة على التي قبلها، وبينهما مقابلة بين قوله: ﴿يَأْمُرُ﴾، ﴿وَيَنْهَىٰ﴾، وبين قوله: ﴿بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ وبين قوله: ﴿عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾.

و«النهي» ضد الأمر، وهو طلب الكف والترك على جهة الاستعلاء، إذا كان من أعلى إلى من هو دونه، فإن كان من مساوٍ فهو التماس، وإن كان من أدنى إلى من هو فوقه كان دعاء.

و﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾ كل ما يستفحش ويستقبح من قول أو فعل أو اعتقاد في الشرع، ولدى العقول والفطر السليمة والأعراف المستقيمة، مما هو ظاهر الفساد ويضر بالمجتمع والأفراد والبلاد والعباد كالشرك بالله والسحر وقول الزور والقتل بغير حق، والسرقة والزنا، قال ـ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال ـ تعالى ـ حكاية عن لوط عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١]، وقال ـ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

قوله: ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ المنكر: ما ينكره الشرع والعقول والفِطر السليمة

والأعراف المستقيمة، من قول أو فعل أو اعتقاد، وهو أعم من الفحشاء، فعطفه عليها من عطف العام على الخاص، وقدمت عليه لفحشها وقبحها وشدة أثرها وانتشار ضررها.

ومن المنكر ترك الواجبات، كترك الصلاة والزكاة والصيام والحج، وصلاة الجماعة، ونحو ذلك.

ومنه ارتكاب المنهيات كعقوق الوالدين، والغيبة والنميمة والظهار ونحو ذلك، قال ـ تعالى ـ في المظاهرين من نسائهم: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢].

ومما يدل على التداخل بين الفحشاء والمنكر إطلاق كل منهما على بعض الأعمال كاللواط، قال ـ تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٨، ٢٩].

وقد حمل بعض المفسرين الأمر بالعدل والإحسان على فعل المأمورات، وحمل النهي عن الفحشاء والمنكر على ترك المنهيات.

وقال الطبري[1]: «وقد ذكر عن ابن عيينة أنه كان يقول في تأويل ذلك: إن معنى العدل في هذا الموضع استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً، وأن معنى الإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته، وأن الفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته».

﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ أي: وينهى عن البغي، والبغي في الأصل: التعدي ومجاوزة الحد من كل شيء.

والمعنى: وينهى عن التعدي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

وهو فحش ومنكر، لكنه خص بالذكر اهتماماً بالنهي عنه لخطره وعظم ضرره،

---

(١) في «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٦-٣٣٧).

لما فيه من التعدي والظلم للآخرين، ولأنه قد يخفى فلا يعلم الناس به ولا ينكرونه، بل قد يلبس بلباس الحق وهو اعتداء وظلم.

عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم**»(١).

﴿يَعِظُكُمْ﴾ في محل نصب على الحال، أي: حال كونه يعظكم. والموعظة: ذكر الأحكام من الأوامر والنواهي مقرونة بالترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

والمعنى: أن الله أمركم بالعدل والإحسان ونهاكم عن الفحشاء والمنكر والبغي موعظة لكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لأجل أن تتذكروا، أي: تتعظوا، ولأجل هذا أنزل القرآن الكريم، كما قال ـ تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال ـ تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال ـ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧]، وقال ـ تعالى: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور: ٣٤].

والعجيب أن كثيراً ممن يشتغلون بالتفسير ينشغلون بالأعاريب والقراءات الشاذة والمعاني والأقوال الضعيفة، ونحو ذلك، وربما خرجوا في ذلك من شيء إلى شيء، بينما يهملون جانب الموعظة والتربية بالقرآن مما يحرك القلوب، ويدعوها إلى التفكر والتأمل، وربما قلل بعضهم من قيمة هذا التفسير بقوله: إن هذا تفسير وعظي وهذا مكمن الخطأ، فإن تربية الناس بالقرآن وتذكيرهم ووعظهم به هو الذي من

(١) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٩٠٢)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١١)، وابن ماجه في الزهد ـ باب البغي (٤٢١١)، وأحمد (٥/ ٣٦، ٣٨).

أجله أنزل القرآن.

قوله ـ تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ الآيات.

أخبر ـ عز وجل ـ في الآية السابقة أنه يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ثم أتبع ذلك بالأمر بالوفاء بعهد الله، والنهي عن نقض الأيمان بعد توكيدها في هذه الآيات، وهذا أشبه بالتوكيد لما سبق، وأيضاً فإن الأمر في الآية السابقة بما هو واجب في أصل الشرع وهذه الآيات في الوفاء بما أوجبه الإنسان على نفسه.

قوله ـ تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ الآية.

روي أن هذه الآية نزلت في بيعة النبي ﷺ، كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام، فأمروا بالوفاء بهذه البيعة، وأن لا ينقضوها بعد توكيدها بالأيمان(١).

و«العهد» الميثاق والعقد، والوفاء به: القيام بموجبه وعدم نقضه. أي: وأوفوا بميثاق الله وعقده الذي واثقتموه وعاهدتموه عليه، من الإيمان والطاعة.

و﴿إِذَا﴾ للظرفية المجردة والتوكيد؛ لأن المخاطبين قد عاهدوا الله على الإيمان والطاعة، فالمعنى: من عاهد وجب عليه الوفاء بالعهد، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.

وعهد الله كل ما عاهدوا عليه الله من الإيمان والطاعة والعبادات والنذور وغير ذلك، وأعظم ذلك وأهمه الإيمان، فإنه عهد وميثاق بين العبد وبين ربه يحتم عليه القيام بمقتضيات هذا الإيمان، كما قال ـ تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ومن عهد الله ما عاهدوا عليه الرسول ﷺ فهو عهد مع الله، كما قال ـ عز وجل:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٩) ـ عن ابن أبي ليلى عن مزيدة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ [الفتح: ١٠].

ومن ذلك مبايعتهم له ﷺ على الإسلام، وعلى ألا يعصوه في معروف، وبيعة العقبة، ونحو ذلك.

عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى ألا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً، عندكم من الله عليه برهان، وأن نقول الحق أينما كنا، وحيثما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم»(١).

كما يشمل عهد الله ما أبرموا بينهم من عقود وعهود ووعود، يجب الوفاء بها فيما بينهم.

﴿وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَٰنَ﴾.

الأيمان: جمع يمين، وهو الحلف. ونقض الأيمان: الحنث فيها، وعدم الوفاء بها.

﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ أي: بعد أن أكَّدتموها، أو مع توكيدكم لها، والتوكيد بمعنى التوثيق، أي: بعد توثيقها، قال ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [الرعد: ٢٥]. أي: بعد توثيقها بالحلف بالله. قال الشاعر:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

والمعنى: ولا تحنثوا في الأيمان بعد توثيقها بالحلف بالله ـ عز وجل ـ أو باسم من أسمائه، أو وصفة من صفاته.

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنكم قد جعلتم واتخذتم الله عليكم كفيلاً.

و«جعل» هنا بمعنى: «صيَّر» تنصب مفعولين، الأول لفظ الجلالة «الله»،

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٨)، ومسلم في الإمارة (١٧٠٩)، والنسائي في البيعة (٤١٤٩)، وابن ماجه في الحدود (٢٨٦٦).

والثاني: «كفيلاً».

أي: وقد جعلتم الله بتوكيد الأيمان بالحلف به ـ عز وجل ـ عليكم ﴿كَفِيلًاۚ﴾ أي: شهيداً ورقيباً، وضامناً وحافظاً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾.

﴿مَا﴾ موصولة، أو مصدرية، أي: إن الله يعلم الذي تفعلونه، أو يعلم فعلكم. وفي هذا وعيد وتهديد لمن لم يفوا بعهد الله أو نقضوا الأيمان بعد توكيدها، كما أن فيه وعداً لمن أوفى بعهد الله، وحفظ الأيمان بعد توكيدها.

قوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، فيها تشنيع وذم لحال الذين ينقضون العهد والأيمان بعد توكيدها، والغرض من ذلك توكيد النهي عن نقض العهود والأيمان بعد توكيدها.

والمعنى: ولا تنقضوا العهد والأيمان بعد توكيدكم لها فتكونوا كالمرأة التي ﴿نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا﴾.

والنقض: ضد الفتل والشد. ﴿غَزۡلَهَا﴾ مصدر بمعنى المفعول، أي: المغزول، ﴿مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾ أي: من بعد إحكام غزله وفتله وإبرامه بقوة.

﴿أَنكَٰثٗا﴾ جمع نِكْث، أي نقضت غزلها أنكاثاً، أي: أنقاضاً، وقد يكون مصدراً؛ لأن ﴿نَقَضَتۡ﴾ بمعنى نكثت، أي: ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها أنقاضاً أو نقضاً. ويحتمل كونه حالاً من ﴿غَزۡلَهَا﴾ أي: نقضته فإذا هو أنكاثاً.

فشبه حال من ينقضون العهد والأيمان بعد توكيدها بأسوأ الأمثال وأقبحها، وأدلها على سفاهة فاعله ونقص عقله وخسرانه، شبههم بحال المرأة التي تفتل غزلها وتحكمه، ثم تعود فتنقضه خيطاً خيطاً، فتعبت في فتله ثم في نقضه، ولم تستفد إلا الخيبة والعناء والخسران، فكذلك من نقض العهد والأيمان بعد توكيدها فهو ظالم جاهل خاسر سفيه ناقص الدين والمروءة.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ حال من ضمير الواو في قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَٰنَ﴾ أو في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾.

أي: تجعلون حلفكم دخلاً بينكم، و«الدَخَل» المكر والغدر والخديعة والخيانة والدغل والفساد، أي: لا تجعلوا حلفكم وسيلة للمكر والغدر والخديعة والخيانة وسبباً للفساد بينكم والعداوة والخصام، بدل أن كانت وسيلة للتوثيق وطمأنة بعضكم بعضاً والسلامة من الاختلاف والعداوة.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ ﴿أَن﴾ للتعليل والسببية، أي: بسبب أن تكون أمة هي أربى من أمة، والأمة: الطائفة والجماعة، و﴿أَرْبَىٰ﴾ بمعنى أزيد وأكثر، قال ـ تعالى: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقة: ١٠]، أي: زائدة، وقال ـ تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، أي: يزيدها، ومنه سمي «الربا». قال ـ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠].

والمراد لا يحملكم على نقض العهد والأيمان بعد توكيدها كون المشركين أكثر عدداً وعدة من المسلمين فتركنون إلى المشركين وتوالونهم من دون المؤمنين، تبعاً لأهوائكم وتقديماً لما تطمعون به من المنفعة الظاهرة العاجلة.

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ الجملة مستأنفة، والابتلاء: الاختبار والامتحان، والضمير في ﴿بِهِ﴾ يعود إلى المصدر المؤول ﴿أَن تَكُونَ﴾، أي: إنما يختبركم الله ويمتحنكم بكون أمة أربى من أمة؛ ليظهر منكم صدق الإيمان من عدمه؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال بعض المفسرين: الضمير في «به» يعود إلى الأمر بالوفاء بالعهد والأيمان.

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

اللام واقعة في جواب قسم مقدر، والتقدير: والله ليبينن لكم، والنون للتوكيد، و«ما» موصولة، أي: والله ليظهرن لكم ربكم أيها الناس يوم القيامة الذي كنتم فيه تختلفون من الأحوال والأعمال وغير ذلك، وذلك بمحاسبته ـ عز وجل ـ للناس

ومجازاته لهم على أعمالهم، وفوز من آمن وأوفى بالعهد والأيمان بجنات النعيم، وخسران من كفر ونقض العهود والأيمان بمصيره إلى دركات الجحيم - وليس الخبر كالعيان.

وفي هذا وعد لمن أوفى بعهد الله وبالأيمان ووعيد لمن نقض العهد ونكث في الأيمان.

قوله - تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: ولو أراد الله كوناً لجعلكم أيها الناس جماعة واحدة، مجتمعين على الإيمان، متفقين غير مختلفين، كما قال - تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقال - تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]، ولكنه - عز وجل - لم يشأ جعل الناس أمة واحدة، بل شاء وأراد أن يكونوا مختلفين، كما قال - تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، ولهذا قال بعده: ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

و«جعل» بمعنى «صيَّر» تنصب مفعولين، الأول: ضمير المخاطبين، والثاني: «أمة واحدة».

﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: ولكن لم يشأ أن يجعلكم أمة واحدة، بل شاء أن يضل عن الإيمان من يشاء بعدله ويهدي ويوفق إلى الإيمان من يشاء بفضله، كما قال - تعالى: ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الواو عاطفة، واللام للقسم أي: والله لتسألن، والنون للتوكيد، و«ما» في قوله: ﴿عَمَّا﴾ موصولة أو مصدرية أي عن الذي كنتم تعملونه، أو عن عملكم.

أي: والله لتسألن عن الذي كنتم تعملون وتحاسبون وتجازون عليه بالثواب، أو بالعقاب، فالمؤمنون يُسألون سؤال تقرير، والكفار يسألون سؤال توبيخ وتقريع،

وليس المراد بالسؤال الاستفهام والاستخبار؛ لأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد ولا غيرها، وفي هذا وعد لمن آمن وعمل صالحاً، ووعيد لمن خالف ذلك.

قوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ الآية. هذا تأكيد لما سبق من التحذير من اتخاذ الأيمان دخلاً بينهم بالنهي الصريح عن ذلك، وذكر سوء عاقبة ذلك في الدين والدنيا والآخرة.

قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ أي: ولا تجعلوا أيمانكم وحلفكم خديعة وغروراً ومكراً بينكم تبعاً لأهوائكم.

﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ جواب النهي قبله، وزلل القدم: انزلاقها وعدم ثباتها على الأرض لوحل وطين ونحو ذلك. يقال لكل مبتلى بعد عافية زلت به قدمه، أو زلت به القدمان.

قال الشاعر:

فيمنع منك السبق إن كنت سابقاً   وتقتل إن زلت بك القدمان

﴿بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي: بعد رسوخها وثباتها وعدم تزلزلها.

والمراد هنا: فتختل الحال، وتزل أقدامكم عن الصراط المستقيم بعد ثبوتها عليه.

وفي قوله: ﴿بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ تصوير اختلاف الحالين، وفرق ما بين الأمرين، فزلل القدم سبب للسقوط والانكسار، وثبوتها سبب للسلامة بإذن الله ـ عز وجل ـ وكذلك الثبات على الصراط المستقيم سبب للسعادة في الدنيا والآخرة، والزيغ عن الصراط المستقيم سبب للشقاء في الدنيا والآخرة، ولهذا قال بعده:

﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

ذوق السوء الإحساس به وتجرع ألمه ومرارته، كما قال ـ تعالى: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ﴾ [المائدة: ٩٥].

والسوء: ما يؤلم من العقاب، وسمي بـ«السوء» لأنه يسوء من يصيبه حسًّا

ومعنى. والمراد به في الآية: العقاب الدنيوي على أيدي المؤمنين.

﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب صدودكم وانصرافكم عن دين الله، وصرفكم الناس عنه بنقضكم العهود والأيمان، وتشويه صورة الإسلام وغير ذلك.

﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ولكم عذاب عظيم في الآخرة، من حيث كمه وكيفه ونوعه، حسًّا ومعنى، ولا يعلم قدر عظم هذا العذاب إلا من وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

قوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ أي: ولا تعتاضوا وتستبدلوا بالوفاء بعهد الله.

﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الثمن: هو العوض الذي يأخذه المعاوض، و﴿قَلِيلًا﴾ صفة كاشفة، وليست مقيدة، أي: أن كل عوض يؤخذ مقابل نقض عهد الله فهو قليل، ولو كان ذلك الدنيا بجميع ما فيها، كما قال ـ تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال ـ تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

وهذا نهي وتحذير من نقض العهود والأيمان لأجل متاع الدنيا وحطامها قل أو كثر.

﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ تعليل للنهي السابق و﴿إِنَّمَا﴾ مركبة من «إن» المؤكدة و«ما» الموصولة.

أي: إن الذي عند الله لكم من الرزق والفضل والثواب في الدنيا والآخرة.

﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: هو خير لكم خيرية مطلقة من جميع الوجوه في دنياكم وأخراكم، خير لكم من الدنيا بما فيها، وخير لكم من كل شيء، فأوفوا بعهد الله، واحفظوا أيمانكم ينلكم ما ادخره لكم من خير.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم ذوي علم تنتفعون بعلمكم، فتؤثرون ما

عند الله لكم من خير، على الثمن القليل الحقير، وفي الآية حث لهم على العلم.

قوله - تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ تعليل لمضمون جملة «إنما عند الله هو خير لكم».

أي: إنما عند الله خير لكم؛ لأن ما عندكم ينفد وما عند الله باق، ففرق ما بين الأمرين وشتان ما بين العوضين.

و«ما» في الموضعين موصولة. والخطاب لجميع الناس، أي: الذي عندكم أيها الناس ﴿يَنفَدُ﴾ أي: يفنى وينقرض ولو كانت الدنيا بحذافيرها، إما في حال حياتكم، أو بموتكم، لأنه لأجل معدود.

﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ أي: والذي عند الله وفي خزائنه باق لا يفنى ولا ينقرض من خيري الدنيا والآخرة، كما قال - تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧)﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

أي: فلا تعتمدوا على الذي عندكم، مهما كثر؛ لأن ذلك يفنى وينقرض، واطلبوا الذي عند الله من الخير؛ لأنه الذي يبقى ولا يفنى، وذلك بالوفاء بعهده - عز وجل - والاستقامة على طاعته.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قرأ عاصم وابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر في إحدى الروايتين عنه وأبوجعفر بنون العظمة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ﴾ على الالتفات، وقرأ الباقون بياء الغيبة، أي: وليجزين الله.

قوله: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم ﴾ الواو: عاطفة، واللام لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لنجزين الذين صبروا.

والنون للتوكيد. والاسم الموصول في محل نصب مفعول أول لـ«نجزين» و«أجرهم» مفعوله الثاني لتضمينه معنى «لنعطين» المتعدي لمفعولين.

وقد أقسم - عز وجل - على صحة هذا الخبر - وهو أصدق القائلين، على طريقة العرب في تأكيد الخبر بالقسم.

والصبر في اللغة: الحبس، وفي الاصطلاح: حبس النفس على أشياء وعن أشياء. ويقال: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

وهو أقسام ثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله.

﴿أَجْرَهُم﴾ أي: ثواب عملهم وصبرهم، وسمي أجراً؛ لأن الله ـ عز وجل ـ ضمنه وتكفل لهم به.

﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بأحسن الذي كانوا يعملونه، أو بأحسن عملهم.

والمعنى: ولنجزينهم عن الحسن والأحسن من أعمالهم بالأحسن من الجزاء والثواب، ونتجاوز عن سيئ أعمالهم ـ وهذا من كرمه ـ عز وجل ـ وجوده، وواسع فضله، وعظيم عفوه.

وأضيف الحسن إلى العمل للدلالة على أن الجزاء من جنس العمل، وفيه حث على إحسان العمل، كما قال ـ تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال ـ تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

ورتب ـ عز وجل ـ هذا الجزاء العظيم على الصبر؛ لأنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، قال ﷺ: «**ما أعطى أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر**»(١).

ولهذا قال ـ عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠]، وقال ـ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

قوله ـ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٣)، وأبوداود في الزكاة (١٦٤٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٤) ـ من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

أخبر ـ عز وجل ـ وأقسم وأكد في الآية السابقة بأنه يجزي الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، ثم فصَّل وبيَّن أن ذلك لكل من عمل صالحاً من ذكر وأنثى وهو مؤمن، مع الحياة الطيبة مع الإقسام على ذلك وتأكيده.

قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم، و﴿عَمِلَ﴾ فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ﴾.

﴿صَٰلِحًا﴾ أي: عملاً صالحاً، وحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه؛ لأن المهم في العمل وشرط قبوله أن يكون صالحاً، ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا توفر فيه شرطان: الإخلاص لله ـ عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥] أي: أخلص العمل لله، وهو متبع ما جاء به رسول الله ﷺ.

﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيان لعموم «من» الموصولة، أي: من ذكر أو أنثى من بني آدم.

وقدم الذَّكر على الأنثى لفضله عليها من حيث العموم، كما قال ـ تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال ـ تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

أما من حيث الخصوص فقد تكون بعض النساء أفضل من بعض الرجال، ويكفي أن من النساء فاطمة ـ رض الله عنها ـ سيدة نساء أهل الجنة، ومنهن أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وغيرهن؛ ولهذا قال ـ تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقال ﷺ: «**النساء شقائق الرجال**»(١).

قال الشاعر:

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء

فإن يكن لهم من أصلهم نسب ... يفاخرون به فالطين والماء

قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونه مؤمناً، أي: وهو مصدق بقلبه ولسانه بالله وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وبوعد الله ـ عز وجل ـ ووعيده، وكل ما أوجب الله الإيمان به.

فالإيمان بالقلب واللسان شرط لقبول العمل، ولا يصح العمل بلا إيمان، كما لا يصح الإيمان بلا عمل؛ لأن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وهو القلب، وعمل بالأركان وهي الجوارح، خلافاً للمرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان ـ وهذا باطل.

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، واللام لام القسم لقسم مقدر.

أي: فوالله لنحيينه حياة طيبة في هذه الدنيا تطيب بها نفسه وينشرح بها صدره، بتوفيقه في أمر دينه، وتيسير أمر دنياه، كما قال ـ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور: ٥٥]، وقال ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢].

وقال ﷺ: «**قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في الطهارة (١١٣) ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة ـ الكفاف والقناعة (١٠٥٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١٣٨)، وأحمد (٢/ ١٦٨) ـ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما.

وعن فضالة بن عبيد ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«طوبى لمن هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع»**(١).

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يعطى بها في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها»**(٢).

وعن خباب بن الأرت ـ رضي الله عنه ـ قال: «هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغي بذلك وجه الله، فوجب أجرنا على الله، فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئاً، كان منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أُحد، فلم يترك إلا نمرة، كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطينا بها رجليه خرج رأسه، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يَهْدِبُها»(٣).

قال ابن القيم في كلامه على الآية: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ قال: «وليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافاً مضاعفة، وقد ضمن الله ـ سبحانه ـ لكل من عمل صالحاً أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد، الذي لا يخلف وعده، وأيّ حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت همًّا واحداً في مرضاة الله، ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله...»(٤).

قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ الكلام فيه كما في قوله ـ

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ـ ما جاء في الكفاف والصبر عليه (٢٣٤٩) ـ وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار ـ جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة (٢٨٠٨).

(٣) أخرجه البخاري في المناقب (٣٩١٤)، ومسلم في الجنائز (٩٤٠)، والنسائي في الجنائز (١٩٠٣)، والترمذي في المناقب (٣٨٥٣).

(٤) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٥٠).

تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الآية السابقة.

وفيه توكيد وتعميم وبيان أن هذا الأجر كما هو للصابرين كذلك هو لكل من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، أي: ولنجزينهم في الآخرة بأحسن ثواب عملهم مع الحياة الطيبة في الدنيا، وهذا هو حسنة الدنيا والآخرة، كما في الدعاء: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١].

قال ابن القيم: «فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا الحياة الطيبة، والحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين، فهم أحياء في الدارين»[(١)].

الفوائد والأحكام:

١- أمر الله ـ عز وجل ـ بالعدل والقسط، وذلك بفعل المأمورات وترك المنهيات؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾.

٢- أمر الله ـ عز وجل ـ بالإحسان وترغيبه فيه؛ قولاً وفعلاً وبذلاً، فعلاً للمستحبات وبُعداً عن المكروهات وإحساناً في أداء الواجب بكونه خالصاً لله ـ تعالى ـ وفق شرعه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾.

٣- الموازنة بين التكاليف بتقديم ما هو واجب؛ لأن الله قدَّم الأمر بالعدل؛ لأنه واجب، وعطف عليه الإحسان بفعل المندوب.

٤- عظم حق ذي القربى؛ لأن الله خصّه بالذكر من بين سائر الحقوق؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إيتائهم حقهم من الصلة والبر والإحسان، الواجب والمندوب.

٥- نهى الله ـ عز وجل ـ عن الفحشاء والمنكر من الأقوال والأعمال والأحوال، وتحريمه لذلك كله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

٦- في تقديم النهي عن الفحشاء دلالة على شناعة الفاحشة وقبحها وشدة أثرها

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٥٠).

وانتشار ضررها.

٧- أن المنكر أعم من الفحشاء؛ لهذا عطف عليها من عطف العام على الخاص؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾.

٨- عظم البغي على الناس وشدة حرمته؛ لأن الله خصّه بالذكر بعد النهي عن الفحشاء والمنكر مع أنه من المنكر أو منهما معاً؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱلْبَغْيِ﴾.

٩- أن فعل المأمورات أهم وأعظم من ترك المحظورات؛ لأن الله قدم الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى على النهي عن الفحشاء والمنكر والبغي.

١٠- أن ما أمر الله به من العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وما نهى عنه من الفحشاء والمنكر والبغي كل ذلك مما يعظ الله به الناس ليتذكروا ويتعظوا؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

١١- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله ـ عز وجل ـ وأحكامه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

١٢- وجوب الوفاء بعهد الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ ﴾وذلك بالقيام بمقتضى الإيمان من فعل الواجبات والبعد عن المنهيات والوفاء بالعهود.

١٣- النهي عن نقض الأيمان بعد توكيدها، وتحريم ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ لكن لو حلف على أمر فرأى غيره خيراً منه ينبغي أن يكفر عن يمينه ويفعل ما هو خير كما دلت على ذلك السنة.

١٤- وجوب تعظيم الأيمان والوفاء بها وعدم نقضها بعد توكيدها تعظيماً لله ـ عز وجل ـ حيث جعل الحالف الله عليه كفيلاً؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾.

١٥- علم الله ـ عز وجل ـ الواسع بكل ما يفعله الخلق؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وفي هذا وعد لمن وفوا بعهد الله، وحفظوا الأيمان، ووعيد لمن

لم يفوا بعهد الله، ونقضوا الأيمان بعد توكيدها.

١٦- بلاغة القرآن الكريم في تشبيهه من ينقضون العهد والأيمان بعد توكيدها، ويتخذونها دخلاً بينهم، من حيث سوء وقبح فعلهم وسفاهة عقولهم وخسرانهم بالمرأة التي نقضت غزلها بعد إحكامه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾ فاجتمع فيها سفاهة الرأي ونقصان العقل والخسران بعد العناء.

١٧- التحذير من اتخاذ الأيمان للمكر والخديعة والفساد والعداوة والخصام لقوله ـ تعالى: ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾، وقوله: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾.

١٨- لا ينبغي أن تكون كثرة المشركين سبباً لنقض العهد والأيمان طمعاً في منفعة عاجلة تحصل منهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾.

١٩- ابتلاء الله للمؤمنين بكون المشركين أكثر منهم، وبما أوجب من الوفاء بالعهد والأيمان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

٢٠- تأكيد الله ـ عز وجل ـ بأنه سيبين ويظهر للخلائق ما كانوا فيه يختلفون من الأحوال والأعمال وسيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ وفي هذا وعد لمن وفوا بالعهد وحفظوا الأيمان، ووعيد لمن نقضوا العهد ونكثوا الأيمان.

٢١- إثبات القيامة والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾.

٢٢- إثبات المشيئة لله ـ عز وجل ـ والتي بمعنى الإرادة الكونية، وأنه ـ عز وجل ـ لو شاء لجعل الناس أمة واحدة غير مختلفين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾.

٢٣- أنه ـ سبحانه ـ لم يشأ كون الناس أمة واحدة مجتمعة على الإيمان، ولكن يضل

من يشاء بعدله، ويهدي من يشاء بفضله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾.

٢٤- إثبات تقدير الله ـ عز وجل ـ لجميع الأعمال من الهداية والضلال، والرد على القدرية الذين ينفون تقديره ـ عز وجل ـ لأفعال العباد؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾.

٢٥- إثبات سؤال الخلق عن أعمالهم وتوكيد ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فالمؤمنون يسألون سؤال تقرير، والكفار يسألون سؤال توبيخ وتقريع.

٢٦- أن اتخاذ الأيمان دخلاً للمكر والمخادعة سبب لزلة الأقدام والانحراف عن طريق الهدى والرشاد، وصد الناس عنه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٢٧- التحذير من الصد عن سبيل الله وصرف الناس عنه بنقض العهد والأيمان وتشويه صورة الإسلام، والوعيد على ذلك بالعذاب السيئ في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٢٨- النهي عن الاشتراء بالوفاء بعهد الله ثمناً قليلاً، ولو كان ذلك الدنيا بحذافيرها فهو قليل مقابل ترك الوفاء بعهد الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٢٩- أن ما عند الله من الفضل والرزق والثواب في الدنيا والآخرة هو خير لمن كانوا ذوي علم بما ينفعهم على الحقيقة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٣٠- أن ما عند الناس مهما كثر فهو يفنى وينقرض، ولو كان ذلك الدنيا بما فيها، وما عند الله من الخير وخزائن الدنيا والآخرة باق لا يفنى؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ مَا

عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾.

٣١- الترغيب في الطمع بما عند الله - عز وجل - من الفضل والرزق والثواب في الدنيا والآخرة والسعي لتحصيله؛ لقوله - تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾.

٣٢- ينبغي أن يكون المؤمن أوثق بما عند الله مما في يده؛ لقوله - تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾.

٣٣- الإشارة إلى أن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها؛ لقوله - تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾.

٣٤- وعد الله - عز وجل - المحقق، وخبره المؤكد بمجازاة الصابرين بأحسن ثواب أعمالهم؛ لقوله - تعالى: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

٣٥- تكفل الله - عز وجل - وضمانه لثواب الصابرين لهذا سماه (أجرا).

٣٦- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، فمن أحسن العمل أحسن له الجزاء؛ لقوله - تعالى: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

٣٧- عظم مكانة الصبر وفضله، والترغيب فيه، والحث عليه؛ لأن الله وعد أهله بأحسن الجزاء.

٣٨- وعد الله - عز وجل - لكل من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن بالحياة الطيبة في الدنيا، ومجازاتهم في الآخرة بأحسن ثواب عملهم وتأكيد تحقيق ذلك لهم؛ لقوله - تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾.

٣٩- أن من شرط العمل أن يكون صالحاً؛ خالصاً لله - عز وجل - وفق شرعه وسنة نبيه ﷺ؛ لقوله - تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾.

٤٠- استواء الذكور والإناث في الجزاء الدنيوي والأخروي؛ لقوله - تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ الآية.

٤١- أن الذكر من حيث العموم أفضل من الأنثى، لتقديمه عليها بالذكر في الآية، وهذا لا يمنع أن تكون بعض النساء أفضل من بعض الرجال.

٤٢- أن الإيمان شرط لقبول العمل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ وفي هذا رد على المرجئة.

٤٣- يجوز أن يقصد الإنسان بعمله ثواب الدنيا والآخرة معاً؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ الآية. وقد قال الله ـ عز وجل ـ في سورة القصص: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧]، وأثنى ـ عز وجل ـ على الذين يدعون ربهم بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١].

٤٤- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله وعد على ذلك بهذا الجزاء العظيم في الدنيا والآخرة.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٥].

قوله ـ تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ الفاء استئنافية و«إذا» ظرفية شرطية، و﴿قَرَأْتَ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾.

والخطاب في قوله: ﴿قَرَأْتَ﴾ للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

و«القرآن» هو ما أنزله الله ـ عز وجل ـ على نبيه ﷺ من الوحي، المتعبد بتلاوته والعمل به، المعجز بأقصر سورة منه.

وسمي القرآن بهذا الاسم؛ لأنه مقروء متلو أخذاً من «قرأ» إذا تلا، ومن «قرى» إذا جمع؛ لأنه مجموع آيات وسور، ومنه سميت «القرية»؛ لأنها تجمع أناساً كثيرين، وسمي مجمع الماء «قرواً» لاجتماع الماء فيه.

والمعنى: فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم. أي: قل «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

والفاء في قوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية.

و«السين» للطلب، أي: اطلب العوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ أي: قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

والأمر للندب عند جمهور أهل العلم، بل حكي عليه الإجماع.

ومعنى: «أعوذ بالله» أي: أعتصم بالله، وأمتنع به، وألجأ إليه، قال ﷺ لابنة الجون، لما قالت حين أدخلت عليه: أعوذ بالله منك، قال ﷺ: **«لقد عذت**

بعظيم»[(١)].

﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ كل متمرد عات من الإنس والجن والحيوان، مأخوذ من «شطن» بمعنى بَعُد عن رحمة الله ـ عز وجل، وعن كل خير.

﴿ٱلرَّجِيمِ﴾ «فعيل» بمعنى «مفعول» أي: المرجوم بالإبعاد والطرد عن رحمة الله، والإخراج من الجنة، والرمي بالشهب[(٢)].

فأمر الله ـ عز وجل ـ بالاستعاذة عند قراءة القرآن لئلا يلبس الشيطان على القارئ، ويحول بينه وبين التدبر والتفكر؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ [الحج: ٥٢].

والمصيبة أن كثيراً من المسلمين لا يتدبر معنى الاستعاذة كما لا يتدبر معاني القرآن.

قوله ـ تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ تعليل للأمر بالاستعاذة عند قراءة القرآن، وترغيب في امتثاله، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ [الحجر: ٤٢].

والسلطان: السلطة والتسلط، أي: إنه ليس للشيطان سلطة ولا تسلط ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لإغوائهم لحفظ الله لهم منه، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ [الحجر: ٤٢].

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ معطوف على جملة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٥٤)، والنسائي في الطلاق (٣٤١٧)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٥٠) ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

(٢) راجع تفصيل الكلام على الاستعاذة؛ صيغها وإعرابها ومعناها وأحكامها في كتابنا «اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب».

إعادة اسم الموصول للدلالة على أنه لابد من الجمع بين الإيمان والتوكل على الله ـ عز وجل، كما قال ـ تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣].

وتقديم المتعلق ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ لإفادة القصر، أي: لا يتوكلون إلا على ربهم الذي له الخلق والملك والتدبير.

والتوكل على الله: الاعتماد عليه وتفويض الأمور إليه في جلب النفع و دفع الضر مع تمام الثقة به سبحانه.

فهؤلاء محفوظون بحفظ الله من الشيطان أن يتسلط عليهم، كما قال يعقوب ـ عليه السلام: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾ [يوسف: ٦٤]، وقال ﷺ لابن عباس ـ رضي الله عنهما: «**يا غلام، احفظ الله يحفظك**»[(١)].

قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ هذا تأكيد لنفي سلطانه على المؤمنين.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، أي: ليس له تسلط «إلا على الذين يتولونه» أي: الذين يتخذون ولياً لهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يحتمل عوده لـ ﴿رَبِّهِمۡ﴾ في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ أي: والذين هم بربهم مشركون.

ويحتمل أن يعود إلى ما يعود إليه الضميران في قوله: ﴿سُلۡطَٰنُهُۥ﴾ وقوله: ﴿يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ وهو الشيطان، وهذا أولى لاتحاد الضمائر، أي: إنما سلطان الشيطان على الذين يتخذونه وليًّا لهم ويشركونه مع الله في العبادة والطاعة، فيشاركهم في الأموال والأولاد، كما قال ـ تعالى: ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ [الإسراء: ٦٤]. والباء على هذا للتعدية.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧). وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

ويحتمل كون الباء في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ للسببية، والضمير يعود إلى الشيطان، أي: والذين هم صاروا بسببه مشركين، أي: بسبب طاعتهم وعبادتهم له.

وقدم المتعلق ﴿بِهِۦ﴾ لإفادة الحصر، أي: إنهم ما أشركوا إلا بسببه، كما قال - تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢٠-٢١]، وقال - تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فتسلطه عليهم بسبب موالاتهم له وإشراكهم به واستجابتهم له.

قوله - تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

حصر - عز وجل - في الآية السابقة سلطان الشيطان على الذين يتخذونه ولياً ويشركون به. ثم ذكر في هذه الآية والآيات بعدها - الأسباب التي جعلته يتسلط عليهم، وهو تكذيبهم ما جاء به الرسول ﷺ وزعمهم أنه مفتر، وأنه إنما يعلمه بشر، وعدم إيمانهم بآيات الله، وافتراؤهم وكذبهم وكفرهم واستحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة وغفلتهم.

قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ الواو عاطفة، و﴿وَإِذَا﴾ ظرفية شرطية، و﴿بَدَّلْنَآ﴾ فعل الشرط، وجوابه: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ والتبديل: وضع شيء مكان شيء.

والآية في اللغة العلامة، قال - تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وهي القطعة من كلام الله - تعالى - ذات بداية ونهاية، منفصلة عما قبلها، مندرجة تحت سورة من سور القرآن العظيم.

والمراد بالتبديل هنا النسخ، أي: إذا نسخنا آية بآية أخرى، كما قال - تعالى: ﴿مَا

نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٦].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو (ينْزل) بسكون النون وتخفيف الزاي، وقرأ الباقون (يُنَزِّل) بفتح النون، وتشديد الزاي.

وهذه الجملة اعتراضية بين شرط «إذا» وجوابها لبيان أن لله ـ عز وجل ـ العلم التام والحكمة البالغة فيما ينزل من القرآن، وفيما يبدل وينسخ منه.

قال ابن القيم: «تأمّل حسن الاعتراض وجزالته، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه، أفاد أموراً منها: الجواب عن سؤال سائل: ما حكمة هذا التبديل وما فائدته؟ ومنها: أن الذي بُدل وأتى بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم. ومنها: أن مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى ـ وأن كلاً منهما منزل فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني»(١).

و«ما» في قوله: ﴿بِمَا يُنَزِّلُ﴾ موصولة، أي: والله أعلم بالذي ينزل، والذي هو أصلح لخلقه، فيما يبدل ويغير من أحكامه.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أي: قال المشركون للنبي ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ ﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حصر، أي: ما أنت إلا مفتر، أي: كذاب مختلق للكذب، كما قال ـ تعالى ـ عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [يونس: ٣٨، هود: ١٣، ٣٥، السجدة: ٣، الأحقاف: ٨]، وقال ـ تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقال ـ تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤]، وقال ـ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الطور: ٣٣].

فنفوا عنه صلوات الله وسلامه عليه صفة النبوة والرسالة والصدق فيما جاء به، وحصروا صفاته بالافتراء والكذب ـ و حاشاه من ذلك، بل هو الصادق المصدوق، كما قال عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق، قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة**»

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٦٢).

الحديث[(١)].

وقد كانوا قبل مبعثه ﷺ يسمونه الأمين لصدقه وأمانته.

ولما سأل هرقل أبا سفيان لما قدم عليه فيمن قدم قبل أن يسلم عن صفة النبي ﷺ كان فيما سأله عنه قوله له: «هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس، ويذهب فيكذب على الله ـ عز وجل»[(٢)].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿بَلْ﴾ للإضراب الإبطالي، أي: لإبطال ما زعموه من أنه ﷺ مفتر للقرآن. أي: ليس الأمر كما زعموا، بل أكثرهم جهال لا علم عندهم يهتدون به إلى الحق، فهم يتخبطون في الجهل، فلا عبرة بقولهم؛ لأنه قول بلا علم.

قوله ـ تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: قل يا محمد ردًّا عليهم، لست بمفتر، وليس القرآن بافتراء بل ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾.

﴿نَزَّلَهُ﴾ التنزيل: إنزال الشيء مفرقاً شيئاً فشيئاً، لا دفعة واحدة، وهكذا أنزل القرآن الكريم من عند الله ـ عز وجل، كما قال ـ تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقال ـ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢].

﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ «الروح» جبريل ـ عليه السلام، كما قال ـ تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال ـ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النبأ: ٣٨]، وقال ـ تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر: ٤].

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣)، وأبوداود في السنة (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر (٢١٣٧)، وابن ماجه في المقدمة (٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣) ـ من حديث عبدالله بن عباس عن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما.

و﴿ٱلْقُدُسِ﴾: الطهر والفضل وجلالة القدر.

و﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة، كما يقال: «حاتم الجود»، و«زيد الخير»، أي: الملك المقدس الذي هو أفضل الملائكة ـ جبريل عليه السلام.

﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الخطاب للنبيِّ ﷺ، وفيه تشريف له ﷺ من حيث خطابه ـ عز وجل ـ له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال، والباء للملابسة، أي: حال كونه ملابساً للحق، لا شائبة للباطل فيه؛ كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥]، فنزوله بالحق، وهو مشتمل على الحق؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، فهو حق ثابت من عند الله، كما قال ـ تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

ويتضمن الحق الثابت في خبره وطلبه، فكل ما جاء به حق ويهدي إلى الحق، فأخباره صدق، وأحكامه عدل، كما قال ـ تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام، وهو يهدي إلى الحق، كما قال ـ تعالى: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وقال ـ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يثبت الذين آمنوا على الحق، ويقوي إيمانهم، لتوارده عليهم وقتاً بعد وقت ولعلمهم أنه الحق.

وفيه إشارة لرسوخ إيمانهم، وتعريض بغيرهم، كما قال الله ـ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

قوله: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ معطوف على ما قبله داخل ضمن جملة التعليل، أي: لأجل أن يثبت الذين آمنوا، ولأجل أن يكون هدى وبشرى للمسلمين، الذين لم يصلوا إلى درجة قوية من الإيمان يهديهم ويدلهم إلى الطريق المستقيم في الدنيا، ويهديهم في الآخرة إلى جنات النعيم ويبشرهم ويخبرهم بما يسرهم، مما أعدَّ الله لهم من الفضل والكرامة والسعادة في الدنيا والآخرة والنعيم المقيم في جنات النعيم، وفي الآية تعريض بحصول أضداد هذه الصفات لغيرهم.

قوله ـ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

ذكر الله ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة زعم المشركين أنه ﷺ مفتر للقرآن، ثم ذكر في هذه الآية زعمهم وقولهم: إنما يعلمه بشر، مما يدل على تخبطهم واضطرابهم وحيرتهم فيما يتقوّلونه على الرسول ﷺ وعلى ما جاء به من الوحي.

عن مجاهد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يُعلم قيناً بمكة، وكان اسمه «بلعام»، وكان أعجمي اللسان وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه، ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه «بلعام» فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾»(١).

وقال ابن إسحاق: «كان رسول الله ﷺ ـ فيما بلغني كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني، يقال له «جبر» عبد لبعض بني الحضرمي، فكانوا يقولون: والله ما يُعلِّم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني غلام بني الحضرمي، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾»(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٣٦٩).

(٢) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٩٣).

وهذه الروايات يشهد لها سياق الآيات.

قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ الواو: للاستئناف، واللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد علمنا أنهم يقولون، وإنما جاء التعبير بصيغة المضارع للدلالة على استمرار علمه ـ عز وجل ـ بقولهم في المستقبل، أي: والله لقد علمنا فيما مضى ونعلم في المستقبل قولهم هذا القول. أي: ولقد نعلم أن المشركين يقولون: إنما يعلم محمداً هذا القرآن الذي جاء به بشر، وليس من عند الله.

وهذه الدعوى تتناقض مع قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ وقولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾، و﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾.

ولم يصرح باسمه ـ والله أعلم ـ إيذاناً بأن مدار خطئهم ليس بنسبته صلوات الله وسلامه عليه إلى التعلم من شخص معين، بل من البشر كائناً مَن كان.

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي (يَلحَدون) بفتح الياء والحاء، وقرأ الباقون (يُلحِدون) بضم الياء وكسر الحاء.

قوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: لسان الذي يميلون إلى أنه علم الرسول ﷺ هذا القرآن ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾ أي: لغته أعجمية، لا يكاد يبين.

﴿وَهَٰذَا﴾ يعني القرآن الكريم، ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ﴾ أي: بلغة عربية، ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: فصيح معجز كما قال ـ تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وفي هذا رد لزعمهم أن الذي يعلمه بشر، أي: كيف يكون هذا والذي يميلون إلى أنه علّم الرسول ﷺ القرآن أعجمي، والقرآن الكريم بلسان عربي مبين، وأعجز فحول الفصاحة والبلاغة، وكيف للأعجمي أن يتذوق بلاغة القرآن، وما حواه من العلوم، فضلاً أن ينطق به، فضلاً أن يكون معلماً له.

قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾، ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

ذكر الله ـ عز وجل ـ زعم المشركين أنه ﷺ مفتر افترى القرآن وتعلمه من بشر، ورد عليهم، ثم أتبع ذلك بالوعيد بحرمانهم من هدايته، وبالعذاب الأليم، وحصر الافتراء والكذب فيهم.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي: إن الذين لا يصدقون بآيات الله الشرعية والكونية ويزعمون أن ما جاء به ﷺ من الوحي كذب منه وافتراء.

﴿ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في هذا تهديد لهم على كفرهم بالقرآن، بعد ردّ طعنهم فيه.

﴿ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: لا يوفقهم الله للحق والإيمان؛ لأن هداية الله تنقسم إلى قسمين: هداية الدلالة والإرشاد، وهذه عامة، وبها أقام الله ـ عز وجل ـ الحجة على جميع الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب، كما قال ـ تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

وهداية التوفيق وهذه خاصة بالمؤمنين، وهي المنفية في قوله: ﴿ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ ﴾ وهذه عقوبة عاجلة لهم في الدنيا بسبب عدم إيمانهم بآيات الله، كما قال ـ تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال ـ تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥].

ومن حُرم الهداية وقع في الضلالة لا محالة، قال ـ تعالى: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس: ٣٢].

وقد تحمل الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ ﴾ على رؤوس الكفر كأبي جهل والوليد بن المغيرة وغيرهما.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿ أَلِيمٌ ﴾ على وزن «فعيل» بمعنى: «مفعل» أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب في الدنيا بالقتل والجراح والسبي ونكد العيش، بسبب عدم الإيمان، وبالآخرة بعذاب النار.

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾.

هذا رد لقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾ بقلب ما زعموه عليهم وحصر الافتراء فيهم وقصره عليهم، ولهذا قال: ﴿ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ﴾ و﴿ إِنَّمَا ﴾ أداة حصر وقصر، و﴿يَفۡتَرِي﴾ بمعنى: يختلق، أي: إنما يختلق الكذب ويتقوله على الله ـ تعالى ـ وعلى رسوله ﷺ، الذين لا يصدقون بآيات الله ممن لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً يردعهم عنه، حيث زعموا أنه ﷺ مفتر، ويعلمه بشر، وكذبوا القرآن، وما دل عليه من البعث والحساب والجزاء على الأعمال، وغير ذلك.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ قصرهم على الافتراء، ثم قصرهم على الكذب وأكده فيهم بكون هذه الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيراً لهم.

الفوائد والأحكام:

١ – مشروعية الاستعاذة عند قراءة القرآن؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ وهي مستحبة على الصحيح من أقوال أهل العلم.

٢– أن أصح صيغ الاستعاذة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» بدليل الآية، وهكذا جاء في حديث سليمان بن صُرَدٍ ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال لما رأى رجلاً قد اشتد به الغضب: «**إني لأعرف كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»(١).

٣– حفظ الله ـ عز وجل ـ للقارئ من الشيطان وتلبيسه ووساوسه بالاستعاذة؛ لأن الله ـ عز وجل ـ أمر بها عند القراءة.

٤– لا عصمة للإنسان من الشيطان ووساوسه إلا بالالتجاء إلى الله ـ عز وجل ـ والاعتصام به.

٥– بُعد الشيطان عن كل خير، وإبعاده عن رحمة الله، لهذا سمي بـ«الشيطان الرجيم».

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ـ الحذر من الغضب (٦١١٥)، ومسلم في البر ـ فضل من يملك نفسه عند الغضب (٢٦١٠)، وأبوداود في الأدب (٤٧٨١)، وأحمد (٥/ ٢٤٠).

٦- لا سلطة للشيطان ولا طريق له على المؤمنين المتوكلين على ربهم، لحفظ الله ـ عز وجل ـ لهم منه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

٧- الترغيب في الإيمان والتوكل على الله ـ لأنه سبب لحفظ الله العبد من تسلط الشيطان.

٨- قصر تسلط الشيطان على الذين يتخذونه وليًّا ويشركون به؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾.

٩- التحذير من تولي الشيطان والإشراك به؛ لأنه سبب تسلطه على الإنسان.

١٠- إثبات النسخ في القرآن الكريم، وتبديل آية مكان آية؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾.

١١- علم الله ـ عز وجل ـ بما يُنزل؛ وما يبدله وينسخه، وما يثبته؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾.

١٢- اتخاذ المشركين من نسخ الله ـ عز وجل ـ آية وتبديلها بأخرى وسيلة للطعن في القرآن الكريم، واتهامه ﷺ بالافتراء؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ﴾.

١٣- جهل كثير من المشركين وعدم علمهم علماً ينتفعون به ويهديهم إلى الحق؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

١٤- إثبات تنزل القرآن الكريم بواسطة جبريل من عند الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ وفي هذا رد على من زعموا أن الرسول ﷺ افتراه، وإثبات أن القرآن منزل من عند الله ـ عز وجل ـ غير مخلوق، خلافاً للمعتزلة.

١٥- أن القرآن نزل مفرقاً ومنجماً؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾.

١٦- شرف جبريل ـ عليه السلام ـ وفضله بين الملائكة؛ لقوله ـ عز وجل: ﴿ رُوحُ

ٱلْقُدُسِ ﴾. و«الروح» هو جبريل ـ عليه السلام، و«القدس» الطهر والفضل وعلو القدر.

١٧- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطابه ـ عز وجل ـ له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ، وربوبيته ـ عز وجل ـ الخاصة له؛ لقوله ـ تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

١٨- أن القرآن الكريم نزل من عند الله ـ عز وجل ـ متلبساً بالحق من حيث وصوله إلينا، فسنده أصح الأسانيد أخذه جبريل الأمين من الله ـ عز وجل ـ وبلغه إلى الهادي الأمين محمد ﷺ، وبلغه محمد ﷺ إلى أمته. وهو أيضاً مشتمل فيما جاء به على الحق، فأخباره صدق وأحكامه عدل.

١٩- أن الحكمة في تنزل القرآن مفرقاً تثبيت الذين آمنوا وزيادة إيمانهم، وهداية وبشارة المسلمين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

٢٠- علم الله ـ عز وجل ـ وإحاطته بما يقوله المشركون ويزعمونه من أنه ﷺ إنما يعلمه القرآن بشر؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾.

٢١- تخبط المشركين واضطرابهم فيما يتقولونه عليه ﷺ وعلى القرآن، فتارة يقولون: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ وتارة يقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾.

٢٢- بطلان دعوى المشركين وقولهم ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ واستحالة ذلك؛ لأن الشخص الذي يزعمون أنه علم النبي ﷺ أعجمي، والقرآن بلسان عربي مبين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾.

٢٣- تنزل القرآن في الرد على المخالفين ومقارعتهم لإفحامهم من كلامهم فكيف يزعمون أن بشراً أعجمياً يُعلم النبي ﷺ القرآن ذا اللسان العربي المبين.

٢٤- أن من عقوبة رد الحق وعدم الإيمان بآيات الله الحرمان من هداية الله تعالى؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ ﴾.

٢٥- التهديد والوعيد للذين لا يؤمنون بآيات الله بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢٦- الترغيب بالإيمان بآيات الله؛ لأنه سبب لهداية الله والنجاة من العذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

٢٧- حصر الافتراء والكذب في الذين لا يؤمنون بآيات الله وقصرهم عليه وتأكيد ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ وفي هذا تبرئة له ﷺ مما رموه به من الافتراء.

٢٨- التحذير من الكذب وأنه من الكبائر ومن أعمال الذين لا يؤمنون بآيات الله.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٩].

قوله ـ تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾.

﴿ مَن ﴾ اسم موصول مبتدأ، وخبره ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾.

ويجوز كون ﴿ مَن ﴾ شرطية، و﴿ كَفَرَ ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾.

والمعنى: من يكفر بالله بعد إيمانه؛ لأن الفعل الماضي في الشرط ينقلب إلى المضارع. أي: من كفر بالله فجحد ربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه بعد إيمانه به.

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ ﴿ إِلَّا ﴾ أداة استثناء، ﴿مَنْ ﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل نصب على الاستثناء المنقطع، أي: إلا الذي أكره وقلبه مطمئن بالإيمان.

والإكراه: الإلجاء إلى فعل أو قول ما يُكره فعله أو قوله.

والمعنى: إلا الذي أكره على إظهار الكفر، فأظهره بالقول بأن نطق بكلمة الكفر بلسانه.

﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ أي: وقلبه ثابت على الإيمان موقن منشرح الصدر به، فلا حرج عليه؛ لأن الله إنما يؤاخذ العباد بما انعقدت عليه قلوبهم.

عن محمد بن عمار قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ ـ وفي بعض الروايات أنه سبّ النبي

ﷺ، وذكر آلهتهم بخير وأنه قال: «ما تُركت يا رسول الله حتى سببتك، وذكرت آلهتهم بخير. قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً. فقال: «إن عادوا فعد»، وفي ذلك أنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾»[(١)].

وهكذا من أكره على ما دون الكفر من المعاصي، فهو معذور، ما لم يكن فيه اعتداء على الغير فلا يجوز. قال ـ تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور: ٣٣]، وقال ﷺ: «عفي لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[(٢)].

قال السعدي[(٣)]: «من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان، راغب فيه، فإنه لا حرج عليه، ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها».

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ بيان وتفسير لقوله ـ تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾.

أي: ولكن المؤاخذ المعاقب الذي شرح بالكفر صدراً بأن استمر على الكفر أو رجع إليه وانشرح واتسع له صدره، واطمأن إليه قلبه.

﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿مَن كَفَرَ﴾ والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، وعلى اعتبار الجملة خبراً ربط بالفاء لشبه الموصول ﴿مَنْ﴾ بالشرط.

أي: فعليهم غضب من الله بسبب كفرهم بعد إيمانهم وانشراح صدورهم بالكفر. ومن غضب الله عليه عاقبه وانتقم منه، كما قال ـ تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٦٠)، والطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٣٧٤-٣٧٥)، والبيهقي في «سننه» (٨/ ٢٠٨، ٢٠٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٣) ـ من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ٢٤٥).

أَنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥].

أي: فلما أغضبونا انتقمنا منهم، ولهذا قال بعده: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي: ولهم عذاب عظيم في الدنيا والآخرة من حيث كيفيته، وكمه، ونوعه، لا يعلم مقدار عظمته إلا من وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم ـ سبحانه وتعالى.

قوله ـ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ ﴾ إلى غضب الله على من كفر به بعد الإيمان وانشرح بالكفر صدره، وما لهم من العذاب العظيم، والباء في قوله: ﴿ بِأَنَّهُمُ ﴾ للسببية، أي: بسبب أنهم استحبوا الحياة الدنيا، والضمير لمن كفروا بالله بعد إيمانهم وشرحوا بالكفر صدورهم.

و﴿ٱسْتَحَبُّواْ ﴾ بمعنى أحبوا، والزيادة فيها للمبالغة، أي: أحبوا الحياة الدنيا وآثروها وفضلوها على الآخرة، فكان سعيهم للدنيا، ونسوا الآخرة وغفلوا عنها، فاختاروا الدنيا الدنية العاجلة الفانية على الحياة الآخرة العظيمة الباقية.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وبأن الله لا يهدي القوم الكافرين، أي: لا يوفقهم بسبب كفرهم. فالهداية المنفية عنهم هداية التوفيق، أما هداية الدلالة الإرشاد فبها قامت الحجة عليهم.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «وأن الله لا يهديهم» ليشملهم الوعيد وغيرهم من الكافرين.

قوله ـ تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾.

هذا فيه بيان لقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وهو أن حرمانهم الهداية بحرمانهم الانتفاع بوسائلها، وهي القلوب والأسماع والأبصار، وذلك بالطبع عليهم، كما قال ـ تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وأشار إليهم في الموضعين بإشارة البعيد تحقيراً لهم، ومعنى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي: ختم عليها فلا قلوبهم تتفكر وتتدبر وتتأمل في الآيات، ولا أسماعهم تصغى إليها، ولا أبصارهم تنظر فيها فصار حالهم كما قال الله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

فختم على قلوبهم وأصم أسماعهم، وأعمى أبصارهم، كما قال ـ تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقال ـ تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال ـ تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الزخرف: ٤٠]، وقال ـ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٣].

قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ أكد غفلتهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين وبضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ و﴿ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ جمع غافل، والغفلة: السهو وقلة التحفظ والتيقظ، أي: الغافلون الساهون عما خلقوا له، وما أمامهم من الأهوال. كما قال الشاعر:

والناس في غفلة عما يراد بهم ... كأنهم غنم في بيت جزار

فعوقب من كفر بالله من بعد إيمانه بخمس عقوبات: غضب الله عليهم، وعذابه العظيم لهم، وحرمانهم من هدايته، والطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، والحكم عليهم بالغفلة. وواحدة من هذه العقوبات كافية، فكيف إذا اجتمعت.

قوله ـ تعالىٰ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً، أو لا محالة.

﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الخسارة: ضياع رأس المال أو بعضه مع الربح. والمعنى: حقّا أنهم في الآخرة هم الخاسرون الخسارة العظمى، الذين خسروا دينهم ودنياهم وآخرتهم، خسروا أنفسهم وأهليهم، كما قال ـ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥]، وقال

ـ تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣].

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتهديد لمن كفر بالله بعد إيمانه وشرح بالكفر صدره بغضب الله ـ عز وجل ـ عليهم، والعذاب العظيم لهم في الآخرة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٦﴾.

٢- أن من أكره على التلفظ بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان ثابت عليه فلا حرج عليه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ ومن باب أولى لا حرج على من أكره على ما دون الكفر من قول أو فعل كالطلاق والعتاق، وكالمرأة تكره على الزنا ونحو ذلك. لكن لا يجوز الاعتداء على الآخرين بحجة الإكراه، وإذا أمكن أن يعرض بشيء بدل التصريح بالكفر فهذا أولى، بل وأوجب وإذا صبر ولم يتلفظ بالكفر ونحو ذلك فهو أعظم أجراً لأنه أخذ بالعزيمة وترك الرخصة ؛ كما فعل بلال ـ رضي الله عنه ـ فقد كان مواليه يُضجعونه على بطنه ويعصرونه، ويقولون: دينك اللات والعزى، فيقول: ربي الله، أحد أحد، ولو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها»[(١)].

وكما فعل حبيب بن زيد الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فلم يزل يقطعه إرباً إرباً، وهو ثابت على ذلك»[(٢)].

وكما فعل عبدالله بن حذافة السهمي ـ رضي الله عنه ـ لما أسره الروم وطلب منه ملكهم أن يتنصر وأغراه بأن يعطيه نصف ملكه. فقال: لو أعطيتني جميع ما

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١/ ٢٥٣)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٢٥).
(٢) انظر: ترجمة حبيب بن زيد في «أسد الغابة» (١/ ٤٤٣)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٢٥).

تملك وجميع ما تملك العرب ما رجعت عن دين محمد طرفة عين. قال: إذاً أقتلك، قال: أنت وذاك، وأمر به فصلب، وقال للرماة: ارموه قريباً من بدنه، وهو يعرض عليه، ويأبى، فأنزله ودعا بقدر فصب فيه ماء حتى احترقت، ودعا بأسيرين من المسلمين، فأمر بأحدهما فألقي فيها وهو يعرض عليه النصرانية، وهو يأبى»(١).

وكما قال خبيب بن عدي ـ رضي الله عنه ـ لما صلبه المشركون ليقتلوه:

ولست أبالي حين أُقتل مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي(٢)

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

٣- سعة رحمة الله ـ عز وجل ـ وعفوه عن عباده حيث لا يؤاخذ من أكره على الكفر إذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان.

٤- أن مدار الأعمال على ما في القلوب؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

٥- خطر الردة والكفر بعد الإيمان ووجوب الحذر من ذلك؛ لما فيه من نكران نعمة الإيمان، والحور بعد الكور، والتعرض لغضب الله وللعذاب العظيم.

٦- إثبات الاختيار للإنسان، والرد على الجبرية؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾.

٧- إثبات صفة الغضب لله ـ عز وجل ـ على ما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٨- شدة عذاب الله لمن كفر بعد إيمانه، وعظمته؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

٩- أن ما توعد الله ـ عز وجل ـ به من كفر بعد إيمانه من غضبه ـ عز وجل ـ عليهم، والعذاب العظيم لهم بسبب كفرهم واستحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة؛ لقوله

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٤).

(٢) انظر: «الإصابة» (١/ ٤١٨).

ـ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

١٠- أن من استحب الحياة الدنيا وفضلها وآثرها على الآخرة فقد خسر وتعرض لغضب الله وعذابه.

١١- حرمان الكافرين من توفيق الله ـ تعالى؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويفهم من هذا هدايته ـ عز وجل ـ وتوفيقه للمؤمنين.

١٢- أن حرمان الكافرين الهداية بحرمانهم الانتفاع من وسائلها وهي القلوب والأسماع والأبصار وذلك بالطبع والختم عليها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾.

١٣- ذم الكافرين وتأكيد غفلتهم عما خلقوا له، وما أمامهم من الأهوال؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

١٤- تحقق خسارة الكافرين في الآخرة الخسارة العظمى، خسارة الدين والدنيا والآخرة، خسارة الأنفس والأهل، وكل شيء؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

١٥- أن الخسارة الكبرى والمصيبة العظمى هي الخسارة في الدين بالكفر والمعاصي.

* * *

تفسير آيات الأحكام في سورة الإسراء

قال الله ـ تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٢-٢٥].

قوله ـ تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ ﴿ لَّا ﴾ ناهية، والخطاب لكل من يصلح خطابه من الأمة، أي: لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً.

أي: لا تعبد مع الله معبوداً آخر غيره، بل أخلص العبادة لله وحده، كما قال ـ تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥].

و«الإله» يطلق على المعبود بحق وهو الله ـ عز وجل ـ ويطلق على المعبود بغير حق، كما قال المشركون فيما حكى الله عنهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [ص: ٥].

﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ أي: فتصير بسبب ذلك.

﴿ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ حالان، أي: حال كونك مذموماً مخذولاً، والمذموم: المذكور بالسوء والعيب، والمخذول: الذي أسلمه ناصره وتخلى عنه.

أي: فتقعد مذموماً على شركك عند الله ـ عز وجل؛ لأن الله ـ عز وجل ـ ذم الشرك وأهله وحرّمه وحذر منه في جميع الشرائع كما، قال ـ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزمر: ٦٥].

ومذموماً أيضاً عند ذوي العقول من خلقه ـ عز وجل، كما قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الصافات: ٩٥].

﴿ مَّخْذُولًا ﴾ أي: مخذولاً غاية الخذلان، تخلى الله عن نصرتك، ووكلك إلى من عبدته معه، وأسلمك وتخلى عنك من عبدته مع الله مما لا يغني عنك شيئاً، كما قال

الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: ٤٢]، وقال ـ تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٤]، وقال ـ تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

فمن أشرك مع الله غيره فهو مذموم غاية الذم مخذول غاية الخذلان، لا ولي له ولا ناصر، كما قال ـ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾﴾ [محمد: ١١].

قوله ـ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ الآية.

قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ الواو: استئنافية.

﴿وَقَضَىٰ﴾ أي: أمر وأوجب. وقضاء الله ينقسم إلى قسمين: قضاء كوني بمعنى المشيئة والإرادة الكونية، لابد من وقوعه، ولا يلزم أن يكون محبوباً لله ـ عز وجل، كما قال ـ تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤﴾﴾ [الإسراء: ٤].

والقسم الثاني: قضاء شرعي بمعنى الإرادة الشرعية، لابد أن يكون محبوباً لله ـ عز وجل ـ ولا يلزم وقوعه، كما في هذه الآية.

ومثل القضاء في هذا التقسيم: الأمر، والحكم، والإذن، والكتب، فكل منها منه ما هو كوني، ومنه ما هو شرعي.

والخطاب في قوله: ﴿رَبُّكَ﴾ للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ الآية.

وفي إضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ تكريم وتشريف له ﷺ، وهو أيضاً تكريم وتشريف لمن اتبعه من المؤمنين؛ لأن الخطاب له ولهم.

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ «أن» يحتمل أن تكون مصدرية مجرورة بباء جر مقدرة،

أي: بأن لا تعبدوا إلا إياه، و«لا» نافية، ويحتمل أن تكون «أن» مفسرة، لما في «قضى» من معنى القول، و يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة، و«لا» على الحالين ناهية.

﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ﴿إِلَّآ﴾ أداة حصر، أي: لا تعبدوا غيره.

ففي الآية نفي وإثبات؛ نفي العبادة عن غير الله، وإثباتها لله ـ عز وجل ـ وحده، كما في كلمة وشهادة التوحيد: «لا إله إلا الله».

والمعنى: وأوجب ربك يا محمد أن لا تعبدوا أيها الناس إلا هو، أي: أوجب عبادته وحده لا شريك له.

والعبادة في اللغة: الذل والخضوع والاستكانة.

يقال: طريق معبد، أي مذلل ذللته الأقدام بالسير عليه، ويقال بعير مذلل، أي: ذُلل بالركوب عليه.

والعبادة في الشرع: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

والعبادة تطلق على نفس العبادة كالصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك وتطلق على فعل التعبد.

والعبادة بمعناها العام تتناول جميع الأحكام التكليفية الخمسة مع استصحاب النية، ففعل الواجب عبادة، وترك المحرم عبادة، وفعل المندوب عبادة، وترك المكروه عبادة، وفعل المباح عبادة.

فمن وفق لاستصحاب النية الصالحة فحياته كلها عبادة؛ حتى أكله وشربه ونومه ويقظته وترويحه عن نفسه، وغير ذلك، حتى جماعه لزوجته؛ كما قال ﷺ: **«وفي بضع أحدكم صدقة»** قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: **«أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجراً»**[١].

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٠٦) ـ من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه.

ولهذا قال أهل العلم: «الموفقون عاداتهم عبادات، والمخذولون عباداتهم عادات» فانتبه لهذا وفقك الله.

وعبادة الله ـ تعالى ـ وتوحيده أصل الشرائع كلها وهو حق الله ـ عز وجل ـ على الخلق، وأول الحقوق وأعظمها، قال ـ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال ﷺ لمعاذ ـ رضي الله عنه: **«أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟»** قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **«حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»**[1].

﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ معطوف على ما قبله، والباء في قول ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ ﴾ للتعدية، وهو متعلق بـ﴿ إِحْسَانًا ﴾ وقدم عليه للاهتمام بالوالدين، و«ال» فيه للاستغراق باعتبار والدي كل مكلف ممن عمهم الخطاب في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا ﴾.

و﴿إِحْسَانًا ﴾ مفعول مطلق، أي: وأحسنوا إحساناً بالوالدين.

والمعنى: وأوجب أن تحسنوا إلى الوالدين قولاً، وفعلاً وبذلاً؛ بطاعتهما، وأداء حقوقهما الواجبة والمستحبة، والتلطف معهما، وإظهار الفرح والاغتباط عند الدخول عليهما، و الدعاء لهما مقابل جميل معروفهما، وعظيم صنيعهما، وتقبيل رؤوسهما والصدق في محبتهما، وطلب رضاهما، والبر بهما.

و«الوالدين» يشمل الآباء والأجداد، والأمهات والجدات، وكل من كان منهم أقرب كان حقه أعظم وألزم.

﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ﴾ بيان لقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ أي: بيان وتفصيل للإحسان المأمور به في الآية.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٦)، ومسلم في الإيمان (٣٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٩٦) ـ من حديث معاذ ـ رضي الله عنه.

قرأ حمزة والكسائي وخلف «يبلغان» بألف مطولة بعد الغين وكسر النون على التثنية، و قرأ الباقون بغير ألف وفتح النون على التوحيد.

و«إمّا» مركبة من «إن» الشرطية و«ما» التي للتوكيد، و﴿يَبْلُغَنَّ﴾ فعل الشرط والخطاب لكل ولد بمفرده، ذكراً كان أو أنثى.

أي: إما يبلغن عندك أيها الولد الكبَر أحدُ والديك أو كلاهما، وبلوغ الكبر: الوصول إلى سن الكبر.

وخص هذه الحال ـ وإن كان برهما والإحسان إليهما واجب في كل حال بسبب كبرهما وحاجتهما إلى مزيد من الإحسان والعطف عليهما، والعناية والتلطف بهما نظراً لضعفهما، كما قال ـ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

وأيضاً فإن في هذه الحال يحتاج الولد إلى مجاهدة النفس أكثر لما فيها من مشقة القيام بشؤونهما، فلا يسأم من رعايتهما وخدمتهما، حتى ولو ساء خلقهما، ولا يستطيل حياتهما.

وقدم قوله ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ على قوله: ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ إشارة ـ والله أعلم ـ إلى أن الغالب أن يموت أحد الوالدين إن لم يمت كلاهما قبل سن الكبر، وهذا هو الواقع، فقل أن يدرك الكبرُ الوالدين كليهما عند الولد.

وفي الآية من تحريك الشعور ما لا يخفى لمن وفقه الله، ويا غبطة من بلغ والداه الكبر عنده وسر بهما، وأحسن إليهما وخدمهما، وهذا أمر بعيد المنال.

قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ جواب الشرط «إن»، والفاء رابطة للجواب، لأنه جملة طلبية.

قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بفتح الفاء من غير تنوين «أفَّ» وقرأ نافع وأبوجعفر وحفص بكسر الفاء مع التنوين «أفٍّ»، وقرأ الباقون بكسر الفاء من غير تنوين «أفِّ».

و«أف» اسم فعل مضارع معناه أتضجر، وهذه الكلمة أدنى مراتب الأذى باللسان.

أي: لا تؤذهما بأي أذى مهما قل ولو كانت هذه الكلمة؛ لأنه إذا نهي عن هذه الكلمة فغيرها من الأذى بالقول والفعل مما هو أشد أولى بالنهي والتحريم.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ يقال: نهره وانتهره إذا زجره بالكلام، أي: ولا تزجرهما. وقال عطاء بن أبي رباح: «أي: لا تنفض يدك على والديك»[(١)].

عن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[(٢)].

وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لعن الله من لعن والديه**»[(٣)].

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: قولاً جميلاً حسناً طيباً ليناً لطيفاً، بأدب وتوقير، يُدخل السرور عليهما وتنشرح به صدورهما، ويغتبطان به.

قوله ـ تعالىٰ: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: تذلل وتواضع لهما بفعلك، وليِّن جانبك لهما رحمة بهما وعطفاً عليهما.

وإذا كان الشرع رغب بالرحمة مطلقاً فمن أولى من الوالدين بالرحمة؟! قال ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شُجنة من الرحمن فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله**»[(٤)].

وقال ﷺ: «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[(٥)].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٥٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧٣)، ومسلم في الإيمان (٩٠)، وأبوداود في الأدب (٥١٤١).

(٣) أخرجه مسلم في الأضاحي (١٩٧٨).

(٤) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٩٤١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٤) ـ من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٥) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٤٨)، ومسلم في الجنائز (٩٢٣)، وأبوداود في الجنائز (٣١٢٥)، والنسائي في الجنائز (١٨٦٨) ـ من حديث أسامة ـ رضي الله عنه.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ أي: وقل داعياً سائلاً الله ـ عز وجل: ﴿رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾.

أي: يا رب ارحمهما برحمتك التي وسعت كل شيء وعمت كل حي.

﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ الكاف للتعليل، أي: مجازاة لهما لأجل تربيتهما لي ورحمتهما إياي حال كوني صغيراً.

وفي هذا اعتراف من الولد بجميلهما، وشكر لهما، كما قال ـ تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان: ١٤]. كما أن في الآية إيذاناً بأن الدعاء لهما مستجاب؛ لأن الله ـ عز وجل ـ أمر به، وقد قال ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(١).

والبر بالوالدين والدعاء لهما من صفات الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام، كما قال ـ عز وجل ـ عن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢﴾ [مريم: ٣٣]، وقال ـ عز وجل ـ عن يحيى ـ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤﴾ [مريم: ١٤]، وقال إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١]، وقال أيضاً ـ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦﴾ [الشعراء: ٨٦]. وقال نوح ـ عليه الصلاة والسلام: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ٢٨﴾ [نوح: ٢٨].

والدعاء بالرحمة إنما يجوز للوالدين المؤمنين دون من كان كافراً؛ لقوله ـ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية (١٦٣١)، وأبوداود في الوصايا (٢٨٨٠)، والنسائي في الوصايا (٣٢٥١)، والترمذي في الأحكام (١٣٧٦) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي**»(١).

قوله ـ تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾.

أمر الله ـ عز وجل ـ في الآيتين، السابقتين بعبادته وحده، وبالإحسان إلى الوالدين، ثم أتبع ذلك ببيان علمه ـ عز وجل ـ بما في النفوس، ومغفرته لمن كانوا صالحين، إذا آبوا إليه، وفي هذا إشارة إلى أنه قد لا يسلم الإنسان من التقصير وبخاصة مع والديه فعليه التوبة والإنابة إلى الله ـ عز وجل.

قوله: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ أي: خالقكم ومالككم، والمتصرف فيكم ﴿أَعْلَمُ﴾ على وزن أفعل صيغة تفضيل، و«ما» موصولة، أي: أعلم منكم ومن كل أحد بالذي في نفوسكم وقلوبكم من المضمرات، من قصد البر أو العقوق أو غير ذلك، كما قال ـ تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤].

وقال ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(٢).

﴿ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ ﴾ بإخلاص العمل لله ـ عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ، فهذان شرطان لصلاح العمل، كما قال ـ عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: أخلص العمل لله، وهو متبع الرسول ﷺ.

﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ أي: فإن ربكم كان للأوابين غفورا.

و«الأوابين» جمع أواب، مشتق من الأوب، وهو الرجوع، قال ـ تعالى: ﴿ إِنَّ

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز (٩٧٦)، وأبوداود في الجنائز (٣٢٣٤)، والنسائي في الجنائز (٢٠٣٤)، وابن ماجه في الجنائز (١٥٦٩).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٦٤) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

﴿إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [الغاشية: ٢٥]، أي: رجوعهم. وكان ﷺ إذا رجع من سفر قال: «**آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون**»(١).

وقال عبيد بن الأبرص(٢):

وكـل ذي غيبـة يـؤوب وغائب الموت لا يـؤوب

والمراد بـ«الأوابين» التائبون المنيبون إلى الله ـ عز وجل، الراجعون من معصيته إلى طاعته. قال ـ تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٢، ٣٣].

وفي الحديث: «**صلاة الأوابين عندما ترمض الفصال**»(٣).

﴿غَفُورًا﴾ أي: ذو مغفرة واسعة، والمغفرة ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة، فهو ـ عز وجل ـ يستر ذنوب الأوابين التائبين ويتجاوز عنها، فلا يؤاخذهم عليها.

فمن قصد الصلاح والبر بوالديه فإن الله يغفر له ما فرط منه في حقهما إذا آب وأناب إلى الله، ورجع عن ذلك.

وقد عظم الله عز وجل حق الوالدين في مواضع عدة من كتابه العزيز؛ لأنهما السبب الظاهر ـ بعد الله ـ عز وجل ـ في وجود الولد في هذه الحياة، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه والقرب ما يقتضي تأكيد حقهما ووجوب البر بهما، ولهذا قرن الله ـ عز وجل ـ حقهما بحقه وأوصى بهما في عدة مواضع في كتابه العزيز، فقال ـ تعالى ـ في هذه الآية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآيتين، وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]،

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٨٦)، ومسلم في الحج ـ ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره (١٣٤٥) ـ من حديث أنس ـ رضي الله عنه.

(٢) انظر: ديوانه، ص(١٣).

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٤٨) ـ من حديث زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه.

وقال ـ تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال ـ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال ـ تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال ـ تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]، وقال ـ تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: ١٤].

وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله ـ عز وجل؟ قال: «**الصلاة على وقتها**» قال: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**». قال: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»(١).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه**» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «**من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة**»(٢).

وعند عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله. قال: «**فهل أحد من والديك حي**»؟ قال: نعم بل كلاهما. قال: «**فتبتغي الأجر من الله**»؟ قال: نعم. قال: «**فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما**»(٣).

وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فاستأذنه في الجهاد، فقال: «**أحي والداك**» قال: نعم: قال: «**ففيهما فجاهد**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٧)، ومسلم في الإيمان (٨٥)، والنسائي في المواقيت (٦١٠)، والترمذي في الصلاة (١٧٣).

(٢) أخرجه مسلم في البر ـ باب رغم أنف من أدرك أبويه (٢٥٥١)، وأحمد (٢/ ٢٤٦، ٢٥٤).

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٤٩).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٤)، والنسائي في الجهاد (٣١٠٣)، والترمذي في الجهاد

=

وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يبايعه على الهجرة، وترك أبويه يبكيان، فقال: «**ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما**»[(١)].

وفي حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة قال أحدهم: «اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي يوماً طلب الشجر فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج... الحديث»[(٢)].

وعن جاهمة السلمي ـ رضي الله عنه ـ أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت الغزو، وجئتك أستشيرك. فقال: «**هل لك من أم؟**» قال: نعم. فقال: «**الزمها فإن الجنة تحت رجليها**»[(٣)].

وقال ﷺ: «**لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه**»[(٤)].

ورأى ابن عمر رجلاً يطوف بالكعبة حاملاً أمه. فقال الرجل: هل أديت حقها؟ فقال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ «لا، ولا بزفرة من زفراتها».

وفي رواية: أن هذا الرجل كان يُنشد:

إني لها مطية لا تذعر ... إذا الركاب نفرت لا تنفر
ما حملت وأرضعتني أكثر ... الله ربي ذو الجلال أكبر

=
(١٦٧١).

(١) أخرجه أبوداود في الجهاد (٢٥٢٨)، والنسائي في البيعة (٤١٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٧٢)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٣) ـ من حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٩)، والنسائي في الجهاد (٣١٠٤).

(٤) أخرجه مسلم في العتق (١٥١٠)، وأبوداود في الأدب (٥١٣٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٥٩) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

قال: تظنني جازيتها يا ابن عمر؟ قال: «لا، ولو زفرة واحدة».

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي مالاً وولداً، وإن والدي يجتاح مالي. قال: **«أنت ومالك لأبيك، إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم»**(١).

وقد جاء في بعض روايات هذا الحديث أن النبي ﷺ قال للرجل: **«ادع لي أباك»**، فلما جاء سأله النبي ﷺ: **«ماذا قلت في نفسك»**؟ قال: لم أقل شيئاً، فألحَّ عليه النبي ﷺ، فقال: لقد قلت في نفسي:

غذوتك مولوداً وعلتك يافعاً ... تُعلُّ بما أسدي إليك وتنهل
إذا ليلة ضامك السقم لم أبت ... لسقمك إلا ساهراً أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالأذى ... طرقت به وحدي وعيني تهمل
تخاف الردى عيني عليك وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي ... إليها مدى ما كنت فيك أُؤمِّل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي ... فعلت كما الجار المجاور يفعل

فأمسك النبي ﷺ بتلابيب الولد، وقال له: **«اذهب أنت ومالك لأبيك»**(٢).

وجاء في بعض الروايات أنه لما جاء الأب وكان شيخاً كبيراً يتوكأ على عصا، سأله النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنه كان ضعيفاً وأنا قوي، وفقيراً وأنا غني، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالي، واليوم أنا ضعيف وهو قوي، وأنا فقير وهو غني، ويبخل عليَّ

---

(١) أخرجه أبوداود في التجارات (٣٥٣٠)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٩٢)، وأحمد (٢/ ١٧٩، ٢٠٤، ٢١٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ١٥٨).
وقد أخرجه كثير من الأئمة من حديث جابر وعائشة وابن عمر ـ رضي الله عنهم وصححه جمع من أهل العلم ومنهم من حسنه وقد تقدم ذكر ذلك مستوفى في تفسير قول الله ـ تعالى ـ في سورة النساء ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾ [الآية: ٤].

(٢) جاء هذا في رواية الطبراني.

بماله، ثم التفت إلى ابنه منشداً ـ وذكر الأبيات ـ فبكى رسول الله ﷺ، وقال: «**ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى**» ثم قال للولد: «**أنت ومالك لأبيك**».

وعن عبدالله بن دينار عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكة، فسلم عليه عبدالله، وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه. فقال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله، إنهم الأعراب، وإنهم يرضون باليسير، فقال عبدالله: إن أبا هذا كان وُدًّا لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه**»(١).

وعن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ، إذ جاءه رجل من بني سلمة، فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «**نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما**»(٢).

وعن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت تحتي امرأة أحبها، وكان أبي يكرهها، فأمرني أن أطلقها، فأبيت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**يا عبدالله، طلق امرأتك**»(٣).

بل إن الشرع أمر بالإحسان إليهما حتى ولو كانا مشركين، كما قال ـ تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٥].

وعن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أمي قدمت وهي

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٥٢)، وأبوداود في الأدب (٥١٤٣)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٣).

(٢) أخرجه أبوداود في الأدب (٥١٤٢)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٦٤).

(٣) أخرجه أبوداود في الأدب (٥١٣٨)، والترمذي في الطلاق (١١٨٩)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٨٨).

راغبة[(١)]، أفأصلها؟ قال: «**نعم صلي أمك**»[(٢)].

والأحاديث في بيان عظم حق الوالدين تجل عن الحصر، وحق الأم أعظم من حق الأب، لما لاقته من ثقل وآلام وأخطار الحمل والولادة، ومعاناة الإرضاع والتربية والرعاية والعناية؛ ولهذا لما جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»[(٣)].

قال الشاعر:

لأمك حق لو علمت كثيرُ ... كثيرك يا هذا لديه يسيرُ
فكم ليلة باتت بثقلك تشتكي ... لها من جواها أنّة وزفير
وفي الوضع لو تدري عليها مشقة ... فمن غصص منها الفؤاد يطير
وكم غسلت عنك الأذى بيمينها ... وما حجرها إلا لديك سرير
وتفديك مما تشتكيه بنفسها ... ومن ثديها شرب لديك نمير
وكم مرة جاعت وأعطتك قوتها ... حناناً وإشفاقاً وأنت صغير
فآهاً لذي عقل ويتّبع الهوى ... وآهاً لأعمى القلب وهو بصير
فدونك فارغب في عميم دعائها ... فأنت لما تدعو إليه فقير[(٤)]

ومن الطريف في هذا ما ذكر أنه جاء إلى سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله رجل وقال له: يا شيخ، أنا بار بوالديَّ كل البر، وأنا أقوم بخدمتهما معاً، ومن ذلك أنني أقدم لهما القهوة فبأيهما أبدأ؟ فقال له الشيخ: استمر على ما كنت عليه،

---

(١) أي: مشركة.

(٢) أخرجه البخاري في الهبة للمشركين (٢٦٢٠)، ومسلم في الزكاة ـ فضل النفقة والصدقة على الأقربين (١٠٠٣)، وأبوداود في الزكاة (١٦٦٨)، وأحمد (٦/ ٣٤٤، ٣٤٧).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧١)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٤٨) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٤) انظر: «الكبائر» للذهبي، ص(٤٨).

فقال له: يا شيخ، أنا أخاف من العقوق، وألحَّ على الشيخ في هذا، فقال له الشيخ: ما دمت ملحاً، فالأولى أن تبدأ بأمك، فذهب الرجل كعادته ليقدم القهوة لوالديه، وأعطى أمه الفنجان قبل أبيه، فإذا بأبيه يلطمه تلك اللطمة الشديدة ليعود إلى الشيخ فيخبره بما جرى.. ولا شك أن الحق أحق أن يتبع، لكن في مثل هذا ا لأمر اليسير ينبغي مراعاة العرف وعدم التشديد على النفس، واستعمال الحكمة، وبخاصة إذا أدى الأمر إلى مفسدة أكبر ـ رحم الله شيخنا ابن باز فقد أوتي الحكمة فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.

الفوائد والأحكام:

١- النهي عن اتخاذ إلهاً آخر وإشراكه مع الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وهذا النهي عام لكل فرد من أفراد الأمة.

٢- وجوب إفراد الله ـ عز وجل بالعبادة، وإخلاصها له، وتحريم اتخاذ شريك له؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾.

٣- أن مصير وعاقبة من أشرك مع الله غيره الذم والخذلان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ فهو مذموم عند الله وعند الخلق، مآله النار، كما قال ـ تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء: ٣٩].

٤- خذلان جميع المعبودات من دون الله ـ عز وجل ـ لعابديها؛ لأنها لا تنفع ولا تضر ولا تغني عنهم من الله شيئاً.

٥- أن عبادة الله ـ عز وجل ـ وحده أول وأعظم حق على العباد؛ لأن الله بدأ بها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾.

٦- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله ـ عز وجل ـ له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ، وربوبية الله الخاصة له؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ رَبُّكَ ﴾ وهو تشريف وتكريم له ولأتباعه؛ لأن الخطاب له ولهم.

٧- وجوب الإحسان إلى الوالدين، بأداء حقوقهم الواجبة واستحباب الإحسان إليهم بأنواع الإحسان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾.

٨- عظم حق الوالدين والإحسان إليهما؛ لأن الله قرن حقهما بحقه ـ عز وجل ـ في هذه الآية وفي مواضع كثيرة من كتابه الكريم.

٩- تأكد حاجة الوالدين إلى الإحسان إليهما عند كبرهما؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ الآية.

١٠-الإشارة إلى أنه قد يتوفى الوالدان قبل الكبر، وقد يبلغه أحدهما، وقلّ أن يبلغه كلاهما؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ ففي هذا إشارة إلى قلة ذلك، وفي تقديم ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ على ﴿كِلَاهُمَا﴾ إشارة إلى أن بلوغهما الكبر معاً أقل وأندر وفي هذا من تحريك مشاعر الولد ما يكفي ـ لمن وفقه الله.

١١- تحريم أذية الوالدين بأي نوع من الأذى مهما قلّ، قولاً كان أو فعلاً؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ وإذا حرم أن يقال لهما ﴿أُفٍّ﴾ فما فوق ذلك أولى بالتحريم.

١٢-وجوب معاملة الوالدين بالقول الكريم، الجميل الحسن الطيب اللين، وا لتلطف معهما وتوقيرهما واحترامهما؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

١٣-وجوب معاملة الوالدين بالفعل الطيب بخفض الجناح ولين الجانب والتواضع لهما ـ رحمة بهما وعطفاً عليهما، لقوله ـ تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾.

١٤-الترغيب بالاتصاف بالرحمة وبخاصة مع الوالدين.

١٥-من حق الوالدين على الولد أن يدعو ربه أن يرحمهما جزاء تربيتهما له حال صغره؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾.

١٦-إثبات صفة الرحمة لله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾.

١٧-ينبغي مكافأة الجميل بمثله، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾.

١٨-تحريم عقوق الوالدين والتقصير في حقوقهما والإساءة لهما؛ لمفهوم قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآية.

وعن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وجلس وكان متكئاً. فقال: ألا وقول الزور» قال: فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت**»[(١)].

وعن المغيرة بن شعبة قال: قال النبي ﷺ: «**إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات، ومنع وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال**»[(٢)].

وعن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر**»[(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده**»[(٤)].

١٩- علم الله ـ عز وجل ـ بما تنطوي عليه النفوس والقلوب؛ لقوله ـ تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾.

٢٠- مغفرة الله ـ عز وجل ـ للأوابين التائبين ما قد يفرط منهم في حق الوالدين، أو غير ذلك إذا صلح العمل وحسن القصد؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾.

٢١- الترغيب في الصلاح بالإخلاص والمتابعة، وبالتوبة والرجوع إلى الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾.

٢٢- سعة مغفرة الله ـ عز وجل، لقوله ـ تعالى: ﴿غَفُورًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٥٤)، ومسلم في الإيمان (٨٧)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠١).

(٢) أخرجه البخاري في الاستقراض وأداء الديون (٢٤٠٨)، ومسلم في الأقضية (٥٩٣).

(٣) أخرجه النسائي في الأشربة (٥٦٧٢).

(٤) أخرجه الترمذي ي البر والصلة (١٩٠٥)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٦٢).

قال الله ـ تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٦-٣٩].

قوله ـ تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾. معطوف على قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾، فقد أمر ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة بعبادته وحده، وبالإحسان إلى الوالدين، بأداء حقوقهما، ثم أتبع ذلك بالأمر بإيتاء ذي القربى حقه؛ لأن القرابة متشعبة عن الوالدين، وهو أشبه بعطف العام على الخاص.

والخطاب في قوله: ﴿ وَءَاتِ ﴾ للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه، و﴿ ذَا ﴾ بمعنى صاحب، و«ال» في ﴿ ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ للجنس، أي: وأعط القرابة حقهم الواجب والمسنون من البر و الصلة والمواساة، والإحسان والإكرام، قولاً وفعلاً وبذلاً.

وقوله: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ ولم يقل: «القريب» ليصدق على كل ذي قرابة قريب أو بعيد ـ وإن كان القريب أولى.

وحق ذوي القربى من أعظم الحقوق فعن أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أخبرني بعمل يدخلني الجنة. قال النبي ﷺ: **«تعبد الله ولا تشرك به**

شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم»[١].

فقرن ﷺ بين عبادة الله وحده لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصلة الرحم.

وقد أثنى الله ـ عز وجل ـ على الواصلين، فقال ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد: ٢١].

كما توعَّد ـ عز وجل ـ أهل القطيعة وذمَّهم فقال ـ تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣]، وقال ـ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧]، وقال ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد: ٢٥].

وفي الحديث القدسي أنه لما خلق الله الخلق قامت الرحم وقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال ـ عز وجل: **«ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك»**[٢].

ولهذا قال ﷺ: **«الصدقة على ذي الرحم اثنتان، صدقة وصلة»**[٣].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: **«خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ**

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٣٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٣)، والنسائي في الصلاة (٤٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٣٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٤) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه النسائي في الزكاة (٢٥٨٢)، وابن ماجه في الزكاة (١٨٤٤) ـ من حديث سلمان بن عامر ـ رضي الله عنه.

بمن تعول»(١).

وعن طارق المحاربي ـ رضي الله عنه ـ قال: «قدمنا المدينة فإذا رسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول: «**يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول: أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك**»(٢).

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنه لما أراد أبوطلحة أن يتصدق بحائطه المسمى «بيرحاء» قال له ﷺ: «**وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**» فقال أبوطلحة: «أفعل يا رسول الله، فقسمها أبوطلحة في أقاربه وبني عمه»(٣).

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه**»(٤).

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عليهم ويجهلون علي. فقال: «**لئن كنت كما قلت فكأنما تُسفّهم الملَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك**»(٥).

وفي حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**ليس الواصل بالمكافئ، إنما الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها**»(٦).

وعن جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنة**

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٦)، وأبوداود في الزكاة (١٦٧٦)، والنسائي في الزكاة (٢٥٣٤).

(٢) أخرجه النسائي في الزكاة (٢٥٣٢).

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦١)، ومسلم في الزكاة (٩٩٨)، وأبوداود في الزكاة (١٦٨٩)، والنسائي في الأحباس (٣٦٠٢)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٧).

(٤) أخرجه البخاري في البيوع ـ من أحب أن يبسط له في رزقه (٢٠٦٧)، ومسلم في البر والصلة ـ صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٧)، وأبوداود في الزكاة (١٦٩٣).

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٥٨) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٦) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩١)، وأبوداود في الزكاة (١٦٩٧)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٨).

قاطع»[١] يعني قاطع رحم.

وعن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله ـ تعالى ـ لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم»[٢].

﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ﴾ المحتاج الذي لا يجد كفايته، مأخوذ من السكون، وهو عدم الحركة؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، فيعطى حقه من الزكاة الواجبة، ومن الصدقة المستحبة، وما يحتاجه من توجيه ورعاية أو مساعدة بدنية، أو غير ذلك مما تصلح به حاله.

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر المنقطع به فيعطى حقه من الزكاة، والضيافة وما يحتاجه في سفره من الدلالة على الطريق وحمل متاعه وإنزاله، ونحو ذلك.

﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، ويحتمل عطفها على قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾.

﴿تَبۡذِيرًا﴾ مصدر مؤكد للنهي، والتبذير: الإسراف وتفريق المال في غير وجهه، كالإنفاق في الفساد والمعاصي ولو كان قليلاً، والزيادة في الإنفاق بالمباح، أما الإنفاق في وجوه البر فيرى طائفة من أهل العلم أنه ليس فيه تبذير مهما بلغ، وقد ثبت أن النبي ﷺ دعا إلى الصدقة فجاء عمر بنصف ماله، وجاء أبوبكر ـ رضي الله عنهما ـ بكل ماله[٣].

لكن مجيء جملة: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٨٤)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٥٦)، وأبوداود في الزكاة (١٦٩٦)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٩).

(٢) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٩٠٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١١)، وابن ماجه في الزهد (٤٢١١).

(٣) أخرجه أبوداود في الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦٧٥) ـ من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه.

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ معترضة بين قوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وبين قوله: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ﴾ الآية. يدل على أن التبذير قد يكون في وجوه البر.

وقد قال ﷺ لسعد: «**إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»(١).

ولا شك أنه لا ينبغي أن ينفق الإنسان ماله على وجه يضر به بحيث يصير هو ومن تحت كفالته عالة على الآخرين.

قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ الجملة تعليل للنهي المؤكَّد عن التبذير، و«ال» في ﴿ٱلۡمُبَذِّرِينَ﴾ للجنس.

﴿إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ أي: أمثال وأشباه الشياطين في كفر نعمة الله، وأتباعهم على الباطل وقرناءهم في الشر وفي النار.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ أي: جحوداً لربه، منكراً لنعمه، صارفاً لها بالكفر والإفساد وإضلال الناس، وحملهم على الكفر بالله وكفران نعمه عليهم.

والمراد بالربوبية في قوله: ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ الربوبية العامة لجميع الخلق، وفيه إشعار بشدة عتو الشيطان وتمرده؛ لأن الربوبية تستوجب الشكر فمقابلتها بالكفر غاية الكفران ونهاية الضلالة والطغيان.

قوله ـ تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ٢٨﴾.

أمر ـ عز وجل ـ بإيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل ونهى عن التبذير، ثم أتبع ذلك ببيان أنه إذا لم يتمكن من الإحسان الفعلي لهم فلا يعدم الإحسان القولي.

قوله: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ﴾ الواو للاستئناف، و«إما» «إن» شرطية و«ما» زائدة

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٩٦)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، وأبوداود في الوصايا (٢٨٦٤)، والنسائي (٣٦٢٦)، والترمذي في الوصايا (٢١١٦) ـ من حديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه.

إعراباً مؤكدة من حيث المعنى، أي: وإن تعرضنَّ عنهم.

والخطاب في قوله: ﴿تُعۡرِضَنَّ﴾ للمخاطب بقوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ الآية.

والضمير في قوله: ﴿عَنۡهُمُ﴾ يعود إلى من أُمر بإيتائهم حقوقهم، وهم ذوو القربى والمسكين وابن السبيل.

والإعراض: ضد الإقبال، مشتق من «العُرض» أي: الجانب، يقال: أعرض، إذا أعطى جانبه، قال ـ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٣].

أي: وإما تعرضنَّ عن المذكورين حياءً من الرد لعدم الجدة، ولم يصرح بذلك بل أقام مقامه. قوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا﴾ تلطفاً كأن إعراضه عنهم لأجل السعي لهم لا بسبب الفقر.

﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا﴾ أي: طلب رحمة من ربك تؤمل أن ييسرها لك.

والمراد بالرحمة هنا الرزق، فالمعنى: طلب وانتظار رزق تؤمل أن يسوقه ربك إليك فتعطيهم منه.

وإطلاق الرحمة على الرزق أمر معلوم فتطلق الرحمة على المطر وهو من أعظم الرزق، قال ـ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [الروم: ٥٠].

وقال ـ عز وجل ـ عن الجنة وهي أعظم الرزق: «**أنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء**»(١).

﴿فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا﴾ أي: فلا تؤيسهم وقل لهم قولاً سهلاً ليناً طيباً، فيه شيء من الاعتذار والوعد الحسن لهم، كما قال ـ تعالى: ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٥٠)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٤٦) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

أي: فإذا لم يمكن الإحسان الفعلي إليهم لعدم الجدة، فلا يُعدم الإحسان القولي لهم بالقول الميسور الطيب، والاعتذار الجميل، والوعد الحسن جبراً لخواطرهم، وكما قيل:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

وقيل: المعنى: وإما تعرض عنهم فلا تعطيهم طلب رحمة من ربك في المنع عنهم خوفاً أن يصرفوه فيما لا ينبغي من التبذير والفساد.

قوله ـ تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

نهى الله ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة عن التبذير، ثم نهى في هذه الآية عن التقتير، مؤكداً النهي عن التبذير ليكون الإنفاق وسطاً بين التقتير والتبذير.

قوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ أي: ولا تكن شحيحاً مقتراً منوعاً للنفقة والحقوق الواجبة والمستحبة، فشبه الشحيح المقتر بما عليه من النفقات بمن غُلت يده، أي: شدت وربطت، بالغل وهو القيد إلى عنقه، فلا يستطيع أن يمدها أو يتصرف فيها، أو يعطي فيها شيئاً، وغل اليد إلى العنق هو أقصى الغايات التي جرت العادة بغل اليد إليها، وفي هذا ما فيه من التنفير من الشح والبخل.

وقد قال ﷺ: «**مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد، من ثدييهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده، حتى تخفي بنانه وتعفو أثره**[١] **وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها ولا تتسع**»[٢].

---

(١) أي: تمحو أثر مشيته وتطمسه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ـ مثل المتصدق والبخيل (١٤٤٤، ومسلم في الزكاة ـ باب المنفق والبخيل (١٠٢١)، والنسائي في الزكاة (٢٥٤٧) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

وعن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أنفقي، ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك**»(١).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله ـ عز وجل: أَنفق أُنفق عليك**»(٢).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفا**»(٣).

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»(٤).

وعن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح؛ أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا**»(٥).

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ معطوف على ما قبله، وبين الجملتين طباق.

والبسط: المدّ، ضد «الغل» و«القبض»، أي: ولا تبسط يدك وتمدها في الإنفاق.

﴿كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي: بنهاية البسط، أو البسط كله، فتبذر وتسرف، بل كن وسطاً بين الأمرين، كما قيل:

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد ... كلا طرفي قصد الأمور ذميم

(١) أخرجه البخاري في الهبة ـ هبة المرأة لغير زوجها (٢٥٩١١)، ومسلم في الزكاة ـ الحث على الإنفاق وكراهة الإحصاء (١٠٢٩)، وأبوداود في الزكاة (١٦٩٩)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٦٠).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٤)، ومسلم في الزكاة (٩٩٣).

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٤٢)، ومسلم في الزكاة (١٠١٠).

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٩).

(٥) أخرجه أبوداود في الزكاة (١٦٩٨).

﴿فَنَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ الفاء: للسببية، و﴿مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ حالان، أي: فتقعد بسبب بسط يدك كل البسط حال كونك ملوماً محسوراً، والمراد بالقعود تحول الحال، أي: فتصير ملوماً محسوراً.

وهذا من باب اللف والنشر، أي: فتقعد إن بخلت وشححت بالمال ملوماً يلومك الناس، وبخاصة أصحاب الحقوق والحاجات من القرابة والفقراء وأبناء السبيل وغيرهم، ويذمونك ويستغنون عنك، كما قال زهير:

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله … على قومه يستغن عنه ويذمم(١)

وكما قيل: إن البخيل ملوم حيثما كانا.

وتقعد إن بذّرت وأسرفت ﴿مَّحْسُورًا﴾ و«محسور» على وزن «مفعول» بمعنى «فعيل». أي: وتقعد حسيراً، والحسير: العاجز المنهوك القوى، يقال: بعير حسير، إذا أتعبه السير فلم تبق له قوة، ومنه قوله ـ تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك: ٤].

والمعنى: فتصير حسيراً لا شيء عندك تنفقه، حاسر اليد فارغها، نادماً متحسراً بسبب التبذير، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما عال من اقتصد»**(٢).

قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝٣٠﴾.

أمر ـ عز وجل ـ بإيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل، ونهى عن التبذير والبخل، وفي ذلك أمر بالاعتدال بالإنفاق ثم أخبر أنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدره على من يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك، فلا يظن الممسك أن الشح مبق للمال، ولا يخشى المعتدل في الإنفاق العيلة، فالرزق على الله، ولا يأمن المبذر سوء عاقبة التبذير والفقر، ولا يجزع من ضيق عليه رزقه، فلله الحكمة في ذلك كله وهو

---

(١) انظر: «ديوانه» ص(٣٠).
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧).

الخبير البصير.

قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ الخطاب لكل من يصلح خطابه.

و﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يوسعه ويزيده، والرزق: العطاء.

﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: للذي يشاء من عباده.

﴿وَيَقْدِرُ ﴾ أي: ويضيق الرزق على من يشاء، وكل ذلك لحكمة يعلمها، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ أي: إنه كان بعباده ذو خبرة تامة، يعلم ما بطن ودق وخفي منهم ومن أخبارهم و«الخبير» العليم بالأخبار.

﴿بَصِيرًا ﴾ أي: ذو بصر واطلاع وعلم بهم، فيعلم ما ظهر وجلّ وجلي منهم ومن أحوالهم و«البصير» العليم بالمبصرات.

ولهذا فهو سبحانه أعلم بالأصلح والمناسب لكل منهم من بسط الرزق أو تقديره. وفي الحديث: «**إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، فلو أغنيته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى فلو أفقرته لأفسدت عليه دينه**»(١).

وبسط الرزق أو تضييقه ليس دليلاً على رضا الله عن العبد أو سخطه عليه.

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه**»(٢).

وقد أحسن القائل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

---

(١) أخرجه الطبراني وغيره ـ فيما ذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٣٣). وضعفه ابن رجب وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ١٩٤) ـ عند تفسير قوله ـ تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٣]. وقال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز ـ رحمه الله ـ في تعليقه على تفسير ابن كثير عند هذه الآية: «هذا من الآثار التي لا يعلم لها سند و معناه صحيح».

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧).

قوله ـ تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾.

نهى ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة عن الشح والتبذير، وبيّن أنه المتكفل بأرزاق العباد يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، ثم أتبع ذلك بالنهي عن قتل الأولاد خشية الفقر مبيناً أن رزق الجميع على الله ـ عز وجل.

قوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾.

الإملاق: الفقر والعيلة، أي: ولا تقتلوا أولادكم خوف الافتقار والعيلة.

وقد كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم الذكور والإناث مخافة الفقر، كما قد يقتلون البنات أيضاً مخافة العار، قال ـ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨، ٩]، فنهاهم الله عن ذلك وضمن لهم أرزاقهم فقال:

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ الجملة تعليلية معترضة بين قوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾.

وقد قدم هنا رزق الأولاد فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾؛ لأن الإملاق متوقع فقط بينما قدم في الأنعام رزق الأولياء، فقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وذلك لأن الإملاق واقع.

والرزق: العطاء، أي: نحن نعطيهم الرزق في الصغر والكبر، ﴿وَإِيَّاكُمْ ﴾ الآن بإغنائكم. وفي الآية إشارة إلى أن رزق الوالدين قد يكون بسبب الأولاد.

﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ جملة تعليل ثان للنهي و﴿كَانَ ﴾ مسلوبة الزمان.

قرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء وألف ممدودة بعدها (خِطاءً)، وقرأ أبوجعفر وابن ذكوان عن ابن عامر بفتح الخاء والطاء من غير ألف ولا مد (خَطَأً) على وزن «نبأ»، وقرأ الباقون بكسر الخاء وإسكان الطاء (خِطئاً).

و«الخَطَأ» بفتح الخاء والطاء ضد العمد، وضد الصواب، وهو المراد هنا،

و«الخِطْء» بكسر الخاء وسكون الطاء مصدر «خطئ» على وزن «فرح» إذا أصاب إثماً متعمداً، فالخِطْء: الإثم، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾ [القصص: ٨]، وقال ـ تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾ [العلق: ١٦].

والمعنى: إن قتلهم كان إثماً كبيراً من كبائر الذنوب، وذنباً عظيماً مجانباً للصواب. عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**» قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**» قلت: ثم أي: قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»(١).

قوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ معطوف على ما قبله، فنهى عن قتل الأولاد، ثم أتبعه بالنهي عن الزنا؛ وكل منهما من أعظم الكبائر، وفيهما قطع للنسل.

والنهي عن قرب الزنا أبلغ من النهي عن الزنا مباشرة؛ لأن النهي عن قرب الزنا معناه النهي عن الزنا، وعن الوسائل المؤدية إليه وأسبابه ودواعيه، كالخلوة بالأجنبية والنظر المحرم، ونحو ذلك؛ لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

و«الزنا» بالقصر، وبالمد «الزناء» والقصر أولى. وهو «غيبوبة حشفة الرجل في فرج امرأة لا تحل له».

أي: إتيان الرجل المرأة بطريق الحرام، كما قال ماعز ـ رضي الله عنه ـ لما سأله الرسول ﷺ: «أتعرف الزنا؟ قال: نعم، أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً»(٢).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ تعليل للنهي، أي: لأنه كان فاحشة، أي: فعلة قبيحة متناهية القبح، وفي غاية الفحش، في الشرع والعقل والفطر السليمة.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٧٧)، ومسلم في الإيمان (٨٦)، وأبوداود في الطلاق (٢٣١٠)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٣)، والترمذي في التفسير (٣١٨٢).

(٢) أخرجه أبوداود في الحدود (٤٤٢٨) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

قال ابن القيم[(١)]: فأخبر عن فحشه في نفسه، وهو القبيح الذي تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول حتى عند كثير من الحيوان. عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «رأيت في الجاهلية قِرْدة اجتمع عليها قِرَدة قد زنت فرجموها فرجمتها معهم»[(٢)].

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: وبئس طريقاً طريقه، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا وعذاب وخزي ونكال في الآخرة. وقد قيل: «بشر القاتل بالقتل، والزاني بالفقر ولو بعد حين»؛ وذلك لما فيه من ارتكاب ما حرّمه الله، وإفساد الفراش، واختلاط الأنساب، وإلحاق الضرر بالمرأة وأهلها وزوجها، والأمراض الخطيرة والمستعصية، وضياع المقاصد الشريفة للنكاح، إلى غير ذلك من المفاسد والأضرار العظيمة على الفرد والمجتمع في الدين والدنيا، وإذا كان الله ـ عز وجل ـ وصفه بأنه فاحشة وساء سبيلاً فلا يقدر قدر فحشه وقبحه وسوء مسلكه إلا هو ـ سبحانه وتعالى.

عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: «إن فتى شابًّا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مَهْ مَهْ. فقال: «**ادنه**» فدنا منه قريباً، فقال: «**اجلس**» فجلس. قال: «**أتحبه لأمك**»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «**ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**». قال: «**أفتحبه لابنتك**»؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: «**ولا الناس يحبونه لبناتهم**». قال: «**أتحبه لأختك**»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «**ولا الناس يحبونه لأخواتهم**». قال: «**أتحبه لعمتك**»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «**ولا الناس يحبونه لعماتهم**». قال: «**أفتحبه لخالتك**»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «**ولا الناس يحبونه لخالاتهم**» قال: فوضع يده عليه، وقال: «**اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه**». قال: فلم يكن ذلك الفتى يلتفت إلى شيء»[(٣)].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٧٨-٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار ـ القسامة في الجاهلية (٣٨٤٩).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٦-٣٥٧).

قوله ـ تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها، وهي النفس المعصومة، وهي: نفس المؤمن، والذمي، والمعاهد، والمستأمن.

﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ﴿ إِلَّا ﴾ أداة حصر، ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ متعلق بـ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ﴾ والباء للسببية، أي: بسبب الحق، أي: إلا بسبب أن الحق أوجب قتلها.

ويجوز أن يكون ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ حالاً من فاعل ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ﴾ أي: إلا حال كونكم متلبسين بالحق، ويجوز كونه نعتاً لمصدر محذوف، أي: إلا قتلاً متلبساً بالحق.

ومعنى ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: إلا إذا ارتكبت ما تستحق به القتل، كالقتل العمد، والزنا بعد الإحصان، والردة عن الإسلام، كما جاء في حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحل دم امرئٍ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه، المفارق للجماعة**»(١).

وقد شدد الشرع في حرمة الدماء والأنفس المعصومة؛ لأنها من الضروريات الخمس التي جاء الإسلام للحفاظ عليها وهي: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال. وفي الحديث أنه ﷺ قال: «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مسلم**»(٢).

﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ معطوف على قوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ﴾ و«من» شرطية و﴿ قُتِلَ ﴾ فعل الشرط، و﴿ مَظْلُومًا ﴾ حال، أي: حال كونه مظلوماً، أي: بغير حق.

﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ جملة جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط.

---

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧٨)، ومسلم في القسامة (١٦٧٦)، وابوداود في الحدود (٤٣٥٢)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٦)، والترمذي في الديات (١٤٠٢)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٤).

(٢) أخرجه النسائي في تحريم (٣٩٨٦)، والترمذي في الديات (١٣٩٥) ـ من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنه.

و«قد» للتحقيق.

أي: فقد جعلنا شرعاً ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لولي المقتول، وهم أقرب عصباته وورثته إليه.

﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ أي: تسلطاً وحجة ظاهرة على القاتل في الاقتصاص منه إن شاء ذلك، وإن شاء عفا عنه إلى الدية، وإن شاء عفا عن القصاص والدية، كما قال ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقال ﷺ: «**ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يُفدى، وإما أن يقتل**»(١).

فالحق في القصاص للولي لكن ذلك منوط بالسلطان، فلا يتولى الولي بنفسه قتل القاتل دون حكم السلطان درءاً للفتنة والتقاتل.

﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالخطاب: (فلا تسرف) وقرأ الباقون بالغيبة (فلا يسرف).

والإسراف: تجاوز الحد المباح، أي: فلا يتجاوز الولي في القصاص الحد المباح له وهو قتل القاتل قصاصاً، فلا يمثل به، أو يقتله ويقتل غيره، أو يقتل غيره.

كما كان يفعله أهل الجاهلية إذا لم يتمكنوا من قتل القاتل قتلوا غيره من قبيلته. وكانوا يقتلون بالأنثى ذكراً وبالرجل رجلين.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ تعليل للنهي السابق. والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعود إلى الولي، أي: فلا يسرف في القتل؛ لأنه كان منصوراً معاناً شرعاً على القاتل، وغالباً قدراً(٢)؛ لأن الحق له؛ ولهذا لا يُقتص من القاتل إلا بإذنه، فإن عفا سقط القصاص.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١١٢)، ومسلم في الحج (١٣٥٥)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٧)، وابن ماجه في الديات (٢٦٢٤) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٧١).

قوله - تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

نهى - عز وجل - عن قتل الأولاد وعن قرب الزنا وعن قتل النفس بغير حق، ثم أتبع ذلك بالنهي عن قرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، وكل هذه المنهيات من الكبائر العظيمة التي اتفقت الشرائع على تحريمها، من أحوال أهل الجاهلية.

قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

﴿الْيَتِيمِ﴾ من فقد أباه وهو دون البلوغ ذكراً كان أو أنثى، فإذا بلغ زال يتمه، لقوله ﷺ: «**لا يتم بعد احتلام**»(١).

﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، والمعنى: لا تقربوا مال اليتيم بحال من الأحوال إلا بالحال التي هي أحسن، وهي حفظه وصيانته والمتاجرة به لمصلحة اليتيم ونحو ذلك.

والنهي عن قرب مال اليتيم أبلغ من النهي عن أخذه وأكله، لأنه نهى عن ذلك وعن الأسباب المؤدية إليه.

فلا يجوز التصرف في مال اليتيم لمصلحة غيره، ولا تجوز المخاطرة به، كما لا يجوز أكله. قال - تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء: ٢]، وقال - تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال - تعالى - متوعداً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

وقال ﷺ: «**إني أُحرِّج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة**»(٢).

وقال ﷺ لأبي ذر - رضي الله عنه: «**يا أبا ذر، إنك إنسان ضعيف، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمَّرنَّ على اثنين، ولا تولينَّ مال يتيم**»(٣).

---

(١) أخرجه أبوداود في الوصايا (٢٨٧٣) - من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وله شاهدان - من حديث جابر وأنس - رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأدب (٣٦٧٨) - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٢٥)، وأبوداود في الوصايا (٢٨٦٨)، وأحمد (٥/ ٧٣) - من حديث أبي ذر - رضي الله عنه.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غاية لجواز التصرف بمال اليتيم على الوجه الحسن.

أي: إلى غاية بلوغه أشده، ببلوغه النكاح، ورشده وحسن تصرفه بتدبير ماله، فتزول وترتفع عنه الولاية، ويصير ولي نفسه، ويدفع إليه ماله، كما قال ـ تعالى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ﴾ «ال» للجنس، أي: أوفوا بجميع العهود والعقود مما عاهدتم الله عليه، ومما عاهدتم عليه الخلق، كما قال ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، والوفاء بالعهد إتمامه وعدم نقضه وهو واجب؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب.

﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ الجملة تعليلية، وأظهر في مقام الإضمار بإعادة لفظ «العهد» فلم يقل: «إنه كان مسؤولاً»، للاهتمام به، أي: إن العهد كان مطلوباً الوفاء به، ومسؤولاً صاحبه عن نقضه إياه.

قوله ـ تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي: وأتموا الكيل إذا كلتم للناس ولا تنقصوه وتبخسوه وتطففوه، قال ـ تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: ٨٤، ٨٥]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء: ١٨٣]، وقال ـ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين: ١-٣].

﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم: (القِسطاس) بكسر القاف، وقرأ الباقون بضمها.

والقسطاس: اسم للميزان الحسي آلة الوزن، واسم للعدل المعنوي.

﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ السوي المعتدل بلا اعوجاج، ولا خديعة.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ الإشارة إلى الوفاء بالكيل والوزن بالقسطاس المستقيم، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له.

وقوله: ﴿خَيْرٌ﴾ أي: الوفاء بالكيل، والوزن بالعدل خير خيرية مطلقة لما يترتب على العدل من قيام أمور الدين والدنيا، وإعطاء الحقوق لأربابها، وانتظام الحياة والمعاش، وحصول البركات وكثرة الخيرات.

كما أن نقص الكيل والوزن والظلم سبب لمحق البركات وقلة الخيرات، وظهور الفساد، قال ﷺ: «**ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة، وجور السلطان**»[(١)].

وقال ـ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: وأحسن مآلاً وعاقبة في الآخرة؛ لما يترتب عليه من الثواب العظيم، والسلامة من مغبة البخس والجور والظلم.

قوله ـ تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ القفو: الاتباع، يقال: قفاه يقفوه إذا تبعه مشتق من «القفا». قال ـ تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الحديد: ٢٧]، ومنه سُمي نبينا ﷺ «المُقَفِّي»[(٢)]؛ لأنه جاء آخر الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام، وسمي القافة لأنهم يتتبعون الآثار، وسمي القائف لأنه يتبع أثر الشبه، وسميت قافية الشعر؛ لأنها تقفو البيت.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن (٤٠١٩) ـ من حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٣٥٥)، وأحمد (٥/ ٤٠٥) ـ من حديث حذيفة ـ رضي الله عنه.

قال الكميت:

فلا أرمي البريء بغير ذنب ... ولا أقفو الحواصن إن قُفينا

قوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة، أي: الذي ليس لك به علم.

قال قتادة: «لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كله»(١).

والمعنى: لا تتبع ما لا علم لك به، فلا تقل ما لم تعلم، ولا تعمل بما لا تعلم.

ولا تتدخل فيما لا يعنيك، كما قال ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»(٢).

وقال ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»(٣).

ويدخل في الآية دخولاً أولياً شهادة الزور وقول الزور والزعم الباطل والقذف، وتحقيق الظن الكاذب، قال ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال ﷺ: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»(٤).

وقال ﷺ: «**أفرى الفرى أن يري عينيه ما لم تر**»(٥).

وقال ﷺ: «**بئس مطية الرجل زعموا**»(٦).

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

المراد بـ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾ جارحة السمع والبصر، والفؤاد، وهو القلب.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٥٩٤).

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣١٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه النسائي في الأشربة (٥٧١١)، والترمذي في صفة لقيامة (٢٥١٨)، من حديث الحسن بن علي ـ رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٤٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٨) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في التعبير (٧٠٤٣) ـ من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٩٧٢) من حديث حذيفة أو أبي مسعود ـ رضي الله عنهما.

وأشير إليها بإشارة من يعقل ﴿أُولَٰئِكَ﴾ تنزيلاً لها منزلة من يعقل، لأنها طريق العقل.

وأيضاً فإن ﴿أُولَٰئِكَ﴾ و﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ قد تستعمل لغير العاقل، قال ـ تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقال الشاعر(١):

ذم المنازل بعد منزلة اللوى　　　والعيش بعد أولئك الأيام

والمعنى: إن كل هذه الجوارح يسأل الإنسان عنها يوم القيامة. هل استعملها في طاعة الله ـ عز وجل ـ وما خلقت له، أو استعملها بضد ذلك.

فيسأل الإنسان عن سمعه، هل استمع به لنداء الحق ودعوته أم لا؟ ولماذا استمع به إلى اللغو والباطل وما لا يعنيه؟

قال ﷺ: «**من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، أو يفرون منه صب في أذنيه الآنك يوم القيامة**»(٢).

كما يسأل الإنسان عن بصره وهل أبصر به آيات الله الشرعية والكونية، أم لا؟

قال ـ تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١]، وقال ـ تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ [الروم: ٥٠].

ويسأل لماذا نظر به إلى ما حرمه الله عليه من عورات الناس، ومما يفسد العقائد والأخلاق، قال ـ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

---

(١) البيت لجرير، انظر «ديوانه» ص(٤٥٢)، وانظر: «المقتضب» للمبرد (١/ ١٨٥)، «شرح شواهد الكافية» (٤/ ١٦٧). والبيت في ديوان جرير: والعيش بعد أولئك الأقوام وعلى هذا لا شاهد فيه.

(٢) أخرجه البخاري في التعبير (٧٠٤٢)، وأبوداود في الأدب (٥٠٢٤)، والترمذي في اللباس (١٧٥١ ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

كما يسأل الإنسان عن فؤاده وقلبه يوم يُحَصَّل ما في الصدور، بل المسؤولية على القلب أعظم لأنه أمير الجوارح كما قال ﷺ: «**إلا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١).

يسأل عن قلبه، وهل فكر فيه وتأمل في آيات الله الشرعية والكونية، أم لا؟ قال ـ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وقال ـ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال ـ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

ويسأل عن قلبه لماذا جعله تبعاً لهواه، وجعله مرتعاً لأمراض الكفر والشك والنفاق والحقد والحسد وسوء الظن، وقد قال الله ـ عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، أي: سليم بإخلاص العمل لله، وسليم من الحسد والحقد وغير ذلك على عباد الله.

وقد قيل:

وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هـواه عقلـه فقـد نجـا

وإنما خصت هذه الجوارح الثلاث بالذكر وهي السمع والبصر والفؤاد، لأنها أعظم الجوارح، وبقية الجوارح تبع لها، فالقلب عليه مدار صلاح الجسد وفساده، والسمع والبصر هما الطريقان المؤديان إليه الخير أو الشر.

ولهذا ذم الله ـ عز وجل ـ المنافقين والكفار، لعدم انتفاعهم بهذه الجوارح، قال ـ تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٨]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وكما أن الإنسان مسؤول عن هذه الجوارح فهي أيضاً مسؤولة عما عمل فيها،

---

(١) سبق تخريجه.

وكذا بقية الجوارح، قال ـ تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١]، وقال ـ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥]، وقال ـ تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤].

قوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

ختم الله ـ عز وجل ـ هذه الوصايا والمنهيات الخمس عشرة من قوله ـ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ إلى هنا بالنهي عن الاختيال والمشي في الأرض مرحاً، وهو أمر يتعلق بهيئة الإنسان، وما قبله يتعلق بأقواله وأفعاله.

قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ﴿مَرَحًا﴾ حال، أي: مختالاً معجباً بنفسك متكبراً.

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ تهكم بهذا المرح المختال في مشيته، أي: إنك لن تخرق الأرض التي تحتك بوطء قدميك عليها مهما شددت، ولن تبلغ بتطاولك في مشيتك طول الجبال مهما تطاولت، فما الذي يغريك بهذه المشية؟ وما هذا الغرور؟

وفي هذا ذم وتحقير للمرح المختال المتكبر في مشيته، وتقليل من شأنه، أي: أين أنت من الأرض ذات العمق العظيم، وأين أنت من الجبال ذات الطول والشموخ، لست بشيء بالنسبة لذلك، فهوّن على نفسك، واعرف ضعفك.

ويكفي ذماً للاختيال والكبر أنه صفة إبليس لعنه الله، حيث قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢]، وأبى السجود لآدم وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: ٦١].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال:

«يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر، يغشاهم الذل»[١].

وقال ﷺ: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٢].

وقد أحسن القائل:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع
ولاتك كالدخان يعلو بنفسه ... على طبقات الجو وهو وضيع

وقال الآخر:

تواضع إذا ما نلت في الناس رفعة ... فإن رفيع القوم من يتواضع
ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً ... فكم تحتها قوم همو منك أرفع
وإن كنت في عز وحرز ومنعة ... فكم مات من قوم همو منك أمنع

قال القاسمي[٣]: «قال الناصر: ولقد حفظ الله عوام زماننا عن هذه المشية، وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا، بينما أحدهم قد عرف مسألتين، أو أجلس بين يديه طالبين، أو شد طرفاً من رياسة الدنيا، إذ هو يتبختر في مشيه ويترجع، ولا يرى أنه يطاول الجبال، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء، كأنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون. وماذا يفيده أن يقرأ القرآن أو يقرأ عليه، وقلبه عن تدبره على مراحل والله ولي التوفيق».

قوله ـ تعالىٰ: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم وابن عامر وخلف (سيئُهُ) بضم الهمزة وهاء ضمير في آخره، وقرأ الباقون بفتح الهمزة وتاء تأنيث منصوبة في آخره (سيئَةً).

والإشارة ترجع إلى كل ما نهى الله عنه من قوله ـ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٢).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٩) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٣) في «محاسن التأويل» (٦/ ٤٦١).

قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ متعلق بـ﴿مَكْرُوهًا﴾، وقدم عليه للاهتمام، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه.

والمعنى على القراءة الأولى ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ على الإضافة: كل الذي ذكرنا من الأوامر والنواهي ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ أي: قبيحه، وهو مخالفة المأمور وارتكاب المنهي مكروهاً عند الله، يكرهه ويأباه ولا يرضاه.

قال ابن القيم: «﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ فذكر توحيده، وذكر المناهي التي نهاهم عنها، والأوامر التي أمرهم بها، ثم ختم الآية بقوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أي: مخالفة هذه الأوامر، وارتكاب هذه المناهي سيئة مكروهة لله»[(١)].

وعلى القراءة الثانية يكون المعنى: كل الذي نهينا عنه في هذه الآيات «سيئة» أي: فعلة قبيحة وعمل سيئ يسوء صاحبه في الحال والمآل، وقد يسوء غيره، ويكرهه الله ويأباه ولا يرضاه.

قوله ـ تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾.

ختم الله ـ عز وجل ـ ما ذكره من الوصايا في هذه الآيات بالإشارة إلى عظمة ذلك وامتدحه، وأنه مما أوحاه إليه نبيه ﷺ من الحكمة.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى ما سبق في الآيات من الوصايا وأشار إليه بإشارة البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ تعظيماً له. والخطاب للنبي ﷺ والمراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة.

أي: ذلك من الذي أوحاه وأنزله إليك ربك من الوحي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

﴿مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ وهي معرفة الحقائق على ما هي عليه، من بيان الخير والشر،

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٧٧).

والضار من النافع، والأمر بالخير والنهي عن الشر، والأمر بمحاسن الأعمال ومكارم الأخلاق، والنهي عن مساوئ الأعمال وأراذل الأخلاق. قال ـ تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**»(١).

وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته بالحق، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها**»(٢).

قوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ تأكيد وتفسير، لقوله ـ تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢]، ولقوله ـ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، اهتماماً بالتوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده، أي: ولا تتخذ مع الله معبوداً آخر، أي: أخلص العبادة لله وحده، وهو نهي له ﷺ ـ ولأفراد أمته، قال ﷺ فيما حكى الله عنه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزمر: ١١].

وقال ـ تعالى ـ مخاطباً له ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦]، وقال ـ تعالى ـ لما ذكر هدايته لأنبيائه ورسله ومن شاء من عباده: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٥)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٣٦)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٦)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٨).

لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٨].

﴿ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ ﴾ الفاء للسببية، أي: فترمى وتطرح في جهنم، والإلقاء رمي الجسم من أعلى إلى أسفل، وهو يؤذن بالإهانة.

﴿ مَلُومًا ﴾ حال، أي: حال كونك ملوماً تلومك نفسك على الإشراك بالله، وإيقاعها في الهلاك و النار، ويلومك غيرك من الناس والملائكة وغيرهم.

﴿مَّدۡحُورًا ﴾ مطروداً مبعداً عن رحمة الله، وعن كل خير.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب إيتاء ذي القربى حقه ببره وصلته والإحسان إليه؛ قولاً وفعلاً وبذلاً؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾.

٢- وجوب إيتاء المسكين حقه والعطف عليه ومساعدته؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ ﴾.

٣- وجوب إعطاء ابن السبيل وهو المسافر حقه من الضيافة والمساعدة والدلالة وما يحتاجه في سفره؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

٤- أن الدين الإسلامي دين التكافل الاجتماعي بأسمى صوره ومعانيه.

٥- تحريم التبذير والإسراف بالإنفاق؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴾ وهذا يشمل الإنفاق في الفساد والمعصية وإن قل، كما يشمل تجاوز الحد في الإنفاق في المباح، بل ويشمل تجاوز الحد في الإنفاق في المندوب إذا أدى ذلك إلى احتياج الشخص إلى الآخرين، وكونه عالة عليهم وما دون ذلك لا يعد تبذيراً.

٦- تأكيد تحريم التبذير والتنفير منه بوصف المبذرين بأنهم إخوان الشياطين وأمثالهم وأتباعهم وقرناؤهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ ﴾.

٧- كفر الشيطان بربه ـ عز وجل ـ وبشرعه ونعمه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾.

٨- التحذير من اتباع الشيطان وخطواته، وأعوانه.

٩- إذا لم يستطع الإنسان الإحسان الفعلي لذي القربى والمسكين وابن السبيل

بالبذل لهم بسبب فقره فلا يعدم الإحسان القولي بالاعتذار لهم بالقول الطيب، والوعد الحسن بإعطائهم إذا رزقه الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

١٠- لا يكلف الله نفساً إلا وسعها وما آتاها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾.

١١- ينبغي أن يكون المسلم راجياً رحمة الله ـ تعالى، وأن يكون أوثق بما عند الله ـ تعالى ـ مما في يده؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: رجاء أن يرزقك الله فتعطيهم.

١٢- لا رازق إلا الله ـ عز وجل ـ وحده.

١٣- إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة بالمؤمن وتشريفه وتكريمه بخطاب الله له وإضافة اسم الرب إلى ضميره؛ لقوله ـ تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٤- أن الإحسان كما يكون بالفعل يكون بالقول أيضاً، والأولى الجمع بينهما، فإن عدم الإحسان بالفعل فلا أقل من الإحسان بالقول.

١٥- ينبغي أن يكون الإنسان في نفقاته وسطاً فلا يبخل ويقتر، ولا يسرف ويبذر، وخير الأمور الوسط؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.

١٦- التنفير الشديد من البخل، بوصف البخيل بمن غلت يده إلى عنقه فلا يستطيع لها حراكاً.

١٧- في وصف البخيل بمن غلت يده إلى عنقه، ووصف المسرف في الإنفاق بمن بسط يده كل البسط ما يدل على أن البخل أشد.

١٨- أن البخل والتقتير سبب للملامة من الخلق؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾.

١٩- أن بسط اليد كل البسط في الإنفاق سبب للفقر والعوز والحسرة على ذهاب ما بيد الإنسان، حتى لا يجد ما ينفقه ولا على نفسه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿مَّحْسُورًا﴾.

٢٠- أن الأرزاق كلها بيد الله ـ عز وجل ـ يبسط الرزق لمن يشاء ويضيقه على من

يشاء ـ لحكمة يعلمها؛ لقوله ـ عز وجل: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾.

٢١- إثبات المشيئة لله ـ عز وجل ـ وأنه ـ عز وجل ـ يفعل لحكمة؛ لقوله ـ عز وجل: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾.

٢٢- إثبات كمال خبرة الله ـ عز وجل ـ وعلمه وبصره بعباده واطلاعه عليهم وعلى أحوالهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

٢٣- أن الله ـ عز وجل ـ قسم الأرزاق بين عباده، فبسط رزق من شاء منهم، وضيق رزق من شاء؛ لخبرته التامة بهم، وبصره واطلاعه عليهم وعلى أحوالهم، وما يناسب ويصلح لكل منهم، مما يوجب الرضا بما قدره الله.

٢٤- تحريم قتل الأولاد مخافة الفقر، وأن ذلك خطأ ومن كبائر الذنوب؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾.

٢٥- أن رزق الأولاد ووالديهم على الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ بل إن في الآية ما يشير إلى أن رزق الآباء قد يكون بسبب الأولاد أو تبعاً لرزق الأولاد.

٢٦- النهي عن قرب الزنا، وتحريمه والوسائل المؤدية إليه، كالخلوة بالأجنبية، والنظر المحرم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾.

٢٧- شناعة الزنا وفحشه وشدة قبحه، وسوء سبيله ومسلكه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

٢٨- تحريم قتل النفس التي حرم الله قتلها، وهي النفس المعصومة، نفس المؤمن، ونفس الذمي والمعاهد والمستأمن، إلا بما يوجب قتلها، لقوله ـ تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾.

٢٩- إذا ارتكب ذو النفس المعصومة ما يوجب قتله زالت عصمته وحرمة دمه ووجب قتله، كالمرتد والزاني المحصن، والقاتل عمداً ما لم يعف عنه ولي الدم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلا بما يوجب قتلها.

٣٠- صيانة الإسلام للأنفس والدماء.

٣١- انتصار الشرع لولي من قتل مظلوماً بتمكينه من القصاص من القاتل - إن شاء ذلك؛ لقوله - تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ وإن شاء العفو إلى الدية، أو العفو مطلقاً فله ذلك وهو أفضل.

٣٢- أن القتل بغير حق ظلم، بل هو من أعظم الظلم، وجمهور أهل العلم على أن القتل العمد أكبر الكبائر بعد الشرك بالله؛ لقوله - تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣].

٣٣- كمال عدل الإسلام وإنصافه للمقتول بالقصاص من قاتله، إذ لا عدل ولا إنصاف يفوق هذا.

٣٤- لا يجوز لولي المقتول الإسراف في القتل؛ كأن يمثل بالقاتل، أو يقتل غير القاتل؛ لقوله - تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾.

٣٥- تحريم قرب مال اليتيم والتصرف به إلا بما هو أحسن له وأصلح؛ لقوله - تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

٣٦- جواز التصرف بمال اليتيم بما هو أحسن له وفيه مصلحته؛ لمفهوم قوله - تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بل قد يجب ذلك.

٣٧- إذا بلغ اليتيم أشده ورشده وجب رد ماله إليه، وجاز تصرفه فيه؛ لقوله - تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾.

٣٨- وجوب الوفاء بالعهود والعقود مما بين العبد وبين ربه، وفيما بين الناس؛ لقوله - تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾.

٣٩- أن الإنسان مسؤول يوم القيامة عما التزم به من عهود وعقود؛ لقوله - تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾.

٤٠- وجوب الوفاء بالكيل، والوزن بالعدل الحسي والمعنوي؛ لقوله - تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾.

٤١- أن الوفاء بالكيل والوزن بالعدل خير مطلقاً في الدين والدنيا، وأحسن مآلاً وعاقبة في الآخرة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

٤٢- قيام الإسلام على الوفاء والعدل الحسي والمعنوي، والذي قامت عليه السموات و الأرض، والكون كله بأمر الله ـ عز وجل.

٤٣- أن في الوفاء والعدل الخير كل الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، وفي الغدر والخيانة والظلم الشر والشقاء والخسران والبوار في الدنيا والآخرة.

٤٤- النهي عن أن يقفو الإنسان ويتبع ما ليس له به علم بسمعه أو بصره أو قلبه، بقول أو فعل أو ظن، أو غير ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

٤٥- جواز الحكم بالقافة؛ لمفهوم قوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ لأن القائف يلحق الولد بأبيه من طريق الشبه، وهو أمر معلوم إلى حد كبير، ولهذا سُرَّ النبي ﷺ لما قال: «مجزِّز» وكان قائفاً لما نظر إلى زيد بن حارثة وابنه أسامة وقد غطيت رؤوسهما وبدت أقدامهما: «إن هذه الأقدام بعضها من بعض»[(١)].

٤٦- مسؤولية الإنسان عن سمعه وبصره وفؤاده، وسؤال هذه الجوارح وغيرها عما عمل فيها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

٤٧- النهي عن الاختيال والمشي في الأرض مرحاً؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

٤٨- تحقير المختال في مشيته المتكبر والتهكم به؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾.

٤٩- أن كل ما نهى الله ـ عز وجل ـ عنه في الآيات السابقة سيئ مكروه عند الله ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٧٠)، ومسلم في الرضاع (١٤٥٩)، وأبوداود في الطلاق (٢٢٦٧)، والنسائي في الطلاق (٣٤٩٣)، والترمذي في الولاء والهبة (٢١٢٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٤٩) ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

٥٠- أن المعاصي والذنوب تسوء صاحبها في الحال والمآل، وقد تسوء غيره؛ لهذا سميت سيئات.

٥١- أن الكراهة تطلق على ما يحرم فعله، ويجب اجتنابه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿مَكْرُوهًا﴾.

٥٢- تعظيم الله ـ عز وجل ـ وامتداحه ما أوحاه إلى رسوله ﷺ من الحكمة في هذه الآيات وغيرها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾.

٥٣- إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله ـ عز وجل ـ له وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله ـ تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

٥٤- النهي عن اتخاذ معبود مع الله وتحريم ذلك، ووجوب إخلاص العبادة لله ـ عز وجل ـ وحده؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

٥٥- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن أشرك بالله بإلقائه وطرحه في النار ملوماً على شركه، مبعداً عن رحمة الله وجنته وعن كل خير؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

* * *

تفسير آيات الأحكام في سورة الأنبياء

قال الله ـ تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٨٢].

قوله ـ تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾ الواو استئنافية، و«داود» منصوب بفعل محذوف، تقديره: اذكر، أي: واذكر يا محمد داود وسليمان، والمراد بهما: داود وسليمان النَّبيَّان عليهما الصلاة والسلام؛ داود بن يسي من سبط يهوذا، وهو الذي آتاه الله «الزبور»؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣]، وابنه سليمان، الذي وهبه الله له، وورثه، كما قال ـ تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠]، وقال ـ تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ [النمل: ١٦].

﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ ﴾ ﴿إِذْ ﴾ ظرف بمعنى «حين» أي: حين حكم كل منهما على انفراده في الحرث، بما رآه وفهمه، حسب اجتهاده، بحكم مخالف لحكم الآخر.

و﴿ ٱلْحَرْثِ ﴾ النبات والزرع، سُمي بذلك؛ لأن الأرض تحرث، ويوضع فيها النبات. والحرث المذكور كان عنباً. وقيل: كان زرعاً.

﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ﴾ أي: حين نفشت فيه غنم القوم، أي: انتشرت فيه ورعته ليلاً بلا راع وأفسدته. والنَّفَشُ بفتح الفاء: الغنم المنتشرة، والرعي بالليل. والهمل: الرعي بالنهار، والنفش يلزم صاحبه ضمان ما أتلفته ماشيته.

عن حرام بن محيِّصة عن أبيه ـ رضي الله عنه: «أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائط رجل، فأفسدته عليهم، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الأموال حفظها بالنهار،

وعلى أهل المواشي حفظها بالليل، وما أفسدته بالليل فهو ضامن على أهلها[١].

﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴾ الواو حالية. وقد تكلم ـ عز وجل ـ عن نفسه بضمير العظمة؛ لأنه العظيم ـ سبحانه وتعالى.

﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ أي: لحكم داود وسليمان، وجمع الضمير وهما اثنان؛ لأن الجمع يطلق على الاثنين، وهما أقل الجمع، ومثل هذا قوله ـ تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التحريم: ٤]، والمراد عائشة وحفصة ـ رضي الله عنهما.

ومثله قوله ـ تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١]، والمراد أخوان فأكثر.

وقيل: جمع الضمير في قوله: ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ باعتبار داود وسليمان والمتحاكمين إليهما.

﴿ شَٰهِدِينَ ﴾ أي: عالمين به، مطلعين عليه؛ لأنه ـ عز وجل ـ مطلع وشهيد، ورقيب على جميع الخلق وأعمالهم وأقوالهم وأحوالهم، لا تخفى عليه منهم خافية؛ كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: ١٧].

﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ ﴾ أي: ففهمنا القضية والحكومة سليمان ـ عليه السلام ـ فحكم فيها بما وافق الحق والصواب.

ويفهم من قوله ـ عز وجل: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ ﴾ أن داود ـ عليه السلام ـ لم يفهم الحكومة فيها، ولم يوفق فيها للصواب، وأن حكمهما فيها كان باجتهاد منهما.

وقيل: إن كلاً منهما مصيب، لكن حكم سليمان كان أصوب. كما قيل: إن حكمهما كان بوحي.

والفهم منحة من الله ـ عز وجل ـ ونور يقذفه في قلب من شاء من عباده، به يستطيع الاستنباط من النصوص، وفهمها فهماً صحيحاً، كما قال علي بن أبي طالب

---

(١) أخرجه أبوداود في البيوع ـ المواشي تفسد زرع قوم (٣٥٦٩، ٣٥٧٠)، وابن ماجه في الأحكام ـ الحكم فيما أفسدت المواشي (٢٣٣٢)، وأحمد (٥/ ٤٣٥-٤٣٦).

ـ رضي الله عنه ـ لما سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ قال: «لا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبداً في كتابه، وما في هذه الصحيفة. وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر»[١].

وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنهما: «والفهم الفهم فيما أدلي إليك»[٢].

قال ابن القيم[٣]: «فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه في قلبه يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره مع استوائهما في حفظه، وفهم أصل معناه».

عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في قوله: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ﴾ قال: «كرم أنبتت عنا قيده، فأفسدته ـ قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله، قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، وتدفع الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ﴾»[٤].

ورُويَ عن ابن عباس نحوه[٥] وهكذا رُوي عن جمع من التابعين[٦].

قال ابن القيم[٧]: «فحكم داود بقيمة المتلف، فاعتبر الغنم فوجدها بقدر القيمة،

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٩٠٣)، والنسائي في القسامة (٤٧٤٤)، والترمذي في الديات (١٤١٢) ـ من حديث أبي جحيفة ـ رضي الله عنه ـ أنه سأل عليًّا ـ رضي الله عنه.

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ٨٥) وما بعدها.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ١٨٩).

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٣٢٢)، والحاكم (٢/ ٥٨٨)، والبيهقي (١٠/ ١١٨).

(٥) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٣٢٣).

(٦) انظر: «جامع البيان» (١٦/ ٣٢٣-٣٢٨).

(٧) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ١٨٩).

فدفعها إلى أصحاب الحرث، إما لأنه لم يكن لهم دراهم، أو تعذر بيعها، ورضوا بدفعها، ورضي أولئك بأخذها بدلاً عن القيمة.

وأما سليمان فقضى بالضمان على أصحاب الغنم، وأن يضمنوا ذلك بالمثل، بأن يعمروا البستان كما كان، ولم يضيع عليهم مغلَّه من حين الإتلاف إلى حين العود، بل أعطى أصحاب البستان ماشية أولئك، ليأخذوا من نمائها بقدر نماء البستان، فيستوفوا من نماء غنمهم نظير ما فاتهم من نماء حرثهم، وقد اعتبر النماءين، فوجدهما سواء. وهذا هو العلم الذي خصه الله به، وأثنى عليه بإدراكه».

ولما تبين لداود ـ عليه السلام ـ إصابة سليمان الحق رجع إلى حكم سليمان ـ عليه السلام، وقد قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لأبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه: «ولا يمنعنك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيك فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق، فإن الحق قديم لا يبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل»(١).

والأنبياء ـ عليهم السلام ـ ليسوا بمعصومين من الخطأ في الصغائر على الصحيح من أقوال أهل العلم كما هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره(٢). ولهذا قال رسول الله ﷺ: **«إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو مما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه، فليأخذها أو ليدعها فإنما أقطع له قطعة من النار»**(٣).

وما قضى به داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ من تضمين أصحاب الغنم ما أفسدته بالليل موافق لما جاء في شرعنا، كما في حديث حرام بن محيِّصة ـ رضي الله

(١) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ٨٥-٨٦).

(٢) انظر: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٤/ ٣١٩).

(٣) أخرجه البخاري في الحيل (٦٩٦٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٣)، وأبوداود في الأقضية (٣٥٨٣)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤٠١)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٧) ـ من حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها.

عنه: «أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطاً فأفسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها»(١).

وهكذا قضى شريح القاضي ـ رحمه الله ـ بين رجلين جاءا إليه، فقال أحدهما: إن شاة هذا قطعت غزلاً لي، فقال شريح: نهاراً أم ليلاً؟ فإن كان نهاراً فقد برئ صاحب الشاة، وإن كان ليلاً فقد ضمن، ثم قرأ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ قال: كان النفش ليلاً»(٢).

ومثل هذه الآية في الدلالة على فهم سليمان ـ عليه السلام ـ في الحكم والقضاء ما جاء في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء الذئب فأخذ أحد الابنين فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا. فدعاهما سليمان، فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها، لا تشقه. فقضى به للصغرى»**(٣).

والذم والوعيد إنما هو لمن قضى على جهل، وبلا علم، كما في حديث سليمان بن بريدة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«القضاة ثلاثة: قاضٍ في الجنة، وقاضيان في النار؛ رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار»**(٤).

﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: وكلاً من داود وسليمان آتيناه ﴿حُكْمًا﴾ أي: حكماً وفصلاً في المسائل والقضايا، وفي الاختلاف بين الناس، كما قال ـ تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٣٢٤-٣٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٦٩)، ومسلم في الأقضية (١٧٢٠)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤٠٢)، وأحمد (٢/ ٣٢٢، ٣٤٠).

(٤) أخرجه أبوداود في الأقضية ـ باب في القاضي يخطئ (٣٥٧٣)، والترمذي في الأحكام (١٣٢٢)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٥).

﴿وَعِلْمًا﴾ أي: وآتيناهما علماً، وأعظم ذلك وأجله علم النبوة، به يتمكنان من الحكم بين الناس وتعليمهم أمر دينهم ودنياهم، فخص ـ عز وجل ـ سليمان ـ عليه السلام ـ بالفهم في هذه الواقعة المعينة، وأثنى على داود وسليمان بالحكم والعلم.

وقد استدل بهذا الاحتراز من قال: إن كلاً منهما مصيب لكن حكم سليمان ـ عليه السلام ـ أصوب.

ومهما يكن فليس في حكم داود ـ عليه السلام ـ ما يعاب عليه لأنه اجتهد، والحاكم إذا كان ممن له الاجتهاد، أي ممن يملك أدوات الاجتهاد ـ إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر.

عن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر**»(١).

قال الحسن: «لولا هذه الآية لرأيت أن الحكام قد هلكوا، لكن الله ـ تعالى ـ حمد هذا بصوابه، وأثنى على هذا باجتهاده»(٢).

وليس في الآية دلالة على أن كل مجتهد مصيب، بل فيها أن الذي فهم القضية هو سليمان ـ عليه السلام ـ دون داود، لكن ليس فيها تأثيم داود ـ عليه السلام، بل فيها الاحتراز من ذلك؛ لأنه اجتهد، فهو مأجور باجتهاده، غير آثم في خطئه.

وعلى هذا دل قوله ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**».

ومثل هذا يقال في فعل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لما قال لهم النبي ﷺ: «**لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة**»، فمنهم من صلى العصر في الطريق لما دخل وقتها، ومنهم من أخَّرها فلم يصلها إلا في بني قريظة بعد المغرب وفوات

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ـ أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (٧٣٥٢)، ومسلم في الأقضية ـ بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (١٧١٦)، وأبوداود في الأقضية (٣٥٧٤)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٤).

(٢) أخرجه البيهقي في «سننه» (١٠/١١٨-١١٩)، وانظر: «معالم التنزيل» (٣/٢٥٣).

وقتها[١]، فكل منهم مجتهد، ولهذا لم يعنف النبي ﷺ أحداً منهم، وإن كان المصيب من صلى العصر في وقتها.

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾ أي: وذللنا مع داود الجبال ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بيان لـ«سخرنا» أو حال مبينة، أي: حال كونهن يسبحن.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ الواو بمعنى: «مع» أي مع الطير، أي: وذللنا الجبال والطير يسبحن معه إذا سبح، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٨، ١٩]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ: ١٠]، أي: رجِّعي ورددي معه التسبيح.

وقدّم الجبال على الطير ـ والله أعلم؛ لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز، لأنها جماد والطير حيوان إلا أنه غير ناطق.

والمعنى: وسخرنا مع داود الجبال والطير يسبحن، لكنه لو جاء هكذا لربما أفهم أن التسبيح فقط من الطير وحدها.

قال ابن كثير[٢] في كلامه على الآية ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾: «وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنَّم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويباً، ولهذا لما مرَّ النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب فوقف واستمع لقراءته، وقال: «**لقد أوتي هذا من مزامير آل داود**»، قال: يا رسول الله، لو علمت أنك تسمع لحبَّرته لك تحبيراً[٣]. وفي رواية: «**لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود**»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٤٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) في «تفسيره» (٥/ ٣٥٢).

(٣) التحبير: التحسين، أي: لحسَّنته لك تحسيناً.

(٤) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ـ حسن الصوت بالقراءة (٥٠٤٨)، ومسلم في المسافرين ـ =

والتسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين، وذكره وتهليله وتحميده وتكبيره وعبادته، والانقياد له، والدلالة على وجوده، وكماله في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأن كل كمال فهو أولى به، له الأسماء الحسنى والصفات العُلى.

فالجبال والطير تسبح الله ـ عز وجل ـ مع داود ـ عليه السلام، وكذا جميع المخلوقات تسبِّح الله ـ عز وجل ـ حقيقة وإن كنا لا نفقه هذا التسبيح؛ كما قال ـ عز وجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال ـ تعالى ـ عن الحجارة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٧٤].

﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ توكيد لما قبله، أي: فاعلين ما قضيناه وأردناه وقادرين عليه؛ من تفهيم سليمان، وإيتائه وداود الحكم والعلم، وتسخير الجبال والطير يسبحن مع داود، وغير ذلك ـ مع ما في ذلك من الأمر العجب الدال على كمال قدرة الله ـ عز وجل.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ اللبوس: اللباس، يقال: البس لكل حالة لبوسها، فلحال السلم لبوسها، ولحال الحرب لبوسها، أي: وعلمنا داود عليه السلام صنع لباس لكم حال الحرب، وهي الدروع، وهي السابغات؛ كما قال ـ تعالى ـ في سورة سبأ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

قال كعب بن زهير:

شم العرانين أبطال لبوسهم … من نسج داود في الهيجا سرابيل

=

استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٧٩٣)، والترمذي في المناقب ـ مناقب أبي موسى الأشعري (٣٨٥٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ حسن الصوت بالقرآن (١٣٤١)، وأحمد (٢/ ٣٦٩، ٤٥٠) ـ من حديث أبي موسى ـ رضي الله عنه.

بيض سوابغ قد شكت لها حلق كأنها حلق القعفاء مجدول

﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ قرأ أبوجعفر وابن عامر وحفص بالتاء على التأنيث، أي: لتحصنكم صنعة اللبوس، وفي رواية أبي بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب (لنحصنكم) بالنون، فيعود الضمير إلى الله ـ عز وجل.

وقرأ الباقون (ليحصنكم) بالياء، أي: ليحصنكم اللبوس أو داود ـ عليه السلام.

والإحصان لغة: المنع، والتحصن: الامتناع، ومنه سمي «الحصن» لأنه يُمتنع به من الأعداء، وسمي «الحصان» لأن صاحبه يركبه ويمتنع به.

والبأس: الشدة والقوة والقتال، قال ـ تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وقال ـ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الأحزاب: ١٨].

ومعنى: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي: لتمنعكم وتحميكم من ضرب السيوف والسهام والسنان وغير ذلك حال القتال والنزال، كما قال ـ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١].

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«هل» للاستفهام، ومعناه الأمر، أي: فاشكروا نعمة الله عليكم لما مَنَّ به عليكم من تعليم داود ـ عليه السلام ـ صنعة هذه اللبوس والدروع لتتحصنوا بها حال القتال، وغير ذلك من نعمه عليكم، والشكر يكون بالاستعانة بنعم الله ـ عز وجل ـ على طاعته، واستعمالها في ذلك ونسبتها إليه ـ عز وجل، واحترامها وعدم إهانتها.

وضد ذلك كفران النعم بحيث تستعمل في معصية الله أو يستعان بها على ذلك، أو تنسب لغيره ـ عز وجل، أو تهان ولا تحترم؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: ٨١]، وفي مجيء الأمر بالشكر على صيغة الاستفهام تشويق لامتثال الأمر، وتحبيبه إلى النفوس، وتلطف معها في الطلب في

عدم مقابلتها بالأمر الذي قد يثقل على بعض النفوس.

كما أن فيه إشارة إلى قلة الشاكرين، وضعف الشكر عند الكثير منهم؛ كما قال ـ تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: ١٣].

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ﴾ الواو: عاطفة، أي: وسخرنا لسليمان الريح، كما قال ـ تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾ [سبأ: ١٢].

ومعنى ﴿عَاصِفَةٗ﴾ أي: شديدة الهبوب، وهي تحت أمره ـ عليه السلام، فإن أراد أن تشتد اشتدت، وإن أراد أن تلين لانت، تتجه وتسير حيث أراد من البلاد، كما قال ـ تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦﴾ [ص: ٣٦].

والريح: هي نسيم الهواء، وهي مخلوق لطيف شفاف لا يرى، وإنما يُحس به من خلال تحريكه للأشياء.

﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ أي: تسير بأمر سليمان ـ عليه السلام، وتتجه حيث أمرها، وحيث شاء.

﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾ وهي أرض الشام المباركة التي بارك الله فيها، أي: جعلها كثيرة الخير والبركة، ومهبط كثير من الرسالات، ومبعث كثير من الرسل، منهم داود وسليمان وموسى وعيسى بن مريم ـ عليهم السلام ـ وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل، قال ـ تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

قال الطبري[1]: «﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾ يعني إلى الشام، وذلك أنها كانت تجري لسليمان وأصحابه إلى حيث شاء سليمان، ثم تعود به إلى منزله بالشام، فلذلك قيل: ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾».

---

(١) في «جامع البيان» (١٦/ ٣٣١).

وقال ابن كثير(١): «وذلك أنه كان له بساط من خشب، يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته، ثم تحمله فترفعه وتسير به، وتظله الطير من الحر إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وخشبه».

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ أي: بكل شيء من الأشياء، صغيراً كان أو كبيراً، خفياً أو جلياً ﴿عَالِمِينَ﴾ لا يخفى علينا منه شيء.

أي: فسخرنا مع داود الجبال والطير، وعلمناه صنعة الدروع، وسخرنا لسليمان الريح، كل ذلك وغيره بعلم منا، كما علِمنا أن تسخيرنا لداود وسليمان ما ذكر مما يزيدهما خضوعاً لله ـ عز وجل ـ وتعظيماً له، وتذللاً بين يديه.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أي: وسخرنا أيضاً لسليمان مِن الشياطين مَن يغوصون له.

والشياطين: جمع شيطان، مشتق من شطن، أي: بعد عن رحمة الله ـ عز وجل ـ وعن كل خير، وهو كل متمرد عات خارج عن طاعة الله ـ عز وجل ـ من الإنس والجن والحيوان، قال ـ تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال ﷺ: «**الكلب الأسود شيطان**»(٢).

والغوص: النزول تحت الماء، أي: يغوصون له في أعماق البحار.

والمراد بالشياطين هنا شياطين الجن وعفاريتهم سخرهم الله ـ عز وجل ـ لسليمان ـ عليه السلام، يغوصون له في الماء وفي أعماق البحار، يستخرجون منها الجواهر النفيسة، كاللؤلؤ والمرجان والمحّار وأنواع الحلية، وغير ذلك، فسخرهم الله ـ عز وجل ـ له، وسلطه على تسخيرهم في الأعمال التي لا يقدر على كثير منها غيرهم.

---

(١) في «تفسيره» (٥/ ٣٥٣).

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ـ قدر ما يستر المصلي (٥١٠)، وأبوداود في الصلاة ـ ما يقطع الصلاة (٧٠٢) ـ من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه.

﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: دون الغوص، كالبنيان، والمحاريب والتماثيل، والجفان، والقدور، وغير ذلك.

كما قال ـ تعالى: ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]، وقال ـ تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ: ١٣، ١٤].

﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ أي: حافظين لأعدادهم وأعمالهم فلا يخرجون عن أمره، ولا يقدرون على الامتناع منه وعصيانه، بل هم مسخرون له وتحت أمره وقهره، يطلق من شاء منهم في العمل ويحبس من شاء منهم، كما قال ـ تعالى: ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]، وقال ـ تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ [سبأ: ١٢].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ وأمته بما حصل من سليمان وداود ـ عليهما الصلاة والسلام ـ في هذه الواقعة لأخذ العبرة من ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾ الآية.

٢- إثبات نبوة داود وسليمان ـ عليهما السلام.

٣- في ذكره ﷺ خبر سليمان وداود ـ عليهما السلام ـ أعظم دليل على صدق نبوته ﷺ.

٤- إطلاق الجمع على اثنين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴾ والمراد حكم داود وسليمان.

٥- تعظيم الله ـ عز وجل ـ لنفسه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴾ بضمير العظمة، وكذا ما بعده إلى آخر الآية ـ وهو العظيم ـ سبحانه وتعالى.

٦- سعة علم الله ـ عز وجل ـ واطلاعه على كل شيء، ومن ذلك حكم سليمان وداود

ـ عليهما السلام؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾.

٧- اختصاص الله ـ عز وجل ـ سليمان ـ عليه السلام ـ بتفهيمه الصواب في هذه القضية، وهو دفع الكرم إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان، ودفع الغنم إلى صاحب الكرم ليصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعه إلى صاحبه ودفع الغنم إلى صاحبها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾.

وهذا موافق لما جاء في قضائه ﷺ كما في حديث حرام بن محيِّصة عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ «أن على أهل المواشي ضمان ما أفسدته مواشيهم بالليل، وأن على أهل الحروث حفظها بالنهار»[(١)].

وهذا مخصص لعموم قوله ﷺ: «**العجماء جرحها جبار**»[(٢)] أي: هدر.

وهذا قول جمهور أهل العلم، فما أتلفته المواشي بالليل يضمن بقيمته، وإن زادت على قيمة المواشي.

وقد قال بعض أهل العلم بضمان ما أتلفته المواشي بالنهار، كما قيل بعدم الضمان على أهل المواشي مطلقاً.

٨- جواز الاجتهاد للأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وغيرهم ممن هو أهل للاجتهاد.

٩- أنه ليس كل مجتهد مصيباً، وفي الحديث: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**»[(٣)].

لكن من اجتهد ممن له الاجتهاد فأخطأ فإنه لا يلام ولا يأثم؛ ولهذا قال ﷺ: «**وإنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو مما أسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فليأخذها أو ليدعها فإنما**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الديات (٦٩١٢)، ومسلم في الحدود (١٧١٠)، وأبوداود في الخراج (٣٠٨٥)، والنسائي في الزكاة (٢٤٩٥)، والترمذي في الزكاة (٦٤٢)، وابن ماجه في الديات (٢٦٧٣) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

أقطع له قطعة من النار»[١].

١٠- جواز الخطأ والوقوع في الصغائر من الأنبياء ـ عليهم السلام، لكنهم لا يُقرون على ذلك، بل سرعان ما يتوبون من ذلك، وقيل بعدم جواز الخطأ عليهم وعصمتهم من الخطأ مطلقاً.

١١- وجوب رجوع القاضي عما حكم به إذا تبين له أن الحق في غيره، فقد رجع داود إلى حكم سليمان ـ عليهما السلام ـ لما تبين له أن حكم سليمان أحق وأصوب.

١٢- ثناء الله ـ عز وجل ـ على كل من داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ والامتنان عليهما بما آتاهما ـ عز وجل ـ من الحكم والعلم، وأعظم ذلك علم النبوة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾.

١٣- الاحتراز والإشارة إلى أنه ليس في حكم داود ـ عليه السلام ـ ما يعاب؛ لأن الله ـ عز وجل ـ أثنى على سليمان بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ﴾ ولم يذم داود، بل أثنى عليهما معاً فقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾.

١٤- امتنان الله ـ عز وجل ـ على داود ـ عليه السلام ـ بتسخير الجبال والطير يسبحن معه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ﴾.

١٥- تسبيح الجماد والطير لله ـ عز وجل ـ وهكذا جميع المخلوقات؛ كما قال ـ عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

١٦- قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة على فعل ما قضاه وأراده، من تفهيم سليمان الحكم في هذه القضية، وإيتائه وداود الحكم والعلم، وتسخير الجبال والطير تسبح مع داود وغير ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، كما قال ـ تعالى: في وصف نفسه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: ١٦].

(١) سبق تخريجه.

١٧- فضل الله ـ عز وجل ـ على داود ـ عليه السلام ـ بتعليمه صنعة الدروع والسرابيل ليتحصن بها جنوده حال القتال؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾.

١٨- وجوب شكر نعم الله بنسبتها إليه ـ عز وجل؛ والاستعانة بها على طاعته، والبعد عن معاصيه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾.

١٩- أن التلطف في الخطاب ـ أحرى للقبول؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾، فجاء الخطاب بصيغة الاستفهام، والمراد الأمر، أي: اشكروا.

٢٠- امتنان الله ـ عز وجل ـ على سليمان ـ عليه السلام ـ بتسخير الريح له تجري بأمره، وتحمله هو وجنوده ورجال مملكته وما أراد إلى الأرض المباركة، وإلى حيث شاء من أرجاء مملكته ذهاباً وإياباً، تارة تجري بعصف وشدة، وتارة بلين ورخاء؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾.

٢١- مباركة الله ـ عز وجل ـ في أرض الشام؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾.

٢٢- علم الله ـ عز وجل ـ الشامل لكل شيء؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾.

٢٣- تسخير الله ـ عز وجل ـ الشياطين لسليمان ـ عليه السلام، يغوصون له في أعماق البحار، يستخرجون ما فيها من الكنوز، ويعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات وغير ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾..

٢٤- عظم قدرة الله ـ عز وجل ـ في تسخيره الريح، هذا المخلوق الخفيف اللطيف لحمل سليمان ـ عليه السلام ـ وما معه من المحمولات الثقيلة، وفي تسخيره مردة الجن لخدمته في الغوص والعمل.

٢٥- عظمة ملك سليمان ـ عليه السلام ـ وما أعطاه الله ـ عز وجل ـ من القوة ونفوذ السلطان وتسخير الريح له ومردة الجن.

٢٦- حفظ الله ـ عز وجل ـ لأعداد الشياطين وأعمالهم في مملكة سليمان فلا يخرجون عن أمره ـ عليه السلام، ولا يقدرون على الامتناع منه ومعصيته؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾.

تفسير آيات الأحكام في سورة الحج

قال الله ـ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحج: ٢٥]،

قوله ـ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾: الكفر لغة: الستر والتغطية، ومنه سمي الزارع كافراً؛ لأنه يستر البذر، أي: يغطيه في الأرض ويدفنه فيها، قال ـ تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ [الحديد: ٢٠]، أي: أعجب الزراع.

أي: إن الذين كفروا بالله، فجحدوا ربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه وكتبه ورسله، أو شيئاً من ذلك.

﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ الواو عاطفة، وفي عطف المضارع على الماضي بيان استمرارهم على الصد، فكأن ذلك صفة لهم، أي: ومن صفة هؤلاء الكفار أنهم يصدون عن سبيل الله.

ويحتمل كون الواو حالية، أي: والحال أنهم يصدون عن سبيل الله.

والصد عن الشيء: المنع من الوصول إليه والدخول فيه، أي: ويمنعون عن سبيل الله والمسجد الحرام.

و﴿ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾: هو دينه وطريقه المؤدي إليه وإلى مرضاته وجناته، كما قال ـ عز وجل: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحجر: ٤١]، فصدوا وأعرضوا عن دين الله، ويصدون ويمنعون غيرهم عن الدخول فيه.

﴿ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ أي: ويصدون عن المسجد الحرام، بيت الله العتيق وكعبته المشرفة وحرمه المعظم، ومشاعره المقدسة الصفا والمروة ومنى وعرفة ومزدلفة وغيرها، أي: يصدون عن المسجد الحرام من قصده من المؤمنين لقضاء مناسكهم، والتعبد والصلاة فيه، بدعوى أنهم سدنة الحرم وأولياؤه، كما فعلوا عام الحديبية،

وقد رد الله عليهم ذلك بقوله ـ تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

ولهذا أباح الله ـ عز وجل ـ قتالهم في الحرم، فقال ـ تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ قرأ حفص (سَوَاءً) بالنصب، مفعول ثان لـ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾، وقرأ الباقون بالرفع (سواءٌ) على أنه مبتدأ وخبره ما بعده.

﴿ٱلَّذِي﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل جر صفة ثانية لـ«المسجد الحرام» وما بعده صلة الموصول، وجعل هنا بمعنى صير تنصب مفعولين: الأول ضمير الهاء في ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ والثاني ﴿سَوَآءً﴾، أو الجملة: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ﴾.

و«جعل» تنقسم إلى قسمين: شرعية، وكونية، وهي هنا شرعية، أي: الذي جعلناه شرعاً.

﴿لِلنَّاسِ﴾، أي: للناس الذين آمنوا بالله كافة لا فرق بينهم.

﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ أي: يستوي فيه ﴿ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ﴾ أي: المعتكف الملازم له المقيم فيه لطاعة الله ـ تعالى.

﴿وَٱلۡبَادِۚ﴾ أي: القادم من خارجه البعيد النائي عنه، سواء كان من أهل الحاضرة أو البادية، كما قال ـ تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

فهما فيه سواء في العبادة والاعتكاف فيه، فلا يُخرج منه المعتكف فيه، ولا يُمنع منه القادم إليه، وهما يستويان فيه في إقامة المناسك من الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة ومنى ورمي الجمار وغير ذلك.

ولهذا رُويَ أن النبي ﷺ امتنع أن يُبنى له بيت بمنى، وقال: «منى مناخ من

سبق»[١].

وهما سواء في فضل الصلاة فيه والطواف به، وفي وجوب تعظيم الحرم واحترامه، كما قال ـ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وقال بعض المفسرين: المراد بالمسجد الحرام الحرم كله، ومعنى التسوية أن المقيم والبادي سواء في النزول فيه، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام»[٢] والأظهر القول الأول.

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: عن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: «نزلت في عبدالله بن أبي أُنيس، وذلك أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر، والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبدالله بن أُنيس، فقتل الأنصاري ثم ارتد عن الإسلام، وهرب إلى مكة، فنزلت فيه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾» يعني من لجأ إلى الحرم ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ يعني بميل عن الإسلام»[٣].

قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾: الواو: استئنافية، ﴿وَمَن﴾ شرطية، و﴿يُرِدْ﴾ فعل الشرط وجوابه ﴿نُّذِقْهُ﴾ وكلاهما مجزوم بحذف حرف العلة الياء، أي: ومن يقصد وينوي في المسجد الحرام ﴿بِإِلْحَادٍ﴾.

وعُدي الفعل ﴿يُرِدْ﴾ بالباء لأنه ضُمن معنى «يهم»، فالباء للتعدية، أو هي زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى، والتقدير: «وَمَنْ يُرِدْ فيه إلحاداً»، كقوله ـ تعالى: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، أي: تنبت الدهن، وكقول الشاعر:

---

(١) أخرجه أبوداود في المناسك ـ تحريم مكة (٢٠١٩)، والترمذي في الحج، ما جاء أن منى مناخ من سبق (٨٨١)، وقال: «حديث حسن صحيح» وأخرجه ابن ماجه في المناسك ـ النزول بمنى (٣٠٠٦)، وأحمد (٦/ ٢٠٦-٢٠٧) ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٨٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٨٤).

هــن الحرائــر لا ربــات أخمــرة سود المحاجر لا يقرأن بالسور[١]

أي: لا يقرأن السور.

وكقول الآخر:

نحــن بنــو جعــدة أصــحاب الفلــج نـضرب بالـسيف ونرجـو بـالفرج[٢]

أي: ونرجو الفرج.

وقيل: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ متعلق بحال من مفعول ﴿يُرِدْ﴾، والباء للملابسة، أي: يرد التعدي متلبساً بإلحاد.

والإلحاد: الميل والعدول عن الحق والقصد إلى الظلم، ونكر «إِلحَادٍ» ليعم كل إلحاد وميل عن الحق أيًّا كان.

﴿بِظُلْمٍ﴾ بدل من «إِلحَادٍ» بإعادة الجار، أو حال ثانية، والباء للملابسة، أي: متلبساً بظلم.

أو متعلق بـ«يرد بإلحاد» والباء للسببية، أي: بسبب الظلم.

والظلم لغة: النقص، ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي، وأظلم الظلم: الشرك بالله، كما قال ـ تعالى ـ فيما حكاه عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]، وقال ـ تعالى ـ في وصف المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]. أي: بشرك.

والمعنى: ومن يقصد وينو في المسجد الحرام بميل وعدول عن الإسلام وعن الحق ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك أو استحلال لحرمة الحرم، وصد عن سبيل الله والمسجد الحرام، وارتكاب للمعاصي فيه من القتل أو الاحتكار وغير ذلك.

رُوِيَ أن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ كان له فسطاطان: أحدهما في

(١) انظر: «لسان العرب» مادة «لحد».

(٢) البيت في «معجم ياقوت» بلا نسبة.

الحل، والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يصلي صلى في الذي في الحرم، وإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الذي في الحل، فقيل له، فقال: كنا نحدَّث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل: «كلا والله، وبلى والله»[١].

ورُوي عن يعلى بن أمية ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**احتكار الطعام بمكة إلحاد**»[٢].

ورُوي أن عبدالله بن عمر أتى عبدالله بن الزبير، فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد في حرم الله ـ تبارك وتعالى ـ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنه سيلحد فيه رجل من قريش، لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت، فانظر لا تكن هو**»[٣].

﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: ﴿نُّذِقْهُ﴾ جواب الشرط.

﴿مِنْ عَذَابٍ﴾: ﴿مِنْ﴾ تبعيضية، و﴿أَلِيمٍ﴾ «فعيل» بمعنى «مفعل» أي: مؤلم موجع حسًّا ومعنى.

والمعنى: نعذبه عذاباً شديداً مؤلماً موجعاً، يذوقه ويتجرع ألمه نفسيًّا وبدنيًّا في الدنيا والآخرة.

وهذا الوعيد لمن هَمَّ بالإلحاد فيه بظلم، وهو لمن ارتكب ذلك آكد وأشد وأعظم.

عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «لو أن رجلاً أراد فيه بإلحاد بظلم، وهو بـ«عدن أبين»[٤] أذاقه الله من العذاب الأليم»[٥].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥١٠)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٢٨٥)، وفيه «عبدالله بن عمرو» بدل «ابن عمر».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٨٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٣٦)، وروى نحوه أيضاً (٢/ ٢١٩) ـ من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما.

(٤) «أبين» موضع في جبل عدن، يقال: إنه سمي بأبين بن زهير بن حمير ـ انظر: «معجم البلدان» (١/ ١٠٩-١١٠).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٤٢٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٨٣، ٢٤٨٥).

وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: «ما من رجل يهم فيه بسيئة فتكتب عليه، ولو أن رجلاً بـ«عدن أبين» هَمَّ أن يقتل رجلاً بهذا البيت لأذاقه الله من العذاب الأليم»[١].

ولهذا لما همَّ أبرهة الأشرم بهدم الكعبة هو ومن معه من أصحاب الفيل عذبهم الله ـ عز وجل، فأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل: ٤، ٥] فصاروا عبرة ونكالاً لغيرهم.

وقال ﷺ: **«يغزو هذا البيت جيش، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم...»**[٢].

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على الكافرين الذين أعرضوا بأنفسهم عن دين الله، ويَصدون الناس عن الدخول فيه، ويصدون عن المسجد الحرام القاصدين له لقضاء المناسك والتعبد فيه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾. الآية.

٢- جمع كفار مكة بين الكفر والصد عن دين الله وعن المسجد الحرام، وهكذا يعمد الطغاة والمكابرون كزعيمهم إبليس ـ لعنه الله ـ إلى جر الناس إلى الكفر والهلاك وكبهم في النار، بل إن بعض الفساق ومرضى القلوب يحبون ويعجبهم أن يجروا الناس إلى ما هم عليه من الفسق والمعاصي لغرض في أنفسهم ومرض في قلوبهم، كما قال ـ تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: ٢٧].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٠٨)، والحاكم (٢/ ٣٨٧).

(٢) أخرجه البخاري في البيوع ـ ما ذكر في الأسواق (٢١١٨)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ وأخرجه مسلم في الفتن ـ الخسف بالجيش الذي يؤم البيت (٢٨٨٣)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٧٩)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٦٣)، من حديث حفصة ـ رضي الله عنها.

٣- إثبات الإلوهية لله ـ عز وجل؛ لأن معنى ﴿ٱللَّهِ﴾ المألوه المعبود بحق محبة وتعظيماً.

٤- إثبات حرمة الكعبة والبيت العتيق؛ لأن الله ـ عز وجل ـ سماه المسجد الحرام؛ ولهذا قال ﷺ: «**إن هذا البلد حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكه ولا يُختلى خلاه، ولا يُنفَّر صيده، ولا تُلتقط لقطته إلا لمنشد...**» الحديث(١).

٥- أن الناس سواء في المسجد الحرام في أداء المناسك والصلاة؛ المعتكف منهم والبادي، فلا يُخرج منه المعتكف فيه، ولا يُمنع عنه القادم إليه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾.

وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ أي: في السكن والنزول في الحرم، كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «**ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام**»(٢).

ولهذا اختلف الفقهاء رحمهم الله ـ في حكم تمَلُّك رباع مكة وتوريثها وبيعها وتأجيرها، فذهب جمع من السلف منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وجمع من الفقهاء إلى أن رباع مكة تُملك وتورث وتباع وتؤجر.

وحملوا الآية على أن الناس سواء في المسجد الحرام في قضاء المناسك والاعتكاف والتعبد، وفي وجوب احترامه وتعظيمه، واستدلوا بأدلة منها: قوله ـ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقوله ـ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله ـ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ [الحشر: ٨]، وقوله ـ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٩]، ففي هذه الآيات ونحوها أضاف الديار إليهم إضافة تمليك.

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٨٣٤)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٧)، والترمذي في السير (١٥٩٠)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٣) ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

وعن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله، أتنزل غداً في دارك بمكة؟ فقال: **«وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور»** وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب، ولم يرث جعفر ولا علي ـ رضي الله عنهما ـ شيئاً؛ لأنهما كانا مسلمين، وكان عقيل وطالب كافرين.. ثم قال: **«لا يرث الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر»**(١).

وعن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن»**(٢).

فنسب دار أبي سفيان إليه، وهي نسبة تملك، وكذا قال: **«من أغلق بابه فهو آمن»** وهذا يفيد أيضاً معنى التملك للباب وللدار.

وأيضاً فإن جميع أهل مكة بقيت لهم ديارهم بعد الفتح، يتصرفون بها بما شاؤوا من بيع وإجارة ويتوارثونها، وقد ثبت أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ «اشترى من صفوان بن أمية داراً بمكة فجعلها سجناً بأربعة آلاف درهم»(٣).

وقياساً لأرض مكة على غيرها من الأرض، ويستثنى من جواز البيع بقاع المناسك بالإجماع.

وذهب طائفة من الفقهاء إلى أن رباع مكة لا تملك ولا تورث ولا تؤجر، منهم إسحاق بن راهويه وهو مذهب طائفة من السلف(٤).

وحملوا قوله ـ تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ على أن

---

(١) أخرجه البخاري في الحج ـ توريث دور مكة وبيعها وشرائها (١٥٨٨)، ومسلم في الفرائض (١٦١٤)، وأبوداود في الفرائض (٢٩٠٩)، والترمذي في الفرائض (٢١٠٧)، وابن ماجه في الفرائض ـ ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك (٢٧٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد ـ فتح مكة (١٧٨٠)، وأبوداود في الخراج والإمارة والفيء (٣٠٢٤).

(٣) أخرجه البخاري معلقاً في الخصومات ـ الربط والحبس في الحرم، وأخرجه موصولاً عبدالرزاق في «المصنف» (٥/ ١٤٧)، (٩٢١٣)، والبيهقي في «سننه» (٦/ ٣٤-٣٥).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٠٦).

المراد به السكنى في الحرم، قالوا: فالناس فيه سواء.

واستدلوا بما رواه علقمة بن نضلة ـ رضي الله عنه ـ قال: «توفي رسول الله ﷺ وأبوبكر وعمر، وما تدعى رباع مكة إلا السوائب[1]، من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن»[2].

وعن عطاء: «أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تبوب دور مكة؛ لأن ينزل الحاج في عرصاتها، فكان أول من بَوَّب داره سهيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك، فقال: أنظرني يا أمير المؤمنين، إني كنت امرأً تاجراً، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان ظهري[3]. قال: فذلك إذاً»[4].

وعن مجاهد أن عمر بن الخطاب قال: «يا أهل مكة، لا تتخذوا لدوركم أبواباً لينزل البادي حيث شاء»[4].

وعن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها»[5].

وقال بعض الفقهاء: تملك بيوت مكة وتورث ولا تؤجر ـ جمعاً بين الأدلة.

٦- الوعيد الشديد لمن ألحد بظلم في الحرم، أو أراد ذلك بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

٧- عظم حرمة الحرم؛ لأن الله ـ عز وجل ـ رتب على الإلحاد فيه بظلم العذاب الأليم.

* * *

---

(١) السوائب: جمع سائبة، كأنها سيبت وتركت لله ـ عز وجل.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المناسك ـ أجر بيوت مكة (٣١٠٧).

(٣) الظهر: الإبل التي يُحمل عليها وتركب. أي: يحبسان لي إبلي.

(٤) أخرجهما عبدالرزاق في «المصنف» (٥/ ١٤٦-١٤٧) (٩٢١٠، ٩٢١١).

(٥) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٥/ ١٤٨) (٩٢١٤).

قال الله ـ تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج: ٢٦-٢٩].

صلة الآيات بما قبلها:

أنكر الله ـ عز وجل ـ على الكفار صدهم عن سبيل الله وعن المسجد الحرام وتوعد من أراد الإلحاد فيه والظلم بالعذاب الأليم، ثم أتبع ذلك بالتذكير بنعمة الله ـ عز وجل ـ ببناء البيت، وبيان عظمة المسجد الحرام وما بني له، وهو عبادة الله ـ عز وجل ـ والصلاة والحج وذكر الله ـ عز وجل.

قوله ـ تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ الواو: استئنافية، و«إذ» ظرف في محل نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره «اذكر».

﴿بَوَّأْنَا﴾ أي: هيأنا ووطأنا لإبراهيم مكان البيت وأسكناه فيه، كما قال ـ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، كما قال ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: ٥٨]، وقال ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ٤١].

قال الشاعر:

كم من أخ لي ماجد ... بوّأته بيديَّ لحدا[1]

﴿لِإِبْرَٰهِيمَ﴾ هو إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ أبو الأنبياء، وأفضل أولي العزم بعد محمد ﷺ.

﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: موضع بناء البيت العظيم والكعبة المشرفة.

---

(١) البيت من قصيدة لعمرو بن معد يكرب الزبيدي.

والمعنى: وإذ هيأنا ووطأنا لإبراهيم مكان البيت الحرام، وأرشدناه إليه، وأسكناه فيه، وأذنا له في بنائه.

فإبراهيم ـ عليه السلام ـ هو أول من بنى البيت العتيق.

وهو أول بيت بُني للناس لعبادة الله ـ تعالى، قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «**المسجد الحرام**» قلت: ثم أي؟ قال: «**بيت المقدس**»، قلت: كم بينهما؟ قال: «**أربعون سنة**»[(١)].

﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ ﴿أَن﴾ تفسيرية. أي: وعهدنا إليه وأمرناه ووصيناه بأن لا تشرك بي شيئاً من الشرك؛ لا شركاً كبيراً ولا صغيراً، ولا جلياً ولا خفياً، ولا تشرك بي شيئاً من الأشياء أيًّا كان؛ لا شيئاً صغيراً ولا كبيراً، ولا قليلاً ولا كثيراً؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٥].

وفي قوله: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ إشارة إلى أن القصد من بناء البيت هو عبادة الله ـ عز وجل ـ وعدم الإشراك به، قال ابن كثير[(٢)]: «أي: ابنه على اسمي وحدي».

والشرك: دعوة غير الله وإشراكه مع الله، وتسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله كالعبادة والنذر والذبح والتوكل والاستغاثة ونحو ذلك، قال ـ تعالى ـ

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٦)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٠)، والنسائي في المساجد (٦٩٠)، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٥٣)، وأحمد (٥/ ١٥٠، ١٦٦، ١٦٧).

(٢) في «تفسيره» (٥/ ٤٠٩).

حكاية لقول المشركين: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٦-٩٨].

وفي نهيه - عز وجل - إبراهيم - عليه السلام - عن الشرك - وهو إمام الحنفاء، كما قال - تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال - تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧]، فيه إنكار على المشركين من قريش، وتقريع وتوبيخ لهم على شركهم بالله، وبيان أن البيت إنما أُسس من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له وعلى تقواه.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ كما قال في سورة البقرة: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٥]، أي: وطهر بيتي من الشرك وعبادة الأوثان والمعاصي، ومن الأنجاس والأدناس المعنوية والحسية، ومن الأصوات اللاغية والمرتفعة التي تشوش على الطائفين والمصلين وغير ذلك.

ولهذا نهى - عز وجل - عن القتال فيه، قال - عز وجل: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾ [البقرة: ١٩١].

ونهى المشركين من قربه، فقال - عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

وأضاف - عز وجل - البيت إليه لأنه رب البيت؛ خالقه ومالكه والمتصرف فيه، وفي ذلك تشريف وتعظيم للبيت وترغيب في تطهيره وتعظيمه.

﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: طهره من الشرك والمعاصي وغير ذلك للطائفين والقائمين والركع السجود، الذين يعبدون الله وحده لا شريك له.

و«الطائفين» جمع طائف، والطواف بمعنى الدوران على الشيء والتردد عليه،

ومنه قوله ـ تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨]، وقوله ـ تعالى: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النور: ٥٨].

وقوله ﷺ في الهرة: «**إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات**»(١).

والمعنى: والطائفين بالبيت وعلى الكعبة المشرفة.

والطواف خاص بالبيت الحرام الذي بناه إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأمر ربه ـ عز وجل، والذي جعله الله قبلة للمسلمين في صلاتهم ومثابة للناس وأمناً، وقياماً للناس، كما قال ـ تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقال ـ تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال ـ تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧].

فلا يجوز التعبد لله ـ عز وجل ـ بالطواف على غير الكعبة والبيت الحرام، سواء كان المَطُوفُ به مسجداً أو قبراً، أو غير ذلك.

ولكون الطواف خاصًا بالبيت الحرام قدَّمه على القيام والركوع والسجود، فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ علماً أن الصلاة أفضل العبادات.

﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ جمع قائم، أي: القائمين في الصلاة؛ لقوله بعده: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، وقدَّم القيام؛ لأنه في الأصل مقدَّم في الصلاة، فهو أول أركان الصلاة، ولأنه موضع قراءة الفاتحة وهي ركن أيضاً من أركان الصلاة، وموضع قراءة القرآن مطلقاً في الصلاة، وهو أفضل الذِّكر.

﴿وَالرُّكَّعِ﴾ جمع راكع. والركوع: هو الركن الثالث من أركان الصلاة، وهو

---

(١) أخرجه أبوداود في الطهارة (٧٥)، والنسائي في الطهارة (٦٨)، والترمذي في الطهارة (٩٢)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٣٦٧) ـ من حديث أبي قتادة ـ رضي الله عنه.

محل تعظيم الرب؛ لقوله ﷺ: «**أما الركوع فعظِّموا فيه الرب**»(١).

﴿ٱلسُّجُودِ﴾ جمع ساجد. والسجود: هو الركن الخامس من أركان الصلاة، وهو السجود على الأعضاء السبعة: الوجه، واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين، وتعفيرها بالتراب تعظيماً لله ـ عز وجل.

وأصل السجود: التطامن والتواضع والخضوع لله ـ عز وجل.

ويطلق على الانقياد لله ـ عز وجل ـ عموماً، ويطلق على السجود على الأعضاء السبعة، ويطلق على الصلاة كلها، كما في قوله ـ تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، لأنه من أعظم أركان الصلاة، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ـ كما قال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»(٢).

وقال ﷺ: «**وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء، فقَمِنٌ أن يستجاب لكم**»(٣).

والقيام والركوع والسجود من أعظم وأهم أركان الصلاة، ولهذا خصها بالذكر؛ لأن في القيام قراءة القرآن أفضل الكلام، وفي الركوع والانحناء تعظيم الرب، وفي السجود القرب من الله ـ عز وجل.

وقرن بين الطواف والصلاة في الآية؛ لأن الطواف لا يصح إلا بالبيت الحرام، والصلاة لا تصح إلا إليه. وقدم الطواف على الصلاة لاختصاصه بالبيت.

وفي آية البقرة: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [الآية: ١٢٥]، قدم أيضاً الطواف على الاعتكاف والصلاة لاختصاصه بالحرم، كما قدم الاعتكاف على الصلاة لاختصاص الاعتكاف بالمساجد.

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٧٩)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٦)، والنسائي في التطبيق (١٠٤٥)، وابن ماجه في تعبير الرؤيا (٣٨٩٩) ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ الأمر لإبراهيم ـ عليه السلام، والأذان هو الإعلام والنداء، والإخبار، أي: وناد في الناس وأخبرهم؛ كما قال ـ تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ [التوبة: ٣]، أي: وإعلام من الله ورسوله.

قال الشاعر:

آذنتنـــــا ببينهـــــا أســـــماء   رب ثـــاو يمـــل منـــه الثـــواء[١]

أي: أَعْلَمتنا.

و﴿ٱلنَّاسِ﴾ يعم كل البشر، أي: كل ما أمكنه أن يبلغ إليه ذلك.

والمعنى: وأعلم الناس وأخبرهم وناد بهم بأن يحجوا بيت الله الحرام، أو بوجوب الحج عليهم.

والحج لغة: القصد. وشرعاً: قصد بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج.

وقد رُوي أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال: «يا رب، وما يبلغ صوتي؟ قال: أذن وعليَّ البلاغ». فقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ على الحجر، أو على المقام، وقيل: على الصفا، أو على أبي قبيس، فنادى ألا إن ربكم قد اتخذ بيتاً، وأمركم أن تحجوه، أو إن الله كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فحجوا، فخفضت له الجبال رؤوسها فسمعه ما بين السماء والأرض، فأجابه كل من سمعه «لبيك اللهم لبيك» هكذا روي عن جمع من السلف[٢].

وهكذا قال محمد ﷺ لأمته: «**أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا**»[٣].

﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ ﴿ رِجَالًا ﴾ حال، وهي: جمع راجل، والراجل: هو الذي

---

(١) البيت للحارث بن حلزة.

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٦/ ٥١٤-٥١٧)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٤٨٧).

(٣) أخرجه مسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

يمشي على رجليه، أي: يأتوك للحج حال كونهم ماشين على أرجلهم.

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ الجملة في محل نصب معطوفة على قوله: ﴿رِجَالًا﴾، أي: ويأتوك حال كونهم راكبين على كل ضامر.

وكلمة ﴿كُلِّ﴾ تدل على الكثرة، أي: وعلى ضوامر كثيرة.

والضمور: الضعف والهزال بسبب الركوب وطول السير وبعد الشقة. والضمور أيضاً قلة لحم البطن، وهو من محاسن الرواحل والخيل؛ لأنه يعينها على السير والحركة.

والمعنى: يجيئك الناس للحج منهم الماشي على رجليه، ومنهم الراكب على الإبل والخيل الضوامر، التي أضمرها السير والركوب وبعد الشقة.

وفي تقديم قوله: ﴿رِجَالًا﴾ إشارة إلى أن الحج يجب على من قدر عليه ولو ماشياً، إذا كان يستطيع ذلك بلا مشقة شديدة، فليس من شرطه أن يجد مركباً.

وفيه إشارة أيضاً إلى عظم أجر الحج ماشياً؛ لأن الأجر على قدر المشقة، ولا شك أن الحج على الأقدام أشق، فهو أفضل إذا لم يجد مركباً، أما إذا وجد مركباً فالسُّنَّة أن يركب كما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقد أَخذ من هذا بعضهم أن الحج ماشياً أفضل؛ لأن الله قدمه، ولما فيه من المشقة والدلالة على علو الهمة وقوة العزيمة. وقالوا: إنما حج الرسول ﷺ راكباً رفقاً بأمته، وطاف راكباً ليرى الناس هيئة الطواف.

وأكثر أهل العلم على أن الحج راكباً أفضل؛ لأن الرسول ﷺ حج راكباً، بل وطاف بالبيت وتنقل بين المشاعر ورمى الجمار وهو راكب ﷺ ـ مع قوته وقدرته على المشي، وهو الأسوة ﷺ والقدوة للأمة، وما خُيِّر ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ـ كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها[1].

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، وأبوداود في الأدب (٤٧٨٥) ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

وليس المقصود من الحج ولا من غيره من العبادات المشقة، وإنما المهم أداء العبادة كما شرعها الله ـ عز وجل ـ وبيَّنها رسوله ﷺ؛ ولهذا قال ﷺ: «**خذوا عني مناسككم**»(١)، وقال في أمر الصلاة: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»(٢).

﴿يَأْتِينَ﴾ هذه الضوامر.

﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ الفج: الشق بين جبلين تسير فيه الركاب، وغلب على الطريق أي: من كل طريق ومسلك وسبيل، وجمعه «فجاج»؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿عَمِيقٍ﴾ أي: بعيد، يقال: بئر عميقة، أي: بعيدة القعر، أي: يأتين هذه الضوامر من كل طريق ومسلك بعيد، استجابة لنداء إبراهيم ـ عليه السلام، ودعائه في قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فالمسلمون في جميع أقطار الأرض على اختلاف لغاتهم ومشاربهم كلهم يَحِنون إلى البيت العتيق، ويحجونه، ويزورونه، ولا يكاد أحد منهم يسلو عنه، أو يشبع منه مهما حج وتردد إليه.

وقد أحسن القائل:

يا سائرين إلى البيت العتيق لقد ... سرتم جسوماً وسرنا نحن أرواحا
إنا أقمنا على عذر نكابده ... ومن أقام على عذر كمن راحا

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾: اللام للتعليل، ونكِّرت ﴿مَنَافِعَ﴾ للتعظيم والتكثير، أي: لأجل أن يحضروا ويحصلوا على منافع عظيمة كثيرة لهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، فيستفيدوا من الحج وأداء مناسكه كما شرع الله ـ عز وجل ـ وفي التعبد

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٦)، وأبوداود في المناسك (١٧٨٥)، والنسائي في مناسك الحج (٣٠٦٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٠٠٨) ـ من حديث جابر ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٣١)، والدارمي في الصلاة (١٢٥٣) ـ من حديث مالك بن الحويرث ـ رضي الله عنه.

في تلك البقاع الطاهرة تكفير السيئات ورفعة الدرجات والفوز بالجنات، كما قال ﷺ: «**من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»(١)، وقال ﷺ: «**الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**»(٢).

ويستفيدوا من منافع البدن والهدي وطلب الفضل والربح بالتجارة؛ كما قال ـ تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]. ويستفيدوا من الحج أيضاً منافع أخرى دينية ودنيوية بتعلم أمور دينهم وأحكام حجهم، وتقوية الألفة والترابط بينهم، والتعاون على البر والتقوى، ودراسة مصالحهم المشتركة، اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وعسكرياً وأمنياً.

وهذا لن يتأتى إلا بالنظرة الجدية في الحكمة من مشروعية الحج، والصدق مع الله في طلب هذه المنافع، والاستزادة من الخير، أما في غياب هذه النظرة، وغياب الصدق مع الله في طلب هذه المنافع، كما هو حال كثير من الحجاج اليوم فلن تدرك هذه المنافع، بل إن مما يؤسف له أن من الحجاج من ليس له من حجه إلا اللغو والفسوق والجدال وأذية الآخرين ومزاحمتهم ونحو ذلك.

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي: ويتقربوا إلى الله ـ عز وجل ـ بنحر وذبح الهدي والأضاحي(٣) ويذكروا اسم الله

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٢١)، ومسلم في الحج (١٣٥٠)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٧)، والترمذي في الحج (٨١١)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٩) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٧٧٣)، ومسلم في الحج (١٣٤٩)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٢)، والترمذي في الحج (٩٣٣)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٨) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٣) الهدي: ما يهدى للحرم من بهيمة الأنعام وغيرها كالطعام والشراب واللباس وغير ذلك، والأضحية ما ينحر ويذبح من بهيمة الأنعام يوم النحر وأيام التشريق، سميت بذلك لأنها تذبح ضحى بعد صلاة العيد.

عليها عند النحر والذبح، بقولهم: بسم الله والله أكبر، كما قال ـ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال ـ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال ـ تعالى ـ في صيد الجوارح: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]، وقال ﷺ: «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا**»(١).

﴿فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ أي: في أيام محددة بوقتها وعددها، وهي يوم النحر، وأيام التشريق الثلاثة بعده، وفي هذا إشارة إلى أنه يجب الاهتمام بحسابها لما فيها من النسك وأعمال الحج وذكر الله.

﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي:على الذي أعطاهم من بهيمة الأنعام، من الإبل والبقر والضأن والمعز، قال ـ تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤]، **فلا تجزئ الأضحية من غيرها.**

وسميت بهيمة لما في نطقها من الإبهام، وسميت بالأنعام لما في مشيها من اللين والنعومة، وقيدها بالأنعام لأن غيرها من البهائم لا يتقرب إلى الله بذبحه كالخيل والبغال والحمير وغيرها.

والمجزئ في الهدي واجباً كان أو تطوعاً وكذا في الأضحية شاة، أو سبع بدنة أو سبع بقرة(٢)، ما عدا إفساد الحج ففيه بدنة كاملة، وتجزئ البدنة عن سبعة، وكذا البقرة. والشاة أفضل من سبع البدنة وسبع البقرة.

ويجزئ في الأضحية عن الواحد وأهل بيته شاة؛ لأن النبي ﷺ ضحى بكبشين

---

(١) أخرجه البخاري في الشركة (٢٤٨٨)، ومسلم في الأضاحي (١٩٦٨)، وأبوداود في الضحايا (٢٨٢١)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٢٩٧)، والترمذي في الأحكام والفوائد (١٤٩١)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٣٧) ـ من حديث رافع بن خديج ـ رضي الله عنه.

(٢) هذا بخلاف العقيقة فلا يجزي فيها سبع بدنة أو سبع بقرة، ولا يجوز الاشتراك فيها.

أقرنين أحدهما عنه وعن أهل بيته، والآخر عمن لم يضح من أمته[(١)].

والسن المجزئ في الهدي والأضحية جذع من الضأن، وهو ما له ستة أشهر، وثني من غيرها، وهو من الإبل ما كان له خمس سنوات، ومن البقر ما له سنتان، ومن المعز ما له سنة؛ لحديث: «**لا تذبحوا إلا مسنة، فإن تعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضأن**»[(٢)].

ويشترط سلامتها من العيوب البيّنة، قال ﷺ ـ فيما رواه البراء بن عازب ـ رضي الله عنه: «**أربع لا تجزئ في الأضاحي: العوراء البيِّن عورها، والمريضة البين مرضها، والعرجاء البين ضلعها، والعجفاء التي لا تُنقي**»[(٣)].

وفي قوله: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ دون الأمر بالنحر والذبح إشارة إلى أن المقصود من ذلك هو ذكر اسم الله ـ عز وجل ـ عليها والتقرب إليه بها.

وفي قوله: ﴿أَيَّامٍ﴾ ما يشمل الليل والنهار فيجوز ذبح الهدي والأضاحي نهاراً وليلاً لكن النهار أولى وأفضل، وقيل: لا يجوز الذبح ليلاً.

كما أن في قوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ما يوجب استشعار أنها من الله، ينبغي شكره عليها بالإخلاص له بالعبادة، ولهذا يشرع أن يقول بعد التسمية والتكبير «**اللهم هذا منك ولك**»[(٤)].

ومن ذكر اسم الله ـ عز وجل ـ ومما يشرع في هذه الأيام صلاة العيد وخطبتاه

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي ـ سن الأضحية (١٩٦٣)، وأبوداود في الضحايا (٢٧٩٧)، والنسائي في الضحايا (٤٣٧٨)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٤١)، من حديث جابر ـ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبوداود في الضحايا (٢٨٠٢)، والنسائي في الضحايا (٤٣٦٩)، والترمذي في الأضاحي (١٤٩٧)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٤٤) ـ من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٤) سيأتي تخريجه.

يوم النحر، والتكبير والتهليل والتحميد، وأداء بقية مناسك الحج من المبيت بالمزدلفة وبمنى والطواف والسعي ورمي الجمار وغير ذلك.

وذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بالأيام المعلومات عشر ذي الحجة التي أقسم الله ـ عز وجل ـ بها في قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر: ٢]، فهي أفضل أيام السنة؛ لمشروعية الأعمال الصالحة كلها فيها وفضلها، واختصاصها بأداء فريضة الحج فيها.

وقال بعض أهل العلم: العشر الأواخر من رمضان أفضل لوجود ليلة القدر فيها ورجح ابن القيم أن أيام عشر ذي الحجة أفضل للحديث الوارد في فضلها، وأن لياليَ عشر رمضان أفضل لوجود ليلة القدر فيها جمعاً بين الأدلة.

فهذه الأيام العشر أيام معلومات مفضلة، والعمل فيها أفضل من غيرها.

فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**ما العمل في أيام أفضل منها في هذه**» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيء**»[(١)].

ومن أفضل الأعمال وآكدها في هذه الأيام الحج والعمرة، والتكبير والتهليل والتحميد، فعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «**ما من أيام أعظم عند الله، ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد**»[(٢)].

وقد ثبت عن ابن عمر وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما: «**أنهما كانا يخرجان إلى السوق فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما**»[(٣)].

كما أن من أفضل الأعمال وآكدها في هذه الأيام العشر صيام يوم عرفة؛ لما رواه أبو قتادة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن**

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٦٩)، وأبوداود في الصوم – صوم العشر (٢٤٣٨)، والترمذي في الصوم – ما جاء في العمل في أيام العشر (٧٥٧)، وابن ماجه في الصوم – صيام العشر (١٧٢٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٧٥، ١٣١، ١٣٢).

(٣) أخرجه البخاري معلقاً ـ في كتاب العيدين ـ فضل العمل في أيام التشريق (٢/ ٤٥٧).

يكفر السنة التي قبله، والسنة التي بعده»(١).

وهو من أفضل أيام العشر، قال ﷺ: **«ما رُئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام، إلا ما أُريَ يوم بدر. قيل: وما رأى يوم بدر يا رسول الله؟ قال: أما إنه قد رأى جبريل يزع الملائكة»**(٢).

كما أن من أفضل هذه الأيام يوم النحر وهو يوم الحج الأكبر ـ فيه تؤدى كثير من مناسك الحج من الرمي والذبح والحلق والطواف.

ولا مانع من حمل الأيام المعلومات على عشر ذي الحجة، وعلى أيام التشريق، فكلها أيام معلومات مفضلة.

قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ كقوله فيما يأتي: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦].

والخطاب في قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾: للمُهدي، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لتأكيد مشروعية الأكل والإطعام من هذه الذبائح، والامتنان عليهم بذلك، أي: فكلوا مما ذبحتم من بهيمة الأنعام من الهدي والأضحية.

وظاهر قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ وجوب الأكل من الهدي والأضحية، وهذا الظاهر غير مراد؛ كقوله ـ تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ [المائدة: ٢]، وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وأكثر أهل العلم على عدم وجوب الأكل من الهدي والأضحية؛ لأن هذا الأمر لرفع ما كان عليه أهل الجاهلية من التحرج من الأكل منها.

(١) أخرجه مسلم في الصيام ـ استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر (١١٦٢)، وأبوداود في الصوم (٢٤٢٥).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» ـ كتاب الحج (٩٦٢) ـ من حديث طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه.

فالأمر بالأكل محمول على الرخصة أو الاستحباب، وهكذا قوله ﷺ بالنسبة للأضحية: «**كلوا وأطعموا وادخروا**»(١)، وفي رواية: «**فكلوا وادخروا وتصدقوا**»(٢).

وقد أهدى النبي ﷺ مائة بدنة، نحر منها ثلاثاً وستين بيده الشريفة، ونحر بقيتها علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه، ثم أمر ﷺ من كل بدنة ببضعة فطبخت، فأكل من لحمها وشرب من مرقها(٣).

ويستحب جعلها أثلاثاً، يأكل ثلثاً، ويهدي ثلثاً، ويتصدق بثلث؛ لقوله ـ ﷺ: «**كلوا وأطعموا وتصدقوا**»(٤).

وإن أكل أكثرها أو تصدق به جاز ذلك.

وينتفع بجلودها وأوبارها وأشعارها، أو يدفع ذلك لمن ينتفع به، ولا يبيع منها شيئاً، ولا يعطي الجزار أجرته منها؛ لما رواه علي ـ رضي الله عنه ـ قال: أمرني النبي ﷺ أن أقوم على بدنه، فقال: «**اقسم جلودها وجلالها، ولا تعط الجزار منها شيئاً**»(٥).

لكن لو أعطى الجزار منها على سبيل الإهداء، أو تصدق عليه منها لفقره جاز ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الأضاحي (٥٥٦٩)، ومسلم في الأضاحي (١٩٧٤) ـ من حديث سلمة بن الأكوع ـ رضي الله عنه. وأخرجه النسائي في الضحايا (٤٤٢٩)، والترمذي في الأضاحي (١٥١٠) ـ من حديث بريدة ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (١٩٧١)، وأبوداود في الأضاحي (٢٨١٢)، والنسائي في الضحايا (٤٤٣١) ـ من حديث عبدالله بن واقد ـ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الحج ـ حجة النبي ﷺ (١٢١٨)، وأبوداود في المناسك ـ صفة حجة النبي ﷺ (١٩٠٥)، والترمذي في الحج ـ حج النبي ﷺ (٨١٢)، وابن ماجه في المناسك ـ حجة رسول الله ﷺ (٣٠٧٤) ـ من حديث جابر ـ رضي الله عنه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه البخاري في الحج (١٧١٦)، ومسلم في الحج (١٣١٧)، وأبوداود في المناسك (١٧٦٩)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٩٩).

﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ وهو محمول على الاستحباب عند أكثر أهل العلم، وقيل بوجوبه.

و﴿ٱلۡبَآئِسَ﴾ الذي عليه آثار البؤس وشدة الحاجة والفقر في حاله وهيئته.

و﴿ٱلۡفَقِيرَ﴾ الذي لا شيء عنده، أو عنده أقل من نصف الكفاية.

وقيل: البائس الذي أصابه البؤس، وهو ضيق المال وهو الفقير، ولهذا لم يعطف أحد الوصفين على الآخر؛ لأنه كالبيان له، وفي وصفه بهما معاً تأكيد شدة حاجته، وتحريك المشاعر للعطف عليه.

﴿ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ ﴾ قرأ أبوعمرو وهشام عن ابن عامر، وورش عن نافع وقنبل عن ابن كثير ورويس عن يعقوب بكسر اللام في (لِيقضوا) وقرأ الباقون بإسكانها.

﴿ ثُمَّ ﴾: عاطفة، واللام للأمر، وهي كذلك في قوله: ﴿ وَلۡيُوفُواْ ﴾، ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ﴾ ولام الأمر تأتي غالباً ساكنة بعد الحروف الثلاثة: ثم، والواو، والفاء، كما في قوله: ﴿فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٩].

والتفث: الوسخ من طول الشعر والأظفار والشعث، أي: ثم ليزيلوا درنهم ووسخهم بإزالة هذه الأشياء، وذلك بإتمام مناسك الحج من الطواف والرمي وغير ذلك، والخروج من الإحرام؛ بالحلق وقص الشارب ونتف الإبط والاستحداد وتقليم الأظافر ولبس الثياب.

قال أمية بن الصلت(١):

حفّوا رؤوسهم(٢) لم ينزعوا تفثاً ... ولم يسلوا لهم قملاً وصئبانا

وقال بعض المفسرين: التفث: مناسك الحج كلها، وهو مروي عن ابن عباس

---

(١) انظر: «ديوانه» ص(٦٢).

(٢) يقال: حف رأس الإنسان، أي: شعث وبعد عهده بالدهن. انظر: «لسان العرب» مادة: «حفف».

وابن عمر ـ رضي الله عنهما، ويقويه قوله: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ ﴾.

﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ الواو في الموضعين عاطفة.

قرأ ابن ذكوان عن ابن عامر بكسر اللام من قوله: ﴿وَلْيُوفُواْ﴾، ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ﴾ وقرأ الباقون بإسكان اللام منهما.

وقرأ أبوبكر عن عاصم بفتح الواو وتشديد الفاء من (وليوَفّوا) والباقون بإسكان الواو وضم الفاء بدون تشديد.

﴿ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾ النذور: جمع نذر، والنذر: ما أَلزم الإنسانُ به نفسه وأوجبه عليها مما لم يكن واجباً عليه في الأصل، أي: وليوفوا نذورهم التي أوجبوها على أنفسهم من الحج والعمرة والهدي وغير ذلك بإتمامها وقضائها، وأيضاً وليتموا ما أحرموا به من حج أو عمرة؛ لأن مجرد الإحرام بهما يوجب إتمامهما، حتى ولو كانا غير واجبين.

﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ الأمر للوجوب، والطواف بالبيت: الدوران عليه.

أي: وليطوفوا بالكعبة المشرفة طواف الحج، الذي هو ركن من أركان الحج، ويسمى طواف الإفاضة، وطواف الزيارة، وبه يحصل التحلل الأول، وبه يحصل قضاء التفث، كما صح أنه ﷺ لما رجع إلى منى بدأ برمي جمرة العقبة فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت(١).

وقيل: المراد بالطواف في الآية ما يشمل طواف الحج، وطواف الوداع.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: «أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (٢١٨)، وأبوداود في المناسك (١٩٠٥)، والنسائي في مناسك الحج (٣٠٥٤)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٤) ـ من حديث جابر ـ رضي الله عنه الطويل في صفة حجته ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٧٥٥)، ومسلم في الحج (١٣٢٨).

وعن أبي جمرة قال: قال لي ابن عباس: «أتقرأ سورة الحج؟ يقول الله: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ فإن آخر المناسك الطواف بالبيت»(١).

وسمي البيت بـ﴿ٱلۡعَتِيقِ﴾؛ لأنه أفضل وأكرم وأقدم بيت وضع للناس، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦﴾ [آل عمران: ٩٦]، ولأنه أعتق من تسلط الجبابرة وظهورهم عليه، فلم يرده أحد بسوء إلا هلك كما حصل لأبرهة الأشرم وغيره.

عن عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما سمي البيت العتيق؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار قط**»(٢).

قال السعدي(٣) في كلامه على قوله ـ تعالى: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾: «وهذا أمر بالطواف خصوصاً بعد الأمر بالمناسك عموماً لفضله وشرفه، ولكونه المقصود وما قبله وسائل إليه، ولعله ـ والله أعلم ـ أيضاً: لفائدة أخرى، وهو أن الطواف مشروع كل وقت، وسواء كان تابعاً لنسك أم مستقلاً بنفسه».

الفوائد والأحكام:

١- تذكير الله ـ عز وجل ـ بما منّ به على إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأتباعه المؤمنين، في إرشاده إلى مكان البيت، وتهيئته له لعبادة الله وحده لا شريك له، وحج بيته والصلاة فيه، وهي نعمة ومنة على نبينا محمد ﷺ وأمته، لهذا ذكره ـ عز وجل ـ بها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ﴾.

٢- عظم منزلة نبي الله إبراهيم الخليل ـ عليه السلام، فهو خليل الرحمن،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٠).

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الحج (٣١٧٠)، والطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٣١)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وهكذا روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٠).

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٢٩٠).

وأبو الأنبياء، وثاني أولي العزم من الرسل بعد محمد ـ عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

٣- عظم مكانة البيت الحرام الذي بناه إبراهيم ـ عليه السلام، وأنه أعظم وأقدم، بل وأول بيت وضع للناس؛ لقوله ـ تعالى ـ في أول الآية: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي: البيت العظيم، ولقوله في آخر الآية: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾؛ ولهذا أضافه الله ـ عز وجل ـ إلى نفسه، فقال ـ تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ تشريفاً وتعظيماً له.

٤- عهد الله ـ عز وجل ـ إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ بتطهير البيت الحرام من الشرك والمعاصي والأنجاس المعنوية والحسية؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

٥- عظم خطر الشرك؛ لأن الله بدأ بالنهي عنه، ونهى عنه إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ إمامَ الحنفاء ـ وإذا كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ إمام الحنفاء منهياً عن الشرك فغيره منهي عن ذلك من باب أولى وأحرى.

٦- أن المقصود من بناء البيت الحرام توجيه الناس إلى عبادة الله وتوحيده والبُعد عن الشرك.

٧- وجوب تطهير البيت الحرام من جميع الأرجاس والأدناس المعنوية والحسية.

٨- التنويه بمكانة المؤمنين الطائفين بالبيت والمصلين فيه والعناية بهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

٩- عظم منزلة الطواف والصلاة في الإسلام؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

١٠- تقديم ذكر الطواف في الآية على أركان الصلاة ـ القيام والركوع والسجود ـ مع أن الصلاة أفضل وأهم العبادات البدنية؛ لأن الطواف مختص بالبيت الحرام، إذ لا يجوز الطواف بغيره.

١١- أن من أعظم أركان الصلاة القيام والركوع والسجود؛ لهذا خصها بالذكر من

بين أركان الصلاة وحالاتها.

١٢- فرض الحج على الناس منذ عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأمر الله ـ عز وجل ـ لإبراهيم ـ عليه السلام ـ بالنداء والإعلام بذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾.

وهكذا دل القرآن الكريم والسنة النبوية على وجوب الحج على هذه الأمة، قال ـ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقال ﷺ: «**إن الله فرض عليكم الحج فحجوا**»(١).

وقال ﷺ: «**بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً**»(٢).

١٣- التنويه بشأن المجيبين داعي الله لحج البيت الحرام، وكثرتهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٧].

١٤- جواز الحج رجالاً وركباناً على الإبل وغيرها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

١٥- في تقديم قوله: ﴿رِجَالًا﴾ إشارة ـ والله أعلم ـ إلى أنه ليس من شرط الحج وجود المركب إذا استطاعه الإنسان ماشياً بلا مشقة شديدة.

وليس فيه دلالة على فضل الحج ماشياً لمن لم يجد المركب، كيف وقد حج ﷺ راكباً، وقد قال ﷺ: «**خذوا عني مناسككم**».

لكن من لم يجد مركباً وحج ماشياً أعظم أجراً؛ لأن الأجر على قدر المشقة،

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، والترمذي في العلم (٢٧٦٩)، وابن ماجه في المقدمة (١، ٢) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٨)، ومسلم في الإيمان (١٦)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠١)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٩) ـ من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما.

وإلا فالأفضل الحج راكباً تأسياً بالنبي ﷺ، وعلى هذا أكثر أهل العلم.

١٦- أن الحج كما يجب على القريب من البيت يجب على البعيد إذا استطاعه، والأجر على قدر المشقة.

١٧- أن من حكمة مشروعية الحج شهود المنافع الدينية والدنيوية والأخروية، وذكر اسم الله بالتلبية وأداء مناسك الحج والتكبير والتهليل والتحميد والتسمية على نحر وذبح الهدي والأضحية؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾.

وينبغي للمسلمين أن يتأملوا هذا المقصد الأسمى من فرضية الحج فيستغلوا هذا الموسم العظيم لما يعود عليهم بالنفع في دينهم ودنياهم وأخراهم.

١٨- مشروعية الهدي في هذه الأيام المعلومات؛ هدي التطوع، أو الهدي الواجب كهدي التمتع والقران وغير ذلك، وهي: يوم النحر وأيام التشريق الثلاثة بعده، ويبدأ ذبح الهدي بعد رمي جمرة العقبة يوم النحر؛ لأن النبي ﷺ لم ينحر هديه ولا هدي أزواجه إلا بعد أن رمى جمرة العقبة، وكذا فعل أصحابه ـ رضي الله عنهم.

كما تشرع في هذه الأيام المعلومات الأضحية، وهي سنة مؤكدة عند أكثر أهل العلم، وقال بعضهم بوجوبها منهم شيخ الإسلام ابن تيمية، قال ـ تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾ [الكوثر: ٢]، أي: وانحر أضحيتك، وقال ـ تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾ [الحج: ٣٤]. وقد أقام النبي ﷺ في المدينة عشر سنوات يضحي(١).

ويقوي القول بعدم وجوبها قوله ﷺ: «**إذا رأيتم هلال ذي الحجة وأراد أحدكم أن يضحي فليمسك عن شعره وأظفاره**»(٢). فقوله: «**وأراد أحدكم أن يضحي**»

---

(١) أخرجه الترمذي في الأضاحي (١٥٠٧) ـ من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (١٩٧٧)، وأبوداود في الضحايا (٢٧٩١)، والنسائي في الضحايا =

يدل على عدم وجوبها.

وهي من أفضل الأعمال، قال ـ تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من إهراق الدم، وإنه ليؤتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض فطيبوا بها نفساً**»(١).

ووقت ذبحها من بعد صلاة العيد وخطبته إلى غروب شمس اليوم الثالث عشر من ذي الحجة، عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن نحر قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله، ليس من النسك في شيء**»(٢).

فإن كان في مكان لا تقام فيه صلاة العيد ذبح بعد ارتفاع الشمس قدر رمح ومضى وقت كاف لصلاة العيد وخطبتيه.

وقيل: أيام الذبح فقط يومان بعد العيد، وقيل بل يوم واحد بعد العيد، والأصح أن أيام التشريق الثلاثة مع يوم العيد كلها وقت للذبح، وفي الحديث: «**وأيام التشريق كلها ذبح**»(٣).

=

(٤٣٦١)، والترمذي في الأضاحي (١٥٢٣)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٤٩) ـ من حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها.

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٦٥)، ومسلم في الأضاحي ـ وقتها (١٩٦١).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٨٢)، من حديث جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه، وكذا رواه ابن حبان في صحيحه (٣٨٤٣)، والبزار في «الكشف» (١٢٠٦)، وصحح البيهقي إرساله، وضعفه الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٦١، ٤/ ٢١٣)، وقال ابن القيم في «زاد المعاد» (٢/ ٣١٨): «منقطع لا يثبت وصله»

=

فهذه الأيام كلها ذبح، وهي سواء في حرمة صيامها، وفي التكبير فيها، ورمي الجمار، وغير ذلك.

١٩- مشروعية ذكر اسم الله على الهدي والأضاحي وغيرها من الذبائح عند ذبحها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾. وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى وجوب التسمية عند الذبح؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ [الحج: ٣٦]، وقوله ـ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨]، وقوله ـ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله ـ تعالى ـ في الجوارح: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]، وقوله ﷺ في حديث رافع بن خديج ـ رضي الله عنه: «**ما أنهر الدم، وذكر اسم الله عليه فكلوه**»[1].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن التسمية عند الذبح سنة.

وذهب الجمهور إلى أنها تجب عند الذكر، وتسقط عند النسيان.

والصحيح القول بوجوب التسمية عند الذبح، وقد ذكرت تحقيق القول في هذا في الكلام على قوله ـ تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣]، في تفسير آيات الأحكام في سورة المائدة.

٢٠- أن الرزق كله من الله ـ عز وجل ـ من بهيمة الأنعام وغيرها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾؛ ولهذا شرع أن يقول عند ذبح الأضحية والهدي بعد التسمية والتكبير: «**اللهم هذا منك ولك**»[2].

=

وذكر أنه ورد من وجهين مختلفين يشد أحدهما الآخر، واختار العمل به.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سيأتي تخريجه.

٢١- أن مكان ذبح الهدي البيت الحرام، كما قال ـ تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقال ﷺ: «**كل عرفة موقف، وكل منى منحر، وكل المزدلفة موقف، وكل فجاج مكة طريق ومنحر**»(١).

ويفرق لحمه على مساكين الحرم.

٢٢- أن الهدي والأضحية لا تجزئ إلا من بهيمة الأنعام، الإبل والبقر والضأن والمعز؛ لقوله ـ تعالى: ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وأفضلها الإبل، ثم البقر، ثم الغنم؛ لأن الإبل أكبر وأنفع للفقراء، وكذا البقر أنفع من الغنم.

٢٣- استحباب الأكل من الهدي والأضحية؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ وبخاصة ما كان منها تطوعاً، أو واجباً بسبب تمتع أو قران، وقيل بوجوب الأكل منها.

وقد ثبت أن النبي ﷺ أهدى مائة ناقة وأمر بكل منها ببضعة فطبخت وأكل منها وحسا من مرقها(٢)، وفيها دم قران لأنه ﷺ كان قارناً.

أما ما كان منها واجباً بسبب ترك واجب أو ارتكاب محظور، أو فوات الحج أو إفساده أو إفساد العمرة، أو الإحصار فلا يجوز لصاحبه الأكل منه.

وقيل: يجوز له الأكل منه ما لم يكن جزاء صيد أو فدية أذى. وقيل: يجوز الأكل من ذلك كله.

والصحيح القول الأول؛ لأنه دم جبر.

بخلاف هدي التمتع والقران فأكثر أهل العلم على جواز الأكل منه، بل على استحبابه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾، ولأنه دم شكر لله حيث مكّنه من الجمع بين نسكي الحج والعمرة في سفر واحد.

وقيل: لا يجوز الأكل منه واعتبروه دم جبر.

---

(١) أخرجه أبوداود في المناسك (١٩٣٧)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٤٨)، وأحمد (٣/ ٣٢٦) ـ من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ و أخرجه أحمد أيضاً (٤/ ٨٢) من حديث جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

والصحيح القول الأول، ويشهد له ظاهر الآية، فإن فيها ـ مع الأمر بالأكل ـ ترتيب قضاء التفث على الذبح والطواف، ولا دم تترتب عليه هذه الأفعال إلا دم المتعة والقران، فإن سائر الدماء يجوز ذبحها قبل هذه الأفعال وبعدها، وقد ذبح ﷺ عن أزواجه بقراً وكن قارنات ودخل عليهن يوم النحر بلحم من ذلك[(١)].

٢٤- استحباب إطعام البائس الفقير من لحوم الهدي والأضاحي، وعدم جواز بيع شيء منها؛ أو إعطاء الجزار أجرته منها، وقيل بوجوب الإطعام منها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨].

٢٥- وجوب إكمال مناسك الحج وإتمامها كما شرع الله والتحلل من الإحرام وإزالة التفث بالحلق وقص الشارب ونتف الإبط وتقليم الأظافر ونحو ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾.

٢٦- وجوب الوفاء بالنذر من حج وغيره.

٢٧- وجوب طواف الإفاضة، وهو ركن من أركان الحج لا يصح الحج بدونه، ووجوب طواف الوداع، لقوله ـ تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ وأهمية الطواف بالبيت وفضله.

٢٨- أن البيت الحرام أفضل وأقدم وأول بيت وضع للناس، لقوله ـ تعالى: ﴿بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

٢٩- فضل هذه الأيام المعلومات، واستحباب الإكثار فيها من الأعمال الصالحة، من الحج والتكبير والتهليل والتحميد وصيام يوم عرفة وصلاة العيد وخطبتيه وذبح الهدي والأضحية، وغير ذلك من الأعمال الصالحة، وأعمال البر والخير، وأهم ذلك وأعظمه أداء الواجبات، والبعد عن المنهيات.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٧٢٠)، ومسلم في الحج (١٢١١) ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

قال الله ـ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحج: ٣٠-٣٣].

قوله ـ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الإشارة لما سبق ذكره من مناسك الحج، من شهود المنافع وذكر اسم الله على الهدي والأضاحي، والأكل منها والإطعام، وقضاء التفث والوفاء بالنذور، والطواف بالبيت العتيق، وأشار إليها بإشارة البعيد تعظيماً لها، والقصد من الإشارة ـ مع تعظيم المشار إليه ـ التنبيه على الاهتمام بما سيذكر بعده، كما في قوله ـ تعالى: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [ص: ٥٥].

قوله: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ الواو: عاطفة، و«مَنْ» شرطية.

﴿ يُعَظِّمْ ﴾ فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ واقترن الجواب بالفاء لأنه جملة اسمية.

﴿ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ﴿ حُرُمَٰتِ ﴾ جمع حُرُمَة.

و﴿ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ كل ما أوجب الله احترامه وحرم استحلاله، كالحرم والإحرام ومحظورات الإحرام، والمناسك كلها من الهدايا وغيرها، وكذا ما أمر الله به من العبادات، وتعظيمها بإجلالها بالقلب ومحبتها والقيام بها كما شرعها الله، وكذا كل ما نهى الله عنه، وتعظيمها باجتنابها والبعد عنها، عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا إن لكل**

ملك حمى، ألا إن حمى الله محارمه»[١].

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: فتعظيمه حرمات الله ـ تعالى؛ فعلاً لما أمر الله به وانتهاءً عما نهى الله عنه ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

ونكر ﴿خَيْرٌ﴾ وأطلقه ليشمل كل أنواع الخير، أي: فهو خير له مطلقاً عند ربه في الدنيا والآخرة، يجازيه عليه بالخير الكثير، والثواب الجزيل، سعادة في الدنيا، ونعيماً في الآخرة، لا يقدر قدره إلا العلي الكبير.

وفي إضافة ضمير هذا المعظِّم لحرمات الله إلى ﴿رَبِّهِۦ﴾ خالقه ومالكه ومدبره ومربيه الربوبية العامة والخاصة تشريف وتكريم له، وإشارة إلى عظمة هذا الخير، وتكفله ـ عز وجل ـ به.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي: وأحللنا لكم جميع الأنعام، وبُني الفعل «أحلت» لما لم يسمّ فاعله؛ لأن المحلل معلوم وهو الله ـ عز وجل ـ وحده.

أي: وأحللنا لكم أكل جميع الأنعام إذا ذكيتموها على اسم الله ـ عز وجل، والمراد بالأنعام ما يشمل بهيمة الأنعام وهي الأزواج الثمانية الإبل والبقر والضأن والمعز وغيرها.

﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، والاستثناء متصل، و﴿مَا﴾ موصولة في محل نصب على الاستثناء.

﴿يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يُقص ويُقرأ عليكم، والمعنى: إلا الذي يقرأ ويقص عليكم تحريمه في كتاب الله ـ عز وجل، وسنة رسوله ﷺ في المستقبل، وما سبق تلاوة تحريمه عليكم فيهما، وعبر بالمضارع في قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ليشمل ما تلى عليهم تحريمه قبل نزول هذه الآية وما يتلى عليهم بعد ذلك في

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وأبوداود في البيوع (٣٣٢٩)، والنسائي في البيوع (٤٤٥٣)، والترمذي في البيوع (١٢٠٥).

الكتاب والسنة، وأيضاً عبر بالمضارع للتنبيه على أن ذلك المتلو ينبغي استحضاره في الذهن، والتنبه له، وذلك يشمل: الميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه، والصيد في الحرم وحال الإحرام، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير والفواسق، وغير ذلك مما حرمه الله.

قال ـ تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ١]، وقال ـ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣]، وقال ـ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقال ﷺ: «**يحرم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير**»[(١)].

قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ هذا من تعظيم حرمات الله عز وجل، و﴿ٱلرِّجْسَ﴾ النجس الخبيث القذر حساً ومعنى وحكماً، والمراد به هنا: النجس معنى وحكماً من الأعمال والأقوال الباطلة والمحرمة، وسماها رجساً تقبيحاً لها وتنفيراً منها.

﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾: ﴿مِنَ﴾ لبيان الجنس، أي: اجتنبوا الرجس الذي هو عبادة الأوثان.

و﴿ٱلْأَوْثَٰنِ﴾: جمع وثن، وهي الأصنام والأنداد والمعبودات من دون الله، فهي رجس وعبادتها رجس، وهي سبب الرجز والعذاب.

أي: ابتعدوا كل البعد عن عبادة الأوثان وتعظيمها وعما يقرب إليها، والأمر بالاجتناب أبلغ في التحريم والنهي من الأمر بالترك.

(١) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٣٤)، وأبوداود في الأطعمة (٣٨٠٣)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٣٤٨)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٣٤) ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

وقال السعدي[١]: «والظاهر أن ﴿مِنَ﴾ هنا ليست لبيان الجنس كما قاله أكثر المفسرين، وإنما هي للتبعيض، وأن الرجس عام في جميع المنهيات المحرمات، فيكون منهيًّا عنها عموماً، وعن الأوثان التي هي بعضها خصوصاً».

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وابتعدوا كل البعد عن قول الكذب والباطل وشهادة الزور والشرك، وهو رأس الزور وأعظمه والزور مأخوذ من الإزورار، وهو الانحراف عن الحق، والميل والعدول عن الصواب، وليس هناك أشد انحرافاً وميلاً وبعداً عن الحق والصواب ممن زعم أن لله شريكاً، قال ـ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

وفي قرن الأمر باجتناب قول الزور بالأمر باجتناب الأوثان دليل على عظم شهادة الزور.

عن أيمن بن خريم ـ رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ قام خطيباً فقال: «**يا أيها الناس، عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾»[٢].

وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ تقال: «**تُعْدَلُ شهادة الزور بالشرك**، وقرأ هذه الآية...»[٣].

وعن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**»؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله وعقوق الوالدين** ـ وكان متكئاً فجلس، فقال: **ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور**. فما زال يكررها حتى قلنا ليته

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٢٩٢).

(٢) أخرجه الترمذي في الشهادات (٢٢٩٩)، وأحمد (٤/ ١٧٨، ٢٣٣، ٣٢٢)، وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٣٦).

سكت»(١).

ولهذا ذكر الله ـ عز وجل ـ أن من صفات عباد الرحمن عدم شهادة الزور. قال ـ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان: ٧٢].

قوله ـ تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ حال، أي: فاجتنبوا الشرك وقول الزور حال كونكم حنفاء لله، أي: مخلصين له العبادة.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ قال: «حجاجاً لله غير مشركين به، وذلك أن الجاهلية كانوا يحجون مشركين، فلما أظهر الله الإسلام قال الله للمسلمين: **«حجوا الآن غير مشركين بالله»**(٢).

وعن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان الناس يحجون وهم مشركون، فكانوا يسمونهم: حنفاء الحجاج، فنزلت: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ يقول: حجاجاً غير مشركين به»(٢).

و﴿حُنَفَاءَ﴾: جمع حنيف، وهو المائل عن الشرك إلى التوحيد، وعن الباطل إلى الحق، ولهذا بيّنه بقوله: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ أي: حال كونكم غير مشركين به، أي: غير مشركين معه غيره، كما قال ـ تعالى ـ عن إبراهيم ـ عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال ـ تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وكما قال إبراهيم ـ عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩].

والمعنى: مائلين إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ مستقيمين عليه غير مشركين به شيئاً.

---

(١) أخرجه البخاري ـ في الشهادات (٢٦٥٤)، ومسلم في الإيمان ـ بيان الكبائر وأكبرها (٨٧)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠١).

(٢) أخرجهما ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩١).

قوله: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

بعدما أمر باجتناب الشرك والميل عنه إلى توحيد الله ضرب مثلاً في فظاعة حال المشرك وشدة هلاكه وضلاله وبعده عن ربه، وعن الحق والهدى، كما قال ـ تعالى ـ في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ [الآية: ٧١].

قوله: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الواو عاطفة، و«من» شرطية، ﴿يُشْرِكْ ﴾ فعل الشرط، ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة، أي: فكأنما سقط من السماء.

﴿ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر بفتح الخاء وتشديد الطاء، (فتخَطَّفُه) وقرأ الباقون بإسكان الخاء وتخفيف الطاء ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ ﴾ أي: فتخطفه الطير في الهواء، وتأخذه بسرعة، وتمزقه قطعاً في حواصلها.

﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾ قرأ أبوجعفر «الرياح» وقرأ الباقون «الريح»، أي: أو تعصف به الريح وتلقيه وترمي به.

﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: في مكان بعيد كل البعد، مُهلك لمن هوى وسقط فيه.

والمعنى: أن من أشرك بالله فقد أهلك نفسه غاية الإهلاك، حيث استبدل بالتوحيد وأعلى عليين الشرك وأسفل سافلين، وفي هذا أعظم التخويف، وأبلغ التنفير عن الشرك، فشتان بين من وحد الله ـ عز وجل ـ فهو يترقى في مصاعد السمو إلى أعلى عليين، وبين من أشرك بالله فهبط بنفسه إلى أسفل سافلين، وشتان بين من عبد الله وحده واتبع سبيله، وبين من تفرقت به السبل واحتوشته الشياطين من كل جانب فصار بينهم شذر مذر، كما قال ـ تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ

مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر: ٢٩].

قوله: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: ذلك الذي أمرتكم به من تعظيم حرمات الله واجتناب الشرك وقول الزور وغير ذلك، وتعظيم شعائر الله بفعل المأمورات وترك المحظورات، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له.

﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، و«مَنْ» شرطية، و﴿يُعَظِّمْ﴾ فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾، والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية.

و﴿شَعَٰٓئِرَ﴾ جمع شعيرة، وهي المعالم الظاهرة للدين مما أمر الله بتعظيمه وإجلاله واحترامه من الهدي والأضحية من البدن وغيرها، ومن الصفا والمروة، وغير ذلك من مشاعر الحج ومناسكه مما أمر الله به، فكل ذلك من شعائر الله، قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

ومنه سمي إشعار البدن، أي: إعلامها؛ ليعلم أنها هدي، قال ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [المائدة: ٢].

وتعظيم شعائر الله عموماً بإجلالها واحترامها ومحبتها والقيام بها كما شرعها الله ـ عز وجل ـ وكما أمر.

وخص بعض أهل العلم ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ هنا بالهدي، ولا شك أنه من أعظم الشعائر، ومن أول ما يدخل في عموم الآية؛ لقوله ـ تعالى ـ بعد هذا: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾.

وتعظيم الهدي والأضاحي باستحسانها واستسمانها وتمام صفاتها وأوصافها، وعدم التعرض لها أو تحميلها ما يضر بها أو التقصير في طعامها وشرابها وبذل الثمن الغالي فيها، وعدم المماكسة في شرائها، وأن يتولى نحرها أو ذبحها بنفسه، أو يحضرها، ونحو ذلك.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «تعظيمها: استحسانها واستسمانها»[١].

وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ـ رضي الله عنه ـ قال: «كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يسمنون»[٢].

وعن أنس ـ رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين»[٣].

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن فحيل يأكل في سواد، وينظر في سواد، ويمشي في سواد[٤]»[٥].

وعن أبي رافع ـ رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوئين خصيين»[٦].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**دم عفراء**[٧] **أحب إلي من دم سوداوين**»[٨].

﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ الضمير ﴿فَإِنَّهَا﴾ يعود إلى ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ وتعظيمها،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٤٠).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً في الأضاحي ـ أضحية النبي ﷺ بكبشين أقرنين ويذكر سمينين ـ قال: «وقال يحيى بن سعيد: سمعت أبا أمامة بن سهل ـ وذكره». انظر: «فتح الباري» (١٠/ ٩).

(٣) أخرجه البخاري في الحج ـ باب التحميد والتسبيح والتكبير (١٧١٢)، ومسلم في الأضاحي ـ استحباب التضحية (١٩٦٦)، وأبوداود في الأضاحي (٢٧٩٣)، والنسائي في الضحايا (٤٣٨٧)، والترمذي في الأضاحي (١٤٩٤)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٢٠).

(٤) أقرن: ذي قرنين، فحيل: كامل الخلقة، لم تقطع أنثياه، يأكل في سواد: أي في بطنه سواد، ويمشي في سواد، في رجليه سواد، وينظر في سواد: أي: مكحول في عينيه سواد.

(٥) أخرجه أبوداود في الأضاحي ـ ما يستحب من الضحايا (٢٧٩٦)، والنسائي في الضحايا (٤٣٩٠)، والترمذي في الأضاحي ـ ما يستحب من الأضاحي (١٤٩٦)، وابن ماجه في الأضاحي ـ ما يستحب في الأضاحي (٣١٢٨).

(٦) أخرجه أحمد (٦/ ٨، ٣٩١) ـ ومعنى «موجوءين» أي: خصيين، أي: قد قطعت خصيتاهما أورضتا.

(٧) العفراء: البيضاء بياضاً ليس بناصع، فالبيضاء أفضل من غيرها؛ لأن دمها أحب إليه ﷺ من دم سوداوين.

(٨) أخرجه أحمد (٢/ ٤١٧).

أي: فإن تعظيم شعائر الله ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي: برهان ودليل على تقوى القلوب لله ـ عز وجل، وإجلالها له، وخشيتها منه ـ عز وجل، التي تحمل على فعل أوامره وترك نواهيه.

وخص القلوب بالتقوى؛ لأنها موضع التقوى والصلاح كما قال ﷺ: «**التقوى هٰهنا** ـ ويشير إلى صدره»[(١)].

وقال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[(٢)].

وفي إضافة الشعائر إليه ـ عز وجل، والإخبار بأن تعظيمها من تقوى القلوب حث وترغيب في تعظيم شعائر الله واحترامها، والقيام بها كما شرعها الله ـ عز وجل.

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وأن لا نضحي بمقابلة، ولا مدابرة، ولا شرقاء، ولا خرقاء».

وفي رواية عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: «المقابلة: ما قطع طرف أذنها، والمدابرة: ما قطع من جانب الأذن، والشرقاء: المشقوقة، والخرقاء: المثقوبة»[(٣)].

وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يضحى بأعضب القرن والأذن[(٤)]»[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة و الآداب (٢٥٦٤) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وأبوداود في البيوع (٣٣٢٩)، والنسائي في البيوع (٤٤٥٣)، والترمذي في البيوع (١٢٠٥) ـ من حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبوداود في الأضاحي ـ ما يكره من الضحايا (٢٨٠٤)، والنسائي في الضحايا (٧٢، ٤٣)، والترمذي في الأضاحي ـ ما يكره من الأضاحي (١٤٩٨)، وابن ماجه في الأضاحي ـ ما يكره من الأضاحي (٣١٤٢)، وأحمد (١/ ٨٠، ١٠٨). وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٤) أعضب القرن: مكسور القرن، وأعضب الأذن: مقطوع الأذن.

(٥) أخرجه أبوداود في الأضاحي (٢٨٠٥)، والنسائي في الضحايا (٤٣٧٧)، والترمذي في الأضاحي (١٥٠٤)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٤٥)، وأحمد (١/ ٨٣، ١٠٩)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وعن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء البين عورها، والمريضة البين مرضها، والعرجاء البين ضلعها، والعجفاء**[(١)] **التي لا تنقي**»[(٢)].

قوله: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي: لكم في الهدي من البدن وغيرها منافع دنيوية من ركوبها وشرب لبنها، والانتفاع بأصوافها وأوبارها وأشعارها، وهذه المنافع الدنيوية عون على المنافع الدينية والأخروية.

﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي: إلى وقت محدد، وهو وقت نحرها وذبحها، وهو يوم النحر وأيام التشريق، الأيام المعدودات.

والمعنى: أنهم ينتفعون بالهدي من البدن وغيرها عند الحاجة قبل نحرها وذبحها في هذه الأيام.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً كان يسوق بدنة، قال: «اركبها» قال: إنها بدنة. قال: «اركبها ويحك» في الثانية أو الثالثة»[(٣)].

وعن أبي الزبير قال: سمعت جابر بن عبدالله سئل عن ركوب الهدي فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها حتى تجد ظهراً**»[(٤)].

وذهب طائفة من السلف منهم ابن عباس ـ رضي الله عنهما، وجمع من التابعين إلى أن معنى قوله: ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي: ما لم تُسم وتُعيَّن بدناً أو هدياً، فإذا عينت فلا يجوز الانتفاع منها بشيء، لا لبنها ولا صوفها وشعرها وأوبارها ولا تركب.

---

(١) أي: الهزيلة.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الحج ـ ركوب البدن (١٦٨٩)، ومسلم في الحج ـ ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها (١٣٢٢)، وأبوداود في المناسك (١٦٧٠)، والنسائي في مناسك الحج (٢٧٩٩)، وابن ماجه في المناسك (٣١٠٣).

(٤) أخرجه مسلم في الحج ـ ركوب البدن (١٣٢٤)، وأبوداود في المناسك (١٧٦١)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٠٢).

والأظهر القول الأول، وهو جواز الانتفاع منها عند الحاجة، شريطة ألا يضُرّ ذلك بها.

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ أي: ثم محل الهدي من البدن وغيرها وانتهاؤها ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي إلى الكعبة والحرم. والمَحِل مكان الحلول، أي: ثم محل الهدي، والبدن، أي: المكان الذي تنحر وتذبح فيه الحرم، كما قال ـ تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقال ـ تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥]، أي: أن يبلغ الحرم.

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**نحرت ههنا ومنى كلها منحر، فانحروا في رحالكم**»(١).

وأيضاً: محِل النسك والشعائر كلها الطواف بالبيت يوم النحر، وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: «من طاف بالبيت فقد حل، قال الله ـ تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾»(٢).

كما أن مناسك الحج وشعائره؛ من الوقوف بعرفة والمبيت بمنى ومزدلفة ورمي الجمار والطواف والسعي كلها تنتهي بانتهاء وقتها وبالطواف بالبيت العتيق.

الفوائد والأحكام:

١- الحث على تعظيم حرمات الله من مناسك الحج وغيرها، والقيام بما أوجبه الله والبُعد عما حرَّمه من محظورات الحج وغيرها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

٢- عظم ما أعدَّه الله ـ عز وجل ـ لمن يعظم حرماته من الخير الكثير من عنده ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٨) ـ من حديث جابر ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٩٦) ـ من حديث عطاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

٣- إثبات الربوبية الخاصة لله - عز وجل - التي يربي بها أولياءه ويسددهم ويوفقهم ويثيبهم؛ لقوله - تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

٤- امتنان الله - عز وجل - على العباد بتحليل جميع الأنعام، إلا ما دل الدليل على تحريمه، فالحلال منها بفضل الله غير محصور، والمحرم منها محدود محصور معدود؛ لقوله - تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

٥- أن مما حرم الله - عز وجل - ما ذكر في قوله - تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [المائدة: ٣]. كما حرم ﷺ كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، والفواسق ونحو ذلك، مما تليَ تحريمه في الكتاب والسنة.

٦- وجوب اجتناب الرجس والشرك وعبادة الأوثان؛ لقوله - تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾.

٧- وجوب اجتناب قول الزور وشهادة الزور، وأن ارتكاب ذلك من أكبر الكبائر حيث قرن بالشرك؛ لقوله - تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾.

٨- وجوب توحيد الله - عز وجل - وإخلاص العبادة له بلا شريك؛ لقوله - تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾.

٩- عظم خطر الشرك وسوء عاقبة ومآل صاحبه؛ لقوله - تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

١٠- بلوغ القرآن الغاية في التنفير عما يريد التنفير منه؛ لقوله - تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١]، فمثَّل المشرك بالله بأبشع صورة وأقبح مثال.

١١- مشروعية إشعار البدن والهدي ليعلم أنها هدي.

١٢- الترغيب في تعظيم شعائر الله وأعلام دينه، من مناسك الحج وغيرها، بالقيام بها وإتمامها، وتعظيم البدن والهدي باستحسانها واستسمانها، وعدم التعرض

لها ومنعها أو إلحاق الضرر بها، ونحو ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

١٣- أن تعظيم شعائر الله من أعظم الدلائل على تعظيم القلوب لله ـ عز وجل ـ وتقواه.

١٤- أن مدار صلاح الأعمال وفسادها على القلوب.

١٥- جواز الانتفاع بالبدن والهدي بركوبها وشرب لبنها ونحو ذلك عند الحاجة من غير إضرار بها إلى وقت نحرها وذبحها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾.

١٦- أن محل ذبح البدن والهدي هو الحرم كله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾.

١٧- أن مناسك الحج وأعماله ومشاعره فيها المنافع والأجور أيام الحج، فإذا انتهت أيامه انتهت تلك المنافع فالوقوف بعرفة والمبيت بالمزدلفة ومنى ورمي الجمار كل هذا ينتهي بانتهاء أيام الحج وأعماله التي تنتهي بالطواف بالبيت العتيق للإفاضة ثم الوداع؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

صلة الآيتين بما قبلهما:

ذكر الله ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة أنه شرع الحج والمناسك والشعائر ونحر البدن وذبح الهدي لهذه الأمة، ثم ذكر أنه ـ عز وجل ـ جعل لكل أمة منسكاً، فشرع لكل أمة التعبد لله ـ عز وجل ـ والتنسك له بذبح الهدي والقرابين، وإراقة الدماء باسمه ـ عز وجل.

قوله ـ تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ أي: ولكل أمة من الأمم، والأمة: الجماعة، والمراد لكل أتباع دين من الأديان السماوية.

﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ أي: ﴿جَعَلْنَا﴾ لهم شرعاً ﴿مَنسَكًا ﴾.

قرأ حمزة والكسائي وخلف: (منسِكاً) هنا وفي الموضع الذي بعده بكسر السين على معنى الاسم كالمسجد والمطلع، أي: موضعاً للنسك والعبادة، ومكاناً لذبح الهدي، وهو الحرم.

وقرأ الباقون بفتح السين على المصدر (منسَكاً) أي: نُسكاً يتعبدون به من الحج والعمرة وغير ذلك، ونسكاً يتقربون بذبحه إلى الله ـ عز وجل ـ من الهدي والأضحية.

﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يذكروا اسم الله على الذي أعطاهم من بهيمة الأنعام؛ الإبل والبقر والغنم عند نحرها وذبحها، فيقولوا: «بسم الله والله أكبر»؛ كما في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «أُتي رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسمَّى وكبَّر، ووضع رجله على صفاحهما»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الأضاحي ـ من ذبح الأضاحي بيده (٥٥٦٥)، ومسلم في الأضاحي ـ استحباب =

وعن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: أو قالوا: يا رسول الله، ما هذه الأضاحي؟ قال: «**سنة أبيكم إبراهيم**» قالوا: وما لنا منها؟ قال: «**بكل شعرة حسنة**» قالوا: فالصوف؟ قال: «**بكل شعرة من الصوف حسنة**»(١).

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: «ذبح النبي ﷺ يوم النحر كبشين أقرنين أملحين موجوءين، فلما وجههما قال: «**إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك وعن محمد وأمته، ثم سمى الله، وكبَّر وذبح**»(٢).

وفي رواية عنه: «أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر، فلما فرغ من خطبته وصلاته دعا بكبش فذبحه هو بنفسه، وقال: «**بسم الله والله أكبر، هذا عني وعمن لم يضح من أمتي**»(٣).

قوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: فمعبودكم معبود واحد أنتم وجميع الأمم، وإن اختلفت الشرائع ونسخ بعضها بعضاً، فالأنبياء كلهم يدعون إلى عبادة الله ـ عز وجل ـ لا شريك له، كما قال ـ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

=

الضحية وذبحها مباشرة (١٩٦٦)، وأبوداود في الأضاحي (٢٧٩٤)، والنسائي في الضحايا (٤٣٨٧)، والترمذي في الأضاحي (١٤٩٤)، وابن ماجه في الأضاحي (٣٢١٠).

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٨)، وابن ماجه ـ في الأضاحي ـ ثواب الأضحية (٣١٢٧).

(٢) أخرجه أبوداود في الأضاحي (٢٧٩٥)، وابن ماجه في الأضاحي ـ أضاحي رسول الله ﷺ (٣١٢١)، والدارمي في الأضاحي (١٩٤٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٣).

(٣) أخرجه أبوداود في الأضاحي (٢٨١٠)، والترمذي في الأضاحي (١٥٢١)، وأحمد (٣/ ٣٥٦، ٣٦٢)، وقال الترمذي: «حديث غريب»..

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الأنبياء أولاد علات، أو إخوة من علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»(١).

﴿فَلَهُۥٓ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، و«له» متعلق بـ﴿أَسۡلِمُواْ﴾ قدم عليه لإفادة الحصر، أي: فله وحده دون غيره. ﴿أَسۡلِمُواْ﴾ أي: استسلموا بالتوحيد والإخلاص والانقياد والطاعة.

فإله جميع الخلق إله واحد وهو الله ـ عز وجل، ودينهم واحد وهو الإسلام.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ التبشير والبشارة: الإخبار بما يسر القلوب ويبهج النفوس مأخوذ من البشرة؛ لأن الخبر السار إذا ورد على القلب سر وفرح وظهرت آثار ذلك على الوجه والبشرة فيستنير الوجه وتنبسط البشرة.

عن كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»(٢).

والإخبات: سكون الجوارح على وجه الخشوع والخضوع والتواضع لله ـ عز وجل، والخَبْت في الأصل: المكان المنخفض المطمئن من الأرض.

فالمخبتين: الخاشعين لله ـ عز وجل ـ الخاضعين المتواضعين له، المطمئنين المخلصين لله، الوجلين عند ذكره، كما وصفهم الله ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾ فهذا تفسير لما قبله، ولم يذكر المبشَّر به وأطلقه لتعظيمه وتعميمه، وليذهب فيه الفكر كل مذهب.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ عندهم، أو ذكروه بأنفسهم ﴿وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ الوجل: الخوف الشديد المقرون بهيبة ومحبة، أي: خافت قلوبهم هيبة منه وتعظيماً ومحبة

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٤٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٦٥)، وأبوداود في السنة (٣٦٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، وأبوداود في الطلاق (٢٢٠٢)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٠٢).

له وإجلالاً، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢]، وقال ـ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ الصَّابِرِينَ: جمع صابر، والصبر لغة الحبس والمنع، وشرعاً: حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي والجوارح عما حرم الله. وهو أنواع الثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

والمعنى: والصابرين على الذي يصيبهم في ذات الله عند القيام بأمره، والصبر عن نهيه، وعلى ما يصيبهم من المصائب في أنفسهم وأهليهم وأموالهم؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

والصبر من أعظم صفات المؤمنين وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وقد قال ﷺ: «**وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر**»[(١)].

﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قرأ أبوعمرو في رواية: (وَالمُقِيمِي الصَّلاةَ) بنصب الصلاة، وعليه يكون حذف النون من (وَالمُقِيمِي) للتخفيف.

وقرأ بقية القراء بجر الصلاة على الإضافة، وعليه يكون حذف النون من ﴿وَٱلْمُقِيمِى﴾ بسبب الإضافة.

أي: والذين يقيمون الصلاة إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها،

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٣)، وأبوداود في الزكاة (١٦٤٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٤) ـ من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه. وانظر في تفصيل الكلام على الصبر وبيان فضله: «منحة الكريم الوهاب في تفسير آيات الأحكام في سورة الأحزاب» ص(٨٤-٨٧).

ولهذا جاء التعبير بالإقامة هنا وفي أكثر المواضع في القرآن الكريم والسنة النبوية دون أن يقول: (يصلون) تنبيهاً على أن المهم، أن تكون الصلاة تامة كاملة مستقيمة.

وهي هنا تشمل الفرائض وغيرها من النوافل.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ «من» تبعيضية، و«ما» موصولة أو مصدرية.

أي: ومن بعض الذي رزقناهم، أو من بعض رزقنا ينفقون. فالمطلوب إنفاق البعض مما رزقناهم.

ويحتمل أن تكون «من» بيانية، أي: ومن الذي رزقناهم، أو من رزقنا ينفقون، بعضه أو كله، وعلى هذا فيجوز أن ينفق الإنسان جميع ماله ـ كما فعل أبوبكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حسب قوة إيمانه واعتماده على الله وثقته بما عند الله ـ ما لم يحتج لغيره فلا يجوز.

وقوله: ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي: أعطيناهم من الأموال وغير ذلك، وفيه إشارة إلى أن المال مال الله، كما قال ـ تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

﴿يُنفِقُونَ﴾ أي: يخرجون المال ويصرفونه في مصارفه الشرعية من النفقات الواجبة من الزكاة، والنفقة على الأهل والأولاد وغير ذلك، ومن النفقات المستحبة والصدقات في وجوه البر والخير، شكراً لله ـ عز وجل ـ واعترافاً وإقراراً بفضله، فجمعوا بين الخوف من الله وإقامة الصلاة، وهذا إحسان في عبادة الله ـ عز وجل، وبين الإنفاق مما رزقهم الله من الأموال، على أولادهم وأهليهم، وعلى الفقراء والمساكين، وفي وجوه البر والخير، وهذا إحسان إلى عباد الله، فجمعوا بين الإحسانين وهذا غاية الإحسان، والله يحب المحسنين.

الفوائد والأحكام:

١ - امتنان الله ـ عز وجل، وفضله على العباد بجعله لكل أمة منسكاً يتقربون إلى الله ـ عز وجل ـ بنحره وذبحه وذكر اسمه ـ عز وجل ـ عليه، وجعله لهم نسكاً وعبادات يتعبدون لله ـ عز وجل ـ بها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾.

٢- وجوب ذكر اسم الله ـ عز وجل ـ عند الذبح والنحر؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾.

٣- أن الأضحية والهدي لا تجزئ إلا من بهيمة الأنعام، الأزواج الثمانية: الإبل والبقر والضأن والمعز.

٤- أن إله الخلق ومعبودهم واحد، وهو الله ـ عز وجل، لا إله غيره ولا رب سواه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

٥- وجوب الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾.

٦- البشارة للمخبتين الخائفين الوجلين عند ذكر الله، الخاضعين له، المتذللين لعظمته؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾.

٧- في إطلاق بشارة المخبتين إشارة لعظمة ما أعد لهم، أي: وبشر المخبتين بما لا يُعلم كنهه وكيفه وكمه من ألوان النعيم، وفي هذا ما فيه من الترغيب في الخشوع والخضوع لله ـ عز وجل.

٨- مدح المخبتين الخاشعين بذكر صفاتهم العظيمة، وهي وجل قلوبهم عند ذكر الله، والصبر على ما أصابهم، وإقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥)﴾.

٩- الترغيب والحث على الخوف من الله ـ عز وجل، وذكره، والصبر على أقداره، وإقام الصلاة والإنفاق من رزق الله، والتنبيه على فضل هذه الأعمال.

١٠- أن الرزق كله من الله ـ عز وجل، من بهيمة الأنعام وغيرها من الأموال، وغير ذلك.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحج: ٣٦، ٣٧].

حض ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة على تعظيم الشعائر والنسك، وذكر اسم الله ـ عز وجل ـ عليها، وامتن على العباد بأنه جعل لكل أمة منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، ثم أتبع ذلك بالتنويه بشأن البدن وتعظيمها، من بين الشعائر، ومن بين بهيمة الأنعام هدياً كانت أو أضحية.

قوله ـ تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ البدن: جمع بَدَنة، وهي الإبل، ذكراً كانت أو أنثى، وسميت بُدناً لبدانتها وضخامتها وكبرها، وقد اشتهر إطلاقها في الشرع على ما يهدى منها للحرم.

فالبدن في الأصل هي الإبل خاصة، وهي المرادة في الآية بدليل قوله: ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ أي: سقطت وهذا وصف خاص بالإبل فإنها تنحر قائمة.

ولكن اسم البدن صار يطلق على البقر عند بعض أهل العلم؛ لأن الشرع جعلهما سواء في الإجزاء كما في حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ مهلين بالحج فأمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بدنة»[(١)].

وفي رواية: «كنا ننحر البدنة عن سبعة. فقيل: والبقرة؟ قال: وهل هي إلا من البدن»[(٢)].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لا نعلم البدن إلا من الإبل والبقر».

---

(١) أخرجه مسلم في الحج ـ الاشتراك في الهدي (١٣١٨)، وأبوداود في الأضاحي (٢٨٠٧)، والنسائي في الضحايا (٤٣٩٣)، والترمذي في الحج (٩٠٤)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٣٢).
(٢) أخرجها مسلم في الموضع السابق.

ومن أهل العلم من قال: لا تطلق البدنة على البقرة لما ورد في بعض روايات حديث جابر المتقدم: «نحرنا مع رسول الله ﷺ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة». قالوا: فالعطف يقتضي المغايرة بين البدنة والبقرة.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن**»(١).

قالوا: فتفريقه ﷺ بين البقرة والبدنة يدل على أن البقرة لا يقال لها بدنة، وقسم الشيء لا يكون قسيمه ومقابلاً له. قالوا: وعلى هذا لو أن رجلاً نذر أن ينحر بدنة لم تجزئه البقرة.

وخص البدن بالذكر ـ وهي الإبل ـ من بين بهيمة الأنعام: دون البقر والغنم ـ مع أنهما مما يشرع في الهدي، لبيان أن البدن أفضل الهدي؛ لعظمها وشرفها ومكانتها عند الناس، ولكبرها وكثرة لحمها، ولما لها من صفات عظيمة اختصها الله بها من بين سائر البهائم، ولهذا وجه الله ـ عز وجل ـ الأنظار للتأمل في عظيم خلقها، والاستدلال بذلك على ربوبيته وعظيم قدرته، قال ـ تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: ١٧]، وقرن ـ عز وجل ـ خلقها بخلق السماء والجبال والأرض.

وذكر ـ عز وجل ـ أن من علامات القيامة وأهوالها الشديدة إهمال الإبل العشار، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾﴾ [التكوير: ٤]، أي: أهملت وتركت بلا راع وسيبت من شدة هول ذلك اليوم مع أنها من أنفس الأموال عند العرب.

هذه خلقتها العظيمة وهذه مكانتها وقيمتها الرفيعة من حيث الأصل، فكيف إذا

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ـ فضل الجمعة (٨٨١)، ومسلم في الجمعة ـ الطيب والسواك يوم الجمعة (٨٥٠)، وأبوداود في الطهارة (٣٥١)، والنسائي في الإمامة (٨٦٤)، والترمذي في الجمعة (٤٩٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٩٢).

عُينت هدياً للبيت الحرام أو أضحية، فلا تسأل عن عظيم فضلها وشرفها وبركتها وكثرة خيرها، وجزيل ثوابها؛ لأن الله نوّه بها وامتنَّ على عباده بجعلها من شعائره ـ عز وجل.

﴿ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾.

﴿ شَعَائِرِ ﴾ جمع شعيرة، وهي العلامة، أي: جعلناها لكم جعلاً شرعياً من أعلام دين الله وشريعته التي شرعها لعباده، ومن مناسك حج بيته الحرام.

ولهذا يسن إشعارها بطعنها في صفحة سنامها بحديدة ونحو ذلك؛ ليعلم أنها هدي، فلا يتعرض لها بأذى تعظيماً لها.

والمعنى: والبدن جعلناها شرعاً لكم من شعائر الله التي يتقرب بها إلى الله ـ عز وجل، وتهدى إلى بيته الحرام، وهي أفضل الهدي، ويجب احترامها وتعظيمها، كما قال ـ تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ ﴾ [المائدة: ٢].

﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ كقوله ـ تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحج: ٣٣]، أي: لكم فيها خير كثير ومنافع عظيمة، في دينكم ودنياكم وأخراكم، ففيها خير في الدين من حيث إنها شعائر ونسك يتقرب إلى الله ـ عز وجل ـ بنحرها وإهراق دمها، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أُنفقت الورِق في شيء أفضل من نحيرة في يوم عيد**»(١).

وفيها خير كثير ومنافع في الدنيا؛ من ركوبها وشرب ألبانها، والانتفاع بأوبارها وأشعارها من غير إضرار بها، وأكل لحومها والتصدق بها والإهداء منها، والإفادة من جلودها.

وفيها خير كثير وثواب عظيم في الآخرة، فهي من أعظم الشعائر والقربات.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما عمل ابن آدم يوم النحر**

---

(١) أخرجه الدارقطني في الأشربة وغيرها ـ الصيد والذبائح والأطعمة ونحو ذلك (٤/ ٢٨٢) حديث (٤٣).

عملاً أحب إلى الله من إهراق الدم، وإنه ليؤتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها، وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان، قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفساً»(١).

﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ أي: فاذكروا اسم الله على هذه البدن عند نحرها بقولكم: «باسم الله»، والأمر للوجوب.

﴿صَوَآفَّۖ﴾ حال، وهي: جمع صافة، والمعنى: حال كون البدن قائمة على ثلاث قوائم معقولة اليد اليسرى.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿صَوَآفَّۖ﴾ قال: «قائمة على ثلاث قوائم معقولة إحدى يديها»(٢).

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما: «أنه أتى رجل قد أناخ بدنة وهو ينحرها، فقال: ابعثها قياماً مقيدة سنة أبي القاسم ﷺ»(٣).

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ «أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدن معقولة اليسرى ـ قائمة على ما بقي من قوائمها»(٤).

وتذبح البقر والغنم على جنبها الأيسر موجهة إلى القبلة، ويضع رجله على صفحة رقبتها ليكون أثبت له وأمكن؛ لئلا تضطرب فلا يتمكن من إتمام ذبحها فتتأذى بذلك وتؤذيه.

ويستحب أن يكبر بعد التسمية ويدعو بما ورد، فيقول: بسم الله، والله أكبر، اللهم هذا منك ولك، اللهم تقبل مني ونحو ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا

---

(١) أخرجه الترمذي في الأضاحي ـ ما جاء في فضل الأضحية (١٤٩٣)، وابن ماجه في الأضاحي ـ ثواب الأضحية (٣١٢٦). وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٥٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٤).

(٣) أخرجه البخاري في الحج ـ نحر الإبل مقيدة (١٧١٣)، ومسلم في الحج ـ نحر البدن مقيدة (١٣٢٠)، وأبوداود في المناسك (١٧٦٨).

(٤) أخرجه أبوداود في المناسك ـ كيف تنحر البدن (١٧٦٧).

لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ [الحج: ٣٧].

وعن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: «صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أُتي بكبش فذبحه، فقال: «**بسم الله والله أكبر، اللهم هذا عني وعمن لم يضحِّ من أمتي**».

وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: «ضحى رسول الله ﷺ بكبشين في يوم عيد، فقال حين وجههما: «**وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك، وعن محمد وأمته ثم سمى الله وكبّر، وذبح**»[1].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ: «أمر بكبش أقرن، يطأ في سواد، ويبرك في سواد، وينظر في سواد، فأتى به ليُضحي به، فقال لها: يا عائشة هلمي المدية، ثم قال: اشحذيها بحجر، ففعلت، ثم أخذها وأخذ الكبش فأضجعه، ثم ذبحه، ثم قال: باسم الله، اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد، ثم ضحى به»[2].

كما يستحب أن يتولى الإنسان بنفسه نحر وذبح ما يتقرب به إلى الله ـ عز وجل ـ من أضحية أو هدي، كما كان ﷺ ينحر أضحيته بنفسه[3]، ونحر ثلاثاً وستين بدنة من هديه ﷺ بيده الشريفة[4]. فإن لم يتمكن من ذلك فيستحب له حضور نحرها أو ذبحها.

وعن أبي رافع ـ رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس أُتي بأحدهما وهو قائم في مصلاه

---

(١) سبق تخريجهما.

(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (١٩٦٧)، وأبوداود في الضحايا (٢٧٩٢).

(٣) كما سبق في حديث ابن عباس وجابر وعائشة ـ رضي الله عنهم.

(٤) سبق تخريجه من حديث جابر ـ رضي الله عنه.

فذبحه بنفسه بالمدية، ثم يقول: «اللهم إن هذا عن أمتي جميعاً، من شهد بالتوحيد، وشهد لي بالبلاغ» ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ويقول: «هذا عن محمد وآل محمد» فيطعمهما جميعاً المساكين، ويأكل هو وأهله منهما»(١).

قوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سقطت جنوبها، والجنوب: جمع جنب، وهو الشق، أي: إذا ماتت بعد نحرها وذبحها وسكنت حركتها، عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: «ولا تُعَجِّلوا النفوس أن تزهق»(٢).

وعن شداد بن أوس ـ رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليُحدَّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته**»(٣).

وعن أبي واقد الليثي ـ رضي الله عنه ـ قال: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يَجبُّون أسنمة الإبل، ويقطعون إِليات الغنم، فقال: «**ما قطع من البهيمة وهي حية فهي ميتة**»(٤).

﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ كقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ۝٢٨﴾ [الحج: ٢٨].

وفي ترتيب الأكل والإطعام على وجوب جنوبها، أي: سقوطها ترتيب الجزاء

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٨، ٣٩١).

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٤٢٥).

(٣) أخرجه مسلم في الصيد ـ الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة (١٩٥٥)، وأبوداود في الأضاحي(٢٨١٥)، والنسائي في الضحايا (٤٤٠٥)، والترمذي في الديات (١٤٠٩)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٧٠).

(٤) أخرجه أبوداود في الصيد ـ باب في صيد قطع منه قطعة (٢٨٥٨)، والترمذي في الصيد ـ ما قطع من الحي فهو كميت (١٤٨٠)، وأحمد (٥/ ٢١٨) ـ وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».
وأخرجه ابن ماجه في الصيد ـ ما قطع من البهيمة وهي حية (٣٢١٦) ـ من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما.

على الشرط إشارة إلى المبادرة بالأكل منها والإطعام، ولهذا كان من السنة أن يكون أول ما يأكله الإنسان يوم النحر من هديه وأضحيته.

والخطاب للمُهدي والمضحي، والأمر في الموضعين للاستحباب، أي: فإذا نحرت فسقطت ميتة بعد النحر، فكلوا منها وأطعموا، وقيل: للوجوب، وقيل: للإباحة.

و﴿ٱلْقَانِعَ﴾ الذي يقتنع بما أعطي، أو بما عنده، ويتعفف ولا يسأل، مأخوذ من القناعة، وهي الرضى بما قُسم له.

﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ الذي يتعرض للناس ويسألهم.

قال زهير[1]:

على مكثريهم رزق من يعتريهم   وعند المقلين السماحة والبذل

وقال الآخر:

يعطي ذخائر ماله   معترَّه قبل السؤال

وقيل: القانع الذي يسأل بتذلل، والمعتر: الذي يتعرض ولا يسأل. وقيل غير ذلك.

وقد استحب بعض أهل العلم ـ لهذه الآية ـ تجزئة الأضحية ثلاثة أجزاء، يُهدي ثلثاً، ويتصدق بثلث، ويأكل ثلثاً.

وعلى هذا يدل قوله ﷺ: «**إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فكلوا وادخروا ما بدا لكم**» وفي رواية: «**فكلوا وادخروا وتصدقوا**» وفي رواية: «**فكلوا وأطعموا وادخروا**»[2].

ولا يجوز بيع شيء منها ولا إعطاء الجزار أجرته منها، ولا بيع جلدها ووبرها وصوفها، بل يَنتفع به أو يتصدق به أو يهديه.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص(١١٤).

(٢) سبق تخريجها.

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: هكذا جعلناها مسخَّرة لكم مذللة منقادة، تركبونها وتشربون من ألبانها، وتنحرونها وتأكلون لحومها، وتنتفعون من أصوافها وأشعارها وأوبارها وجلودها وغير ذلك، كما قال ـ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١-٧٣].

قال الزمخشري[١]: «ولولا تسخير الله لم تُطَق، ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرماً وأقل منها قوة، وكفى بما يتأبد من الإبل شاهداً وغيره».

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تعليل لما قبله، أي: لأجل أن تشكروا الله ـ عز وجل، أو لكي تشكروا الله ـ عز وجل، اعتقاداً بقلوبكم، وإقراراً بألسنتكم، وعملاً بجوارحكم، على ما أنعم به عليكم من تسخير البدن وغير ذلك بالاستعانة بذلك على طاعة الله ـ عز وجل، والقيام بما أوجب الله، والبعد عن ما نهى الله عنه. وفي هذا تعريض بالمشركين الذين جعلوا الكفر مكان الشكر.

وكل نعمة تتجدد على العبد تحتاج إلى شكر، وتوفيق الله العبد للشكر هو أيضاً نعمة تحتاج إلى شكر، ولهذا يقر العبد ويعترف أنه لا يستطيع أن يشكر الله حق شكره؛ كما قال ﷺ: **«سبحانك لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»**[٢].

وقد أحسن القائل:

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً ... عليَّ له في مثلها يجب الشكرُ

---

(١) في «الكشاف» (٣/ ٣٤).

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٩)، والنسائي في التطبيق (١١٠٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٩٣)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٤١) ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله   وإن طالت الأيام واتصل العمر

قوله: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ هذه الجملة فيها معنىٰ التعليل والتأكيد للجملة قبلها، أي: سخرناها لكم لأجل أن تشكروا الله ـ عز وجل ـ بتقواه؛ لأنه لن يناله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم.

قرأ يعقوب بالتاء على التأنيث: (تنال)، (تناله). وقرأ الباقون بالياء على التذكير.

أي: ليس المقصود ذبحها فقط أو نحرها، وتقطيع لحمها، فلن ينال الله ولن يصل إليه لحوم هذه البدن ولا دماؤها؛ لأنه ـ عز وجل ـ هو الغني عما سواه، كما قال ـ عز وجل: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال ـ تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٧، ٥٨].

وفي الآية إبطال لما كان عليه أهل الجاهلية حيث كانوا ينضحون الكعبة بدماء البدن والهدي، ويلطخونها بدمائها ويضعون لحومها هنا وهناك حول الكعبة.

ويذبحون على النصب، ولها، ويهدون إليها القرابين، ويضعون عليها لحومها وينضحونها بدمائها.

﴿ وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ أي: ولكن يناله التقوى منكم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وإخلاص التعبد له بنحر وذبح الهدي والأضاحي، وذكر اسمه ـ عز وجل ـ عليها، والتقرب إليه ـ عز وجل ـ بذلك، وبالأكل منها والتصدق والإهداء.

فشرع الله ـ عز وجل ـ هذه النسك لذكره ـ عز وجل ـ وتقواه؛ ولهذا قال هنا: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ كما قال ـ تعالى ـ في مشروعية الصيام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقال ﷺ: «**إنما شرع الطواف والسعي ورمي الجمار لإقامة ذكر الله**»[1].

---

(١) أخرجه أبوداود في المناسك (١٨٨٨)، والترمذي في الحج (٩٠٢) ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

وفي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(١).

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كرر هذا امتناناً عليهم، وتذكيراً لهم بعظيم نعمة الله عليهم فيها، أي: هكذا سخر الله ـ عز وجل ـ البدن وذللها لكم، تنتفعون بها منافع كثيرة، وتتقربون إلى الله ـ عز وجل ـ بنحر ما شئتم منها هدياً وأضحية وذكر اسم الله ـ عز وجل ـ عليها.

﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن تكبروا الله وتعظموه ﴿عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ وهذا من أعظم الشكر المذكور بقوله قبل هذا: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ومن أعظم التقوى المذكورة بقوله: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ففي الآية تأكيد وبيان لما قبلها.

و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ مصدرية، أي: على هدايته إياكم، هداية دلالة وإرشاد وبيان، وهداية توفيق وقبول.

وقد تكون ﴿مَا﴾ موصولة والعائد محذوف.

والمعنى: لأجل أن تكبروا الله وتعظموه بقولكم: «الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد». وبالتسمية والتكبير عند الذبح، وغير ذلك، شكراً لله تعالى على هدايته إياكم وتوفيقه لكم لهذا الدين القويم والشرع المستقيم، ولأداء النسك.

﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ الخطاب والأمر للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له الخطاب، أي: بشر يا محمد المحسنين، وليبشرهم بذلك كل مبشر ممن هو أهل لذلك.

والبشارة: الإخبار بما يَسر ويُفرح القلب، ويبهج النفس، مأخوذة من البشرة؛ لأن الإنسان إذا ورد على قلبه الخبر السار استنار وجهه واتسعت بشرته، كما قال كعب بن مالك ـ رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه

---

(١) أخرجه مسلم في البر ـ تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره (٢٥٦٤)، وابن ماجه في الزهد ـ باب القناعة (٤١٤٣)، وأحمد (٢/ ٢٨٥، ٥٣٩).

قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»[1].

و﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جمع محسن، والإحسان نوعان: إحسان في عبادة الله ـ عز وجل ـ بالإخلاص له ـ عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: أخلص العمل لله وهو متبع رسوله ﷺ. وقال ﷺ: «**الإحسان أنك تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[2].

والقسم الثاني: الإحسان إلى عباد الله، بأداء حقوقهم الواجبة وغيرها من وجوه الإحسان القولي والفعلي والبذلي.

أي: بشر المحسنين في عبادة الله ـ عز وجل، إخلاصاً لله ـ عز وجل، ومتابعة لرسوله ﷺ، والمحسنين إلى عباد الله، بأداء حقوقهم والتصدق عليهم.

ولم يذكر المبشَّر به، بل أطلقه لتعظيمه وتعميمه ليذهب فيه الذهن كل مذهب، كما قال ـ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال ـ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣، التوبة: ١١٢، الصف: ١٣]، وقال ـ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

أي: بشر المحسنين بشارة مطلقة، بشرهم بالسلامة من كل شر، والحصول على كل خير، بشرهم بخيري الدنيا والآخرة، بشرهم بالإحسان إليهم، كما قال ـ تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

بشرهم بالحسنى والزيادة، كما قال ـ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٢٦]، وقال ـ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقال ـ تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [التوبة: ٢١، ٢٢]، وقال ـ تعالى: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الحديد: ١٢]، وقال ـ تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال ـ تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [الكهف: ٢، ٣]، وقال ـ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

الفوائد والأحكام:

١- التنويه بشأن البدن والامتنان على العباد بخلقها، وجعلها شرعاً من شعائر الله وما فيها من الخير للناس في دينهم ودنياهم، وأنها أعظم وأفضل ما يتقرب به إلى الله ـ عز وجل ـ من بهيمة الأنعام، هدياً أو أضحية؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾.

٢- استحباب إشعار البدن وإعلامها ليعرف أنها هدي؛ لأن الله سماها وجعلها من الشعائر.

٣- وجوب ذكر اسم الله عند نحر البدن؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾.

٤- استحباب نحر البدن قائمة صافة على قوائمها معقولة يدها اليسرى؛ لقوله ـ تعالى: ﴿صَوَآفَّ﴾.

٥- لا يجوز سلخ البدن ولا غيرها من بهيمة الأنعام ولا تقطيعها ولا الأكل منها حتى تموت وتسكن حركتها تماماً؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾.

٦- استحباب الأكل من الهدي إن كان هدي تطوع، أو هدي تمتع وقران، ومن الأضحية؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾. فإن كانت فدية ترك واجب، أو فعل محظور، أو فوات الحج، أو إفساده، أو إحصار فلا يجوز الأكل منها عند أكثر

أهل العلم وهو الصحيح.

وقيل يجوز الأكل منها ما عدا فدية الصيد والأذى.

٧- استحباب إطعام المحتاج من البدن والهدي سأل أو لم يسأل، وقيل بوجوب الإطعام؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾.

٨- أن من استعف عن السؤال مع حاجته ينبغي أن يطعم ولا ينسى، بل هو أولى بالإطعام ممن يسأل الناس، لهذا قُدّم ﴿ٱلْقَانِعَ﴾ على ﴿المعتر﴾.

٩- امتنان الله ـ عز وجل ـ على العباد ـ بتسخير البدن ـ هذه المخلوقات العظيمة، يسيرونها كيف شاءوا، ويركبونها، ويشربون ألبانها ويستفيدون من أصوافها وأوبارها وغير ذلك، وينحرونها ويتقربون بها إلى الله ـ عز وجل، ويأكلون لحمها وينتفعون بجلودها، وغير ذلك، وتأكيد ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾، وقوله ـ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾.

١٠- أن الحكمة من تسخير البدن للعباد ليشكروا الله ـ عز وجل ـ على ذلك بالقيام بطاعته والبعد عن معاصيه، وذكر الله ـ عز وجل ـ وتكبيره وتعظيمه على هدايته لهم إلى دينه القويم وشرعه المستقيم، وحج بيته العظيم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقوله ـ تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾.

١١- أن الله ـ عز وجل ـ إنما شرع البدن وغيرها من الهدي والأضاحي لأجل التقرب إليه ـ عز وجل، وذكر اسمه، وتقواه إذ لا يناله ـ سبحانه ـ شيء من لحومها ولا دمائها؛ لأنه ـ عز وجل ـ الغني عما سواه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾.

١٢- التأكيد على وجوب الإخلاص لله ـ عز وجل ـ في ذبح القرابين من الهدي والأضاحي؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾.

١٣- البشارة المطلقة للمحسنين الذين أحسنوا في عبادة الله ـ عز وجل ـ إخلاصاً لله ـ عز وجل، واتباعاً لرسوله ﷺ، وأحسنوا إلى عباده بأداء حقوقهم الواجبة

والمستحبة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

١٤- استحباب الأضحية؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ الآيتين.

ولما ثبت أنه ﷺ «ضحى بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمَّى وكبَّر ووضع رجله على صفاحهما»[(١)].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من إهراق الدم، وإنه ليؤتىٰ يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفساً»**[(٢)].

وعن زيد بن أرقم قال: قلت ـ أو ـ قالوا: «يا رسول الله، ما هذه الأضاحي؟ قال: **سنة أبيكم إبراهيم**. قالوا: ما لنا منها؟ قال: **بكل شعرة حسنة**. قالوا: فالصوف؟ قال: **بكل شعرة من الصوف حسنة**»[(٢)].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «أقام رسول الله ﷺ في المدينة عشر سنين يضحي»[(٣)].

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى وجوب الأضحية على من ملك نصاباً، واستدلوا بما رُويَ عن أبي هريرة مرفوعاً: «من كان له سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري في الأضاحي (٥٥٦٥)، ومسلم في الأضاحي (١٩٦٦)، وأبوداود في الضحايا (٢٧٩٣)، والنسائي في صلاة العيدين (١٥٨٨)، والترمذي في الأضاحي (١٤٩٤)، وابن ماجه في الأضاحي (٣٢١٠) ـ من حديث أنس ـ رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجهما.

(٣) أخرجه الترمذي في الأضاحي (١٥٠٧) ـ وقال: «حديث حسن».

(٤) أخرجه ابن ماجه في الأضاحي (٣١٢٣)، وأحمد (٢/ ٣٢١). وقال ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٤٢٨): «على أن فيه غرابة واستنكره أحمد بن حنبل».

وأكثر أهل العلم على أن الأضحية سنة وليست بواجبة؛ لقوله ـ ﷺ: «**ليس في المال حق سوى الزكاة**»(١).

ولأن النبي ﷺ «ضحى عن نفسه بكبش وضحى عمن لم يضحّ من أمته بكبش»(٢) وبهذا سقط وجوبها عليهم.

وقد قال أبوسريحة: «كنت جاراً لأبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ فكانا لا يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما»(٣).

وعن أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان الرجل على عهد رسول الله ﷺ يضحي بالشاة عنه وعن أهل بيته، فيأكلون ويطعمون، حتى تباهى الناس، فصار كما ترى»(٤).

* * *

(١) أخرجه ابن ماجه في الزكاة ـ ما أدي زكاته فليس بكنز (١٧٨٩) ـ من حديث أبي حمزة عن الشعبي عن فاطمة بنت قيس ـ رضي الله عنها. وأخرجه الترمذي في الزكاة (٦٥٩، ٦٦٠) ـ عنها بلفظ: «إن في المال حقاً سوى الزكاة».

والحديث بلفظه من رواية أبي حمزة. قال الترمذي: «هذا حديث ليس إسناده بذاك، وأبوحمزة ميمون الأعور يضعف. وروى بيان وإسماعيل بن سالم عن الشعبي هذا الحديث قوله. وهذا أصح».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٤٢٩).

(٤) أخرجه الترمذي في الأضاحي ـ ما جاء في أن الشاة الواحدة عن أهل البيت (١٥٠٥)، وابن ماجه في الأضاحي ـ من يضحي بشاة عن أهله (٣١٤٧)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

قال الله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٣٨-٤١].

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة صد الكفار للمسلمين عن البيت الحرام وأتبعه بفرض الحج وأداء المناسك والشعائر فكأن قائلاً قال: كيف القيام بهذا مع صد المشركين للمسلمين عن البيت الحرام وإخراجهم لهم من ديارهم؟ فوعد الله ـ عز وجل ـ ووعده حق ـ بالمدافعة عن الذين آمنوا.

قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو ويعقوب بفتح الياء وإسكان الدال وفتح الفاء من غير ألف: (يَدْفَع)، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الدال وألف بعدها مع كسر الفاء (يُدافِع).

وهذا والله أعلم ـ توطئة وتمهيد لمشروعية الجهاد.

والمدافعة: مفاعلة من الدفع ومبالغة، أي: إن الله ـ عز وجل ـ يدافع عن الذين آمنوا بشدة وقوة، ومرة بعد أخرى، أي: يدافع عنهم من بغى عليهم من المشركين والكفرة الخائنين؛ لقوله ـ تعالى ـ بعد هذا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾، كما يدافع عنهم شرور النفس والشيطان وشرور الأشرار وكيد الفجار وشرور طوارق الليل والنهار، وكل سوء ومكروه.

وهذه بشارة من الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين، ووعد منه لا يتخلف؛ لأنه ـ عز وجل ـ لا يخلف الميعاد؛ كما قال ـ تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال ـ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٣]، وقال ـ تعالى ـ عن النساء الصالحات القانتات: ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ

بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]، أي: بحفظ الله لهن.

وقال ﷺ في حديثه لابن عباس ـ رضي الله عنهما: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك**»[١].

قال قتادة: «والله ما يُضيِّع الله رجلاً قط حفظ له دينه»[٢].

وقال ابن القيم[٣]: «فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله. ومادة الإيمان وقوته بذكر الله ـ تعالى، فمن كان أكثر إيماناً وأكثر ذكراً كان دفع الله ـ تعالى عنه ودفاعه أعظم، ومن نقص نقص، ذكراً بذكر ونسياناً بنسيان».

عن جندب بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى الصبح فهو في ذمة الله فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء، فيدركه فيكبه في نار جهنم**»[٤].

فما أعظم سعادة من دافع الله ـ عز وجل ـ عنه وحفظه فلا يمكن أن يضيره أحد، ويا خيبة من تخلى الله ـ عز وجل ـ عن الدفاع عنه وعن حفظه، فهو عرضة لجميع الشرور والبلايا والآفات. فانتبه لهذا.

وهذا الوعد من الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين بالدفاع عنهم هو بسبب إيمانهم، وهو وعد من الله ـ عز وجل ـ لا يتخلف؛ لأن الله ـ عز وجل ـ لا يخلف الميعاد، لكن تحققه بحسب قوة إيمانهم وضعفه، ولهذا فإن ما وصل إليه حال المسلمين اليوم من التفرق والاختلاف والضعف وتسلط الأعداء عليهم إنما هو بسبب ضعف إيمانهم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ تعليل لمدافعة الله الكافرين عن المؤمنين، فهو ـ عز وجل ـ يدفع الكافرين لخيانتهم وكفرهم، ويدافع عن المؤمنين لأمانتهم وإيمانهم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٥).

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢١١).

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٥٧).

و﴿ خَوَّانٍ ﴾ على وزن «فعّال» و﴿كَفُورٍ ﴾ على وزن «فعول» كل منهما صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، لبيان الواقع الذي هم عليه، فقد بلغوا غاية الخيانة والكفر.

و﴿ خَوَّانٍ ﴾ كثير الخيانة للأمانات، والنقض للعهود والمواثيق، وعدم الوفاء بها، شديد الغدر، مخالف لأمر الله، مرتكب لنهيه في قوله ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

﴿كَفُورٍ ﴾ شديد الجحود لربوبية الله ـ عز وجل ـ وألوهيته وأسمائه وصفاته ونعمه، لا يعترف بها ولا يشكرها.

والمعنى: إن الله ـ عز وجل ـ لا يحب من كان خواناً للأمانات، ناقضاً للعهود والمواثيق، لا يحفظ أمانة، ولا يرعى ذمة، ولا يفي بعهد، كفور بربه وبدينه ونعمه، والكفر أشد الخيانة وأعظمها، بل يكره ـ عز وجل ـ من هذه صفته ويبغضه، وإذا كان الله ـ عز وجل ـ لا يحب من هذه صفته فهو ـ عز وجل ـ يحب من كان أميناً وافياً بالأمانات والعهود مؤمناً بالله معترفاً بنعمه ـ عز وجل.

قوله ـ تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لما خرج النبي ﷺ من مكة قال أبوبكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن. قال ابن عباس: «فأنزل الله ـ عز وجل: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ قال أبوبكر ـ رضي الله تعالى عنه: فعرفت أنه سيكون قتال. قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال»(١).

فهذه أول آية نزلت في القتال، كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما، وبه قال جمع من السلف ـ وقد استدل بعضهم بهذه الآية على أن سورة الحج مدنية.

---

(١) أخرجه النسائي في الجهاد (٣٠٨)، والترمذي في تفسير سورة الحج (١٦/ ٣١٧١)، وأحمد (١/ ٢١٦، ٣/ ٣٥٩)، والطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٦)، وقال الترمذي: «حديث حسن» وأخرجه الحاكم (١/ ٦٦) وصححه ووافقه الذهبي.

قوله: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر ويعقوب وأبوعمرو وعاصم بضم الهمزة «أُذن». وقرأ الباقون بفتحها «أَذن».

وقرأ نافع وأبوجعفر وابن عامر وحفص بفتح التاء من «يُقاتَلون» بالبناء للمفعول، وقرأ الباقون بكسرها «يُقاتِلون».

والإذن ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، كما في قوله ـ تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله ـ تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقوله ـ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٦].

وإذن شرعي، كما في قوله ـ تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١]، وكما في هذه الآية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ ﴾.

والفرق بين الإذن الشرعي والإذن الكوني: أن المأذون به شرعاً لابد أن يكون محبوباً لله ـ عز وجل، ولا يلزم وقوعه، كالأمر الشرعي والإرادة الشرعية.

والإذن الكوني لا يلزم أن يكون محبوباً لله، ولابد من وقوعه، كالأمر الكوني والإرادة الكونية.

والمراد بالإذن في الآية الإذن الشرعي، أي: أذن الله ـ عز وجل ـ شرعاً للنبي ﷺ وأصحابه والمؤمنين الذين يقاتلهم المشركون والكفار بالقتال، أو أذن الله بالقتال للمؤمنين الذين يُقاتِلون في سبيل الله.

﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ الباء للتعليل: أي: لأجل أنهم ﴿ ظُلِمُواْ ﴾ والظلم: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان أو على سبيل التعدي، وهو النقص، كما ـ قال تعالى: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئاً.

ومعنى ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ أي: لأجل أنهم ظلموا واعتدى عليهم الكفار وآذوهم، في أنفسهم وأموالهم وقاتلوهم وأخرجوهم من ديارهم.

فأذن الله ـ عز وجل ـ شرعاً للمؤمنين بالقتال للكفار بسبب ظلم الكفار لهم،

ومقاتلتهم إياهم بغير حق، كما قال ـ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

وفي هذا أعظم الرد على من يقولون: إن الإسلام قام على السيف والإكراه. فقد ذكر الله ـ عز وجل ـ أن سبب الإذن في الجهاد هو دفع الظلم عن المسلمين، وقد قال ـ عز وجل ـ في سورة البقرة: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ومن الظلم للمسلمين أيضاً منعهم من الدعوة إلى الله ـ عز وجل، ونشر دينهم الذي أوجب الله عليهم نشره والدعوة إليه؛ لإخراج الناس من الكفر، وإنقاذهم من النار؛ ولهذا أوجب الله ـ عز وجل ـ على المسلمين قتال من يقف عائقاً في سبيل الدعوة إلى الله ونشر الإسلام.

قال ـ تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥]، وقال ـ تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

فالمقصود من الأمر بالقتال في هذه الآيات وفي غيرها إقامة دين الله وشرعه، ودفع الظلم عن المسلمين، كما قال ـ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال ـ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال: ٣٩].

قال السعدي(١): «وهذا يدل على حكمة الجهاد، فإن المقصود منه إقامة دين الله، أو ذب الكفار المؤذين للمؤمنين البادئين لهم بالاعتداء عن ظلمهم واعتدائهم، والتمكن من عبادة الله، وإقامة الشرائع الظاهرة».

وقال ـ أيضاً: «فلولا دفع الناس بعضهم ببعض لاستولى الكفار على المسلمين

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٢٩٩، ٣٠٠).

فخربوا معابدهم وفتنوهم في دينهم، فدل هذا أن الجهاد مشروع لأجل دفع الصائل والمؤذي، ومقصود لغيره».

قوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾ الجملة معطوفة على جملة ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ أي: وإن الله ـ عز وجل ـ على نصر المؤمنين على من ظلمهم من الكفار وقاتلهم ﴿لَقَدِيرٌ﴾.

واللام في قوله: ﴿ لَقَدِيرٌ ﴾ للتوكيد، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: كون الجملة اسمية، و«إنَّ»، ولام التوكيد.

و«قدير» على وزن فعيل «صفة مشبهة أو صيغة مبالغة» أي: إنه عز وجل ذو قدرة تامة على نصر المؤمنين على الكفار من غير قتال، ولكنه ـ عز وجل ـ يريد ابتلاء المؤمنين وامتحانهم بفرض القتال عليهم، وقد تكفل بنصرهم، ففي الآية بيان لقدرته على نصر المؤمنين على الكفار بغير قتال لو شاء ذلك، ووعد منه ـ عز وجل ـ للمؤمنين بنصرهم على الكفار في قتالهم وجهادهم لهم، وحث وترغيب لهم على الصدق مع الله ـ عز وجل ـ وطلب النصر منه، كما قال ـ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ ﴾ [محمد: ٤]، وقال ـ تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال ـ تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التوبة: ١٦]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾ ﴾ [محمد: ٣١]، وقال ـ تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال ـ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد: ٧].

وقد نصر الله ـ عز وجل ـ رسوله ﷺ وأولياءه وأذل أعداءهم في بدر وحنين وغيرها من الغزوات، قال ـ تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال ـ تعالى: ﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ ﴾ [التوبة: ٢٥].

قال ابن كثير[(١)]: «وإنما شرع ـ تعالى ـ الجهاد في الوقت الأليق بهم؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً فلو أمر المسلمين ـ وهم أقل من العشر ـ بقتال الباقين لشق عليهم ذلك، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ، وكانوا نيِّفاً وثمانين قالوا: يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادي ـ يعنون أهل منى ـ ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إني لم أؤمر بهذا**»[(٢)] فلما بغى المشركون، وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شذر مذر، فذهب طائفة منهم إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة، فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسول الله ﷺ، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومعقلاً يلجؤون إليه ـ شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك، قال ـ تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾».

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من «الذين» في قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ وهذا من أعظم الظلم الذي وقع على المسلمين؛ لأن إخراج الإنسان من بلده، ومسقط رأسه ليس بالأمر السهل عليه، ولهذا قال ﷺ مخاطباً مكة: «**والله إني لأعلم أنك أحب البلاد إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت منك**»[(٣)].

أي: الذين أخرجهم المشركون من مكة، أي: اضطروهم للخروج منها، فهاجر منهم من هاجر إلى الحبشة، وإلى المدينة، فراراً بدينهم بعد أن لقي كثير منهم صنوف الأذى والاضطهاد من المشركين.

---

(١) في «تفسيره» (٥/ ٤٣١-٤٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٢) من حديث كعب بن مالك ـ رضي الله عنه. وانظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٤٨).

(٣) سبق تخريجه.

﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ حال، أي: حال كون إخراجهم بغير حق يستوجب إخراجهم، وبلا ذنب ولا مبرر، بل ظلماً وعدواناً، وهذا يدل على أن الإذن بالقتال إنما كان في المدينة بعد الهجرة، وإخراج المسلمين من ديارهم. وهذه السورة فيها المكي والمدني.

﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا﴾ ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء، والاستثناء منقطع، و﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب على الاستثناء، والتقدير: إلا قولهم ربنا الله.

أي: فلا ذنب لهم إلا أنهم قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾، فآمنوا بربوبية الله ـ عز وجل، وعبدوه وحده لا شريك له، وهذا من تأكيد الشيء بما يوجب نقضه، فقولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ لا يبرر إخراجهم وظلمهم، كيف وهذا مما يجب عليهم وعلى الناس أجمع أن يقولوه.

وهذه الآية كقوله ـ تعالى ـ في سورة الممتحنة: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ [الآية: ١]، وقوله ـ تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ﴾ [المائدة: ٥٩]، وقوله ـ تعالى ـ عن سحرة فرعون أنهم قالوا له: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقوله ـ تعالى ـ في قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: ٨].

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ «أي: من مكة إلى المدينة ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ يعني محمداً ﷺ»[1].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «لما خرج النبي ﷺ من مكة قال أبوبكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن. وفي رواية أنه قال: أُخرج رسولُ الله ﷺ والله ليهلكن جميعاً، فأنزل الله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ قال أبوبكر:

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٦).

فعرفت أنه سيكون قتال.. وهي أول آية نزلت»[١].

وعن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه، قال: «فينا نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ والآية بعدها، أخرجنا من ديارنا ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ ثم مكنا في الأرض، فأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، فهي لي ولأصحابي»[٢].

﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ﴾ الواو استئنافية، و«لولا» حرف امتناع لوجود ﴿دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر ويعقوب «دفاع»، وقرأ الباقون «دفع».

أي: ولولا أن الله يدفع الناس بعضهم ببعض، بإقامة الجهاد في سبيل الله والحدود، فيدفع الله ـ عز وجل ـ المشركين بالمسلمين، ويدفع الله الشر والاعتداء عن قوم بسبب قوم آخرين ولو كانوا غير مسلمين، وهذا كما قال ﷺ: «**إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[٣].

﴿لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ اللام في قوله: ﴿لَّهُدِّمَتۡ﴾ واقعة في جواب «لولا».

قرأ نافع وأبوجعر وابن كثير: «لهدِمت» بتخفيف الدال، وقرأ الباقون بتشديدها «لهدِّمت» مبالغة في الهدم، أي: لهدمت بشدة وقوة، أو لهدمت مرة بعد مرة. والهدم: تقويض البناء وإسقاطه.

﴿صَوَٰمِعُ﴾ جمع صومعة، وهي صوامع الرهبان ومعابدهم.

﴿وَبِيَعٞ﴾ جمع بِيعة، وهي كنائس اليهود ومعابدهم، وقيل: كنائس النصارى.

﴿وَصَلَوَٰتٞ﴾ كنائس اليهود، مُعَرَّبة عن كلمة «صلوتا»، وقيل: كنائس النصارى، وقيل: صلوات المسلمين.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٦-٢٤٩٧).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٦٢)، ومسلم في الإيمان (١١١)، وأحمد (٢/ ٣٠٩) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «الصوامع التي تكون فيها الرهبان، والبيع مساجد اليهود، وصلوات كنائس النصارى، والمساجد مساجد المسلمين»[(١)].

﴿ وَمَسَٰجِدُ ﴾ جمع مسجد، وهي ممنوعة من الصرف لأنها على وزن صيغة منتهى الجموع «فعالل» وهي بيوت الله، وأماكن الصلاة والعبادة للمسلمين، قال ـ تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن: ١٨]، وقال ـ تعالى: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

وإنما بدأ ـ والله أعلم ـ بالصوامع والبيع مراعاة للسبق الزمني؛ لأن عبادة وصلاة من تقدم من أهل الكتاب كانت فيها، وكذا «صلوات» على اعتبار أن المراد بها أيضاً مواضع عبادتهم.

قال الزجاج والأزهري: أي: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في كل شريعة نبي من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ المكان الذي يصلي فيه هو وأتباعه، أي: لهدمت متعبدات كل فريق.

وقال الحسن: «يدفع عن مصليات أهل الذمة بالمؤمنين».

قال ابن القيم[(٢)] ـ بعد ذكره هذين القولين: «وعلى هذا القول ـ يعني قول الحسن ـ لا يحتاج إلى التقدير الذي قدره أصحاب القول الأول. وهذا ظاهر اللفظ ولا إشكال فيه بوجه، فإن الآية دلت على الواقع، ولم تدل على كون هذه الأمكنة ـ غير المساجد ـ محبوبة مرضية له، لكنه أخبر أنه لولا دفعه الناس بعضهم ببعض لهدمت هذه الأمكنة التي كانت محبوبة له قبل الإسلام، وأقر منها ما أقر بعده ـ وإن كانت مسخوطة له، كما أقر أهل الذمة ـ وإن كان يبغضهم ويمقتهم، ويدفع عنهم بالمسلمين مع بغضه لهم، وهكذا يدفع عن مواضع متعبداتهم بالمسلمين ـ وإن كان

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٧).
(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢١٣-٢١٤).

يبغضها، وهو سبحانه يدفع عن متعبداتهم التي أُقروا عليها شرعاً وقدراً، فهو يحب الدفع عنها ـ وإن كان يبغضها، كما يحب الدفع عن أربابها ـ وإن كان يبغضهم، وهذا القول هو الراجح إن شاء الله تعالى».

قوله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي: في المساجد بالصلاة فيها وقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والاعتكاف فيها وغير ذلك من أنواع الذكر والعبادة.

ويحتمل عود الضمير إلى كل ما ذكر من أماكن عبادة أهل الكتاب من الصوامع والبيع والصلوات، وأماكن عبادة المسلمين المساجد.

قال الطبري[1]: «الصواب لهدمت صوامع الرهبان، وبيع النصارى، وصلوات اليهود، وهي كنائسهم. ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً؛ لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب المستفيض فيهم».

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ الواو: استئنافية، واللام واقعة في جواب قسم محذوف، و«من» موصولة، أي: والله لينصرن الله الذي ﴿يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: ينصر دينه وأولياءه، ويقاتل في سبيله لتكون كلمة الله هي العليا.

وقد أكدت الجملة بالقسم ولام القسم ونون التوكيد، وهذا وعد من الله ـ عز وجل ـ لا يتخلف إذا وجد مقتضاه، وهو صدق النية والعمل في نصرة دين الله، دون وجود مخالفة تمنع تحقيق ذلك، قال ـ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٧]، وقال ـ تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧]، وقال ـ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ هذه الجملة تعليل وتوكيد لما قبلها، واللام في

(١) في «جامع البيان» (١٦/ ٥٨٦).

قوله: ﴿لَقَوِيٌّ﴾ للتوكيد.

أي: إنه ـ عز وجل ـ ذو القوة الشديدة، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٥٢﴾ [الأنفال: ٥٢].

﴿عَزِيزٌ﴾ أي: ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر، وعزة الامتناع.

وحيث اجتمع في هذه الآية وصفه ـ عز وجل ـ بـ«القوي» و«العزيز» فالأولى حمل قوله: «عزيز» على عزة القهر، وعزة الامتناع؛ لدلالة قوله: ﴿لَقَوِيٌّ﴾ الظاهرة على معنى «القوة».

أي: إن الله لقوي على نصر من ينصره، ويقاتل في سبيله، منيع لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب، فبقوته ـ عز وجل ـ الشديدة وعزته التامة ينصر من ينصره؛ كما قال ـ تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وقال ـ تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٢١﴾ [المجادلة: ٢١].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. بدل من «مَن» في قوله: ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ وفيها حث وإغراء على الاتصاف بالصفات المذكورة.

عن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ قال: «فينا نزلت ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فأخرجنا من ديارنا بغير حق، إلا أن قلنا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ ثم مكنا في الأرض، فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي»[1].

ولا شك أن أول من يدخل تحت هذه الآية هم صحابة رسول الله ﷺ؛ كما قال عثمان ـ رضي الله عنه، لكنها ـ أيضاً ـ عامة لكل من اتبعهم وعمل بها، وهي كقوله ـ

---

(١) سبق تخريجه.

تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور: ٥٥].

ويدخل تحت الوصف المذكور في الآيتين كل من الراعي والرعية.

ومعنى ﴿ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: جعلنا لهم السلطة والتمكين فيها والاستخلاف عليها بلا منازع ولا معارض ولا مدافع ولا ممانع.

﴿ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: أقاموا الصلاة المفروضة، التي هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي عموده وأعظم العبادات البدنية وأهمها، أي: أقاموها بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها إقامة تامة؛ ولهذا جاء التعبير بقوله: ﴿ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ دون أن يقول: «الذين يصلون» ونحو ذلك.

والمراد بالصلاة: الصلوات الخمس المفروضة التي يجب أداؤها في المساجد، وغيرها من النوافل.

﴿ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي: وأعطوا الزكاة المفروضة التي هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وهي أعظم العبادات المالية وأهمها، وغيرها من النفقات والصدقات.

﴿ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ المعروف: ما أمر به الشرع وتعارف المسلمون على حسنه، ويشمل الأمر بتوحيد الله وطاعته وفعل الواجبات والمستحبات.

﴿ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾ المنكر ما أنكره الشرع، وعرف المسلمين، ويشمل النهي عن الشرك والمعاصي، وعن ارتكاب المحرمات.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم وأعظم وأخص صفات هذه الأمة، كما قال ـ تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهو حصن الإسلام المنيع، ومن أعظم وأهم واجبات الدين؛ ولهذا عدّه بعض أهل العلم الركن السادس من أركان الإسلام.

قال ـ تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(١).

وقال ـ تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وعن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**»(٢).

وعن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ أنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه أوشك أن يعمهم الله بعقابه**»(٣).

وعن زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ قالت: «دخل عليَّ رسول الله ﷺ فزعاً مرعوباً يقول: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**»، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها، فقلت: يا رسول الله، أنهلك

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٤٩)، وأبوداود في الصلاة (١١٤٠)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠٨)، والترمذي في الفتن (٢١٧٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٧٥) ـ من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

وانظر في تفصيل الكلام على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «تفسير آيات الأحكام في سورة المائدة» ص(٣٤٠-٣٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن (٢١٦٩). وقال: «حديث حسن»، وأحمد (٥/ ٣٨٨).

(٣) أخرجه ابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥).

وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»[١].

وقيل لابن مسعود ـ رضي الله عنه: مَن ميّت الأحياء؟ فقال: «**الذي لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً**»[٢].

﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

أي: أن مرد الأمور ومرجعها ونهايتها إلى الله ـ عز وجل، كما قال ـ عز وجل: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٣]، فإليه ـ عز وجل ـ مرد جميع الأمور ونهايتها، وإليه مرد الخلائق في أمور دينهم ودنياهم وأخراهم، وإليه مصيرهم وإيابهم، وعليه حسابهم وجزاؤهم، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

قال ابن كثير[٣]: «وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ كقوله ـ تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨، القصص: ٨٣]».

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله ـ عز وجل ـ وتكفله بالمدافعة عن الذين آمنوا أذى الكفار وشرور الدنيا والآخرة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢- التشويق والإغراء بالدخول تحت حفظ الله ـ عز وجل ـ ودفاعه بالإيمان به ـ عز وجل ـ والعمل الصالح.

٣- قوة الله ـ عز وجل ـ التي لا تقهر وقدرته التامة في دفاعه عن أوليائه المؤمنين.

٤- لا حول ولا قوة لأحد من المؤمنين ولا غيرهم على دفع الشرور إلا بالله ـ عز وجل.

٥- نفي محبة الله ـ عز وجل ـ لمن كان خواناً كفوراً، وإثبات بغضه له؛ لقوله ـ

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٦)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٠)، والترمذي في الفتن (٢١٨٧)، وابن ماجه (٣٩٥٣).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٢٧).

(٣) في «تفسيره» (٥/ ٤٣٤).

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

٦- إثبات محبة الله ـ عز وجل ـ لمن كان أميناً مؤمناً؛ لأنه ـ عز وجل ـ إذا كان لا يحب من كان خواناً كفوراً، فمفهوم الآية أنه يحب من كان بضده.

٧- التحذير والتنفير من الخيانة والكفر؛ لأن ذلك سبب بغض الله ـ عز وجل ـ ومقته وانتقامه.

٨- إذن الله ـ عز وجل ـ الشرعي للرسول ﷺ والمؤمنين بالقتال لَـمَّا وجد سببه، وجاءت مناسبته واكتملت أدواته؛ لقوله ـ تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ وكان المشركون بمكة يؤذون المؤمنين أذى شديداً، فيتظلمون إلى رسول الله ﷺ فيأمرهم بالصبر؛ لأنه لم يؤمر بالقتال.

٩- أن سبب الإذن للمؤمنين بالقتال ظلم المشركين لهم بأذيتهم وقتالهم لهم وإخراجهم لهم من ديارهم بغير حق؛ وذلك أشد الظلم لهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾.

وفي هذا رد على من يقول: إن الإسلام قام على السيف والإكراه. فالجهاد شرع لدفع الظلم عن المسلمين، وقتال من يقاتلهم، أو يقف في طريق الدعوة إلى الله وإقامة شرعه، ولنشر دينه الحق.

١٠- قيام الدين الإسلامي على العدل ورفع الظلم.

١١- قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة على نصر المؤمنين، وتحقيقه لهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

١٢- أن نهاية الظلم الخسار والبوار والهزيمة.

١٣- شدة بغض الكافرين للمؤمنين، فقاتلوهم وآذوهم، وأخرجوهم من ديارهم، لا لشيء، وبغير حق إلا أنهم آمنوا بالله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾.

١٤- حفظ الله ـ عز وجل ـ للناس حياتهم الدينية والدنيوية وأماكن عباداتهم بدفع

بعضهم ببعض، بالجهاد في سبيل الله وغير ذلك؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾.

١٥- أن الجهاد في سبيل الله هو الحصن المنيع الحامي بإذن الله لبيضة الإسلام ودولته وحرية الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ وعبادته.

١٦- دفع الله ـ عز وجل ـ عن مواضع عبادة أهل الكتاب وغيرهم بالجهاد في سبيل الله، إذا دخلوا تحت حكم الإسلام ودفعوا الجزية، وإن كان يبغضهم ومواضع عبادتهم.

١٧- الإشارة إلى أن الله ـ عز وجل ـ قد يدفع عن المؤمنين بالكافرين وقد يدفع عن الكافرين بالمؤمنين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾.

١٨- الترغيب في إقامة المساجد، وذكر الله فيها كثيراً بالصلاة وأنواع العبادة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾.

١٩- وعد الله ـ عز وجل ـ الذي لا يتخلف ـ بنصر من ينصر دينه وأولياءه؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾.

٢٠- إثبات صفتي القوة والعزة التامتين لله ـ عز وجل، وتأكيد قدرته التامة على نصر المؤمنين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

٢١- ثناء الله ـ عز وجل ـ على المؤمنين الذين إن مكنهم الله في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

٢٢- الإغراء والحث على الاتصاف بما ذكر في الآية من الصفات؛ لأن الله ـ عز وجل ـ رتب نصره الذي وعد به المؤمنين وتمكينه لهم على قيامهم بذلك شكراً له ـ عز وجل ـ على نعمة النصر والتمكين في الأرض.

٢٣- عظم مكانة الصلاة والزكاة في الإسلام؛ لأن الله خصهما بالذكر من بين العبادات، فالصلاة عمود الإسلام وقاعدته العظيمة التي يدور عليها رحاه، وأعظم العبادات كلها بعد الشهادتين، من حفظها وأقامها كما شرع الله ـ عز وجل ـ حفظ دينه، وربح دنياه وأخراه، ومن أضاعها خسر دينه ودنياه وأخراه.

والزكاة أعظم العبادات المالية، وأهم العبادات بعد الصلاة، فيها يتجلى مظهر الإحسان إلى عباد الله ـ كما يتجلى في الصلاة مظهر الإحسان في عبادة الله.

٢٤- عظم منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الله ذكره بعد الصلاة والزكاة، ولا غرو في هذا فهو حصن الإسلام الحصين وسياجه المتين.

٢٥- أن عاقبة الأمور كلها ومصيرها ومرجعها ومردها إلى الله ـ عز وجل، إليه إياب الخلائق، وعليه حسابهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٤ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ [الحج: ٥٢-٥٥].

قوله ـ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾.

الواو: استئنافية، و«مَا» نافية، ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ أي: بعثنا ووجهنا.

﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ الخطاب للنبي ـ محمد ﷺ، وهو خاتم النبيين، فيعم قوله: ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ جميع الأنبياء والمرسلين من لدن آدم ـ عليه السلام ـ إلى بعثته ﷺ.

﴿مِن رَّسُولٖ﴾ ﴿مِن﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لاستغراق العموم في النفي، أي: ما أرسلنا قبلك أيّ رسول ولا نبي ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾.

والرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ الواو: عاطفة، و«لا» مؤكدة للنفي.

وفي عطف النبي على الرسول دلالة على أن النبي غير الرسول. فالرسول عند أكثر أهل العلم: من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه: فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً.

قال مجاهد: «النبي الذي يُكلم وينزل عليه، ولا يرسل»[(١)].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٠٠).

وقال البغوي[(١)]: «الرسول الذي يأتيه جبريل بالوحي عياناً. والنبي: الذي تكون نبوته إلهاماً».

وقال بعض أهل العلم: «الرسول من أوحي إليه بشرع جديد، والنبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله»[(٢)].

﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ ﴿إِلَّآ﴾ أداة حصر، أو استثناء، ﴿إِذَا﴾ ظرفية شرطية غير عاملة.

﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿أَلْقَى﴾.

ومعنى ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: تلا وقرأ، ومنه قوله ـ تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، أي: إلا قراءة، أي: يقرؤون ولا يكتبون[(٣)].

﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: ألقى الشيطان في قراءته وتلاوته في مسامع الناس ما لم يقرأه.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ يقول: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه»[(٤)].

ومراد ابن عباس ـ رضي الله عنهما، أي: إذا تكلم وقرأ وتلا، ومن هذا قول حسان ـ رضي الله عنه ـ في رثاء عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه.

تمنـى كتـاب الله أول ليـلـه وآخره لاقى حمام المقادر[(٥)]

وقال الآخر:

---

(١) في «معالم التنزيل» (٣/ ٣٩٣).

(٢) انظر: «روح المعاني» (١٧/ ١٥٧)، «الرسل والرسالات» ص(١٤، ١٥).

(٣) انظر: «صحيح البخاري مع الفتح» (٨/ ٤٣٨)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٥٣٢). وانظر مادة «مني» في «لسان العرب».

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٦٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٠٢)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٥٣٠)، وأخرجه البخاري ـ معلقاً ـ في تفسير سورة الحج (٨/ ٤٣٨).

(٥) انظر: «لسان العرب» مادة «منَي».

تمنى كتاب الله آخر ليله　　تمنّي داود الزبور على رسل[١]

أي: تلا كتاب الله.

وبهذا قال أكثر المفسرين[٢].

والمعنى: وما أرسلنا قبلك يا محمد من رسول ولا نبي إلا إذا حدث وقرأ وتلا ألقى الشيطان في حديثه وقراءته وتلاوته، مما لم يقرأه الرسول وإنما ألقاه الشيطان في مسامع الناس.

وفي هذا تسلية له ﷺ، وتثبيت لقلبه بذكر ما حصل للرسل والأنبياء قبله ـ عليه وعليهم الصلاة والسلام.

﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي: فيزيل الله ـ عز وجل ـ ويبطل ما يلقيه الشيطان، يريد به التلبيس على الناس وخلط الحق بالباطل.

وقد رُويَ أنه لما كان ﷺ يقرأ في سورة النجم: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، ألقى الشيطان في تلاوته: «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى» ولما سجد النبي ﷺ في آخر السورة سجد معه المسلمون والمشركون، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ إلى آخر ما جاء في هذه القصة، المسماة: قصة الغرانيق.

وقد رويت هذه القصة مطولة ومختصرة عن جمع من السلف منهم ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والحارث بن هشام والزهري ومحمد بن قيس والضحاك وأبو العالية والمطلب بن عبدالله والسدي وغيرهم[٣].

(١) نسبه الآلوسي لحسان بن ثابت ـ رضي الله عنه. انظر: «روح المعاني» (٩/ ١٦٤).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٦/ ٦٠٩-٦١٠)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٥٠٠)، «معالم التنزيل» (٣/ ٢٩٣).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١٦/ ٦٠٣) وما بعدها، «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٥٠٠)، «الناسخ =

وفي أكثر روايات هذه القصة ما لا يليق بمقامه ﷺ، وهي باطلة من وجهين:

أولاً: أن هذه القصة لم ترد من وجه صحيح، بل كل طرقها ما بين منكر وضعيف ومرسل ومنقطع، وقد سئل عنها محمد بن إسحاق، فقال: «هذا من وضع الزنادقة، وقد صنف فيها كتاباً»(١).

وقال البيهقي: «هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، رواتها مطعون عليهم، وليس في الصحاح ولا التصانيف الحديثيّة شيء مما ذكروه، فواجب اطراحه، ولذلك نزهت كتابي عن ذكره فيه»(٢).

وقال القاضي عياض(٣): «هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه بسند صحيح سليم متصل ثقة، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون والمولعون بكل غريب والمتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم».

وقال القرطبي(٤): «الأحاديث الواردة في نزول هذه الآية ليس منها شيء صحيح».

وقال ابن كثير(٥): «قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح ـ ثم ساق بعض روايات هذه القصة عن سعيد بن جبير وابن عباس والسدي وقتادة وابن شهاب الزهري ـ ثم قال: قلت: وقد ذكرها محمد بن إسحاق في السيرة بنحو من هذا، وكلها مرسلات ومنقطعات».

=

والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٥٢٧-٥٢٨، ٥٣٣)، «معالم التنزيل» (٣/ ٢٩٢).

(١) انظر: «البحر المحيط» (٦/ ٣٨١-٣٨٢).

(٢) انظر: «المصدر السابق».

(٣) في «الشفاء» (٢/ ١٢٤).

(٤) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٨٠).

(٥) في «تفسيره» (٥/ ٤٣٨-٤٤٠).

ثانياً: أن ما جاء فيها من أن الشيطان ألقى على لسانه ﷺ تلك المقالة مستحيل وقوعه شرعاً؛ لأنه ﷺ معصوم من الخطأ في تبليغ ما أوحاه الله إليه، محفوظ عن الشياطين بحفظ الله ـ عز وجل ـ لوحيه. قال ـ عز وجل: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، وقال ـ تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، وقال ـ تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

قال ابن الجوزي(١) عما ورد في هذه القصة: «قال العلماء المحققون: وهذا لا يصح؛ لأن رسول الله ﷺ معصوم عن مثل هذا».

ومما ينبغي أن يُعلم أن نص الآية يدل على أن الرسل والأنبياء قبل رسولنا ونبينا محمد ـ عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام ـ كان الواحد منهم إذا قرأ وتلا ألقى الشيطان في قراءته وتلاوته، وهذا ظاهر الدلالة من الآية.

وأيضاً فإن الحكمة من ذكر ما حصل للرسل والأنبياء وهي تسليته ﷺ وتثبيت قلبه، وكذا سياق الآيات ومعناها ـ كل ذلك يدل على وقوع شيء من ذلك له ﷺ؛ ولهذا قال ـ عز وجل ـ مخاطباً له ﷺ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].

لكن يجب القطع بأن ما حصل من إلقاء الشيطان إنما هو في مسامع المشركين، لا أن الرسول ﷺ قال ذلك وتكلم به، فذلك مستحيل شرعاً؛ لعصمته ﷺ عن مثل هذا وحفظ الله ـ عز وجل ـ لوحيه ـ كما سبق بيانه ـ وعلى هذا يجب تنزيل ما رُوِيَ في هذه القصة على فرض صحتها ـ علماً أن كل أسانيدها مرسلة ومنقطعة، وضعيفة ومنكرة(٢).

---

(١) في «زاد المسير» (٥/ ٤٤١).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٦/ ٦١٠)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٥٢٨-٥٢٩، ٥٣٢-٥٣٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٠٢-١٣٠٣)، «الشفاء» (٢/ ١٤٢)، «زاد المسير» (٥/ ٤٤١)، =

وعلى هذا أيضاً ينزل سبب سجود المشركين مع المؤمنين لما سجد النبي ﷺ في آخر السورة، كما ثبت في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس»[(١)].

قوله: ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ أي: ثم يثبت الله آياته ويحررها ويقررها ويحفظها ويبينها، كما قال ـ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ [هود: ١]، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان ـ تحقيقاً لقول الله ـ تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

قال ابن القيم[(٢)]: «فالمحكم هنا هو المنزل من عند الله، أحكمه الله، أي: فصله من اشتباهه بغير المنزل، وفصل منه ما ليس منه بإبطاله».

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: إنه ـ عز وجل ـ ذو علم واسع محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة؛ قبل الوجود، وبعد الوجود وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما قال ـ تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ۝٩٨﴾ [طه: ٩٨]، وقال ـ تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقال ـ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ۝١٢﴾ [الطلاق: ١٢].

ولما سئل موسى عن القرون الأولى قال: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: ٥٢]، فلا يعتري علمه ـ عز وجل ـ جهل سابق، ولا نسيان لاحق، بخلاف المخلوق الضعيف فإنه عرضة للأمرين.

=

«الروض الأنف» (١/ ٢٢٩)، «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٩١)، «فتح الباري» (٨/ ٤٣٩)، «أضواء البيان» (٥/ ٧٣٠)، «نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق» للألباني.

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١٠٧٠)، وفي تفسير سورة النجم (٤٨٦٢)، والترمذي في الجمعة (٥٧٥).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢١٩).

﴿حَكِيمٌ﴾ أي: ذو الحكم التام، بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية، الحاكم الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، المحكم المتقن في خلقه وقدره وشرعه.

وبِعلمه ـ عز وجل ـ الواسع، وحكمه التام، وحكمته البالغة ـ عصم رسله وأنبياءه من الخطأ في التبليغ، وحفظ وحيه من الشياطين، وأحكم آياته وهو العليم الحكيم.

قوله: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ اللام في ﴿لِّيَجْعَلَ﴾ للتعليل، أي: لأجل أن يجعل. والمراد بالجعل هنا الجعل الكوني القدري.

و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ موصولة أو مصدرية، أي: الذي يلقيه الشيطان، أو إلقاء الشيطان، من الجن أو الإنس. ﴿فِتْنَةً﴾ ابتلاءً وامتحاناً.

﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مرض القلوب نوعان: مرض حسي، ومرض معنوي، وهو أشد، وينقسم إلى قسمين: مرض شهوة اتباع هوى، وشهوة فرج وشهوة بطن، ومرض شبهة وشك ونفاق، وهو المراد هنا في الآية.

والمعنى: ومن علمه ـ عز وجل ـ الواسع ـ وحكمه التام، وحكمته البالغة أن قدر كوناً ما يحصل من إلقاء الشيطان في قراءة رسله وأنبيائه ليجعل ما يلقيه الشيطان ابتلاءً وامتحاناً للذين في قلوبهم مرض شبهة وشك ونفاق.

﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ويجعل ما يلقيه الشيطان ابتلاءً وامتحاناً للقاسية قلوبهم من المشركين واليهود وغيرهم من الكفار؛ كما قال ـ تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال ـ تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦]، وقال ـ تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

قال ابن كثير(١): «﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي: شك وشرك وكفر ونفاق، كالمشركين فرحوا بذلك واعتقدوا أنه صحيح، وإنما كان من الشيطان».

﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ من أهل الشرك والكفر والشك والنفاق من اليهود وغيرهم.

والظلم في الأصل: النقص، قال ـ تعالى: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [الكهف: ٣٣]، وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، ولا أظلم ممن عبد غير الله وأشرك معه غيره؛ لأن حق الله ـ عز وجل ـ هو أعظم الحقوق وأوضحها وأبينها؛ ولهذا قال ـ تعالى ـ حكاية عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿ لَفِى شِقَاقٍ ﴾ أي: لفي مشاقة ومحادة ومخالفة لله ـ عز وجل ـ ولدينه ورسوله ﷺ، والشقاق والمشاقة: المحادة والمخالفة والمعاندة، مأخوذ من الشق وهو الجانب والحد، كما قال ـ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المجادلة: ٥، ٢٠].

﴿ بَعِيدٍ ﴾ أي: بعيد كل البعد عن الموافقة والمتابعة، بالغ الغاية في المخالفة، لتماديهم وإغراقهم في الظلم والكفر والضلال، فهم بعيدون كل البعد عن الرجوع إلى الحق بسبب زيغهم وضلالهم، قال ـ تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]، وقال ـ تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ الواو عاطفة، واللام للتعليل، أي: ولأجل أن يعلم الذين أعطوا العلم النافع؛ العلم بالله وشرعه، والذي يفرقون به بين الحق والباطل، أي: الذين جمع الله لهم بين العلم والإيمان؛ كما قال ـ تعالى:

(١) في «تفسيره» (٥/ ٤٤٢).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾ [الروم: ٥٦]، وقال ـ تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ: ٦].

﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي: أن القرآن الكريم الذي أنزلناه إليك وأحكمنا آياته هو الحق الثابت من ربك، كما قال ـ تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال ـ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٦].

﴿فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ ﴾ أي: فيصدقوا به.

﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: فتلين وتخضع وترق وتذل له قلوبهم وتطمئن وتخشع وتُسلِّم، مما يكون سبباً في انقياد جوارحهم، كما قال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[1].

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ هذا وعد من الله ـ عز وجل ـ للذين آمنوا بدلالته وإرشاده لهم وتوفيقهم إلى صراط مستقيم.

وهداية الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين تنقسم إلى قسمين، هداية الدلالة والإرشاد والبيان ـ وهذه عامة لهم ولغيرهم، وهداية التوفيق والقبول ـ وهذه خاصة بالمؤمنين.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي: إلى طريق معتدل لا اعوجاج فيه، بمعرفة الحق والعمل به، وهو صراطه المستقيم، كما قال ـ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٣ ، النور: ٤٦]، وقال ـ تعالى: ﴿وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ [الأنعام: ١٢٦]، وقال ـ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود: ٥٦]، وقال ـ تعالى: ﴿ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحجر: ٤١]، وقال ـ تعالى: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤) ـ من حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه.

ﵟٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗﵞ [الشورى: ٥٣]، وقال ـ عز وجل ـ لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢]، وهو صراط المنعم عليهم بالعلم النافع والعمل الصالح؛ كما قال ـ تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

ومن هداه الله وأرشده ووفقه للطريق المستقيم في الدنيا هداه إلى الطريق المستقيم في الآخرة، لجواز الصراط الحسي على متن جهنم ودخول الجنة.

قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ﴾ أي: ولا يزال الذين كفروا بالله وجحدوا شريعته في شك وريب من الحق الذي أنزل إليك وهو القرآن الكريم.

﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾ حتى لانتهاء الغاية، أي: حتى تأتيهم القيامة فجأة، ويحال بينهم وبين الإيمان، وسميت القيامة بالساعة لأنها محددة الوقوع، كما قال ـ تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ۝٣٠﴾ [سبأ: ٣٠].

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ ﴿أَوۡ﴾ عاطفة بمعنى الواو، أي: ويأتيهم عذاب يوم عقيم، وهو يوم القيامة.

ومعنى ﴿عَقِيمٍ﴾ أي: شر محض عليهم لا خير فيه البتة، كما قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾ [المدثر: ٩، ١٠].

وهذا كما سمى الله ـ عز وجل «الريح الدبور» التي أهلك بها عاداً بالريح العقيم، لأنها شر محض لا خير فيها، أهلكت كل شيء أتت عليه كما قال ـ تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢]. وقيل: سمي عقيماً لأنه لا ليل له.

ويحتمل كون ﴿أَوۡ﴾ على معناها وهو الأصل، والمراد باليوم العقيم يوم بدر الذي قتل فيه سبعون من صناديدهم، فهو عقيم بالنسبة لهم لا خير لهم فيه البتة، ويقوي هذا ذكر الساعة قبله، أي: أو يأتيهم عذاب يوم عقيم وهو يوم بدر؛ فيُقتَلون على الكفر.

ويقوي أن المراد به يوم القيامة: قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الحج: ٥٦]، أي: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ يوم تأتيهم الساعة، ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾.

الفوائد والأحكام:

١- تسلية النبي ﷺ تجاه ما يلاقيه من أعدائه من شياطين الجن والإنس ـ بذكر ما حصل للرسل والأنبياء ـ قبله ـ عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾.

٢- إثبات الرسالات والنبوات، وأنها جاءت من عند الله ـ عز وجل.

٣- الإشارة إلى كونه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾.

٤- أن النبي غير الرسول، وكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً؛ لقوله ـ تعالى: ﴿مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ والعطف يقتضي المغايرة.

٥- حرص الشيطان ـ لعنه الله ـ على تشكيك الناس فيما جاءت به الرسل والأنبياء والتلبيس عليهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾.

٦- حفظ الله ـ عز وجل ـ لوحيه ورسله وما أنزله عليهم، وإبطال ما يلقي الشيطان وإزالته، وإحكام آياته ـ عز وجل؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾.

٧- إثبات صفة العلم الواسع لله ـ عز وجل ـ والحكم التام بأقسامه الثلاثة، الكوني والشرعي، والجزائي، والحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾.

٨- ابتلاء الله ـ عز وجل ـ وامتحانه لمرضى القلوب وقساتها من المنافقين والكفرة بما يلقيه الشيطان للتلبيس عليهم وتشكيكهم في الدين؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾.

٩- عظم مشاقة الظالمين من مرضى القلوب وقساتها من المنافقين والكفرة وبُعدهم كل البعد عن الحق؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

١٠- أن الظلم كل الظلم بمعصية الله ـ عز وجل ـ ومخالفة أمره وتكذيب رسله وعبادة غيره.

١١- تثبيت الذين أوتوا العلم بمعرفتهم أن ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي من عند الله ـ عز وجل ـ هو الحق وإيمانهم به، وخضوع قلوبهم له، وعدم اغترارهم بما يلقيه الشيطان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾.

١٢- فضل العلم وأهله؛ لأن الله ـ عز وجل ـ امتدحهم بمعرفة أن ما جاءت به الرسل هو الحق وإيمانهم به وإخبات قلوبهم له.

١٣- تشريف وتعظيم ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي؛ لقوله: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ بالإضمار دون الإظهار.

١٤- تشريف الرسول ﷺ وتكريمه بإضافة اسم الرب ـ عز وجل ـ إلى ضميره ﷺ بقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

١٥- وعد الله ـ عز وجل ـ وتكفله للذين آمنوا بدلالتهم وإرشادهم وتوفيقهم إلى طريق مستقيم وهو معرفة الحق والعمل به، والذي يسعدون بسلوكه في الدنيا بالحياة الطيبة، ويسعدون في الآخرة بالنجاة من النار ودخول الجنة؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

١٦- استمرار الذين كفروا على ما هم عليه من المرية والشك والريب فيما جاءهم به الرسول ﷺ من الحق حتى تأتيهم القيامة وما فيها من العذاب الأليم والوعيد والتهديد لهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾.

* * *

قال الله ـ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

خاطب الله ـ عز وجل ـ في مطلع هذه السورة وفي ثناياها عموم الناس بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في أربعة مواضع، ثم ختم السورة بخطاب المؤمنين خاصة؛ لأنهم صفوة الناس والممتثلون لأمر الله ـ عز وجل.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يا أيها الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم.

﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ أي: انقادوا بجوارحكم للإيمان واركعوا واسجدوا لله ـ عز وجل ـ أي: صلوا. وعبر عن الصلاة بالركوع والسجود؛ لأنهما من أعظم أركان الصلاة.

قال ﷺ: «**فأما الركوع فعظموا فيه الرب ـ عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم**»(١).

وقال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**»(٢).

﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ من عطف العام على الخاص، أي: واعبدوا ربكم بأنواع العبادات كلها، من صلاة وزكاة وصيام وحج وجهاد وبر للوالدين وصلة للرحم وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وغير ذلك، وأخلصوا له فيها.

وإنما خص الركوع والسجود أولاً لعظم مكانة الصلاة بين سائر العبادات، فهي

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٧٩)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٦)، والنسائي في التطبيق (١٠٤٥)، وابن ماجه في تعبير الرؤيا (٣٨٩٩) ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي عمود الإسلام، وأفضل العبادات كلها، ولهذا فهي أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة، فإن قبلت قبل سائر عمله، وإن ردت رد سائر عمله كما جاء في الحديث[١].

﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ بأنواع الإحسان التي ليست بواجبة، وبخاصة الإنفاق في وجوه الخير كلها، فبعد أن أمر الله ـ عز وجل ـ بالعبادة الواجبة بأنواعها، عطف عليه الأمر بفعل الخير بأنواع الإحسان المستحبة قولاً وفعلاً وبذلاً.

وقد يكون هذا من عطف الأعم على العام. فيكون أولاً عطف العام على الخاص، ثم عطف على العام ما هو أعم منه. وعلى هذا يكون قوله: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ عامًّا لأنواع البر كلها الواجب والمستحب من العبادات وغيرها.

وقد يكون المراد بقوله: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ ما يتعدى نفعه إلى الناس من الزكاة والصدقات وحُسن المعاملة وصلة الأرحام ونحو ذلك.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي: لأجل أن تفلحوا، أو راجين أن تفلحوا.

والفلاح: الفوز والظفر والنجاح، الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة والنجاة من النار.

ويشرع السجود عند قراءة هذه الآية، كما يشرع السجود عند الآية: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الآية ١٨ من هذه السورة].

ويقول في سجود التلاوة مثل ما يقول في سجود الصلاة: «سبحان ربي الأعلى» والأولى أن يكررها ثلاثاً ـ ونحو ذلك، كما استحب بعضهم أن يقول: «اللهم لك سجدت، ولك عبدت، وبك آمنت وعليك توكلت، سجد وجهي لله الذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره بحوله وقوته».

وفي حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء رجل، فقال: يا رسول الله،

---

(١) أخرجه النسائي في الصلاة (٤٦٥)، والترمذي في الصلاة (٤١٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤٢٥) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي تحت شجرة فسجدتُ فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: «اللهم اكتب بها عندك أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود» قال ابن عباس: فقرأ النبي ﷺ سجدة ثم سجد، فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة»(١).

﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ هذا أيضاً معطوف على ما قبله. من عطف الأعم على العام، فأمر أولاً بالركوع والسجود، ثم أمر بالعبادة وفعل الخير من عطف العام على الخاص، ثم أمر بالمجاهدة في الله حق جهاده بأنواع المجاهدة كلها من عطف الأعم على العام، توكيداً لما قبله.

﴿فِى ٱللَّهِ﴾ ﴿فِى﴾ للسببية، أي: في ذات الله، ومن أجله، ونصرة لدينه.

و﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ مفعول مطلق، أي: الجهاد الحق الذي لا يشوبه تقصير.

والمجاهدة في الله حق جهاده: بذل الطاقة واستفراغ الوسع في طاعة الله ـ عز وجل ـ ومحبته ومرضاته ـ بالأنفس والأموال والأقوال والأفعال، وللنفس والشيطان وللمنافقين والكفار وليس في هذا تكليف ما لا يطاق، بل هو كقوله ـ تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، أي: حق تقاته مما تستطيعونه وتقدرون عليه؛ لقوله ـ تعالى ـ في الآية الأخرى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله ـ ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»(٢).

وجهاد النفس والشيطان واجب؛ جهاد النفس بمخالفة هواها وشهواتها، وحملها على طاعة الله ـ تعالى، والبُعد عن معصيته، وجهاد الشيطان بمدافعة

(١) أخرجه الترمذي في الجمعة ـ ما يقول في سجود القرآن (٥٧٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ سجود القرآن (١٠٥٣)، وقال الترمذي: «حديث غريب من حديث ابن عباس».

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٧٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، وابن ماجه في المقدمة (٢) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

وساوسه وتسويله.

وجهاد المنافقين ونحوهم من أهل البدع والمعاصي، وجهاد الكفار كل منهما واجب على الكفاية، وقد يتعين[١]. فجهاد المنافقين وأهل البدع والمعاصي بالحجة والبيان والبرهان، وجهاد الكفار المعاندين المعتدين بالسيف والسنان.

قال ابن القيم[٢]: «وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده، كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته، وحق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، فحق جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليُسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله، وبالله، لا لنفسه، ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه، فإنه يعد الأمانيَّ ويمني الغرور، ويعد الفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى، والعفة والصبر، وأخلاق الإيمان كلها فجاهده بتكذيب وعده، ومعصية أمره، فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان، وعدَّة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله، لتكون كلمة الله هي العليا».

وقال أيضاً: «وحق تقاته وحق جهاده: هو ما يطيقه كل عبد من نفسه، وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة والعجز، والعلم، والجهل، فحق التقوى وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء».

قوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ هذه الجملة كالتعليل لما قبلها، أي: وجاهدوا في الله حق جهاده شكراً لله ـ عز وجل؛ لأنه هو اجتباكم، أي: هو اختاركم واصطفاكم، وجعلكم أهله وخاصته وصفوته من خلقه ـ بعد النبيين والمرسلين، فخصكم بأفضل الرسل وسيدهم، وأعظم الكتب والمهيمن عليها، وأكمل الأديان، وفضلكم

---

(١) يتعين جهاد المنافقين وأهل البدع ونحوهم بالحجة واللسان والبرهان إذا لم يقم به أحد، أو لم يقم به من يكفي، كما يتعين جهاد الكفار في مواضع منها إذا كان في الصف، وإذا استنفره الإمام، وإذا هاجم العدو بلد المسلمين.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢٢٤).

وشرفكم على الأمم. قال ـ تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا**»(١).

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ لما أمر ـ عز وجل ـ بالمجاهدة فيه حق جهاده ربما يتوهم متوهم أن في هذا تكليف ما لا يطاق أو ما فيه ضيق ـ احترز من ذلك بقوله ـ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

الواو عاطفة، و«ما» نافية، ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لاستغراق العموم في النفي، أي: وما جعل عليكم في الدين الإسلامي أيَّ ضيق أو مشقة، ولم يكلفكم ما لا تطيقون بل يسر لكم غاية التيسير، كما قال ـ تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، وقال ـ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال ـ تعالى ـ في الحديث القدسي: «**قد فعلت**»(٢).

وقال ـ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)﴾ [الطلاق: ٧]، وقال ـ تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال ـ تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾ [الشرح: ٥، ٦]، أي: مع كل عسر يسران من الله ـ عز وجل، وقال ـ تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال ـ تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٦)، ومسلم في الجمعة (٨٥٥)، والنسائي في الجمعة (١٣٦٧) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٢) ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ٢٨﴾ [النساء: ٢٨].

ولهذا رخص الله ـ عز وجل ـ للمسافر قصر الصلاة الرباعية، والجمع بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، وعند الخوف تصلى رجالاً وركباناً، وإذا مرض الإنسان ولم يستطع القيام فيها صلى قاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنب، فإن لم يستطع أومأ بها إيماء. وشرع سجود السهو لجبر ما يحصل من سهو في الصلاة.

كما رخص في التيمم عن الحدث الأصغر والأكبر إذا لم يجد الإنسان الماء، أو لم يستطع استعماله.

ورخص بالمسح على الخفين يوماً وليلةً للمقيم وللمسافر ثلاثة أيام بلياليهن.

ورخص للمسافر والمريض في الفطر في نهار رمضان والقضاء، وكذا المرضع والحامل، ورخص للكبير والمريض الذي لا يرجى برؤه بالفطر والإطعام.

وأوجب الحج على المستطيع دون غيره، ويسر في أحكامه، فعن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع فجعلوا يسألونه، فقال رجل: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح. قال: «اذبح ولا حرج». فجاء آخر، فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي. فقال: «أرم ولا حرج». فما سئل يومه عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: «افعل ولا حرج»[(١)].

كما جعل جميع التكاليف حسب الوسع والطاقة والاستطاعة، وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً»[(٢)].

ولهذا فإن من قواعد الشريعة: «**أن المشقة تجلب التيسير**».

كما جعل ـ عز وجل ـ في التوبة والكفارات مخرجاً من الذنوب والمعاصي، وأباح في حال الاضطرار أكل الميتة واستعمال المحرم، وجعل الضرورات تبيح

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٠٦)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٤)، والترمذي في الحج (٩١٦)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٥١).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٦٠)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، وأبوداود في الأدب (٤٧٨٥).

المحظورات، قال ـ تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء: ١٢]، وعن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه: «**أن رسول الله ﷺ قضى أن لا ضرر ولا ضرار**»(١).

وعفا للأمة عن الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه، كما دل على ذلك قوله ـ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله ـ عز وجل ـ في الحديث: «**قد فعلت**»(٢).

وفي الحديث: «**إن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه**»(٣).

وأباح ـ عز وجل ـ جميع الطيبات وأحلها بلا حصر، وجعل الحرام محصوراً محدوداً معدوداً، قال ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٤٥]، وقال ـ تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١]، وقال ـ تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [الحج: ٣٠].

وبهذا رفع الله ـ عز وجل ـ عن هذه الأمة الأغلال التي كانت على من قبلهم، كما قال ـ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال ﷺ لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن: «**يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا**»(٤).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأحكام (٢٣٤٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٣) ـ من حديث أبي ذر الغفاري ـ رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد ـ ما يكره من الخلاف والتنازع في الحرب (٣٠٣٨)، ومسلم في الأشربة وفي الجهاد ـ الأمر بالتيسير وترك التنفير (١٧٣٣) ـ من حديث سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده ـ رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»(١).

قال ابن القيم(٢) في كلامه على الآية ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾: و«الحرج»: الضيق، بل جعله واسعاً يسع كل أحد، كما جعل رزقه يسع كل حي، وكلف العبد بما يسعه العبد، ورزق العبد ما يسع العبد، فهو يسع تكليفه، ويسعه رزقه، وما جعل على عبده في الدين من حرج بوجه ما، قال النبي ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة»(٣) أي: بالملة، فهي حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل، وقد وسع الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده غاية التوسعة في دينه، ورزقه، وعفوه، ومغفرته، وبسط عليهم التوبة مادامت الروح في الجسد، وفتح لهم باباً لها لا يغلقه عنهم إلى أن تطلع الشمس من مغربها، وجعل لكل سيئة كفارة تكفرها من توبة، أو صدقة، أو حسنة ماحية، أو مصيبة مكفرة، وجعل بكل ما حرم عليهم عوضاً من الحلال أنفع لهم منه وأطيب وألذ، فيقوم مقامه ليستغني العبد عن الحرام، ويسعه الحلال، فلا يضيق عنه، وجعل لكل عسر يمتحنهم به يسراً قبله ويسراً بعده، «فلن يغلب عسر يسرين» فإذا كان هذا شأنه ـ سبحانه ـ مع عباده، فكيف يكلفهم ما لا يسعهم فضلاً عما لا يطيقونه ولا يقدرون عليه».

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢٢٥).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦) ـ من حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة**». وأخرجه أحمد (٦/ ١١٦) ـ من حديث عائشة رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، وإني أرسلت بحنيفية سمحة**»، وأخرجه البخاري في الإيمان ـ باب الدين يسر ـ معلقاً بلفظ: «وقول النبي ﷺ: **أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة**»، وأخرجه أحمد (١/ ٢٣٦) موصولاً من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «**الحنيفية السمحة**»، قال ابن حجر في «فتح الباري» (١/ ٩٣، ٩٤): «إسناده حسن». وأخرجه أحمد (٣/ ٤٤٢) ـ من حديث التنوخي قال: قال رسول الله ﷺ: «**هل لك في الإسلام الحنيفية ملة إبراهيم أبيك**».

وقال السعدي(١): ويؤخذ من هذه الآية قاعدة شرعية، وهي: «أن المشقة تجلب التيسير، والضرورات تبيح المحظورات».

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ﴿مِّلَّةَ﴾ منصوب على الإغراء، أي: الزموا ملة أبيكم إبراهيم.

وقيل: منصوب على المصدرية بفعل مقدر يدل عليه قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: وسع عليكم في دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم.

وفيه امتداح وثناء على ما جاء به محمد ﷺ، وإغراء وحث على اتباعه؛ لأنه جاء بالحنيفية السمحة ملة إبراهيم ـ عليه السلام، ولهذا علَّم ﷺ المؤمنين أن يقولوا إذا أصبحوا وإذا أمسوا: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**»(٢).

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: الله ـ عز وجل ـ سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة، ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ أي: وسماكم المسلمين ﴿فِي هَٰذَا﴾ أي: في القرآن الكريم، كما في حديث الحارث الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله**»(٣).

فنوَّه بهم ـ عز وجل ـ وأثنى عليهم ـ في كتبه المتقدمة قبل وجودهم وسماهم المسلمين، ونوَّه بهم وأثنى عليهم بذلك في القرآن الكريم بعد وجودهم.

وقيل: إن الضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى إبراهيم، أي: إبراهيم سماكم المسلمين من

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٣٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٧)، والدارمي (٢/ ٢٠٢) حديث (٢٦٩١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» ص(١٩) ـ من حديث سعيد بن عبدالرحمن بن أبزى الخزاعي عن أبيه ـ رضي الله عنه، وقال النووي في «الأذكار» ص(٦٨): «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه الترمذي في الأمثال ـ ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة (٢٨٦٣) ـ وقال: «حديث حسن صحيح غريب»، وأحمد (٤/ ١٣٠، ٢٠٢)، وانظر: «كنز العمال» (٤٣٥٧٧).

قبل؛ لقوله: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨]، أي: إبراهيم سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا الكتاب وهذا الشرع مازال هذا اسمكم قديماً وحديثاً.

وفي قوله ـ تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا ﴾ امتنان من الله ـ عز وجل ـ على هذه الأمة، وتذكير لهم بفضله وإنعامه عليهم، باختيارهم من بين الأمم، ورفع الحرج عنهم، وهدايتهم إلى ملة أبيهم إبراهيم، وتسميتهم المسلمين في الكتب السابقة، وفي القرآن الكريم.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ اللام للتعليل، و«ال» في الرسول للعهد الذهني، أي: ليكون الرسول المعهود في الأذهان محمد ﷺ. والمعنى: أن الله ـ عز وجل ـ اجتباكم واصطفاكم واختاركم ورفع عنكم الحرج، ونوّه بكم وأثنى عليكم وسماكم المسلمين في الكتب المتقدمة، وفي القرآن الكريم لأجل أن يكون الرسول محمد ﷺ شهيداً عليكم ببلاغه لكم، وعلى استجابتكم واتباعكم له؛ كما قال ـ تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: ٤١]، وقال ـ تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ﴾ أي: ولأجل أن تكونوا أنتم ورسولكم شهداء على الناس بأن رسلهم قد بلغتهم رسالات الله إليهم، وذلك بما جاءكم من عند الله من الوحي على لسان رسوله محمد ﷺ؛ لأنكم أمة وسط عدول خيار، كما قال ـ تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقدمت شهادته ﷺ في الآية هنا لأنها في مقام التنويه بالدين الذي جاء به ﷺ بينما قدم في آية البقرة شهادة الأمة؛ لأن الآية صدرت بالثناء على الأمة.

فهو ﷺ بما فضله الله به على سائر الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يشهد على

أمته أفضل الأمم. وهم بما فضلهم الله به وشرفهم على سائر الأمم يشهدون هم ورسولهم على الأمم قبلهم بأن الرسل عليهم الصلاة والسلام ـ بلغوهم رسالات الله.

وبهذا تكون هذه الأمة المحمدية شاهدة على الأمم ومشهوداً عليها بشهادة الرسول ﷺ.

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك وأقل، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيُدعى قومه، فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: لا. فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتدعى أمة محمد، يقال: هل بلغ هذا؟ فيقولون: نعم. فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبينا بذلك أن الرسل قد بلغوا فصدقناه. قال: فذلكم قوله ـ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾**»(١).

وفي رواية عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجيء نوح وأمته، فيقول الله ـ تعالى: هل بلغت؟ فيقول: نعم، أي رب. فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي. فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته. فنشهد أنه قد بلغ، وهو قوله ـ جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾** والوسط العدل»(٢).

﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: فقابلوا نعمة الله عليكم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله ـ عز وجل ـ حيث اصطفاكم واختاركم من بين الأمم ورفع الحرج عنكم بما شرعه لكم من الحنيفية السمحة ملة أبيكم إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسماكم المسلمين في الكتب السماوية السابقة وفي القرآن

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير (٢٩٦١)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٤).
(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٣٩)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٤).

الكريم، وجعل الرسول محمداً ﷺ شهيداً عليكم، وجعلكم شهداء على الناس، فكل هذا موجب لشكر الله ـ عز وجل ـ بطاعته، وفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: صلوها قائمة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها. والأمر للوجوب.

والصلاة لغة: الدعاء، قال ـ تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، أي: ادع لهم.

وفي الحديث: أن رجلاً سأل النبي ﷺ قائلاً: هل بقي من بر أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «**نعم، الصلاة عليهما**»(١). أي: الدعاء لهما.

قال الشاعر:

تقول بنتي وقد قرَّبتُ مرتحلاً ... يا ربّ جنِّب أبي الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صليت فاغتمضي ... نوماً فإن لجنب المرء مضطجعاً(٢)

والصلاة شرعاً: التعبد لله ـ عز وجل ـ بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

والمراد بالصلاة الفرائض المكتوبات، وقد يحمل الأمر على ما هو أعم من الواجب، فيشمل الفرائض والنوافل.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: وأعطوا الزكاة لمستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهم، والأمر للوجوب والمراد بالآية الزكاة الواجبة، وقد يحمل الأمر على ما هو أعم من الواجب، فيشمل الزكاة الواجبة وغيرها من النفقات الواجبة والمستحبة.

والزكاة لغة: النماء والزيادة والتطهير.

---

(١) أخرجه أبوداود في الأدب (٥١٤٢)، وابن ماجه في الأدب (٢٦٦٤) ـ من حديث مالك بن ربيعة الساعدي ـ رضي الله عنه.

(٢) البيتان للأعشى، انظر: «ديوانه» ص(١٥١).

وشرعاً: حق مالي مخصوص، في مال مخصوص، لطائفة مخصوصة، في وقت مخصوص.

وسميت الزكاة بهذا الاسم لأنها تزكي المال وتنميه وتزيده، وتقيه بإذن الله ـ عز وجل ـ الآفات، قال ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال بل تزيده**»(١)، وقال ﷺ: «**ما هلك مال في بر ولا بحر إلا بسبب منع الزكاة**»(٢).

كما أنها تزكي وتطهر نفس صاحب المال من رذيلة البخل والشح.

وتطهر أيضاً أنفس من تدفع إليهم من الفقراء والمساكين وغيرهم من الحقد والضغينة على إخوانهم الأغنياء، ومن اللجوء إلى كسب المال من طرق محرمة من الغصب والسرقة، وارتكاب الأعمال المحرمة من أجل ذلك.

فهي تزكية وتطهير ونماء للمال، وتزكية وتطهير لنفس الغني والفقير والمسكين ونحوهما، وتزكية وتطهير ووقاية للمجتمع الإسلامي من الجرائم والفواحش، ولهذا قال ﷺ: «**واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**»(٣).

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: التجئوا إلى الله وتمسكوا بحبله واستعينوا به وتوكلوا عليه، كما قال ـ عز وجل: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والاعتصام: افتعال من العَصْم، وهو: المنع من الضُرّ والنجاة، قال ـ تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ﴾ [هود: ٤٣].

﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: هو ـ عز وجل ـ متوليكم وحافظكم وناصركم على

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٨)، والترمذي في البر و الصلة (٢٠٢٩) ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه**».

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١/ ٢٤) ـ من حديث عبادة بين الصامت ـ رضي الله عنه. وانظر: «كنز العمال» (٦/ ٥٢٥).

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٨) ـ من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه.

أعدائكم.

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ أي: فنعم الولي كامل الولاية عظيمها و﴿ٱلْمَوْلَىٰ﴾ من يجلب النفع.

﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي: عظيم النصرة والمعونة، و﴿ٱلنَّصِيرُ﴾ من يدفع الضر.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تكريماً وتشريفاً لهم وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من الطلب يعد من مقتضيات الإيمان وعدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان؛ لقوله ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٣- وجوب الركوع والسجود لله ـ عز وجل ـ والصلاة له وعبادته وحده بأنواع العبادة كلها؛ لقوله ـ تعالى: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾.

٤- الترغيب في فعل الخير عموماً قولاً وفعلاً وبذلاً؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾.

٥- أن الإيمان بالله والركوع والسجود والصلاة له ـ عز وجل ـ وعبادته وحده، وفعل الخير كل ذلك سبب للفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، والفوز بالجنة والنجاة من النار؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

٦- مشروعية السجود عند قراءة هذه الآية، عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله، أَفُضِّلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: «**نعم، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما**»[1].

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة ـ تشريع سجود السهو (١٤٠٢)، والترمذي في الجمعة ـ السجدة في الحج (٥٧٨)، وأحمد (٤/ ١٥١-١٥٥)، وقال الترمذي: «حديث ليس إسناده بالقوي».

وعن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ «أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في المفصل، وفي الحج سجدتان»[(١)].

وعن أبي الجهم أن عمر ـ رضي الله عنه ـ سجد سجدتين في الحج، وهو بالجابية، وقال: «إن هذه فضلت بسجدتين»[(٢)].

٧- وجوب المجاهدة في الله حق جهاده قدر الوسع والطاعة، بالأموال والأنفس والأفعال والأقوال، جهاداً عامًّا، وجهاداً خاصًّا؛ للشيطان والنفس والهوى، وللمنافقين والكفار وغيرهم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾.

٨- نعمة الله ـ عز وجل ـ على هذه الأمة المحمدية حيث فضلهم واختارهم من بين الأمم، ورفع عنهم الحرج، وجعلهم على ملة أبيهم إبراهيم، وسماهم المسلمين في الكتب المتقدمة، وفي القرآن الكريم، وجعل الرسول ﷺ شهيداً عليهم، وهم شهداء على الناس، وفي ذلك تكريم وتشريف لهم على سائر الأمم؛ لقوله ـ تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾.

٩- شهادة الرسول ﷺ على أمته، وشهادة أمته على الناس؛ لقوله ـ تعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾.

١٠- تقرير قاعدة «**المشقة تجلب التيسير**» والأخذ بأيسر الأمرين ما لم يكن إثماً؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾.

١١- وجوب شكر الله ـ عز وجل ـ على ما أنعم به على هذه الأمة بالمجاهدة فيه حق جهاده وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله؛ لقوله ـ تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة ـ تشريع سجود السهو (١٤٠١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ عدد سجود السهو (١٠٥٧).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٠٠).

١٢- عظم مكانة الصلاة والزكاة بين العبادات؛ لأن الله خصهما بالذكر من بين سائر العبادات.

١٣- وجوب الاعتصام بالله واللجوء إليه وحده، والتوكل والاعتماد عليه وحده فلا ملجأ منه إلا إليه.

١٤- أن الله ـ عز وجل ـ هو مولى الذين آمنوا حافظهم وناصرهم ومتولي أمورهم، وجالب الخير لهم، ودافع الشر عنهم، فنعم المولى ونعم النصير؛ لقوله ـ تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

* * *

الفهـــارس

أ ـ فهرس تخريج الأحاديث والآثار

ب ـ فهـــرس الأشـــعار

جـ ـ فهرس أهم الموضوعات

أ ـ فهرس تخريج الأحاديث والآثار

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
(أ)		
آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾..	البراء بن عازب	٣٠٣
آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع..	ابن عباس	٢٠٤
أتدري ما حق الله على العباد؟..	معاذ	٧٢
أتعرف الزنا؟ قال: نعم، أتيت منها حراماً	أبو هريرة	٤٨٠
أتقرأ سورة الحج؟ يقول الله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾	ابن عباس	٥٤٠
أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، ما تقول في الغنيمة؟ فقال: لله خمسها.	عبدالله بن شقيق عن رجل من بلقين	٢٠٢
أُتي رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين..	ابن عباس	٥٦١
أُتي رسول الله ﷺ بمال من البحرين فقال: انثروه في المسجد.	أنس بن مالك	٥٨٥
الإثم ما حاك في صدرك..	النواس بن سمعان	١٧
اجتنبوا السبع الموبقات..	أبو هريرة	١٢٩
أجعلتني والله عدلاً ما شاء الله وحده..	ابن عباس	١٣٩
احتكار الطعام بمكة إلحاد	يعلى بن أمية	٥١٩
الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه..	أبو هريرة	٤٠٨، ٥٧٧
أحلت لنا ميتتان ودمان	ابن عمر	٤٣
أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما قالوا..	محمد بن عمار	٤٤٥
أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك	أبو هريرة	٢٤٩
إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه	أبو هريرة	٢٩٦
إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران	عمرو بن العاص	٥٠٥
إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك	أبو هريرة	٣٧٦
إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف	ابن عباس	٢٣٥
إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم	أبو هريرة	٦١٤

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ يقول: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه	ابن عباس	٦٠١
إذا رأيتم هلال ذي الحجة وأراد أحدكم أن يضحي فليمسك عن شعره وأظفاره	أم سلمة	٥٤٣
إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده..	أم سلمة	١٥٣
إذا لقيت عدوك فادعهم إلى ثلاث خصال..	بريدة	٣٧٠
إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث..	أبو هريرة	٤٥٨
أربع لا تجزئ في الأضاحي: العوراء البين عورها..	البراء بن عازب	٥٣٤
ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى..	أسامة بن زيد	٢٢١
اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها حتى تجد ظهراً	جابر بن عبدالله	٥٥٧
ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً..	سلمة بن الأكوع	٢٥٤
استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي..	أبو هريرة	٤٥٩
أصابنا من الليل طش من مطر..	علي	١٢٠
أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص..	سعيد بن عبدالرحمن ابن أبزى الخزاعي عن أبيه	٦٢٠
أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه..	أبو سعيد الخدري	٤٠٠
أعتق النسمة وفك الرقبة..	البراء بن عازب	٣٩٩
اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام	أبو مسعود البدري	١٤٩
أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة..	ابن عباس	٤٠٣
أفرى الفرى أن يُري عينيه ما لم تر	ابن عمر	٤٨٧
أقام رسول الله ﷺ في المدينة عشر سنين يضحي	ابن عمر	٥٤٣، ٥٨٠
أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد..	عبدالله بن عمرو بن العاص	٤٦١
أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله	أسامة بن زيد	١٩٧
أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد	أبو هريرة	٥٢٨، ٦١٢
اقسم جلودها وجلالها ولا تعط الجزار منها شيئاً	علي	٥٣٧
أقيموا صفوفكم ثم ليؤمكم أحدكم..	أبو هريرة	٧٩

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
ألا أنبئكم بأكبر الكبائر..	أبوبكرة	٤٦٨، ٥٥١
ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض	أبوبكرة	٣٨٣
ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله..	النعمان بن بشير	٣٥٠، ٤٨٩، ٦٠٨
ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه	المقدام بن معدي كرب	٤٢
ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها	جابر بن سمرة	٨٣
ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي..	جابر	٣٣٢
ألا مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها..	أسامة بن زيد	١٠٠
البسوا من ثيابكم البياض	ابن عباس وسمرة	٦٧
ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر	ابن عباس	٣٠٢
اللهم أنشدك عهدك ووعدك..	ابن عباس	١١٢
أما علمت أن الإسلام يجب ما قبله..	عمرو بن العاص	٢٨٥
أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها..	عمرو بن العاص	٣٠٩
أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا..	ابن عمر	١٩٤، ٣١٩
أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله..	أنس	٣١٧
أمرت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة..	عبدالله بن مسعود	٣٢٢
أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم..	ابن عباس	١٥٢
أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن	علي	٥٥٦
أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف..	ابن عباس	٥٣٩
أن إبراهيم عليه السلام قال: يا رب وما يبلغ صوتي	-	٥٢٩
أن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه	عبدالله بن عمر	٤٦٤
أنا بريء من أيّ مسلم يقيم بين أظهر المشركين..	جرير بن عبدالله	٢٩٢
أن ابن عمر أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير..	نافع	١٩٥
إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة..	ابن مسعود	٦٠
إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة	عبدالله بن مسعود	٤٣٥
أنا أغنى الشركاء عن الشرك..	أبوهريرة	٥٩

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
أنا فئة كل مسلم	عمر بن الخطاب	١٢٨
إن أهل الجنة ليتراءون الغرف من فوقهم..	أبوسعيد الخدري	٩٩
إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر..	البراء بن عازب	٥٤٤
الأنبياء أولاد علات..	أبوهريرة	٥٦٣
أنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء	أبوهريرة	٤٧٤
أنت ومالك لأبيك	عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وجابر وعائشة وابن عمر	٤٦٣
إن الحلال بيّن والحرام بيّن..	النعمان بن بشير	٥٤٨
أن رجلاً أتى ابن عمر فقال: يا أبا عبدالرحمن ما حملك على أن تحج عاماً وتعتمر عاماً..	نافع	١٩٥
أن رجلاً سأل النبي ﷺ قائلاً: هل بقي من بر أبويّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟..	مالك بن ربيعة الساعدي	٦٢٣
أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أخبرني بعمل يدخلني الجنة..	أبوأيوب	٤٦٩
إن رحمتي سبقت غضبي	أبوهريرة	٤٠
إن الرحم لتقطع وإن النعمة لتكفر..	عبدالله بن عباس	٢٦٥
أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة من القرآن..	عمرو بن العاص	٦٢٦
أن رسول الله ﷺ أمر بكبش أقرن يطأ في سواد..	عائشة	٥٧١
أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر..	جابر	٥٦٢
أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً كان يسوق بدنة قال: اركبها..	أبوهريرة	٥٥٧
أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن فحيل يأكل في سواد..	أبوسعيد الخدري	٥٥٥
أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين	أنس	٥٥٥
أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين..	أبورافع	٥٥٥
أن رسول الله ﷺ قضى أن لا ضرر ولا ضرار	ابن عباس وعبادة ابن الصامت	٦١٨،١٥
أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين	أبورافع	٥٧١

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدن معقولة اليسرى..	جابر	٥٧٠
أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع فجعلوا يسألونه..	عبدالله بن عمرو	٦١٧
أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة..	ابن عمر	٣٠٧
إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب	عبدالله بن الخيار	٣٩٦
إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك..	أبوسعيد الخدري	١٨١
إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم	صفية	٥٢
إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد	عبدالمطلب بن ربيعة والفضل بن عباس	٣٩٧
أن الصلاة أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة..	أبوهريرة	٦١٣
انطلق سعد بن معاذ معتمراً، قال: فنزل على أمية بن خلف..	عبدالله بن مسعود	١٨٢
إن عفريتاً من الجن تفلّت عليّ البارحة..	أبوهريرة	٥٢
أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية داراً بمكة فجعلها سجناً..	-	٥٢٢
أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تبوب دور مكة..	عطاء	٥٢٣
أن عمر بن الخطاب لم يكن يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده..	بجالة	٣٧٠
إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا..	أبوأمامة	٤٨١
أنفقي ولا تحصي فيحصي الله عليك..	أسماء بنت أبي بكر	٤٧٦
إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين..	أبوهريرة	٣٥٧
إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الله..	عبدالله بن عمرو	١٥٠
إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس	سعد بن أبي وقاص	٤٧٣

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً..	سلمان الفارسي	٤٠٧
أن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: هل رضيتم..	أبوسعيد	٣٥٦
إن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه	أبوذر الغفاري	٦١٨
إن الله تعالى لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات..	زياد بن الحارث الصدائي	٣٩٤
إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات..	المغيرة بن شعبة	٤٦٨
إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها..	ثوبان	١٨١
أن الله عز وجل يقرر المؤمن بذنوبه..	ابن عمر	٢٨٣
إن الله فرض عليكم الحج فحجوا	أبوهريرة	٥٤٢
إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم	سعد بن أبي وقاص	٣٦٩، ٤٧٨
إن الله كتب الإحسان على كل شيء..	شداد بن أوس	٤٠٨، ٥٧٢
إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها في الدنيا..	أنس بن مالك	٤٢٤
إن الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة..	عمر بن الخطاب	١٥٣
إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم..	أبوهريرة	٤٥٩، ٥٧٦
إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقي من أموالكم	ابن عباس	٣٧٥
إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر	أبوهريرة	٥٩٠
إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة	جابر	٣٨
إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة..	عقبة بن عامر	٢٥٤
إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره..	ابن عمر	٣٦
إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي..	أم سلمة	٥٠٣
إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد	جبير بن مطعم	٢٠٣
إنما جعل الإمام ليؤتم به..	أبوموسى	٧٩
إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش..	كعب بن مالك	٢٠٩
إنما سمي البيت العتيق لأن الله أعتقه من الجبابرة..	عبدالله بن الزبير وابن عباس	٥٤٠
إنما شرع الطواف والسعي ورمي الجمار لإقامة ذكر الله	عائشة	٥٧٥
إن المؤمن لا ينجس	أبوهريرة	٣٦٢

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
إنما يرحم الله من عباده الرحماء	أسامة	٤٥٧
إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده تحاتّت عنهما ذنوبهما..	أبوهريرة	٢٦٥
أن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه وسبوا من أنزله..	ابن عباس	٨١
أن المشركين قالوا للمسلمين ما قتل ربكم فلا تأكلون..	ابن عباس	١٩
أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت يقولون لبيك..	ابن عباس	١٧٩
أن المشركين كانوا يفخرون بالحرم..	-	٣٥٢
إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه..	عبدالله بن عمرو ابن العاص وعبدالله بن عمر	٨، ٤٥٧
إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر..	-	٤٧٨
أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائط رجل فأفسدته..	حرام بن محيِّصة عن أبيه	٥٠٠
أن النبي ﷺ دعا إلى الصدقة فجاء عمر بنصف ماله..	عمر بن الخطاب	٤٧٢
أن النبي ﷺ عدها في سجدات القرآن ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ.. ﴾	أبوالدرداء	٨٤
أن النبي ﷺ قال يوم بدر: هذا جبريل آخذ برأس فرسه..	ابن عباس	١١٤
أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس.	ابن عباس	٦٠٥
أن النبي ﷺ مر بشاة ميتة فقال: هلا استمتعتم بإهابها..	ابن عباس	٤٣
أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة..	ابن عباس	١٧٣
أنه أتى رجل قد أناخ بدنة وهو ينحرها..	ابن عمر	٥٧٠
أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت الغزو..	جاهمة السلمي	٤٦٢
أنها قالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون..	زينب بنت جحش	١٥٣
إنها ليست بنجس إنها من الطوافين عليكم والطوافات	أبوقتادة	٥٢٧

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
أنه انتهى إلى حصن أو مدينة فقال لأصحابه: دعوني أدعوهم..	سلمان الفارسي	٢٤٨
أنه بعث إلى النبي ﷺ بذهيبة في تربتها من اليمن..	علي وأبوسعيد	٣٩٨
إن هذا البلد حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة	ابن عباس	٥٢١
إن هذه الأقدام بعضها من بعض	عائشة	٤٩٨
إن هذه غنائمكم وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم	عبادة	٢٠٢
إنه سيكون بعدي اختلاف	علي	٢٦٠
إنه سيلحد فيه رجل من قريش..	عبدالله بن عمر	٥١٩
أنه ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين	أنس	٥٨٠
أنه ﷺ كان يأخذ من الخمس نفقته ونفقة عياله..	عمر بن الخطاب	٢٠٢
أنه ﷺ لما رجع إلى منى بدأ برمي جمرة العقبة..	جابر	٥٣٩
أنه لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام..	ابن عباس	١٠٣
أنهما كانا يخرجان إلى السوق فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما	-	٥٣٥
أنه مر على النبي ﷺ وهو جالس بفناء بيته فكشر إلى رسول الله ﷺ	عثمان بن مظعون	٤٠٦
إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام..	جبير بن مطعم	٢٠٣
إن الولد مبخلة مجبنة	يعلى العامري	١٦٨
إني أحرج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة	أبوهريرة	٤٨٤
إني لأعرف كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد..	سليمان بن صرد	٤٤١
إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه..	سعد بن أبي وقاص	٣٩٧
إني مبتليك ومبتلٍ بك	عياض بن حمار	١٣١
أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تندّدون وإنكم تشركون..	قتيلة	١٣٩
أهدى النبي ﷺ مائة بدنة..	جابر	٥٧٣
إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح..	عبدالله بن عمرو	٤٧٦
إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث	أبوهريرة	٤٨٧
أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا	أبوهريرة	٥٢٩

الحديـــث أو الأثـــر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
(ب)		
بئس مطية الرجل زعموا	حذيفة أو أبومسعود	٤٨٧
بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة	عبادة بن الصامت	٤١٤
بشر الكنّازين برضْفٍ يحمى عليه في نار جهنم..	أبوذر	٣٧٩
بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة	زيد بن يثيع	٣١٠
بعثت بالحنيفية السمحة	أبوأمامة وعائشة وابن عباس	٦١٩
بعثني أبوبكر في تلك الحجة في المؤذنين..	أبوهريرة	٣٠٧
بعثني أبوبكر في الحجة التي أمّره رسول الله ﷺ عليها..	أبوهريرة	٣٠٦
بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده..	عائشة	١٨٣
بني الإسلام على خمس..	ابن عمر	٥٤٢
بينا النبي ﷺ يقسم جاء عبدالله بن ذي الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله..	أبوسعيد الخدري	٣٩١
بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من بني سلمة فقال: يا رسول الله هل بقي من بر أبويّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟	أبوأسيد مالك بن ربيعة الساعدي	٤٦٤
بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة	جابر	٣٢١
بينما امرأتان معهما ابنان لهما جاء الذئب فأخذ أحد الابنين فتحاكمتا إلى داود..	أبوهريرة	٥٠٤
(ت)		
تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها..	قبيصة بن مخارق الهلالي	٣٩٩
تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق..	مقسم عن ابن عباس	١٧٥
تُعْدَل شهادة الزور بالشرك..	عبدالله بن مسعود	٥٥١
تعظيمها: استحسانها واستسمانها	ابن عباس	٥٥٥
التقوى هٰهنا ويشير إلى صدره	أبوهريرة	٥٥٦

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
توضأ النبي ﷺ من مزادة مشركة	أبوهريرة	٣٦٨
توفي رسول الله ﷺ وأبوبكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوائب..	علقمة بن نضلة	٥٢٣
(ث)		
ثلاثة حق على الله عونهم: الغازي في سبيل الله..	أبوهريرة	٣٩٩
ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن..	أبوهريرة	٤٦٨
(ج)		
جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته	ابن عباس	٢٢٤
جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه..	الصلب بن الحكيم عن أبيه عن جده	٨١
جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد فقال: أحي والداك..	عبدالله بن عمرو بن العاص	٤٦١
جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني..	أبوهريرة	٤٧١
جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟	أبوهريرة	٤٦٥
جاء رجل إلى النبي ﷺ يبايعه على الهجرة وترك أبويه يبكيان..	عبدالله بن عمرو بن العاص	٤٦٢
جاء رجل فقال: يا رسول الله، إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي تحت شجرة..	ابن عباس	٦١٣
جعل ﷺ لسلمة بن صخر صدقة بني زريق	أبوهريرة	٤٠٣
(ح)		
الحج عرفة	عبدالرحمن بن يعمر	٣٠٨
الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة	أبوهريرة	٥٣٢
الحمد لله الذي رزقني من الرياش	علي	٨٤
الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت خولة..	عائشة	١٣١

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ قال: حجاجاً لله..	ابن عباس	٥٥٢
(خ)		
خاصمت اليهود أو جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: نأكل ما قتلنا..	ابن عباس	٢٠
الخال وارث من لا وارث له يرث ماله ويعقله	المقدام الكندي	٣٠٢
خذوا عني مناسككم	جابر	٥٣١
خرجنا مع رسول الله ﷺ مهلين بالحج..	جابر بن عبدالله	٥٦٧
خلقت الملائكة من نور..	عائشة	١١٣
خمس صلوات في اليوم والليلة..	طلحة بن عبيدالله	٤٠٨
خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى..	أبوهريرة	٤٧٠
الخيل ثلاثة: ففرس للرحمن وفرس للشيطان..	عبدالله بن مسعود	٢٥٥
الخيل لثلاثة: لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر..	أبوهريرة	٢٥٥
الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم	عروة بن جعد البارقي	٢٥٤
الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة وأهلها معانون عليها..	سهل بن الحنظلية	٢٥٦
(د)		
دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي..	ابن عباس	١٧٤
دخل عليّ رسول الله ﷺ فزعاً مرعوباً يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب..»	زينب بنت جحش	٥٩٥
الدعاء هو العبادة	النعمان بن بشير	٥٩
دع ما يريبك إلى ما لايريبك	الحسن بن علي	٤٨٧
دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه	جابر	٢٥٨
دعوات كان رسول الله ﷺ يكثر أن يدعو بها «يا مثبت القلوب..»	عائشة وأم سلمة	١٥٠
دعوني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم..	أبوهريرة	٢١٠
دم عفراء أحب إليّ من دم سوداوين	أبوهريرة	٥٥٥

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
(ذ)		
ذبح ﷺ عن أزواجه بقراً وكن قارنات..	عائشة	٥٤٧
ذبح النبي ﷺ يوم النحر كبشين أقرنين أملحين..	جابر	٥٦٢
ذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة..	قتادة	٢٢٧
﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ أي: من مكة إلى المدينة	ابن عباس	٥٨٩
(ر)		
الراحمون يرحمهم الرحمن..	عبدالله بن عمرو	٤٥٧
رؤيا الأنبياء وحي	عبيد بن عمير	٢١٢
رأيت في الجاهلية قِرْدة اجتمع عليها قِرَدة..	-	٤٨١
رغم أنفه ثم رغم أنفه ثم رغم أنفه..	أبوهريرة	٤٦١
رفع رسول الله ﷺ يديه ـ يعني يوم بدر ـ فقال: «يا رب، إن تهلك هذه العصابة..»	ابن عباس	١٣٠
رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم..	علي	١٤٥
(س)		
سألت رسول الله ﷺ عن المعوذتين فقال: قيل لي..	أبي بن كعب	٣٢
سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله عز وجل؟ قال: الصلاة على وقتها	عبدالله بن مسعود	٤٦١
سباب المسلم فسوق وقتاله كفر	عبدالله بن مسعود	٢١
سبحانك لا أحصي ثناءً عليك..	عائشة	٥٧٤
سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله..	أبوهريرة	٢٢١
سُمِّي نبينا المقفِّي	حذيفة	٤٨٦
(ص)		
الصدقة على ذي الرحمن اثنتان: صدقة وصلة	سلمان بن عامر	٤٧٠
صلاة الأوابين عندما ترمض الفصال	زيد بن أرقم	٤٦٠
صلوا كما رأيتموني أصلي	مالك بن الحويرث	٥٣١
﴿صَوَآفَّ﴾ قال: قائمة على ثلاثة معقولة إحدى يديها	ابن عباس	٥٧٠
الصوامع التي تكون فيها الرهبان..	ابن عباس	٥٩١

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
صيام يوم عرفة أحتسب على الله..	أبو قتادة	٥٣٥
(ط)		
طوبى لمن هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع	فضالة بن عبيد	٤٢٤
(ع)		
العجماء جرحها جبار	أبو هريرة	٥١٢
العز إزاره والكبرياء رداؤه	أبو سعيد وأبو هريرة	١٧٦
عفي لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه	أبو ذر	٤٤٦
العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر	بريدة	٣٢١
(ف)		
فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله	الحارث الأشعري	٦٢٠
فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل..	ابن عباس	٦١٢
فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم	أنس	٣٩٨
فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف..	زيد بن ثابت	٣٠٤
فكلوا وادخروا وتصدقوا	عبدالله بن واقد	٥٣٧
فلما سلمت على رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور..	كعب بن مالك	١١٥
فهلك في شأني من هلك	عائشة	٢١٠
فوالله ما الفقر أخشى عليكم..	عمرو بن عوف الأنصاري	٣٧٧
فيقول الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا..	ابن عمر	٩٩
فينا نزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾..	عثمان بن عفان	٥٩٠
فيّ نزلت ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ..﴾	العباس	٢٨٤
فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت..	سهل بن سعد الساعدي	١٠٠
(ق)		
قال أبو جهل: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ..﴾	أنس بن مالك	١٧٨
قال أحدهم: اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران..	عبدالله بن عمرو	٤٦٢

الحديـــث أو الأثـــر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت..	أبوهريرة	٥١
قال الله عز وجل: أنفق أنفق عليك	أبوهريرة	٤٧٦
قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري	أبوهريرة	١٧٦
قال المشركون لما فتر الوحي: ودعه ربه وقلاه فأنزل الله..	جندب بن سفيان	٢٦٢
قالوا: يا محمد، لتنتهين عن سب آلهتنا..	ابن عباس	٧
قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ	أم هانئ	٣٢٥
قد أفلح من أسلم وجهه لله ورزق كفافاً	عبدالله بن عمرو بن العاص	٤٢٣
قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع..	علي	١٦٥
قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا..	أسماء بنت أبي بكر	٤٦٤
القضاة ثلاثة: قاض في الجنة وقاضيان في النار..	سليمان بن بريدة	٥٠٤
قلت أو قالوا: يا رسول الله، ما هذه الأضاحي؟ قال: سنة أبيكم إبراهيم..	زيد بن أرقم	٥٦٢
قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: تلك سورة بدر	سعيد بن جبير	٨٧
قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر	سعيد بن جبير	٨٧
قلت: يا رسول الله، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين..	عقبة بن عامر	٦٢٥
قلت: يا رسول الله، أيّ الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك..	عبدالله بن مسعود	٤٨٠
قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام..	أبوذر	٥٢٥
قلنا للزبير: يا أبا عبدالله، ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة..	مطرف	١٥٤
قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾..	ابن عباس	٣٨٥
قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يقول: إن أولئك هم المفلحون..	ابن عباس	٣٥٠
قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ..﴾ قال: قالوا: يا محمد، أمّا ما قتلتم وذبحتم فتأكلونه..	ابن عباس	١٩

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وذلك يوم بدر..	ابن عباس	٢٨١
قوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾ يعني: إن استنصركم الأعراب المسلمون..	ابن عباس	٢٩٤
قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ وكان العباس أسر يوم بدر..	ابن عباس	٢٨٤
قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض..	أنس	٢٧٢
(ك)		
كان أصحاب محمد لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفرغير الصلاة	عبدالله بن شقيق	٣٢٢
كانت تحتي امرأة أحبها وكان أبي يكرهها فأمرني أن أطلقها..	عبدالله بن عمر	٤٦٤
كان الرجل على عهد رسول الله ﷺ يضحي بالشاة عنه وعن أهل بيته..	أبوأيوب	٥٨١
كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه..	بريدة بن الحصيب	٢٩٣
كان رسول الله ﷺ إذا رجع من سفر قال: آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون	أنس	٤٦٠
كان ﷺ إذا سر استنار وجهه..	كعب بن مالك	٥٦٣
كان ﷺ يدعو ويقول: اللهم اجعل في قلبي نوراً..	ابن عباس	٢٤
كان ﷺ يكثر من قوله: يا مقلب القلوب والأبصار..	أنس	٢٦٤
كان المسلمون يسبون أوثان الكفار..	قتادة	٧
كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام..	ابن أبي ليلى عن مزيدة	٤١٣
كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاري..	ابن عباس	٢٩٢
كان الناس يحجون وهم مشركون..	أبوبكر الصديق	٥٥٢

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر..	حذيفة بن اليمان	١٨
كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك..	النواس بن سمعان	١٥٠
كانوا يتكلمون في الصلاة..	أبوهريرة	٨٠
كانوا يطوفون بالبيت عراة	ابن عباس	٦٦
الكبر بطر الحق وغمط الخلق	عبدالله بن مسعود	٢٢٢
كرم أنبتت عناقيده فأفسدته قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم..	عبدالله بن مسعود	٥٠٢
كل أمتي معافى إلا المجاهرين	أبوهريرة	١٨
الكلب الأسود شيطان	أبوذر	٥١٠
كل عرفة موقف..	جبير بن مطعم	٥٤٦
كل عمل ابن آدم له يضاعف الحسنة عشر أمثالها..	أبوهريرة	٢٦٨
كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان..	ابن عباس	٦٨
كل الناس يغدو فبائع نفسه..	أبومالك الأشعري	٢٦
كلوا وأطعموا وادخروا	سلمة بن الأكوع وبريدة	٥٣٧
كلوا وتصدقوا والبسوا في غير سرف ولا مخيلة	عمرو بن شعيب	٦٨
كلوا وتصدقوا والبسوا وتصدقوا..	عن أبيه عن جده	
كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل: كلا والله وبلى والله	عبدالله بن عمر	٥١٩
كنا ننحر البدنة عن سبعة..	جابر	٥٦٧
كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة..	عبدالله بن مسعود	٧٩
كنت عند عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فأتاه رجل فقال: «إن الله يقول: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾	أيوب بن عبدالله اللخمي	١٩٥
كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل...	النعمان بن بشير	٣٥١

الحديـــث أو الأثـــر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة..	عبدالله بن عمر	١٢٧
كنت مع علي حيث بعثه النبي ﷺ ينادي..	أبوهريرة	٣١٠
(ل)		
لا أحد أغير من الله..	عبدالله بن مسعود	٧٢
لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً..	أسامة بن زيد	١٩٦
لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام..	أبوهريرة	٣٦٧
لا تتمنوا لقاء العدو..	عبدالله بن أبي أوفى وعبدالله بن عمرو	١٢٧، ٢١٨
لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرّة سويّ	ابن عمر	٣٩٧
لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا..	أبوهريرة	٢٦٥
لا تذبحوا إلا مسنة..	جابر	٥٣٤
لا تقل رأيتُ ولم تر وسمعت ولم تسمع..	قتادة	٤٨٧
لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة..	معاوية	٢٩٣
لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن..	ابن عمر	٤٩٣
لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً..	عبدالله بن مسعود	٤٩٣
لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن..	أبو سعيد بن المعلى	٤٧
لا فضل لعربي على عجمي..	أبونضرة	٤٧
لا هجرة بعد الفتح	ابن عباس	٢٩٤
لا يتم بعد احتلام	علي بن أبي طالب	٢٠٣، ٤٨٤
لا يجزئ ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه	أبوهريرة	٤٦٢
لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها	عبدالله بن عمرو	٥٢٣
لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث..	عبدالله بن مسعود	٧٣
لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله	عبدالله بن مسعود	٤٨٢
لا يحل لي من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس	عمرو بن عبسة	٢٠٢
لا يدخل الجنة قاطع	جبير بن مطعم	٤٧١

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر	عبدالله بن عمرو	٤٦٨
لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر	أسامة بن زيد	٥٢٢
لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة..	ابن عمر	٥٠٥
﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .. ﴾ قال تعالى: قد فعلت	ابن عباس	٦١٦
لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر..	أبوسعيد الخدري	٣٧٤
لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مسلم..	عبدالله بن عمرو	٤٨٢
لعن الله من لعن والديه	علي بن أبي طالب	٤٥٧
لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم..	عمر بن الخطاب	٣٨، ٣٩
لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها	أنس بن مالك	٨٢
لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود	أبوهريرة	٣٧٢
لقد أوتي هذا من مزامير آل داود..	أبوموسى	٥٠٦
لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات	أبوسعيد الخدري	٢٤٦
لقد خوفنا بها يعني قوله: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً .. ﴾	الزبير	١٥٤
لقد عذت بعظيم	عائشة	٤٣١
لقد قرأت هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها..	الزبير	١٥٤
لقد قللوا في أعيننا يوم بدر..	عبدالله بن مسعود	٢١٤
لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره..	أبوسعيد الخدري	٢٤٩
لكل غادر لواء يوم القيامة يقال: هذه غدرة فلان	أنس	٢٤٩
اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً	أنس	٣٩٦
اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع..	أبوهريرة	١٦٥
اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر	أبوبكرة	٣٩٦
لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر..	عروة بن الزبير	٢٢٥
لما أراد أبوطلحة أن يتصدق بحائطه المسمى بيرحاء..	أنس	٤٧١
لما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: ما ترون في هؤلاء الأسارى؟	ابن عباس وابن مسعود وأنس وابن عمر	٢٧٩
لما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قال أبوجهل..	عبدالله بن ثعلبة بن صعير	١٣٣

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ..	كعب بن مالك	٥٨٨
لما خرج النبي ﷺ من مكة قال أبوبكر: أخرجوا نبيهم..	ابن عباس	٥٨٤
لما خلق الله الخلق قامت الرحم وقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة..	أبوهريرة	٤٧٠
لما رأى أبوسفيان أنه أحرز عيره أرسل إلى قريش..	ابن عباس	٢٢٣
لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله ﷺ على بعير له..	أبوبكرة	٣٠٧
لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف..	عمر بن الخطاب	١١١
لما كان يوم بدر وقتل أخي عمير..	سعد بن أبي وقاص	٨٧
لما نزلت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ﴾ شق ذلك على المسلمين..	ابن عباس	٢٧٤
لما وقع سلمة بن صخر على امرأته وهو صائم جاء فزعاً..	أبوهريرة	٢١٠
لو انحاز إليّ كنت فئته	عمر بن الخطاب	١٢٨
لو أن رجلاً أراد فيه بإلحاد بظلم وهو بعدن أبين..	عبدالله بن مسعود	٥١٩
لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً..	ابن عباس	٣٧٧
لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار	أبوهريرة	٣٠٠
لولا هذه الآية لرأيت أن الحكام هلكوا..	الحسن	٥٠٥
ليس في المال حق سوى الزكاة	فاطمة بنت قيس	٥٨١
ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان..	أبوهريرة	٣٩٧
ليس الواصل بالمكافئ	عبدالله بن عمرو	٤٧١
(م)		
ما أبالي لو كان لي أحد ذهباً أعلم عدده وأزكيه	ابن عمر	٣٧٥
ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر	أبوسعيد الخدري	٤٢١
ما أنفقت الورق في شيء أفضل من نحيرة في يوم عيد	ابن عباس	٥٦٩
ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا	رافع بن خديج	٥٣٣
ماتت شاة لسودة بنت زمعة..	ابن عباس	٤٣
ما تعدون أهل بدر فيكم..	معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه	١١٤

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً	عائشة	٦١٧، ٥٣٠
ما رأيت النبي ﷺ يفدي رجلاً بعد سعد يقول: ارم فداك أبي وأمي	علي	٢٥٤
ما رئي الشيطان في يوم هو فيه أصغر ولا أحقر..	أبوالدرداء	٢٢٦
ما رئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر..	طلحة بن عبيدالله	٥٣٦
ما عال من اقتصد	ابن مسعود	٤٧٧
ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من إهراق الدم..	عائشة	٥٦٩
ما العمل في أيام أفضل منها في هذه..	ابن عباس	٥٣٥
ما قطع من البهيمة وهي حية فهي ميتة	أبوواقد الليثي وابن عمر	٥٧٢
ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد..	علي	١١٩
ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه..	المقدام بن معديكرب	٦٨
ما من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة..	عبدالله بن مسعود	١٦٧
ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن..	ابن عمر	٥٣٥
ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا..	أبوبكرة	٤١٢، ٤٧٢
ما من رجل يهم فيه بسيئة فتكتب عليه..	عبدالله بن مسعود	٥٢٠
ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها..	أبوهريرة	٣٧٨
ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن..	النواس بن سمعان	١٥٠
ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز..	جرير	١٥٣
المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير	أبوهريرة	٢٥٦
ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً..	أبوهريرة	٤٧٦
ما نقصت صدقة من مال..	أبوهريرة	٤٧٦، ٦٢٤
ما هلك مال في بر ولا بحر إلا بسبب منع الزكاة	عبادة بن الصامت	٦٢٤

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
ما يسرني أن عندي مثل أُحُد ذهباً تمضي عليّ ثالثة وعندي منه دينار..	أبوذر	٣٧٧
مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد..	أبوهريرة	٤٧٥
مثل القائم على حدود الله والواقع فيها..	النعمان بن بشير	١٥٣
مررت بالربذة فإذا أنا بأبي ذر..	زيد بن وهب	٣٧٤
المسلمون تتكافأ دماؤهم..	علي	٣٢٥
من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع..	أبوهريرة	٣٧٥
من أحب أن يبسط له في رزقه..	أنس	٤٧١
من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية..	عبدالله بن مسعود	١٩٢
من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون..	ابن عباس	٤٨٨
من أصبح آمناً في سربه معافىً في بدنه..	سلمة بن عبيدالله ابن محصن الخطمي عن أبيه	١٦٠
من أعتق رقبة مؤمنة كانت له فداء من النار عضواً عضواً	عمر بن عبسة	٣٩٨
من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى..	أبوهريرة	٥٦٨
منى مناخ من سبق	عائشة	٥١٦
من أمَّن رجلاً على نفسه فقتله فأنا بريء من القاتل	عمرو بن الحمق الخزاعي	٣٢٥
من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله	سمرة بن جندب	٢٩٣
من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه	أبوهريرة	٥٣٢
من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه	أبوهريرة	٤٨٧
من دخل دار أبي سفيان فهوآمن..	أبوسفيان	٥٢٢
من رأى منكم منكراً فليغيره بيده..	أبوسعيد الخدري	٥٩٥
من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا	أبوهريرة	٤٠٩

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
من صلى الصبح فهو في ذمة الله..	جندب بن عبدالله	١٨١، ٥٨٣
من طاف بالبيت فقد حل..	ابن عباس	٥٥٨
من فعل كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا..	ابن عباس	٨٨
من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله	ابوموسى الأشعري	١٩٤، ٢٥٩
من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين..	معاوية	٣٩٤
من كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فأجله أربعة أشهر	أبوهريرة	٣١٠
من كان له سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا	أبوهريرة	٥٨٠
من الكبائر شتم الرجل والديه..	عبدالله بن عمرو ابن العاص	٨
من كنزها فلم يؤد زكاتها فويل له	ابن عمر	٣٧٥
المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض..	جرير بن عبدالله البجلي	٢٩١
المهاجرون والأنصار والطلقاء من قريش..	عبدالله بن مسعود	٢٩٢
من يهد الله فلا مضل له..	ابن عباس	٦٤
(ن)		
النبي الذي يكلم وينزل عليه ولا يرسل	مجاهد	٦٠٠
نحرت هٰهنا ومنى كلها منحر..	جابر	٥٥٨
نحن الآخرون السابقون يوم القيامة..	أبوهريرة	٦١٦
نزلت في أبي لبابة بن عبدالمنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة..	الزهري وعبدالله بن أبي قتادة	١٦١
نزلت فيّ أربع آيات: أصبت سيفاً..	سعد بن أبي وقاص	٨٧
نزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾..	أبوهريرة	٨٠
نزل جبريل في ألف من الملائكة..	علي	١١٤
نزل النبي ﷺ يعني حين سار إلى بدر..	ابن عباس	١٢٠
النساء شقائق الرجال	عائشة	٤٢٣
النسيء أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يوافي	ابن عباس	٣٨٦

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
الموسم كل عام..		
نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور	ابن عباس	٢١٩
نهى رسول الله ﷺ أن يضحى بأعضب القرن والأذن	علي	٥٥٦
نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع..	ابن عباس	٤٢
نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية	علي بن أبي طالب	٤٢
(هـ)		
هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغي بذلك وجه الله..	خباب بن الأرت	٤٢٤
هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ قال: لا..	أبو جحيفة	٥٠٢
هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا..	عبدالله بن عباس عن أبي سفيان	٤٣٦
هم الأخسرون ورب الكعبة..	أبو ذر	٣٨٠
هو الطهور ماؤه الحل ميتته	أبو هريرة	٤٣
هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر..	أبو الدرداء	٩١
و		
واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم..	جابر بن عبدالله	٦٢٤
﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ يعني أصحاب النبي ﷺ خاصة	ابن عباس	١٥٤
وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي	جابر	٢٨٢
﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي..	عقبة بن عامر	٢٥٣
وأعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي..	جابر	٩٠
وأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة..	ابن عباس	٣٩٤
وأعوذ بك من فتنة الفقر	عائشة	٣٩٦
وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم	ابن عباس	٥٢٨
وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة..	البراء	٢٣٥
وأيام التشريق كلها ذبح	جبير بن مطعم	٥٤٤

الحديـــث أو الأثـــر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف..	حذيفة بن اليمان	١٥٣، ٥٩٥
والشر ليس إليك	علي	٦١
وفي بضع أحدكم صدقة..	أبو ذر	٤٥٤
وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه	كعب بن مالك	٣٠٩، ٣٥٥
وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آتٍ..	أبو هريرة	٥٣
﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لا تنفض يدك على والديك	عطاء بن أبي رباح	٤٥٧
ولا يطوف بالبيت عريان قال: ويوم الحج الأكبر يوم النحر..	أبو هريرة	٣٠٧
والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة..	أبو هريرة	٣٢٢
والله لأنت أحب البلاد إليّ..	عبدالله بن عدي	٣٤٠
والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ..	صفوان بن أمية	٣٩٧
والله ما يضيع الله رجلاً قط حفظ له دينه	قتادة	٥٨٣
ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان	عبدالله بن عمر	٤٨٦
وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر	أبو سعيد الخدري	٥٦٤
وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه	أبو هريرة	٤٠٩
وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله	أبو هريرة	٤٩١
وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر..	علي	٢٨٢
ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين..	أبو هريرة	٤٨٣
ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها..	سليم بن عامر	٢٤٨
﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: نزلت في عبدالله بن أبي أنيس..	عبدالله بن عباس	٥١٧

(ي)

الحديـــث أو الأثـــر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
يا أبا ذر إنك إنسان ضعيف..	أبو ذر	٤٨٤
يا أم حارثة إنها جنان في الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى	أنس بن مالك	٣٥٦
يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم	أبو موسى الأشعري	٨١

الحديث أو الأثر	راوي الحديث أو قائل الأثر	رقم الصفحة
يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة..	ابن عباس	٦٠
يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾..	أبوبكر	٥٩٥
يا أيها الناس عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله	أيمن بن خريم	٥٥١
يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا..	عبدالله بن أبي أوفى	٢١٧
يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين فهب لي هذا السيف..	سعد بن أبي وقاص	٨٨
يا رسول الله لسنا نعبدهم. قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه..	عدي بن حاتم	٢٣
يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي..	أبوذر	٢٣٦
يا غلام احفظ الله يحفظك	ابن عباس	٤٣٣
يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي..	عبدالله بن زيد بن عاصم وأبوسعيد وأنس	٢٦٤
يجيء النبي ومعه الرجلان ويجيء النبي ومعه الثلاثة..	أبوسعيد الخدري	٦٢٢
يجيء نوح وأمته فيقول الله تعالى: هل بلغت؟..	أبوسعيد الخدري	٦٢٢
يحرم كل ذي ناب من السباع..	ابن عباس	١٥، ٥٥٠
يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يغشاهم الذل	عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده	٤٩١
يحول بين المؤمن والكفر وبين الكافر والإيمان	ابن عباس	١٤٩
يد المعطي العليا وابدأ بمن تعول..	طارق المحاربي	٤٧١
يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا	سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده	٦١٨
يغزو هذا البيت جيش حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم	عائشة وحفصة	٥٢٠

* * *

ب ـ فهرس الأشعار

البيت		القائل	الصفحة
(أ)			
فعش بعلم ولا تطلب به بدلا	فالناس موتى وأهل العلم أحياء	-	١٧
سأعيش رغم الداء والأعداء	كالنسر فوق القمة الشماء	-	٢٦
النور في جنبي وبين جوانحي	فعلام أخشى السير في الظلماء		
الناس من جهة التمثيل أكفاء	أبوهم آدم والأم حواء	-	٤٧،
فإن يكن لهم من أصلهم نسب	يفاخرون به فالطين والماء		٤٢٣
إذا قام الملائكة انبعثتم	صلاتكم التصدي والمكاء	حسان بن ثابت	١٨٥
فاضرب وجوه الغُدَّر الأعداء	حتى يجيبوك إلى السواء	-	٢٤٧
آذنتنا ببينها أسماء	رب ثاو يمل منه الثواء	الحارث بن حلزة	٥٢٩
(ب)			
وداع دعا يا من يجيب إلى الندى	فلم يستجبه عند ذاك مجيب	كعب بن سعد الغنوي	١٤٧
وجدناهم كاذباً إِلُّهُمْ	وذو الإلّ والعهد لا يكذب	-	٣٢٩
وكل ذي غيبة يؤوب	وغائب الموت لا يؤوب	عبيد بن الأبرص	٤٦٠
(ث)			
ولو كان سهمٌ واحد لاتقيته	ولكنه سهم وثانٍ وثالث	-	٢٢٨
(ج)			
وآفة العقل الهوى فمن علا	على هواه عقله فقد نجا	-	٤٨٩،١٦
نحن بنو جعدة أصحاب الفلج	نضرب بالسيف ونرجو بالفرج	-	٥١٨
(ح)			
يا سائرين إلى البيت العتيق لقد	سرتم جسوماً وسرنا نحن أرواحا	-	٥٣١
إنا أقمنا على عذر نكابده	ومن أقام على عذر كمن راحا		
(د)			
فواعجباً كيف يعصى الإله	أم كيف يجحده الجاحد	-	١٣
وفي كل شيء له آية	تدل على أنه واحد		

البيت		القائل	الصفحة
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة	على النفس من وقع الحسام المهند	-	١٥٥
بنونا بنو أبنائنا وبناتنا	بنوهن أبناء الرجال الأباعد	-	١٦٦
إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا	فحسبك والضحاك سيف مهند	-	٢٧١
ولقد علمت وما إخالك ناسياً	أن المنية للفتى بالمرصد	عامر بن الطفيل	٣١٤
أعاذل إن الجهل من لذة الفتى	وإن المنايا للنفوس بمرصد	عدي	٣١٤
كم من أخ لي ماجد	بوَّأته بيَديَّ لحدا	عمرو بن معديكرب الزبيدي	٥٢٤
(ر)			
وفي الجهل قبل الموت موت لأهله	فأجسامهم قبل القبور قبور	-	١٦،
وإن امرأً لم يحيَ بالعلم ميت	فليس له قبل النشور نشور		١٤٨
ألا ليتني قطَّعْتُ منِّي بنانةً	ولاقيْتُهُ في البيت يَقْظانَ حاذِرا	-	١٢٢
ولست بالأكثر منهم حصى	وإنما العزة للكاثر	-	١٥٦
وما كنتُ أخشى أن يكون عطاؤه	أداهم سوداً أو محدرجة سمراً	الفرزدق	١٨٥
ويُقضى الأمر حين تغيب تيم	ولا يستشهدون وهم حضور	-	٢٥٧،٢٢٠
دلاّهمُ بغرور ثم أسلمهم	إن الخبيث لمن ولّاه غرارُ	حسان	٢٢٦
إن القلوب إذا تنافر ودها	شبه الزجاجة كسرها لا يجبر	-	٢٦٣
فتفرقوا شيعاً فكل مدينة	فيها أمير المؤمنين ومنبر	-	٢٩٦
والناس في غفلة عما يراد بهم	كأنهم غنم في بيت جزار	-	٤٤٨
إني لها مطية لا تذعر	إذا الركاب نفرت لا تنفر	-	٤٦٢
ما حملت وأرضعتني أكثر	الله ربي ذو الجلال أكبر		
لأمك حق لو علمت كثيرُ	كثيرك يا هذا لديه يسيرُ	-	٤٦٥
فكم ليلة باتت بثقلك تشتكي	لها من جواها أنّة وزفير		
وفي الوضع لو تدري عليها مشقة	فمن غصص منها الفؤاد يطير		
وكم غسلت عنك الأذى بيمينها	وما حجرها إلا لديك سرير		
وتفديك مما تشتكيه بنفسها	ومن ثديها شرب لديك نمير		
وكم مرة جاعت وأعطتك قوتها	حناناً وإشفاقاً وأنت صغير		
فآها لذي عقل ويتَّبع الهوى	وآهاً لأعمى القلب وهو بصير		

البيت		القائل	الصفحة
فدونك فارغب في عميم دعائها	فأنت لما تدعو إليه فقير		
هن الحرائر لا ربات أخمرة	سود المحاجر لا يقرأن بالسور	–	٥١٨
إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً	عليَّ له في مثلها يجب الشكرُ	–	٥٧٤
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله	وإن طالت الأيام واتصل العمر		
تمنى كتاب الله أول ليله	وآخره لاقى حمام المقادر	حسان	٦٠١

(ع)

البيت		القائل	الصفحة
وإنك مهما تعط بطنك سُؤله	وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا	حاتم الطائي	٦٨
وما المال والأهلون إلا ودائع	ولابد يوماً أن ترد الودائع	–	٩٧
تقول بنتي وقد قرّبتُ مرتحلاً	يارب جنّب أبي الأوصاب والوجعا	الأعشى	٣١٥،
عليك مثل الذي صليت فاغتمضي	نوماً فإن لجنب المرء مضطجعا		٦٢٣
ولست أبالي حين أُقتل مسلماً	على أي جنب كان في الله مصرعي	خبيب بن عدي	٤٥٠
وذلك في ذات الإله وإن يشأ	يبارك على أوصال شلو ممزع		
تواضع تكن كالنجم لاح لناظر	على صفحات الماء وهو رفيع	–	٤٩١
ولاتك كالدخان يعلو بنفسه	على طبقات الجو وهو وضيع		
تواضع إذا ما نلت في الناس رفعة	فإن رفيع القوم من يتواضع	–	٤٩١
ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً	فكم تحتها قوم همو منك أرفع		
وإن كنت في عز وحرز ومنعة	فكم مات من قوم همو منك أمنع		

(ف)

البيت		القائل	الصفحة
ولبس عباءة وتقر عيني	أحب إليَّ من لبس الشفوف	–	٥٨

(ل)

البيت		القائل	الصفحة
إن تقوى الله خير نَفَل	وبإذن الله ريثي والعجل	لبيد	٨٩
إنا إذا احمر الوغى نرْوي القنا	ونَعِفُّ عند مقاسم الأنفال	عنترة بن شداد	٨٩
فلا منعت دار ولا عز أهلها	من الناس إلا بالقنا والقنابل	–	٢٥٧
ألا كل شيء ما خلا الله باطل	وكل نعيم لا محالة زائل	لبيد	٢٨١
ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا	وأقبح الكفر والإفلاس في الرجل	–	٣٧٧
لما رأى لبد النسور تطايرت	رفع القوادم كالفقير الأعزل	لبيد	٣٩٥

البيـــت		القائل	الصفحة
غذوتك مولوداً وعلتك يافعاً	تُعلُّ بما أسدي إليك وتنهل	-	٤٦٣
إذا ليلة ضامك السقم لم أبت	لسقمك إلا ساهراً أتململ		
كأني أنا المطروق دونك بالأذى	طرقت به وحدي وعيني تهمل		
تخاف الردى عيني عليك وإنني	لأعلم أن الموت شيء مؤجل		
فلما بلغت السن والغاية التي	إليها مدى ما كنت فيك أُؤمِّل		
جعلت جزائي غلظة وفظاظة	كأنك أنت المنعم المتفضل		
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي	فعلت كما الجار المجاور يفعل		
لا خيل عندك تهديها ولا مال	فليسعد النطق إن لم يسعد الحال	-	٤٧٥
شم العرانين أبطال لبوسهم	من نسج داود في الهيجا سرابيل	كعب بن زهير	٥٠٧
بيض سوابغ قد شكت لها حلق	كأنها حلق القعفاء مجدول		
على مكثريهم رزق من يعتريهم	وعند المقلين السماحة والبذل	زهير	٥٧٣
يعطي ذخائر ماله	معترَّه قبل السؤال	-	٥٧٣
تمنى كتاب الله آخر ليله	تمنِّي داود الزبور على رسل	حسان بن ثابت	٦٠٢
(م)			
نكصتم على أعقابكم ثم جئتمو	تُرجُّون أنفال الخميس العرمرم	أوس بن حجر الأسدي	٨٩
يُخبركِ من شهد الوقيعة أنني	أغشى الوغى وأَعف عند المغنم	عنترة بن شداد	٨٩
نُفَلِّق هاماً من رجالٍ أعزةٍ	علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما	الحصين بن حمام المري	١٢٢
تأخرتُ استبقي الحياة فلم أجد	لنفسي حياةً مثلَ أن أتقدما	-	١٢٧
أُطوِّف بالأباطح كلَّ يوم	مخافَةَ أن يُشرِّد بي حَكِيمُ	-	٢٤٦
إلى الملك القرم وابن الهما	م وليث الكتيبة في المزدحم	-	٢٥٦
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه	يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم	زهير	٢٥٧
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى	حتى يراق على جوانبه الدم	المتنبي	٢٨١
أفسد الناس خلوف خلفوا	قطعوا الإلَّ وأعراق الرحم	تميم بن مقبل	٣٢٩
لعمرك إن إلَّك من قريش	كإلِّ السقب من رأل النَّعام	حسان	٣٢٩
لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً	فالظلم يرجع عقباه إلى الندم	-	٣٨٥
تنام عينك والمظلوم منتبه	يدعو عليك وعين الله لم تنم		

البيت		القائل	الصفحة
لقد علمت مَعَدٌّ أنَّ قومي	كرام الناس أنَّ لهم كراما	عمرو بن قيس المعروف بجَذْل الطِّعان	٣٨٧
ألسنا الناسئين على معد	شهور الحل نجعلها حراماً		
فأي الناس لم ندرك بوتر	وأي الناس لم نُعلك لجاماً		
ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد	كلا طرفي قصد الأمور ذميم	-	٤٧٦
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله	على قومه يستغن عنه ويذمم	زهير	٤٧٧
قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت	ويبتلي الله بعض القوم بالنعم	-	٤٧٨
ذم المنازل بعد منزلة اللوى	والعيش بعد أولئك الأيام	جرير	٤٨٨
(ن)			
شتان بين الحالتين فإن ترد	جمعاً فما الضدان يجتمعان	ابن القيم	٢٦
يقضى على المرء في أيام محنته	حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن	-	٦٢، ٢٢٤
وكل كسر فإن الله جابره	وما لكسر قناة الدين جبران	-	١٩٢
إذا هبت رياحك فاغتنمها	فإن لكل ذارية سكون	-	٢١٩
ولا تغفل عن الإحسان فيها	فما تدري السكون متى يكون		
وإن حلفتْ لا ينقض النأيُ عهدَها	وليس لمخضوب البنان يمين	-	٣٣٧
فيمنع منك السبق إن كنت سابقاً	وتقتل إن زلت بك القدمان	-	٤١٨
فلا أرمي البريء بغير ذنب	ولا أقفو الحواصن إن قُفينا	الكميت	٤٨٧
حفّوا رؤوسهم لم ينزعوا تفثاً	ولم يسلوا لهم قملاً وصئبانا	أمية بن أبي الصلت	٥٣٨
(هـ)			
عرفت الشر لا للشـ	ـرّ لكنْ لتوقيه	-	١٨
ومن لا يعرف الشر	من الخير يقعْ فيه		
اليوم يبدو بعضه أو كله	فما بدا منه فلا أحله	-	٦٦
(و)			
جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم	وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو	-	١٣١
(ي)			
إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى	تقلب عرياناً وإن كان كاسيا	-	٤٩
وخير لباس المرء طاعة ربه	ولا خير فيمن كان لله عاصيا		

البيــــت		القائل	الصفحة
إذا الجود لم يُرزق خلاصاً من الأذى	فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً	المتنبي	١٨٩
وقد يَنبُت المرعى على أَثَرِ الدِّمَنْ	وتبقى حزازتُ النفوس كما هيا	-	٢٦٣
إذا ما سلخت الشهر أهللت مثله	كفى قاتلاً سلخي الشهور وإهلالي	-	٣١٣

* * *

جـ ـ فهرس أهم الموضوعات

الموضـوع | الصفحة

المقدمة ٢

تفسير آيات الأحكام في سورة الأنعام ٧

الكلام على قوله الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ٧-١١

سبب نزول الآية ٧

الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها ووسائل المحرم محرمة ٨

التزيين منه ما هو كوني ومنه ما هو شرعي ٩

الفوائد والأحكام ١٠

الكلام على قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ..﴾ الآيات ١٢-١٣

سبب نزول قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ..﴾ ١٢

آيات الله ـ عز وجل ـ تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية ١٣

الهوى يعمي ويصم وهو مرد مهلك ١٦

ظاهر الإثم وباطنه ١٨

سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ..﴾ ١٩

معنى الفسق وعلامَ يطلق ٢١

ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف لا تدل بمجردها على أنها حق ٢٢

الموت المعنوي بالجهل والكفر والشرك أشد وأعظم من الموت الحسي ٢٥

المؤمن جمع الله له بين الحياة والنور يعرف الخير من الشر والحق من الباطل ...٢٦

الفوائد والأحكام ٢٧

الكلام على قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ..﴾
الآيات ٣٢-٤٦

الوحي لغة وشرعاً ٣٣

رحمة الله تعالى صفة ذاتية وصفة فعلية ـ عامة وخاصة ٣٦

على الإنسان أن يجمع في سيره إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء.......... ٤١
الفوائد والأحكام.......... ٤١
المحرمات من المطاعم.......... ٤١
تفسير آيات الأحكام في سورة الأعراف.......... ٤٧
الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ .. ﴾.......... ٤٧-٥٥
بنوة البشر لآدم أعم رابطة تربطهم، وأفضلهم وأكرمهم عند الله أتقاهم له.......... ٤٧
لا يعرف نعمة اللباس إلا مَن فقده.......... ٤٨
لباس التقوى يستمر مع العبد ولا يبلى، وأما اللباس الظاهري فغايته أن يستر العورة.......... ٤٩
قد يمكِّن الله البشر من رؤية بعض الشياطين أو الجن في بعض الحالات.......... ٥٢
الفوائد والأحكام.......... ٥٤
الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا .. ﴾ الآيات.......... ٥٦-٦٥
إنكار شديد وتهديد أكيد لمن يقول على الله بلا علم.......... ٥٧
أمر الله بالعدل في كل شيء في العبادات والمعاملات وغير ذلك.......... ٥٨
كما بدأ خلقكم أول مرة ترجعون إليه خلقاً آخر بعد موتكم.......... ٥٩
من كتب له السعادة فنهايته إلى السعادة ومن كتب عليه الشقاء فنهايته إلى الشقاء.......... ٦٠
الفوائد والأحكام.......... ٦٢
الكلام على قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ .. ﴾ الآيات.......... ٦٦-٧١
سبب نزول الآية ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.......... ٦٦
الفوائد والأحكام.......... ٧٤
الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ .. ﴾ الآيات.......... ٧٨-٨٦
الفوائد والأحكام.......... ٨٤

تفسير آيات الأحكام في سورة الأنفال ٨٧
سبب النزول ٨٧
الكلام على قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ..﴾ الآية ٨٧-٩٣
ما هي الأنفال؟ وعلامَ تطلق؟ ٨٩
الفوائد والأحكام ٩٢
الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ..﴾ الآيات ٩٤-١٠٢
تلاوة القرآن سبب في زيادة الإيمان وقوة اليقين ٩٥
الصلاة أعظم العبادات بعد الشهادتين وهي عمود الإسلام ٩٧
منازل الجنة عالية ورفيعة ٩٨
الفوائد والأحكام ١٠١
الكلام على قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ..﴾ الآيات ١٠٣-١١٠
سبب وقوع غزوة بدر ١٠٣
الفوائد والأحكام ١٠٨
الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ..﴾ الآيتين ١١١-١١٧
سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ..﴾ ١١١
إمداد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بالملائكة ١١٣
الفوائد والأحكام ١١٦
الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ..﴾ الآيات ١١٨-١٢٥
من أسباب نصر المؤمنين إنزال المطر عليهم وإمدادهم بالملائكة وإلقاء النعاس عليهم ١١٩
الفوائد والأحكام ١٢٤
الكلام على قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا ..﴾ الآيات ١٢٦-١٣٨

الفوائد والأحكام ١٣٥
الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ.. ﴾ الآيات ١٣٩-١٤٦
عطف اسم الرسول أو وصفه على اسم الله بالواو جائز في باب الطاعة بخلاف باب المشيئة ١٣٩
الكفار والمنافقون هم شر الدواب وشر البرية ١٤٢
قطع مادة الاهتداء عن الكفار ١٤٣
الفوائد والأحكام ١٤٤
العقل عقلان عقل هو مناط التكليف وعقل هو مناط المدح والذم ١٤٥
الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ .. ﴾ الآيات ١٤٧-١٦٠
ما أتى به الرسول ﷺ فيه حياة القلوب والأرواح وصلاح أمر الدين والدنيا ١٤٨
التحذير من عدم المبادرة إلى الاستجابة لله وللرسول ﷺ، والترغيب في الإكثار من الدعاء المأثور «يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك» ونحوه ١٤٩
من سنن الله أن العقوبات إذا كثر الخبث وظهر المنكر تعم فاعل المنكر وتارك الإنكار ١٥٢
الفوائد والأحكام ١٥٨
القلة سبب للاستضعاف وتسلط الآخرين والكثرة سبب للقوة وليس هذا على إطلاقه ١٥٩
الأمن أهم من الرزق بل هو سبب الرزق ١٦٠
الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ .. ﴾ الآيات ١٦١-١٧١
قصة أبي لبابة وربطه نفسه في سارية المسجد حتى أنزل الله توبته ١٦١
الأمانات قسمان: واجبات يجب القيام بها، ومنهيات يجب تركها وهي أيضاً أمانات بين الخلق وبين الله وأمانات بين الخلق فيما بينهم ١٦٢

من أعظم الأمانات التي عظم التفريط فيه الصلاة ١٦٣
ومن أعظم الأمانات التي حصل فيها التفريط حقوق العمل في الأمة ومصالحها ١٦٣
الفتنة في الأموال والأولاد من وجوه عديدة ١٦٧
من يتق الله يجعل له نوراً يفرق به بين الحق والباطل والهدى والضلال والحلال والحرام ١٦٩
الفوائد والأحكام ١٧١
الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ .. ﴾ الآيات ١٧٢-١٧٨
تآمر قريش على رسول الله ﷺ في دار الندوة ١٧٣
استعجال المشركين العذاب من شدة جهلهم وعنادهم ١٧٨
وجوده ﷺ بين ظهرانيهم أمان لهم من العذاب ١٨٠
من رحمة الله بهذه الأمة ببركة نبيها أنه لم يستأصلهم بعامة ١٨٣
الفوائد والأحكام ١٨٥
المكر والكيد والاستهزاء والمخادعة ونحو ذلك لا يوصف الله بها على سبيل الإطلاق وإنما على سبيل المقابلة ١٨٦
الكلام على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ .. ﴾ الآيات ١٨٨-٢٠٠
الخبيث والطيب وصفان يوصف بهما الأشخاص والأعيان وتوصف بهما الأفعال والأقوال ١٩١
سعة رحمة الله ومغفرته وأنه لا يتعاظمه شيء أن يغفره حتى الكفر والشرك ١٩٢
المقصد من القتال والجهاد في سبيل الله أن لا تكون فتنة وأن يكون الدين كله خالصاً لله تعالى ١٩٤
الفوائد والأحكام ١٩٨
الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ .. ﴾ الآيات ٢٠١-٢٠٧

للرسول ﷺ ومن ذكر معه خمس المغنم وأربعة الأخماس للمقاتلين ٢٠٢
قرابة رسول الله ﷺ هم بنو هاشم وبنو المطلب ٢٠٣
الفوائد والأحكام ٢٠٦
الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ ..﴾
الآيات ٢٠٨-٢١٦
الهلاك المعنوي بالكفر والمعاصي والحياة المعنوية بالإيمان والطاعة ٢١٠
الكلام غلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ..﴾
الآيات ٢١٧-٢٣٢
التنازع والاختلاف نتيجته لا محالة الفشل والضعف وواقع المسلمين اليوم شاهد على هذا ٢١٩
يجب على المسلمين العودة إلى دينهم والسعي إلى وحدة الأمة والقضاء على أسباب النزاع والاختلاف والتفرق ٢٢٠
الصبر أقسام ثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله ٢٢٠
سبب تسمية النفاق والمنافقين بهذا الاسم ٢٢٨
الفوائد والأحكام ٢٢٩
الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ..﴾
الآيات ٢٣٣-٢٤٣
الفوائد والأحكام ٢٤١
الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ..﴾ الآيات ٢٤٤-٢٥١
إنما كان الذين كفروا شر الدواب لجهلهم بربهم وعصيانهم له دون سائر الدواب ٢٤٥
لكل غادر لواء يوم القيامة ٢٤٩
الفوائد والأحكام ٢٤٩

ينبغي التنكيل بنقضة العهود من الكفار والتغليظ عليهم ليكونوا عبرة وعظة لغيرهم ٢٥١
الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ .. ﴾ الآيات ٢٥٢-٢٧٠
﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم ﴾ من قوة معنوية ومن قوة بدنية ومن قوة آلية بأنواع الأسلحة ٢٥٤
الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ٢٥٥
ما أصاب المسلمين ما أصابهم من تسلط الأعداء واحتلال بلادهم ومقدساتهم إلا بسبب ضعفهم في إعداد القوة بقسميها: المعنوية والمادية ٢٥٧
المنافقون أشد عداوة للمؤمنين وهم أخطر على الأمة الإسلامية من أعدائها الظاهرين ٢٥٨
الجهاد بالمال أهم من الجهاد بالنفس ٢٥٩
إذا جنح الكفار للسلم فإجابتهم فيها فوائد كثيرة ٢٦١
امتنَّ الله ـ عز وجل ـ على نبيه ﷺ بتأليفه بين قلوب المؤمنين؛ لأن اجتماع القلوب وتآلفها هو مكمن القوة والعزة والنصر ٢٦٥
الفوائد والأحكام ٢٦٦
الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .. ﴾ الآيات ٢٧١-٢٧٨
كان ﷺ يحث على القتال ويحرض عليه عند مواجهة العدو ٢٧٢
سبب نزول قوله تعالى: ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ ٢٧٤
معية الله ـ عز وجل ـ قسمان: معية عامة لجميع الخلق، ومعية خاصة بعباده المؤمنين ٢٧٦
الفوائد والأحكام ٢٧٦
الكلام على قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ ٢٧٩-٢٨٩

سبب نزول قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ .. ﴾ ٢٧٩
الفوائد والأحكام ٢٨٦
في عتاب الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ في شأن الأسرى رد على من يزعمون أنه تقول القرآن وافتراه ٢٨٦
الكلام على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ .. ﴾ الآيات ٢٩٠-٣٠٢
المؤمنون من المهاجرين والأنصار بعضهم أولى ببعض والمؤمنون كلهم بعضهم أولياء بعض ٢٩١
الترغيب في الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام وتأكيد وجوبها ٢٩٢
الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام باقية إلى قيام الساعة ٢٩٣
عظمة الإسلام واحترامه للعهود والمواثيق حتى مع المحاربين ٢٩٤
الذين كفروا على اختلاف مللهم ونحلهم بعضهم أنصار وأعوان بعض على الباطل ضد المؤمنين مما يوجب على المسلمين الحذر منهم جميعاً ومن موالاتهم والاغترار بهم ٢٩٥
مما يحز في نفس المسلم أن يكون الكفار أشد موالاة فيما بينهم من كثير من المسلمين ٢٩٥
ثناء الله ـ عز وجل ـ على المهاجرين والأنصار، وبيان عظمة ما أعده لهم ٢٩٨
الفوائد والأحكام ٣٠٠
نسخ التوارث بالموالاة بالإرث بالقرابة ٣٠٢
توريث ذوي الأرحام إذا فقد أصحاب الفروض والعصبات ٣٠٢
تفسير آيات الأحكام في سورة التوبة ٣٠٣
أين نزلت سورة التوبة؟ وأسماؤها ولِـمَ لم تكتب البسملة في أولها؟ ٣٠٣
الكلام على قوله تعالى: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ .. ﴾ الآيات ٣٠٤-٣٢٣
الأشهر الأربعة تبدأ من اليوم العاشر من ذي الحجة سنة تسع من الهجرة ٣٠٥

يوم الحج الأكبر هو يوم النحر وقيل هو يوم عرفة ٣٠٦
ما هي التوبة وما هي شروطها؟ ٣٠٨
إيذان الناس وإعلامهم ببراءة الله ورسوله من المشركين في الحجة التي حجها أبوبكر بالناس سنة تسع ٣١٠
المراد بالأشهر الحرم أشهر السياحة والتسيير وهي تبدأ من يوم النحر العاشر من ذي الحجة سنة تسع وهي غير الأشهر الحرم المعروفة ٣١٣
الصلاة في اللغة والشرع ولِـم قدمت في الذكر على جميع العبادات؟ ٣١٥
الزكاة في اللغة والشرع وهي أعظم العبادات المالية ٣١٦
الفوائد والحكام ٣١٧
وجوب قتال المشركين بعد انقضاء الأشهر الحرم حيث وجدوا وأخذهم وأسرهم و محاصرتهم ٣٢٠
توسع بعض الناس فجعل هذه الآية ناسخة لآيات الأمر بالعفو والصفح والمجادلة بالتي هي أحسن وبالغوا في ذلك ٣٢٠
من شروط صحة الإسلام إقامة الصلاة ٣٢١
عظم مكانة الصلاة والزكاة فهما القرينتان قرنتا في نحو اثنين وثمانين موضعاً ٣٢٢
الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ..﴾
الآيات ٣٢٤-٣٣٦
الفوائد والأحكام ٣٣١
ينبغي إجارة من طلب الجوار من المشركين حتى يسمع كلام الله وتأمينه حتى يرجع إلى مأمنه ٣٣١
الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ ..﴾ الآيات ٣٣٧-٣٤٧
توبة الله تنقسم إلى قسمين: توفيقه عبده للتوبة، وقبولها منه ٣٤٣
الفوائد والأحكام ٣٤٥
الكلام على قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ ..﴾
الآيات ٣٤٨-٣٦١

سبب نزول قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ..﴾ ٣٥١
هداية الله قسمان: هداية البيان والدلالة والإرشاد، وهداية التوفيق ٣٥٣
جمعت الجنة باعتبار أنواعها ومراتبها وأنواع النعيم فيها ٣٥٦
الفوائد والأحكام ٣٥٨
الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ..﴾ الآيتين ٣٦٢-٣٧١
النجس يطلق على النجس حسياً ويطلق على النجس معنوياً كالشرك والمعاصي ونجاسة المشركين نجاسة معنوية ٣٦١
الفوائد والأحكام ٣٦٨
وجوب قتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وحكم أخذ الجزية منهم ومن غيرهم من الكفار ٣٦٩
الكلام على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ ..﴾ الآيات ٣٧٢-٣٨١
التحذير من سلوك مسلك أهل الكتاب ٣٧٤
ما المراد بكنز المال وما حكم من كنزه؟ ٣٧٥
إذا وُفق الإنسان لكسب المال من الحلال وإنفاقه في الحلال ولم يشغله عن طاعة الله فنعم المال الصالح للرجل الصالح ولكن التقلل من الدنيا أولى وأسلم ٣٧٦
التغليظ في عقاب الكانزين يوم القيامة ٣٧٨
الفوائد والأحكام ٣٨٠
الكلام على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ..﴾ الآيتين ٣٨٢-٣٩٠
الشهور القمرية أقدم أشهر التوقيت وأضبطها وهي التي يدور عليها فلك الأحكام الشرعية ٣٨٢
خلق الأرض قبل خلق السموات ٣٨٣

الأشهر الحرم أشهر محرمة يجب احترامها ولا يجوز القتال فيها ٣٨٣
الظلم في الأشهر الحرم أشد لحرمتها ٣٨٤
النسيء تأخير حرمة الشهر الحرام إلى شهر حلال ٣٨٦
الفوائد والأحكام ٣٨٨
الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ .. ﴾ الآيات ٣٩١-٤٠٥
سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ .. ﴾ ٣٩١
إن الله تعالى لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو ٣٩٤
من هو الفقير ومن هو المسكين؟ وما الفرق بينهما؟ ٣٩٥
العاملون على الصدقات هم الجباة والسعاة على قبضها وجمعها وحفظها وتوزيعها ٣٩٧
المؤلفة قلوبهم هم من يرجى إسلامهم أو قوة إيمانهم أو كف شرهم عن المسلمين ونحو ذلك ٣٩٧
تصرف الزكاة في إعتاق الرقاب وعون المكاتبين وهذا يدل على تشوف الإسلام إلى تحرير الرقيق ٣٩٨
الغارمون هم الذين تحملوا حمالات لإصلاح ذات البين أو ركبتهم ديون أو أصابتهم جائحة ٣٩٩
الغزاة المجاهدون في سبيل الله والمسافرون الذين نفدت نفقتهم يعطون من الزكاة ٤٠٠
الفوائد والأحكام ٤٠١
لا يجوز صرف الزكاة لغير الأصناف الثمانية المذكورة والأولى صرفها لجميع الأصناف ٤٠٢
الفقير والمسكين من الأسماء المترادفة التي إذا اجتمعت انفردت وإذا انفردت اجتمعت ٤٠٣
اختلف العلماء في بقاء سهم المؤلفة قلوبهم ٤٠٤
هل يعطى من الزكاة في الحج لأنه من سبيل الله؟ ٤٠٥

الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ..﴾ الآيات ٤٠٦-٤٣٠
إن أجمع آية في القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ..﴾ ٤٠٧
المراد بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ٤٠٧
المراد بالفحشاء والمنكر والبغي ٤١٠
عهد الله كل ما عاهدوا عليه الله من الإيمان والطاعة والعبادات والنذور وأعظم ذلك الإيمان ٤١٤
الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ٤٢١
الإيمان بالقلب واللسان شرط لقبول العمل ٤٢٣
الحياة الطيبة في الدنيا ليس المراد منها الحياة المشتركة من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح ٤٢٤
الفوائد والأحكام ٤٢٥
الكلام على قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ..﴾ الآيات ٤٣١-٤٤١
القرآن حق فكل ماجاء به حق ويهدي إلى الحق وأخباره صدق وأحكامه عدل .. ٤٣٧
سبب نزول قوله ـ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ..﴾ ٤٣٨
الفوائد والأحكام ٤٤١
الكلام على قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ..﴾ الآيات ٤٤٥-٤٥١
من أكره على ما دون الكفر من المعاصي فهو معذور ما لم يكن فيه اعتداء على الغير ٤٤٦
الفوائد والأحكام ٤٤٩
من أكره على التلفظ بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان ثابت عليه فلا حرج وإذا صبر فهو أعظم أجراً لأخذه بالعزيمة ٤٤٩
الكلام على قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ..﴾ ٤٥٢-٤٦٨
قضاء الله قسمان: قضاء كوني بمعنى المشيئة والإرادة الكونية، وقضاء شرعي بمعنى الإرادة الشرعية ٤٥٣

العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ٤٥٤
من وفق لاستصحاب النية الصالحة فحياته كلها عبادة حتى أكله وشربه ونومه ويقظته ٤٥٤
البر بالوالدين والدعاء لهما من صفات الأنبياء ٤٥٨
عظَّم الله ـ عز وجل ـ حق الوالدين وأوجب البر بهما ٤٦٠
أمر الشرع بالإحسان إلى الوالدين ولو كانا مشركين ٤٦٤
حق الأم أعظم من حق الأب ٤٦٥
الفوائد والأحكام ٤٦٦
عقوق الوالدين من أكبر الكبائر ٤٦٨
الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ .. ﴾
الآيات ٤٦٩-٤٩٩
حق ذوي القربى من أعظم الحقوق ٤٦٩
ينبغي أن يكون الإنفاق وسطاً بين التقتير والتبذير ٤٧٥
مفاسد الزنا وأضراره العظيمة على الفرد والمجتمع ٤٨١
لا يجوز التصرف في مال اليتيم لمصلحة غيره ولا يجوز المخاطرة به كما لا يجوز أكله ٤٨٤
لا تقل ما لا تعلم ولا تعمل بما لا تعلم ولا تتدخل بما لا يعنيك واحذر شهادة الزور وقول الزور والزعم الباطل والقذف وتحقيق الظن الكاذب ٤٨٧
يسأل الإنسان عن جوارحه ويسأل عن سمعه ويسأل عن بصره وعن فؤاده وقلبه ٤٨٨
ذم وتحقير المَرِح المختال المتكبر في مشيته ٤٩٠
الفوائد والأحكام ٤٩٤
تفسير آيات الأحكام في سورة الأنبياء ٥٠٠
الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ .. ﴾
الآيات ٥٠٠-٥١٤

الفهم نعمة من الله على عبده ونور يقذفه في قلبه يعرف به ويدرك ما لا يدركه غيره ٥٠٢
قصة قضاء داود وسليمان في رعي غنم القوم في الزرع وإفساده ٥٠٢
ليس في الآية أن كل مجتهد مصيب بل فيها أن الذي فهم القضية سليمان ٥٠٥
تسبيح الجبال والطير وكذا جميع المخلوقات حق وإن كنا لا نفقه هذا التسبيح ٥٠٧
الشكر لله يكون بالاستعانة بنعم الله على طاعته وكفران النعم استعمالها في معصية الله ٥٠٨
الفوائد والأحكام ٥١١
أقوال العلماء في الحكم بشريعتنا في مسألة إفساد الماشية للحرث ليلاً ونهاراً ... ٥١٢
تفسير آيات الأحكام في سورة الحج ٥١٥
الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ..﴾ الآيات ٥١٥-٥٢٣
المسجد الحرام لا يُخرج منه المعتكف فيه ولا يُمنع منه القادم إليه ٥١٦
الوعيد لمن همَّ بالإلحاد في الحرم وهو لمن ارتكب ذلك آكد وأشد وأعظم ٥١٩
الفوائد والأحكام ٥٢٠
حكم تملك رباع مكة وتوريثها وبيعها وتأجيرها وأقوال العلماء في ذلك ٥٢١
الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ..﴾ الآيات ٥٢٤-٥٤٧
إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو أول مَن بنى البيت العتيق وهو أول بيت بُني للناس لعبادة الله ٥٢٥
الشرك دعوة غير الله وإشراكه مع الله وتسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله ٥٢٥
تطهير البيت من الشرك وعبادة الأوثان والمعاصي ومن الأنجاس والأدناس المعنوية والحسية ٥٢٦
الطواف خاص بالبيت الحرام ولا يجوز التعبد لله بالطواف على غير الكعبة ٥٢٧

القيام والركوع والسجود من أعظم وأهم أركان الصلاة وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ٥٢٨
الحج ماشياً وراكباً وكلام العلماء في أيهما أفضل ٥٣٠
المسلمون في جميع أقطار الأرض على اختلاف لغاتهم ومشاربهم يحنون إلى البيت العتيق ويحجونه ويزورونه ٥٣١
الحكمة من مشروعية الحج الحصول على المنافع العظيمة الدينية والدنيوية ٥٣١
الأيام المعلومات يوم النحر وأيام التشريق الثلاثة بعده وقيل غير ذلك ٥٣٣
المجزئ في الهدي والأضحية ٥٣٤
الأيام العشر أيام معلومات مفضلة والعمل فيها أفضل من غيرها ٥٣٥
من أفضل أيام العشر يوم عرفة وكذا يوم النحر ٥٣٦
الأمر بالأكل محمول على الرخصة أو الاستحباب ٥٣٧
سمي البيت بالعتيق لأنه أفضل وأكرم وأقدم بيت وضع للناس ولأنه أُعتق من تسلط الجبابرة ٥٤٠
الفوائد والأحكام ٥٤٠
ليس من شرط الحج وجود المركب إذا استطاعه الإنسان ماشياً ٥٤٢
ما يشرع عمله في الأيام المعلومات ٥٤٣
الأضحية سنة مؤكدة عند أكثر أهل العلم وقال بعضهم بوجوبها ٥٤٣
مشروعية ذكر الله على الهدي والأضاحي وغيرها وأقوال العلماء في ذلك ٥٤٥
الهدي والأضحية لا تجزئ إلا من بهيمة الأنعام ٥٤٦
حكم الأكل من الهدي والأضحية، وأقوال العلماء في ذلك ٥٤٦
الكلام على قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ..﴾ الآيات ٥٤٨-٥٦٠
حرمات الله كل ما أوجب الله احترامه وحرم استحلاله كالحرم والإحرام ومحظوراته والمناسك كلها ٥٤٨
عظم شهادة الزور وأنها عدلت إشراكاً بالله ٥٥١

شعائر الله المعالم الظاهرة للدين مما أمر الله بتعظيمه وإجلاله واحترامه من الهدي والأضحية والصفا والمروة وغير ذلك من مشاعر الحج ومناسكه........٥٥٤
خص القلوب بالتقوى لأنها موضع التقوى والصلاح........٥٥٦
ما ينبغي أن يجتنب من أوصاف الأضاحي........٥٥٧
حكم الانتفاع بالهدي من البدن وغيرها........٥٥٧
المكان الذي ينحر ويذبح فيه الهدي الحرم........٥٥٨
الفوائد والأحكام........٥٥٨
الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم ..﴾ الآيتين........٥٦١-٥٦٦
ذكر اسم الله عند نحر وذبح بهيمة الأنعام........٥٦١
الإخبات سكون الجوارح على وجه الخشوع والخضوع والتواضع لله........٥٦٣
الفوائد والأحكام........٥٦٥
الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ ..﴾ الآيتين........٥٦٧-٥٨١
البدن في الأصل هي الإبل خاصة وتطلق على البقر عند بعض أهل العلم........٥٦٧
البدن أفضل الهدي لعظمها وشرفها ومكانتها عند الناس........٥٦٨
في البدن خير كثير ومنافع كثيرة في الدين والدنيا والآخرة........٥٦٩
ذكر اسم الله على البدن عند نحرها وكونها قائمة على ثلاث قوائم معقولة اليد اليسرى........٥٧٠
تذبح البقر والغنم على جنبها الأيسر موجهة للقبلة مع التسمية والتكبير........٥٧٠
يستحب أن يتولى الإنسان بنفسه نحر وذبح ما يتقرب به إلى الله من أضحية أو هدي........٥٧١
ما يستحب في لحوم الأضاحي........٥٧٣
كل نعمة تتجدد على العبد تحتاج إلى شكر وتوفيق الله العبد للشكر نعمة أيضاً تحتاج إلى شكر........٥٧٤

الإحسان نوعان: إحسان في عبادة الله وإحسان إلى عباد الله ٥٧٧
الفوائد والأحكام ٥٧٨
استحباب الأضحية وأقوال العلماء في حكمها ٥٨١
الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ..﴾ الآيات ٥٨٢-٥٩٩
بشارة ووعد من الله للمؤمنين لا يتخلف بالدفاع عنهم بسبب إيمانهم ٥٨٢
الإذن للمؤمنين بالقتال ٥٨٥
الإذن ينقسم إلى قسمين: إذن كوني وإذن شرعي ٥٨٥
المقصود من الأمر بالقتال إقامة دين الله وشرعه ودفع الظلم عن المسلمين ٥٨٦
متى شرع الجهاد ولِـم شرع؟ ٥٨٨
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم وأعظم وأخص صفات هذه الأمة وهو أعظم واجبات الدين ٥٩٤
لعن الكفار من بني إسرائيل لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحذير من ذلك ٥٩٥
الفوائد والأحكام ٥٩٦
الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ..﴾ الآيات ٦٠٠-٦١١
قصة الغرانيق وأنها باطلة وما قاله العلماء في ذلك ٦٠٢
مرض القلوب نوعان: حسي ومعنوي وهو قسمان: مرض شهوة اتباع الهوى وشهوة الفرج والبطن ومرض شبهة وشك ونفاق ٦٠٦
من هداه الله وأرشده ووفقه للطريق المستقيم في الدنيا هداه إلى الطريق المستقيم في الآخرة ٦٠٩
الفوائد والأحكام ٦١٠
الكلام على قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ..﴾ الآيتين ٦١٢-٦٢٧
مشروعية سجود التلاوة وما يُقال فيه ٦١٣

المجاهدة في الله حق جهاده: بذل الطاقة واستفراغ الوسع في طاعة الله ومحبته ومرضاته بالأنفس والأموال والأقوال والأفعال وللنفس والشيطان وللمنافقين والكفار ٦١٤
لم يجعل الله في الدين الإسلامي أيّ ضيق أو مشقة ولم يكلف المسلمين ما لا يطيقون بل يسر غاية التيسير وتفصيل ذلك ٦١٦
المشقةَ تجلب التيسير والضرورات تبيح المحظورات ٦٢٠
امتنان الله ـ عز وجل ـ على هذه الأمة بفضله وإنعامه عليهم باختيارهم من بين الأمم ورفع الحرج عنهم وهدايتهم إلى ملة أبيهم إبراهيم وتسميتهم المسلمين، والثناء عليهم وشهادة الرسول عليهم وشهادتهم على الناس لأنهم أمة وسط عدول خيار ٦٢١
فهرس تخريج الأحاديث والآثار ٦٣١
فهرس الأشعار ٦٥٧
فهرس أهم الموضوعات ٦٦٣

* * *